١٣

المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور

عبد الحليم محمود

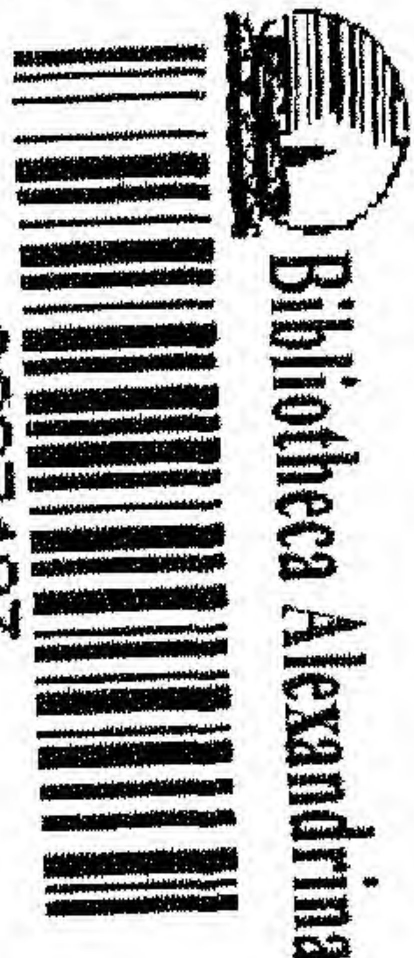
شيخ الأزهر

دلائل النبوة

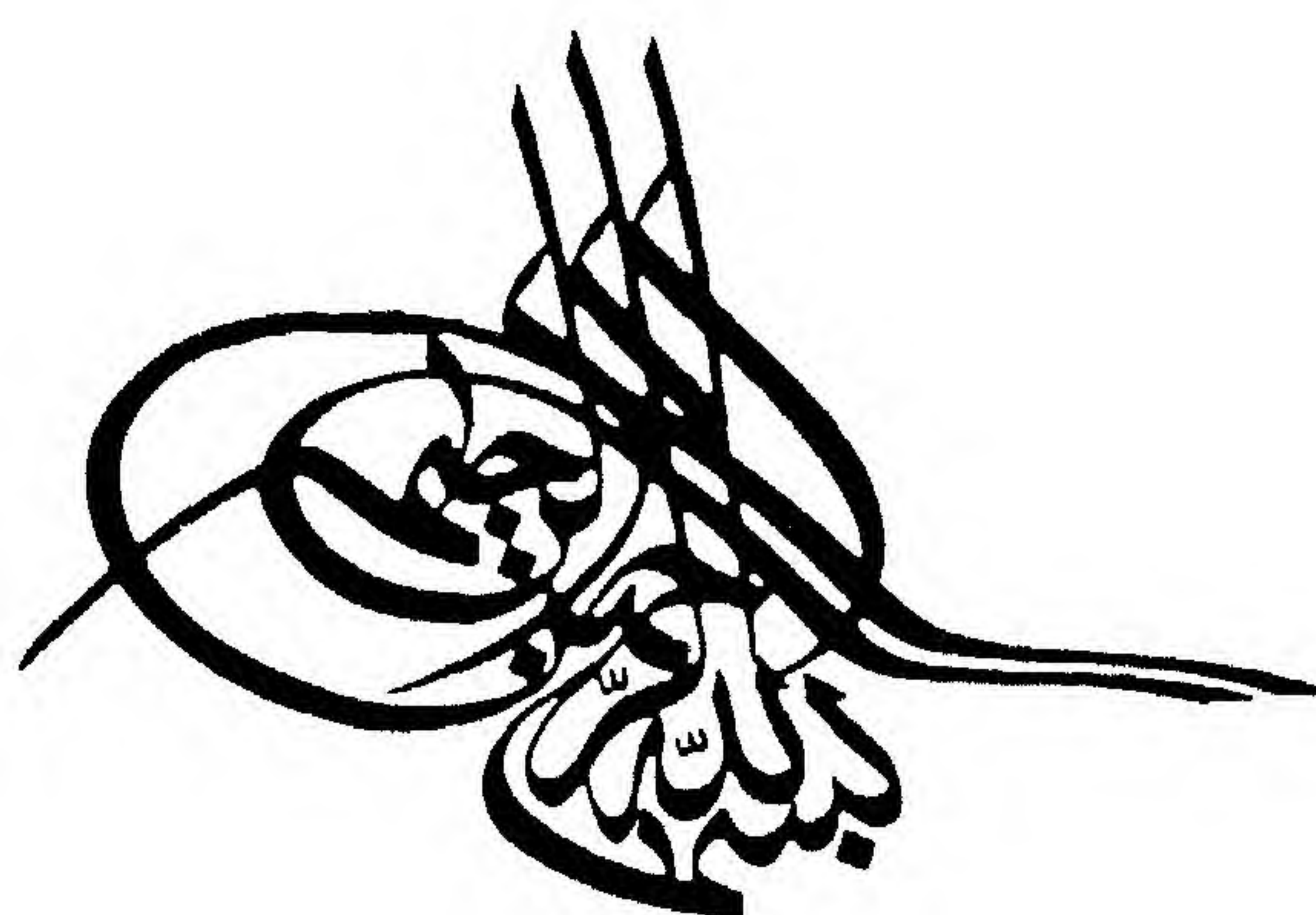
دار الكتاب المصري

دار الكتاب اللبناني

13



دلائل النبوة



دلائل النبوة

ومعجزات الرسول (ص)

للإمام الأكبر

الدكتور عبد الحليم محمود

شيخ الأزهر

الناشرون

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

رقم الإيداع

١٩٩٠ / ٤٨٦٧

I. S. B. N. 977 - 238 - 127 - 3

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج م ع

ت. ٣٩٢٢١٦٨/٣٩٣٤٣١ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)

ص.ب. ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقيا كتامصر

TELEX No 23081 - 23381 - 22181

ATT MR HASSAN EL - ZEIN

FAX (202) 3924657

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

ت: ٨٦١٥٦٣-٨٦٠٧٩٢-٨٦١ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

ص.ب. ٨٣٣٠ / ١١ أو ١١٣٥٣٥٢ - بيروت - لبنان

برقيا راكلبان

TELEX DKL 23715 LE

ATT MISS MAY HASSAN EL - ZEIN

FAX (9611) 351433

الطبعة الأولى

١٤١١هـ - ١٩٩١م

First Edition

1991 A.D — H 1411

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

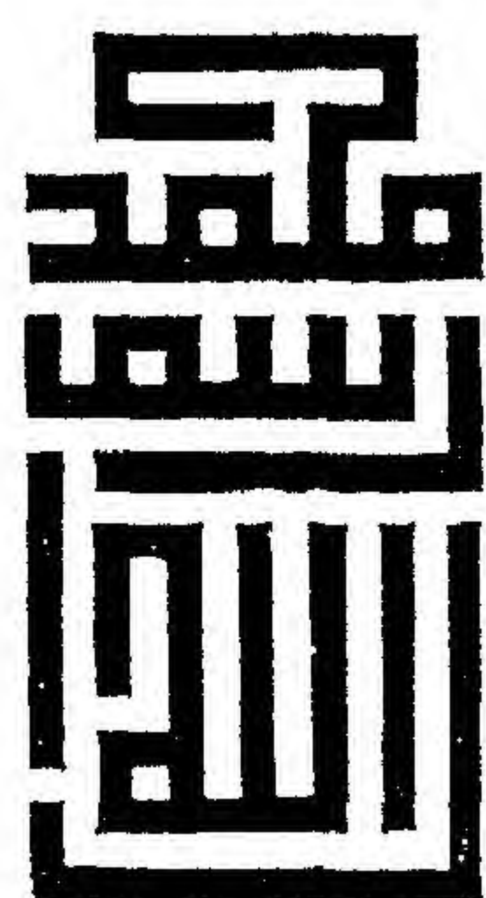
الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاةُ والسلامُ على أشرف الأنبياء والمرسلين صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبِه، والداعينَ بدعوته إلى يوم الدين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾(١).

«صدق الله العظيم»

---

(١) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٨.


محمد
رسول
الله

مقدمة المؤلف

إن مسألة إثبات وجود الله سبحانه وتعالى، ليست مشكلة دينية؛ لأن وجود الله سبحانه مركوز في الفطر الإنسانية. إنه سبحانه، سمّى نفسه الظاهر. إنه ظاهر أينما وجه الإنسان بصره في الآفاق. وهو ظاهر إذا وجّه الإنسان بصره في نفسه. ففي كل شيء له آية:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾(1).

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾(2):

ولابن عطاء الله السكندري في ذلك جمل رائعة. ولأبي الحسن الشاذلي، وأبي العباس المرسى في ذلك أيضاً، آراء في غاية النفاسة، يعبّر عن زاوية منها قول ابن عطاء الله السكندري:

"إلهي كيف يستدلّ عليك، بما هو في وجوده مفتقر إليك؟
أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، فيكون هو المظهر لك؟
متى غبتَ حتى تحتاجَ إلى دليل يدلّ عليك؟
ومتى بَعدتَ حتى تكونَ الآثار هي التي توصل إليك؟"اهـ.

---

(1) فصلت: ٥٣.
(2) الذاريات: ٢١.

والواقع أن محاولة الاستدلال على وجود الله، إنما هي: انحراف في الفطرة، وشذوذ في الطبائع.

أما المسألة الأساسية للدين: فهي البرهنة على صدق النبي ﷺ.

ومن أجل ذلك، كتب أسلافنا رضوان الله عليهم، في هذا الموضوع كثيراً من الكتب تحت عنوان: «دلائل النبوّة». أو «أعلام النبوّة»، أو «الشمائل».

والواقع أن كل كتاب صحيح في رسول الله ﷺ، إنما هو كتاب في دلائل النبوّة. لأنه يصوّر حياة فاضلة لشخصية كاملة: لا يمكن أن تتطرق إليها رذيلة الكذب بأي حال.

وإن من أجمل الكتب في دلائل النبوّة: كتب الصحاح، أمثال صحيح البخاري، وصحيح مسلم. إن فيها من السيرة الطاهرة، ومن المعجزات الحسيّة، ومن أحاديث الأخلاق الكريمة، ما يدل ـ في وضوح لا شائبة للشك فيه ـ على صدق سيّدنا محمد ﷺ. فإذا قرأت أيّ كتاب من كتب الإمام البخاري في صحيحه، فستجد ما يرضيك من ناحية الاطمئنان إلى صدق نبوّة محمد ﷺ.

وقد قسم الإمام البخاري رضي الله عنه، صحيحه، إلى كتب يتعلق واحد منها: بالعلم، وثانٍ: بالإيمان، وثالث: بالصلاة، ورابع: بالزكاة...

تعددت الكتب بحسب الموضوعات التي دار عليها حديث رسول الله ﷺ، وهي أحاديث تحدّد صلة الإنسان بربه، وصلته بأخيه المسلم. إنها تتعلق بالعبادات، وبالمعاملات، وبالمجتمع على وجه العموم، في صورته التي رسمها الله سبحانه، على لسان رسوله ﷺ

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1] .

فإذا ما تدبر الإنسان أيّ كتاب من هذه الكتب، وكان صافي البصيرة لا يغشى قلبه شيء من الران، ولا يتمذهب بمذهب يطمس فطرته، ولا يقول كما قال بعض من سلف: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[2].

فإنه ـ لا شك ـ سيؤمن بأن محمداً ﷺ من لدن الحق سبحانه.

* * *

ونحن لا نعالج الكتابة عن الرسول ﷺ، لأول مرة، كلا. فقد سبق أن اشتركنا في ترجمة كتاب "محمد رسول الله، ﷺ"، واضطررنا في أثناء الترجمة إلى الرجوع باستمرار إلى السيرة، في مختلف كتبها، لنقل النصوص، عن أصولها. ثم ألّفنا كتاب: «الرسول ﷺ: لمحات من حياته، وأضواء من هديه». وهو: لمحات موجزة، وأقباس يسيرة من سيرته المشرقة، صلوات الله وسلامه عليه وألفنا في الإسراء والمعراج.

وكانت قراءاتنا في السنين الأخيرة: تتجه في كثير منها إلى سيرة رسول الله ﷺ. وهذا الكتاب ـ الذي بين يديك ـ أشبه بثمرة لفترات طويلة، قضيتها سعيداً بين كتب الأحاديث وكتب السيرة، ولما كان الموضوع من السعة بحيث لا يستقل به مثلي، فإني أعلن هنا أني أشركت معي آخرين في هذا المؤلف. لقد أشركت معي الإمام البخاري، والإمام مسلم، والإمام البيهقي. وأشركت معي ما كان بين يدي من كتب السيرة، وكتب الشمائل، أو الدلائل وذلك أني قد اغترفت من أسلافنا رضوان الله عليهم، وأخذت في التنسيق والاستنتاج، أو بيان العظمة والعبرة، وفي كثير من الأحيان، تركت هؤلاء الأعلام يعبّرون بأقلامهم

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) الزخرف: ٢٣.

عمّا رأيت أنه الحق، وأنه يعبّر في وضوح لا لَبْس فيه، أو في إشارة لا تخفى على لبيب، عن زاوية من زوايا دلائل النبوّة.

ولقد كان لبعض مَن لم يوفّقهم الله إلى الإسلام من القدماء، لمحات دقيقة في سيرته ﷺ، كان من الممكن أن تؤدي بهم إلى الإيمان... هذه اللمحات ذكرت بعضاً منها. ولقد كتب بعض الغربيين عن الرسول ﷺ. آراء قامت على أساس من الإنصاف، واستندَت إلى أصول من الوثائق الصحيحة... وقد ذكرت بعض ذلك أيضاً. ولقد طوّف معي هذا الكتاب، وطوّفت مراجعه معي في بلاد كثيرة، كنت فيها أتأمل فيه وأفكر في موضوعاته. ولقد تعمدت أن أقلب في مراجعه وفي صفحاته وأخطّ بعض سطوره بجوار الكعبة الشريفة: رجاء أن ينال بعض أنوارها وتعمدت أن أحمله إلى الروضة الشريفة، بجوار حضرة المصطفى ﷺ، رجاء أن يفتح الله ببعض فتوحاته!.

وإني أحمد الله على ما منّ به من توفيق.

وأحمده على مِنحه التي توالت أثناء تأليف هذا الكتاب. وأحب أن أنبّه إلى أن بعض فصول هذا الكتاب، يعتبر كتاباً مستقلاً في دلائل النبوّة. وذلك أني تركت بعض الأبحاث يأخذ مجراه في الاستفاضة، دون الحدّ منها.

ولم أشأ أن أقف مع القارىء في ختام كل فصل، فأنبّه على دلائل النبوّة في هذا الفصل. وكل ما أرجوه من القارىء أن يقف وقفة المتدبّر عند نهاية الفصل، ليرى بنفسه دلائل النبوّة من خلاله، وأرجو الله في ختام هذه المقدمة: أن يكون قد كتب لي التوفيق في هذا الكتاب، وأن يشرح له صدوراً، وأن يهدي به قلوباً، وأن يجعل نفعه عامّاً، إنه سميع قريب مجيب.

الدكتور عبد الحليم محمود

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الأول

عن صورة رسول الله ﷺ

يا مفتح الأبواب افتح لنا خير الباب

- ١ -

يتحدّث القرآن الكريم عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، كثير من سوره.

يقول سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[2].

ويقول سبحانه:

﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ ﴾[3].

لقد كان رسول الله ﷺ، متصلاً بربه صلة عبودية وحب. وكان الله

(١) الأحزاب: ٤٥، ٤٦.
(٢) النساء: ٨٠.
(٣) آل عمران: ٣١.

ـ سبحانه وتعالى ـ متصلاً بالرسول صلة عناية ورعاية وتوفيق.

ومن أجل هذه الصلة، أرشدنا الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى اتخاذ الرسول أسوة، فقال سبحانه:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[1].

بل أمرنا سبحانه أن نأخذ منه ما آتانا، وأن ننتهي عما نهانا عنه، وهددنا إذا لم نلتزم ذلك، فقال سبحانه:

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[2].

ـ ٢ ـ

أما السرّ في ذلك فهو:

١ ـ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه: لا ينطق عن الهوى، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه:

﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[3].

٢ ـ كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في جميع أحواله

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) الحشر: ٧.
(٣) النجم: ١، ٢، ٣، ٤.

ـ حركة وسكوناً، إشارة؛ ونطقاً، قلباً وقالباً ـ يمثّل القرآن الكريم.

وقد كان صلوات الله وسلامه عليه، تطبيقاً للقرآن، لقد لبس القرآن ظاهراً وباطناً، لقد كان قرآناً.

ولقد وصفته السيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ وصفاً دقيقاً حينما سئلت عن خُلُقِه، فقالت:
«كان خُلُقُهُ القرآنَ».

ومَن كان خلقه القرآن، كان أُسوة، وكان قدوة، وكان على خلق عظيم.

ومن هنا وصف الله سبحانه وتعالى له، بقوله:

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

ـ ٣ ـ

والحق أننا حينما نريد أن نكوِّن صورة واضحة، عن رسول الله، صلوات الله وسلامه عليه، فإن الطريق الوحيد لذلك: إنما هو الإحاطة بالقرآن، إحاطة واضحة.

والإحاطة بالقرآن على هذا النسق، ليست من السهولة بمكان:

فالقرآن في كل يوم يفتح عن معانٍ جديدةٍ للإنسانية، ويتفتح عن معانٍ جديدةٍ للشخص المتأمل فيه المتدبر له. وهذه المعاني الجديدة ـ إنسانيةً عامةً، أو فردية شخصية ـ إنما هي إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة.

والمقابل أيضاً صحيح، فإن المتدبّر المتأمّل في الصورة النبوية

(١) القلم: ٤.

الكريمة ـ عن طريق السيرة الصحيحة، والأحاديث المعتمدة ـ يفهم عن الرسول، صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديداً. وهذا الفهم، إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم.

لقد امتزج الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالقرآن ـ كما قدّمنا ـ رُوحاً وقلباً وجسماً، وامتزج القرآن به عقيدةً وأخلاقاً وتشريعاً.

فكان صلوات الله وسلامه عليه: قرآناً يسير في الناس. وكان القرآن روحاً ينتقل، وكان قلباً ينبض، وكان لساناً ينطق بالهدايا والإرشاد.

ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه، حريصاً كل الحرص، على أن يكون خُلُق الأمة الإسلامية... القرآن؛

لقد عمل لذلك طيلة بعثته.

ويحدّثنا القرآن الكريم عن موقف الرسول، صلوات الله وسلامه عليه من الأُمة، فيقول سبحانه:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.

ويتحدث صلوات الله وسلامه عليه، عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول:

«مَثَلي ومَثَلُكم: كمثلِ رجلٍ أوقد ناراً، فجعل الجنادبُ والفِراشُ يقعن فيها، وهو يَذُبُّهن عنها، وأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تفلّتون من يدي»(٢).

---

(١) التوبة: ١٢٨. (٢) رواه أحمد.

هذه هي صلة الرسول ﷺ بربه. وهذه هي صلته بأمته.

لقد ارتفع صلوات الله وسلامه عليه إلى السماء، بل وتجاوزها إلى سدرة المنتهى، ورأى من آيات ربه الكبرى.

ولقد تجاوز سدرة المنتهى، إلى مقام «قَابَ قَوْسَيْنِ» ثم إلى مقام «أَوْ أَدْنَى».

لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى، وتجاوز بذلك النهاية الكونية. لقد كان فعلاً: أدنى من قاب قوسين، فانغمس في الأفق الأعلى، وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به، وهي الصلاة، ثم. . . ثم أشرق في الأرض سراجاً منيراً، رؤوفاً رحيماً: هادياً يدعو إلى الله على بصيرة هو ومَن اتّبعه.

يقول أحد الصالحين:

«صعد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، إلى السماء ثم عاد إلى الأرض. . أقسم بالله، لو صعدت إلى السماء ما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى».

بيد أن الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، نبيّ ورسول، فهو متصل بالله دائماً. . إنه في السماء على الدوام:

إنه «نبي» وهو متصل بالبشر، يؤدي رسالة السماء كاملة غير منقوصة:

إنه «رسول»، ثم إنه على حدّ تعبير القرآن، ﴿ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾(١) فهو ببشريته مع الناس، وهو بسرّه مع الله: إنه مع الناس بإرادة الله

(١) الإسراء: ٩٤.

وتوجيهه وأمره.. إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته.. إنه مع الناس رسول من قبل الله.

وبهذه المعاني كلها يمكننا أن نقول: إنه دائماً مع الله، ويمكننا أن نقول:

إنه ـ منذ اللحظة الأولى للبعثة كان دائماً مع الله سبحانه وتعالى، حتى إنه ليبيت عند ربه، يقول ﷺ:

«لست كهيئتكم: إنني أبيت عند ربّي».

ـ ٤ ـ

بشـــــر رسـول

يقول تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(١).

إنه صلوات الله وسلامه عليه: «بشر» وما يجول في خلد مسلم قطّ أن يخرجه عن البشرية، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه:

«بشر يوحَى إليه».

وما يتأتى قطّ أن يوحِيَ الله إلى بشر، إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور: صفاء نفس، وطهارة قلب، وتزكية روح.

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

ـ ٥ ـ

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن، فتمر عليه الآية الكريمة:

(١) الكهف: ١١٠.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾[1].

يقف عند كلمة: «بشر» فيحاول التركيز عليها، وتوجيه الانتباه كله إليها، وتحويل الأنظار كلها نحوها، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها، ويندفع في هذا الاتجاه المنحرف، اندفاعاً لا يتناسب قطّ مع قوله تعالى: ﴿ يُوحى إليَّ ﴾ بل إنه ـ في اندفاعته الهوجاء ـ ينسى ﴿ يوحَى إليّ ﴾ ويهملها إهمالاً.

إنه ليس بنادر في العصر الحاضر، أن يجرؤ بعض النـاس، فيتحدّث عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وعن خطئه ـ معاذ الله ـ في الرأي، وعن إصابته فيه، ويسير هذا البعض ـ في حديثه ـ أو كتابته ـ مستنتجاً ومستنبطاً وحاكماً وينسى في كل ذلك.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[2].

وينسى في كل ذلك:

﴿ يوحَى إليّ ﴾.. وينسى: ﴿ لستُ كهيئتكم ﴾.. وينسى:

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾[3].

وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة، كلها صحيحة: بعضها رفيق رحيم، وبعضها عادل حاسم، وأن الله سبحانه وتعالى، قد بيّن للأمة الإسلامية أن رسوله صلوات الله وسلامه عليه ـ هو على صواب دائماً ـ إنما يتخذ الحلّ الذي يتناسب مع ما حلّاه الله به من الرأفة وما فطره عليه سبحانه من الرحمة، وهو الحلّ الذي يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام:

(١) الكهف: ١١٠.

(٢) النجم: ٣.

(٣) النور: ٦٣.

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

والله ـ سبحانه ـ ببيانه ذلك في هذه المواضع، التي كان من الممكن أن يقف فيها الرسول صلوات الله وسلامه عليه، مع الحسم الشديد، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة ـ إن الله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك ـ إنما يمدح الرسول صلوات الله وسلامه؛ ويبيّن أن منزع الرحمة، إنما هو الغالب عليه؛ فإنه صلوات الله وسلامه عليه ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾[2].

ولم يلغ الله سبحانه اتجاهاً عامّاً سار فيه الرسول، ولم ينقض قضية كلية أقرّها، صلوات الله وسلامه عليه، ولم ينفِ مبدأً أثبته رسوله، فما كان صلوات الله وسلامه عليه، يسير إلا على هدى من ربه، وعلى بصيرة من أمره، وقد شهد الله له بذلك حيث قال:

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ . . . ﴾[3].

وما فعل الله في كل ما تمسك به المنحرفون، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، وأنه ـ كما وصفه سبحانه ـ: على خُلقٍ عظيم.

والبون: شاسع بين هذه التوجيهات الربانية، وبين التحدّث عن خطأ وصواب، وأوضاع بشرية يركّز عليها ولا يلتفت لسواها ـ ولنضرب لذلك مثلاً:

إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيراً، عن قوله تعالى:

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) التوبة: ١٢٨.

(٣) الشورى: ٥٢، ٥٣.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ؟ ﴾[1]. ويقذفون بضلالهم مباشرة: فيقولون:

إن العفو لا يكون إلا عن خطأ.

ولهؤلاء نقول:

إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير، ومنها قولهم مثلاً: غفر الله لك، لما تشقُّ على نفسك كل هذه المشقّة؟

عفا الله عنك. لِمَ تُعنِّي نفسك في سبيل هؤلاء؟ وكأن القائل يقول:

رضي الله عنك، لِمَ ترهق نفسك كل هذا الإرهاق؟
إن الآية القرآنية من هذا الوادي.

وضم هذه الآية الكريمة إلى أختها التي في سورة النور:
﴿ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾[2].

تجد المعنى واضحاً جليّاً، وهو أن الله سبحانه، فوّض الأمر لنبيّه، صلوات الله وسلامه عليه، في أن يأذن لهم أو لا يأذن.

ليس النبيّ إذن معاتباً بهذه الآية ـ وحاشاه ـ بل كان ﷺ مخيّراً، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لعقدوا، ولتخلفوا بسبب نفاقهم، وأنه ـ مع ذلك ـ لا حرج عليه في الإذن لهم. إنها آية مدح للرسول غاية في الرقة...

ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قَلب رحيم.

---

(١) التوبة: ٤٣.
(٢) النور: ٦٢.

وعن هذا القلب الرحيم، وعن هذه الرحمة الفيّاضة، كان الرسول صلوات الله وسلامه عليه، يصدر في أحكامه، وما كان في ذلك إلا متناسقاً مع قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

وهكذا الأمر في كل ما يماري فيه الممارون.

- ٦ -

ومع ذلك، فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً في الفرق بين مَن يركّز على «بشر» ومن يركّز على «يُوحَى إليّ» لأهميته الكبرى، فنقصّ القصة التالية، ذات المغزى العميق.

والقصة يرويها ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه، في شرحه لقصيدة وليّ الله: (أبو مدين) رضي الله عنه، يقول:

زار بعض السلاطين، ضريح أبي يزيد رضي الله عنه - وقال:
هل هنا أحد ممّن اجتمع بأبي يزيد؟
فأشير إلى شيخ كبير في السن، كان حاضراً هناك.
فقال له: هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد؟
فقال: نعم، سمعته قال: (مَن رآني لا تحرقه النار).
فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال:

كيف يقول أبو يزيد ذلك، وأبو جهل رأى النبي ﷺ وتحرقه النار؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم يرَ النبيّ ﷺ، إنما رأى (يتيم أبي طالب)، ولو رآه - ﷺ - لم تحرقه النار.

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

ففهم السلطان كلامه، وأعجبه هذا الجواب منه، أي أنه لم يره بالتعظيم والإكرام والأُسوة، واعتقاد أنه رسول الله... ولو رآه بهذا المعنى، لم تحرقه النار، لكنه رآه باستخفاف، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب) فلم تنفعه تلك الرؤية.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبي يزيد رضي الله عنه، وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان، من أن أبا جهل لم يرَ النبيّ ﷺ، وإنما رأى (يتيم أبي طالب).

هذه النظرة، نظرة أبي جهل، هي التي نريد أن يتنزه المؤمنون عنها.

والمؤمنون ـ بحمد الله ـ لا يقعون في الإثم متعمدين، وإنما يتسلّل هذا الإثم إلى بعض النفوس في صورة لا شعورية، عندما يركّز بعضهم على بشرية الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وكأنه لا شيء فيه غير البشرية.

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية، ويركّزون عليها ـ يعتبرون أنفسهم تَقَدميين متطورين، وفاتهم أن هذه النظرة إنما هي النظرة التي يتبناها المستشرقون والمبشّرون في العصر الحاضر؛ ليقلّلوا من شأن الرسول في نظر مواطنيهم.

وما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في ذلك زعيمهم الأكبر ـ في هذه النزعة ـ وهو أبو جهل.

وكلّ مَن يركّز على بشرية الرسول من الكتّاب المسلمين، إنما هو بذلك يتابع المستشرقين والمبشّرين في هذه النزعة، أو يتابع أبا جهل.

وهم في كل ذلك ـ ليسوا تقدميين ولا متطورين، وإنما هم من

الرجعيين، حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل ثلاثة عشر قرناً مضت، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله، وأبو الظلمة القلبية كلها!!! أبو جهل. . .

ليس هناك إذن اجتهاد وخطأ وصواب، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة، فيتحدث الله مبيّناً طبيعة رسوله الكريمة، وفطرته الرحيمة، ورأفته الواضحة، ويبيّن في الوقت نفسه:

أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة، ليسوا جديرين بها، وليسوا أهلاً لها، لفساد فطرهم وسوء نواياهم.

ومن الحقائق المعروفة أن الإنسان يميل إلى التركيز على: «بشر» أو على «يوحَى إليّ» حسب قوة شعوره الديني وضعفه؛ فالذي لا إيمان له لا يرى إلا البشرية، ومَن ضعف إيمانه يركّز على البشرية. . ويخفّ التركيز على البشرية كلما قوِيَ الإيمان، ويزداد التركيز على: (يوحَى إليَّ) كلما ازداد الإيمان، حتى يصل الإنسان إلى ألاّ يرى - أو لا يكاد يرى - إلاّ «يُوحَى إليّ».

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله:

وهناك إذن طرفان يمثّلان فريقين من الناس: طرف يتمثل «بشراً» أو «قل: إنما أنا بشر مثلكم».

وطرف يتمثل: «يوحَى إلى» أو (رَسُولاً) وبين الطرفين يتأرجح إيمان المسلمين نزولاً وارتفاعاً: انخفاضاً وسموّاً.

فإن مقياس الإيمان قوة وضعفاً - مقياس درجة الإيمان، الذي لا يخطىء - إنما هو ما وقر في القلب أو غلب عليه من «البشرية» أو من «يوحَى إليّ» إنهما يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان:

دع ما ادّعته النصارى في نبيّهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحْتكِم

- ٧ -

ولعلك تتساءل الآن عن هذا الذي لا يرى - أو لا يكاد يرى - إلا «يوحَى إليّ»، ماذا يرى؟ وكيف يرى؟

ما هي النظرة التي تنأى بنا عن «يتيم أبي طالب» لتقربنا من: «الأسوة»؟

كيف ينبغي أن تكون نظرة المؤمن لرسول الله صلوات الله عليه وسلامه؟

والواقع أن الصورة الكاملة عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، يلزم لها أن يصل الإنسان إلى مستواه صلوات الله وسلامه عليه، أو إلى ما يقرب من مستواه، وذلك لا يتأتى.

بيد أنه إذا استحال ذلك - فإنه من الميسور أن نورد بعض الصور عنه ﷺ.

منها صُورَتَانِ: إحداهما جاهلية، والأخرى إسلامية. وكلتاهما لسيّدنا عمر، رضي الله عنه.

أما الصورة الأولى: فإنها «يتيم أبي طالب» كان سيّدنا عمر، يراها قبل أن يهديه الله للإسلام. وأراد عمر أن يقتل «يتيم أبي طالب» حتى لا تتفرق كلمة القرشيين بسببه، ولكن دعاء رسول الله له:

«اللّهمّ أعِزَّ الإسلامَ بأحَبِّ هذين الرجلين إليك: بعمرو بن هشام، أو بعمر بن الخطاب» كانت قد استجيبت لخير سيّدنا عمر، فهداه الله للإسلام، ولازم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فناله من بركاته ومن خيره، ما هيأه لأن يكون الخليفة الثاني للأمة الإسلامية أجمع، وأن يعزّ الله الإسلام به: في حياة الرسول ﷺ، وبعد وفاته.

إن سيّدنا عمر هذا الذي لم يكن للشيطان عليه من سبيل، والذي كان إذا سلك طريقاً سلك الشيطان طريقاً آخر: خشية منه أو رهبة، والذي نزل القرآن أحياناً مصدّقاً لما رآه ـ إن سيّدنا عمر صاحب: «يا سارية الجبل» ـ يرسم لنا صورة إسلامية لسيّده وحبيبه وصديقه ونبيّه ورسوله ﷺ.

ولكن هذه الصورة: هي صورة سيّدنا عمر، إنها تتناسب مع مستوى سيّدنا عمر وهو من غير شك عظيم.

ماذا كان يمكن أن يقول سيّدنا أبو بكر رضوان الله عليه؟ وماذا كان يمكن أن يقول سيّدنا عليّ رضي الله عنه؟ وماذا كان يمكن أن يكون وصف سيّدنا جبريل لو وصفه؟

إن الله سبحانه وتعالى يقول عن نبيّه، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1].

وما كانت كلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها: «كان خلقه القرآن» إلا تفسيراً لما أشارت إليه الآية القرآنية الكريمة. أيمكنك أن تتصور المدى الذي تبلغه الآية الكريمة، وتفسير السيدة عائشة لها؟

أيتأتى لك أن تحيط بالقرآن؟ أستغفر الله وأتوب إليه.

ولنعد إلى الصورة التي رسمها صاحب: «يا سارية الجبل»، لنعد إليها، لنثبتها شارحين لبعض حوادثها، موضّحين لبعض أنبائها. وسنجعل الإيضاح بين أقواس.

بعد موت رسول الله ﷺ، سُمع سيّدنا عمر يبكي ويقول:

---

(١) القلم: ٤.

«بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد كان جذع تخطب الناس عليه، فما كثر الناس اتخذت منبراً لتسمعهم، فَحَنَّ الجذع لفراقك... حتى جعلت يدك عليه فسكن، فأمتك كانت أولى بالحنين إليك لمّا فارقتها»..

يروي البخاري ومسلم، وكتب السنّة كلها تقريباً وكتب السيرة، حادث حنين الجذع، بعدة روايات ـ وننقل هنا إحدى روايات البخاري:

«عن ابن عمر رضي الله عنهما. قال: كان النبي ﷺ، يخطب إلى جذع، فلما اتخذ المنبر تحوّل إليه، فَحَنَّ الجذع، فأتاه فمسح يده عليه».

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن جعل طاعتك طاعته، فقال عزّ وجل:

﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ (١).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن بعثك آخر الأنبياء، وذكرك في أولهم، فقال عزّ وجل:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٢).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد بلغ من فضيلتك عنده: أن أهل النار يودّون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون.

﴿ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ (٣).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لئن كان موسى بن عمران أعطاه الله حجراً تتفجر منه الأنهار، فماذا؟ أي فليس ذلك ـ بأعجب من أصابعك

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) الأحزاب: ٧.

(٣) الأحزاب: ٦٦.

حين نبع الماء منها.

صلّى الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

إن نبع الماء من بين أصابعه الشريفة، صلوات الله وسلامه عليه، لم يحدث مرة واحدة، وإنما حدث عدة مرات، كما روى البخاري ومسلم وغيرهما من كتب السنّة، وروته كتب السيرة بروايات عدة، في ظروف مختلفة، مما يدل على كثرة حدوثه.

وننقل هنا إحدى روايات البخاري:

«عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما: عطش الناس يوم الحديبية، والنبيّ ﷺ، بين يديه ركوة، فتوضأ فجهش الناس، فأسرعوا وتكاثروا نحوه. فقال: ما لكم؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك. فوضع يده في الركوة، فجعل الماء يثور بين أصابعه، كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا» قلت: كم كنتم؟

قال: (لو كنّا مائة ألف لكفانا!! كنّا خمس عشرة مائة).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! لئن كان سليمان بن داود أعطاه الله الريح غُدُوّها شهر ورواحُهَا شهر، فماذا بأعجب من البراقِ حين سرَيَت عليه إلى السماء السابعة، ثم صلّيت الصبح من ليلتك بالأبطح!!.

صلى الله عليك...

(سنتحدث في فصل خاص، عن الإسراء والمعراج، إن شاء الله تعالى).

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! لئن كان عيسى بن مريم قد أعطاه الله، إحياء الموتى، فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلّمتك وهي مشويّة، فقالت لك الذراع: لا تأكلني فإني مسمومة.

يروي ابن سعد في طبقاته:

«أخبر سعيد بن محمد الثقفي، عن محمد بن عمر، عن أبي سلمة قال: كان رسول الله ﷺ، لا يأكل الصدقة، ويأكل الهدية، فأهدت إليه يهودية شاة مَصْلِيَّة[1]، فأكل رسول الله ﷺ منها هو وأصحابه، فقالت: إني مسمومة، فقال لأصحابه: ارفعوا أيديكم، فإنها قد أخبرت أنها مسمومة.

قال: فرفعوا أيديهم، قال: فمات بشر بن البراء، فأرسل إليها الرسول ﷺ فقال: ما حملك على ما صنعت؟؟

فقالت: أردت أن أعلم إن كنت نبيّاً لم يضرّك، وإن كنت مِلكاً أرحتُ الناسَ منك، قال: فأمر بها فقتلت»اهـ.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! لقد دعا نوح على قومه فقال: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾[2].

ولو دعوت علينا بمثلها لهلكنا كلنا: **فلقد وُطِىءَ ظهرُك[3]، وأدْمِيَ وجهك، وكُسِرت رباعيتُك، فأبيتَ أن تقول إلا خيراً، فقلت:**

«اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

(لقد دمي وجهه صلوات الله وسلامه عليه وكسرت رباعيته في غزوة أُحُد).. روى ذلك البخاري ومسلم.

أما حديث: «اللّهمّ اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون» فقد رواه

---

(١) مصليّة: مشويّة.

(٢) نوح: ٢٦.

(٣) تروي كتب السيرة: أن عقبة بن أبي معيط، وطىء على رقبته الشريفة وهو ساجد عند الكعبة، حتى كادت عيناه تبرزان.

البيهقي في دلائل النبوّة.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله!! لقد اتبعك في قلة سنّك، وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنّه، وطول عمره ولقد آمن بك الكثير، وما آمن معه إلّا القليل.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لو لم تجالس إلا كفئاً لك ما جالستنا، ولو لم تنكح إلا كفئاً لك ما نكحت إلينا. ولو لم تواكل إلا كفئاً لك ما آكلتنا. فقد والله، جالستنا، ونكحت إلينا، وآكلتنا، ولبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض تواضعاً منك ﷺ.

هذه صورة!

* * *

ومن الطريف أن نذكر **صورة أخرى** استنتاجية، استنتجها رجل لم يكن يعرف الرسول صلواته وسلامه عليه، ولكنه رجل واسع الأفق، رحب الخيال، دقيق التفكير.

وقد اتخذ الاحتياط اللازم حتى لا يشوب الصورة أيّ مطعن. هذا الرجل هو: (هرقل).

أتاه كتاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، يدعوه إلى الإسلام فلم يهمل الكتاب، ولم يمزقه. وإنما قرأه في عناية وانتباه، ثم أراد أن يُكَوِّنَ صورة صحيحة عن صاحب الخطاب، فسأل عمّا إذا كان بالمدينة بعض العرب الذين يعرفون الرسول؟ فقيل له: إن بالمدينة تجاراً من مكة يعرفون محمداً، باعتباره من مواطنيهم؛ فأمر بإحضارهم، وكان منهم أبو سفيان، وسأل هرقل عن أقربهم نسباً إلى الرسول، فكان أبا سفيان، فقرّبه منه وأدناه، وقال لهم: إني سائله عن أمور، فإن كَذَبَني فكذِّبوه:

يقول أبو سفيان: فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً، لكذبت عليه.

وسنترك المقدمات والأسئلة الأولى لأنها واضحة من النتائج التي انتهى إليها هرقل.

إن هرقل ـ بعد أن انتهى من الأسئلة ـ بدأ عن طريق الترجمان، يقول لأبي سفيان، على مشهد من الملأ الحاضر من أصحاب هرقل؛ ومن أصحاب أبي سفيان:

«سألتك عن نسبه: فذكرت أنه فيكم ذو نسب.

وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

وسألتك «هل قال أحد منكم هذا القول»؟

فذكرت أن: لا.

فقلت؛ لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت: رجل يأتي بقول قيل قبله.

فذكرت أن: لا.

قلت: لو كان من آبائه من ملك، قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فذكرت أن: لا.

فقد أعرف أنه لم يكن ليذَرَ الكذبَ على الناس ويكذبَ على الله!

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

فذكرت: أن ضعفاءهم اتبعوه.

وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟

فذكرت: أنهم يزيدون.

وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن دخل فيه؟

فذكرت أن: لا.

وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتُه القلوبَ.

وسألتك: هل يغدر؟

فذكرت أن: لا.

وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بِمَ يأمركم؟

فذكرت: أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة. والصدق. والعفاف فإن كان ما تقول حقاً؛ فسيملك موضعَ قدَمي هاتين.

وقد كنتُ أعلم أنه خارج... لم أكن أظن أنه منكم. فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه. ولو كنت عنده لغسلت قدميه...».

هذه الصورة التي كَوَّنها هرقل بمنطقه، يمكن أن يكوّنها أو يكوّن مثيلاتٍ لها كل إنسان اتّسع أُفُقه، ورحُبَ تفكيره.

وكل إنسان يصدق الله والحق، لا بد أن ينتهي إلى ما انتهى إليه هرقل من قوله:

«لو كنت عنده لغسلت عن قدميه».

وإنما يغسل عن قدميه، من أجل: «يوحَى إليّ».

إذ أن مَن اصطفاه الله لرسالته، جدير بأن يكون أهلاً لذلك.

بيد أن هذه النهاية التي انتهى إليها هرقل، إنما هي الشعار الدائم

الذي لا ينتهي بانتقال الرسول إلى الملإ الأعلى.

فالرسول حيّ بيننا الآن: برسالته وهديه وتعاليمه. والغَسلُ عن قدميه الآن ـ أو بتعبير آخر: احترامه ـ إنما هو باتّباع هديه، والتزام رسالته، وتقديره تقديراً يتناسب مع اصطفاء الله له، ﷺ.

ولقد ركّز هرقل نوعاً ما، على الصدق والإخلاص.

والواقع أن صورة الصدق والإخلاص كان يراهما كل من عرف الرسول ﷺ، ولم تُعْمِه عصبية، أو حسد، أو هوىً.

على أن صورة الصدق والإخلاص، كانت سمةً من السمات التي اتّصف بها الرسول قبل بعثه، وبعد بعثه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لقد لازمته طيلة حياته. ولقد كان مجرد الخبر يُلقِيه صلوات الله وسلامه عليه، يأخذه أعدى أعدائه، على أنه واقع لا محالة.

فهذا أميّة بن خلف ـ عدوٌّ لدود ـ يتلاحى مع سعد بن معاذ رضي الله عنه، يريد أن يمنعه من الطواف بالكعبة، فيقول له سعد بن معاذ في حدّة المناقشة:

لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه قاتلك، ويضطرب قلب أُمية بن خلف، ويسأل في لهفة وضعف وتخاذل: أهو قال ذلك حقاً؟

فلما أكّد له سعد بن معاذ الخبر سُقِطَ في يده، وقال: لئن كان قال ذلك، لقد صدق.

وقتل أُمية بن خلف يوم بدر.

على أن هذه الصورة تتمثل في وضوح بَيِّنٍ، حينما أعلن رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه، إلى قريش نبوّته، فقال لهم:

«أرَأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً وراء هذا الوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونني»؟

لقد كانت إجابتهم عن هذا السؤال تعبّر عن الحقيقة التي لمسوها فيه.. لقد قالوا:

«نعم أنت عندنا غير متّهم. وما جرَّبنَا عليك كذباً قطّ».

وصورة أخرى:

صورة لم يرتب لها ترتيب مُرَوًّى ولم يؤدّ إليها منطق مُحْكَم... صورة لم تكن نتيجة عِشرة طويلة، ولا رفقة قريبة، وإنما جاءت على البديهة، وأوحت بها الملاحظة السليمة.

إنها الصورة التي كوّنتها عنه صلوات الله وسلامه عليه، أُم معبد الخزاعية.. وهي صورة لا تخصّ الجانب المعنوي منه، وإنما تتصل - على الأخص - بالجانب الظاهر. وأردنا أن نثبتها هنا؛ لنثبت بها هيئةً وظاهراً، بعد أن أثبتنا زوايا من المعنويات، وجوانب من التقدير والإجلال.

إن الصورة التي نثبتها الآن مجرد وصف.

إنها تعبير عن ملاحظة.

هاجر رسولُ الله صلوات الله وسلامه عليه، من مكة إلى المدينة، يرافقه أبو بكر رضي الله عنه، وعامرُ بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد اللّه بن أريقط.

مرّوا بخيمة أُم معبد الخزاعية، وكانت امرأة قوية الأخلاق، عفيفة، تقابل الرجال، فتتحدث إليهم وتستضيفهم. وسألها الرّكب عن تمر أو لحم يشترونه، فلم يصيبوا عندها شيئاً من ذلك، فقد كانت سَنَةً

من السنين العجاف؛ فقالت لهم:

والله، لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرَى. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في ركن الخيمة فقال:

«ما هذه الشاة يا أُم معبد»؟

قالت: هذه شاة خلفها التعب عن الغنم.

فقال صلوات الله وسلامه عليه: «هل بها من لبن»؟

فقالت: هي أجهد من ذلك.

قال: «أتأذنين أن أحْلُبَهَا»؟

قالت: نعم بأبي أنت وأُمي، إن رأيت بها حَلَباً.

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة فمسح ضرعها، وذكر اسم الله وقال: «اللّهمّ بارك لها في شاتها».

فامتلأ ضرع الشاة، ودَرَّ لبنها، فدعا بإناء لها كبير، فحلب فيه حتى ملأه، فسقى أُم معبد فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رَوُوا، وشرب ﷺ آخرهم وقال:

«ساقي القوم آخرهم».

فشربوا جميعاً مرة بعد مرة.

ثم حلب فيه ثانية عوداً على بدء، فغادروه عندها، وارتحلوا عنها. فما لبثت أن جاء زوجها يسوق أعنزاً عجافاً هَزْلَى، فلما رأى اللبن عجب واستغرب وقال:

من أين لكم هذا ولا حَلُوبة في البيت؟

قالت: لا والله، إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك: كان من حديثه كيت وكيت.

قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي يُطْلَب؛ صِفِيه لي يا أُم معبد!.

قالت: رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة، متبلج (مشرق) الوجه، حَسَن الخلق، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن) ولم تُزْرِ به صَعلة (لم يشنه صغر الرأس) وسيمٌ قسيمٌ، في عينيه دعجٌ، وفي أشفاره وَطَف (طويل شعر الأجفان)، وفي صوته صحل (رخيم الصوت) أحور أكحل، أزجّ أقرن[1] شديد سواد الشعر، في عنقه سطح، (ارتفاع وطول) وفي لحيته كثافة إذا صَمَت فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأنَّ منطقه خزرات نظم يتحدرْن. حلو المنطق فصل لا نَزْر ولا هذر (لا عَيَّ فيه، ولا ثرثرة في كلامه) أجهر الناس وأجملهم من بعيد، وأحلاهم وأحسنهم من قريب: ربْعة (وسط ما بين الطول والقصر) لا تشنؤه (لا تبغضه) من طول ولا تقتحمه عين (لا تحتقره) من قصر؛ غصن بين غصنين، أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً؛ له رفقاء يحفُون به: إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره؛ محفود (يسرع أصحابه في طاعته) محشود (يحتشد الناس حوله) لا عابث ولا مفتد (غير مخرف في الكلام).

قال أبو معبد:

هذا والله، صاحب قريش الذي ذكر لنا من أمره ما ذكر، ولو كنت وافقته يا أُم معبد، لتلمست أن أصحبه، ولأفعلنّ إن وجدت لذلـك سبيلاً.

هذه هي الصورة التي حاولت أُم معبد رسمها.

وتكملة لهذه الصورة ـ صورة أُم معبد ـ نذكر أن كتب السيرة تذكر أنه:

---

(١) زج الحاجب: دقّ في طول فهو أزج، والأقرن: من التقى طرفا حاجبيه.

«أصبح صوت بمكة عالياً، يسمعون الصوت ولا يرون مَن هو صاحبه، يقول:

جزى اللَّهُ رب الناس خير جزائه رفيقين حَلاَّ خيمتَيْ أُمِّ معبد
هما نزلاها بالهُدى واهتدت به فقد فاز مَن أمسى رفيق محمد
فيا لَقُرَيش ما روى الله عنكم به من فَخارٍ لا يُبارَى وسؤدَدِ
ليَهْنِ بني كعب مقامُ فتاتهم ومقعدها للمؤمنين بمَرْصد
سَلوا أُختكم عن شاتها وإنائها فإنكمُ إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح دَرة الشاة مُزبد

ووصل الخبر إلى حسان، فقال: يجاوب الهاتف:

فغادرها رهنا لديها لحالب يرِدِّدُها في مَصْدرٍ ثم مَوْرِدِ
لقد خابَ قوم غاب عنهم نبيُّهم وقُدِّس من يسرى إليهم ويغتدى
تَرَحَّلَ عن قوم فضلت عقولهم وحلّ على قوم بنورٍ مُجدِّد
هداهم به بعد الضلالة ربُّهم وأرشدهم، مَن يَتْبع الحق يَرشُدِ
وهل يستوى ضُلالُ قوم تسفهوا عمىً وهداة يهتدون بمُهتَدِ؟
لقد نزلت منه على أهل يثربٍ ركاب هدىً حلّت عليهم بأسعُد
نبيٌّ يرى ما لا يرى الناس حوله ويتلو كتاب الله في كل مسجد
وإن قال في يوم مقالة غائب فتصديقها في اليوم أوفى ضحى الغد
ليَهْنِ أبا بكر سعادة جَدِّه بصحبته من يُسعد الله يَسْعَدِ

وصورة أخرى:

أما سيّدنا عمرو بن العاص؛ فإنه يقول - في صراحة وصدق - عندما حضرته الوفاة، وعندما تذكر الماضي فخنقته العبرات، وتحدّث مع ابنه عن أشياء عدة في صورة مؤثرة:-

«ما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلّ في عيني منه،

وما كنت أطيق أن أملأ عيني إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقت: لأني لم أكن أملأ عيني منه».

* * *

وإذا كانت هذه صور عن رسول الله ﷺ في الماضي فإنه لا يخلو من الفائدة الهامة أن نذكر صورة لشخص غربي منصف مشهور هو صاحب كتاب: (سوانح وخواطر) وهو الكونت هنري دي كاسترو.

قال الكونت:

«لسنا نحتاج في إثبات صدق النبي محمد إلى أكثر من إثبات أنه كان موقناً في نفسه بصدق رسالته، وما الغرض من رسالته إلا إقامة عبادة إلٓه واحد، مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته في ابتداء ظهوره.

لما كانت نفس ذلك النبيّ، مفطورة على التشبّع بالدين، تكيّف هذا المذهب في وجدانه، حتى صار عقيدة لم تصل إليها نفس قبله، وهو ذلك الاعتقاد المتين الذي أحدث انقلاباً كليّاً في النوع البشري!!.

كان محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ لا يقرأ ولا يكتب، بل كان كما وصف نفسه مراراً:

نبيّاً أميّاً. وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه.

فلم يقرأ كتاباً ولم يسترشد في دينه بمرشد متقدّم عليه.

فقط نعلم أنه مرّت به متاعب كثيرة، وقاسى آلاماً نفسية كبرى؛ لأن الله خلقه ذا نفس تمحضت للدين.

من أجل ذلك، احتاج للعزلة عن الناس، لكي يهرب من الأوثان ومن مذهب تعدّد الآلهة. وكان هذان المذهبان أشبه بإبرة تَخِزُهُ في جسمه (صلوات الله وسلامه عليه)، ولكي ينفرد بما أنزل عليه من توحيد

الله اعتكف في غار حِراء.

العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات (القرآن) عن رجل أُميّ، وهي آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها: لفظاً ومعنىً؛ آيات لَمَّا سمعها عتبة بن ربيعة حارَ في جمالها. وفاضت عين نجاشي الحبشة بالدموع، لَمَّا تلا عليه جعفر بن أبي طالب سورة (مريم) وما جاء في (يحيىٰ).

فلما كان اليوم الثاني، أشار عليه بتلاوة ما في القرآن عن المسيح، ففعل. واستغرب الملك لما سمع أن المسيح عبدُ الله ورسولُه وروح منه، ثم تناول قضيباً دقيقاً كان أمامه وقال لجعفر:

إن الفرق بين ما سمعنا منك الآن، وبين ما تقوله ديانتنا عنه، لا يزيد عن سمك هذا القضيب.

وأقول: قد قَوِي ذلك القضيب، فمنع الحبشة من الإسلام، وجعلها مسيحية إلى الآن».

من الصعب أن يظن الإنسان: الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير، كيف، وهي فصاحة تصدر بغير ضعف أبداً! وتتجدّد رفيعة معجزة أبداً: يقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء فهي أبداً أبداً... فصاحة إلٰهية.

أتى محمد بالقرآن دليلاً على صدق رسالته، وهذا القرآن لا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ سرّاً من الأسرار التي لا يقدر أحد على فكّ طلاسمها، ولم يسبرَ سرّها المكنون، إلا مَن صدق بأنه منزل من عند الله: سواء توصلنا إلى معرفة الوحي وحقيقته، أم لا.

لا ينكر أحد أن مظهر محمد كان مظهر نبوّة بالفعل لأن النبوّة ـ من

حيث هي - عبارة عن قيام رجل من الناس بأمر ربه، وأن يعتقد أن ما يقوله من عند ربه حق. فمحمد «ﷺ» يعتقد أن روحاً من الله استولت على لبّه، فلم يعتقد أن له فكراً خاصاً، بل إنه أُوتِيَهُ من عند ربه، واختفت في نظره ذاتيته.

ومن الصعب أن تقف على معرفة سماعه للصوت الإلٓهي: هل كان في الحلم، أو في غيبته عن عالم التصورات؟

والصدق حاصل على كل حال.

كانت الانفعالات تظهر على وجهه بادية، فظن بعض الوثنيين أن به جِنة، وهو ظنٌّ باطل؛ لأنه بدأ رسالته بعد الأربعين، ولم يشاهد عليه قبل ذلك أيُّ اختلال في الجسم، ولا أدنى ضعف في القوة المادية.

وليس في الناسِ من عرفَ الناسُ جميع أحواله - في حياته كلها - مثلِ النبيّ محمد «ﷺ» فقد وصل المحدِّثون عنه إلى أنهم كانوا يَعُدون الشّعر الأبيض في لحيته، ولو أنه كان مريضاً لما خفي مرضه (ولا أمكن أن تكون له تلك الآثار الباهرة) فليست حالة محمد - في انفعالاته وتأثيراته - حالة ذي جنة:

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين للكتاب.

نعم، نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض مواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة، إذ لا عجب إذا تشابهت تلك الكتب في بعض المواضع، وبخاصة إذا لاحظنا أن القرآن جاء متمّماً، كما جاء النبي خاتماً، ولا سيما أن نفس محمد كانت متأثرةً بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بني إسرائيل. وكان يعبد الله الذي يعبدونه، فلا عجب إذا تشابهت ألفاظ التصرفات، وتجانست أصوات الدعاة. . .

ما كان محمد يميل إلى الزخارف، ولم يكن مستكبراً ولا شحيحاً، بل كان يستدرّ اللبن من نعاجه بنفسه، ويجلس على التراب.

وكان قنوعاً. . . خرج من هذه الدار ولم يشبع من خبز الشعير مرة في عمره. ولم تكن له حاشية. ولم يتخذ وزيراً ولا حشماً: قد احتقر المال وهو بالغ من السلطان منتهاه. ولم يكن له من علامة الملك سوى قضيب.

أتى محمد ـ ﷺ ـ فهدم الوثنية بعزم واحد طوال الحياة، ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد. وإيمانه كان حقاً ثابتاً على الدوام: لم تفتر حميته. فقد انتهى كما بدأ: لم يرغب طوال حياته في المال، بل كان كلما جمع إليه شيء منه أنفقه في الصدقات.

ولقد أعطى عائشة زوجته مالاً يسيراً لتحفظه، فلما حضره المرض، أمر بإنفاقه على المعوزين لساعته. فلما وزّع عليهم قال: «الآن استراح قلبي؛ لأني كنت أخشى أن أُلاقيَ ربي وأنا أملك هذا المال».

ولقد خطب في أُمته قائلاً: .

«أيها الذين يسمعون قولي: إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهري، وإن كنت أسأت سُمعة أحد فلينتقم من سُمعتي، وإن كنت سلبت أحداً مالَهُ فدونه مالي، وهو في حلٍّ من غضبي، فإن الغِلَّ بعيد عن قلبي»اهـ.

* * *

وحينما أورد المرحوم الشيخ الدجوي هذه الصورة، التي ذكرناها، في مجلة الأزهر، قال في نهايتها انتهى كلام هذا المنصف الكبير.

وإذا كنّا قد ذكرنا بعض آراء المستشرقين في العصر الحديث، فإن

للدكتور زكي مبارك رحمه الله كلمة هي من باب الإجمال الموجز في موضوع إعجاز القرآن، وهي كلمة رائعة، جزى الله كاتبها خيراً.

إذ يقول:

وأيُّ أنسٍ أعظم مَن شغل النفس بتلك الأقباس الروحانية، التي بثّها نبيُّ الإسلامِ في أرجاء الوجود؟.

إن ذلك الروح القهّار، روح الرجل، الذي اتهمه معاصروه بالشعر والسحر والجنون. . .

إن ذلك الروح، هـو شعلة أبديـة؛ ستظلّ ـ ما بقيت الأرض والسماء ـ فتنة للعقول والقلوب.

وسيأتي زمان يرتاب فيه الناس في مكانة محمد بن عبد اللَّه من التاريخ.

وسيقول قوم: إن شمائل ذلك الرجل، أقوى وأخطر من أن يسمح بمثلها الوجود. . .

وسيقولون:

إنه لم يكن إلّا رمزاً تمثّل به الناس، كيف تكون مكارم الأخلاق!

إي والله، سيقـولون ذلـك، فلنسبقهم نحن بهذا القـول، مع الاعتراف بأنه عرف هذه الدنيا، وشهد هذا الوجود.

وأيّ غرابة في أن يخلق الله رجالاً يمثلون العظمة الروحـانية ويظلون على الدهر مضرب الأمثال؟

وقد كان حظ النبيّ محمد أوفى الحظوظ بين الرُّسل والأنبياء؛ فكل نبيّ قامت من حوله الأساطير، وصوّرت شمائله بألوان صيغ أكثرها من الخيال.

أما النبيّ محمد، فحجته الباقية هي القرآن، وهو كتاب لم يُضَف إليه سطر واحد بعد موت ذلك الرسول.

فهو من الوثائق التاريخية التي يستحيل أن يكون لها مثيل.

وإلى من نوجّه هذا القول؟

أتروننا ندافع عن ذلك الكتاب المجيد؟

ومَن عسى أن يكون أعداء ذلك الكتاب؟

وهل كان الملحدون إلا ناساً سخفاء. طاشت حلومهم، وظنوا الزيغ من البراقع التي تستر الغباوة والجهل!!

ومن العجب أن نرى بين أعداء القرآن مَن يُعجب بشعر أبي نواس، ويراه صالحاً لأن يوضع في الميزان مع أكبر شعراء اليونان!!

فأين شعر أبي نواس ـ كله ـ من آية واحدة ستظل أُعجوبة البيان، في جميع الأزمان؟!

وما أدرى ـ والله ـ كيف يعقل مَن يهذي بمثل هذا القول، إلا أن يكون السخف صار من علائم التفوّق في هذا الزمن الرقيع!

إن أعداء القرآن لا يعادونه عن عقل، وكيف يعقل مَن يعادي البدر المشرق، والجبل الركين؟

إنها نزوات تطوف برءوس الممرورين الجبناء، الذين توهموا أنه لم يبق للإسلام أوس ولا خزرج، وأن الوادي خلا من الأسد الغضاب.. ألا ساء ما يتوهمون.

ومع ذلك سيذهب الملحدون مع الذاهبين. وإن بقيت لهم ذكرى، فستكون صورة من صور إبليس، فإن تعلّلوا بأن الشهرة مغنم عظيم، فليتذكروا أن إبليس سيظل أشهر منهم، وإن قضوا طوال الأعمار

في خدمة الإفك والضلال.

سيقول السفهاء من الناس: وما دخل هذا الكلام في مقدمة كتاب المدائح النبويّة؟

ونجيب: بأننا نصوّر حالة من أحوال هذا الزمان، فنحن لم نخلق أعداء نحاربهم، وإنما نحارب أعداء نراهم رأي العين؛ وهم - والله - أحقر من أن نعرض لهم بنقد أو ملام، ولكن حقارتهم لا تمنع المؤمن من وخز صدورهم بلواذع النقد والهجاء، فقديماً كان الشيطان الرجيم ملعوناً بألسنة المؤمنين.

وما الذي يمنع من حرب الزور والبهتان؟

إن التورّع عن لحوم الآثمين، ليس إلا ضرباً من الجبن، وبفضله استنسر البغاث؛ وصار للآثمين أشياع وأحزاب.

ومن العجب في مصر: بلد العجائب، أن تحيا الغيرة على الأطلال، وتموت الغيرة على الحقائق.

فلو انتهبَ حجر من أحجار الكرنك، لكان انتهابه نكبة وطنية، وكان الصراخ لضياعه عملاً يُثاب عليه مَن يُحسِن البكاء والعويل.

أما زعزعة الإيمان في هذا البلد، فهي أقل خطراً من سقوط حجر أثري تحرسه وزارة الأشغال؛ لأن رعاية الآثار بدعة عصرية يعرفها الأوربيون والأمريكان.

أما رعاية العقائد، فسنّة قديمة. سحب عليها الدهر ذيل النسيان.

وما أقول هذا تعصباً للدين - وهو تعصب شريف - وإنما أقوله تعصباً لحقيقة أدبية تغار عليها الأذواق، فليس الثقافة أن نعرف أوهام المشرق والمغرب، وإنما الثقافة أن نعرف ما يجب أن يُعْرَف.

وقد آن أن يفهم الغافلون: أن الأمة التي يحفظ أطْفالُها القرآن ـ هي أهدى من أمثال الأمة التي يحفظ أطفالها أقاصيص لافونتين.

وما أقول هذه الحقيقة وحدي. وإنما يعرفها خلق كثير، لا يصدّهم عن الجهر بها إلا الخوف من الاتهام بالتعصّب والرجعية. وهو اتهام لا أُقيم له أيّ وزن، لأن حزب الشيطان أضعف من أن يُحسب له حساب.

وقرّائي من غير المسلمين، لا يسيئهم هذا القول؛ فليس القرآن ملكاً للمسلمين، وإنما هو ملك للإنسانية جمعاء»اهـ.

* * *

والآن، نريد أن نتساءل: ما هي الصورة التي نريد ـ بعون من الله ـ أن نرسمها في هذا الكتاب؟

نحب أن نقول: إن هذه الصورة التي نحاول رسمها، ليست صورة مبتدعة ولا مخترعة. إنها صورة نحاول ـ جاهدين ـ أن تكون مستمدة من التاريخ الصحيح.

بيد أننا نعود فنقول:

إننا لا نرسم صورة كاملة. فالصورة الكاملة لا يتأتى لمثلنا أن يرسمها. ونحن هنا إنما نحاول رسم جملة من الزوايا: شاعرين بتقصيرنا، معترفين بعجزنا. ولكن أملنا كبير في أن تكون هذه الصورة باعثة لتصحيح بعض الأوضاع، وأن تكون ـ على ما فيها من عجز وقصور ـ ممثلة لبعض ما نكنّه لسيد ولد آدم: من حب وإيمان، وأن تكون بذلك شفيعة لنا عند الله «يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون. إلَّا مَن أتَى اللَّهَ بقلبٍ سليم».

ومع هذه الزوايا التي نحاول رسمها، فإنه لا يعزب قطّ عن بالنا،

قول إمامنا البوصيري رضي الله عنه، عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه، هذه الأبيات التي تعبّر عن الحقيقة تعْبيراً صادقاً:

أعيا الورى فهمُ معناه فليس يُرَى　　للقربِ والبعد فيه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بُعدٍ　　صغيرةً وتكِلُّ الطرفَ من أمم
وكيف يدرك في الدنيا حقيقتَه　　قومٌ نيامٌ تسلَّوْا عنه بالحلم؟
فمبلغ العلم فيه أنه بشر　　وأنه خير خلق الله كلهم

* * *

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الثاني

دلائل النبوة في نسبه ﷺ



دلائل النبوّة
في
النســـــب الشــريف

يقول ابن خلدون، في حديثه عن علامات الأنبياء:

«ومن علاماتهم أيضاً: أن يكونوا ذوي حسب في قومهم.

وفي الصحيح:

«ما بعث الله نبيّاً إلا في مَنَعَةٍ من قومه»..

وفي رواية أخرى: في ثروة من قومه..

وفي مساءلة هرقل لأبي سفيان، كما هو في الصحيح، قال:

كيف هو فيكم؟

قال أبو سفيان: هو فينا ذو حسب..

فقال هرقل: فكذلك الرسل تُبعث في أحساب قومها..

ومعناه: أن تكون له عصبية وشوكة تمنعه من أذى الكفّار، حتى يبلغ رسالة ربه، ويتمّ مراد الله من إكمال دينه وملّته.

ولا يتأتى أن نتحدث عن نسب رسول الله ﷺ ـ منذ آدم، أو منذ إسماعيل ـ عليهما السلام ـ فالحديث في هذا، لا يتصل بالتاريخ الموثوق به كل الثقة.

وإذا أردنا أن نتبين ـ عن قرب ـ نسب رسول الله ﷺ ـ فإنه يمكننا أن نبدأ بقُصَي. .

لقد كان قصيٌّ ـ كما يقول ابن كثير ـ في قومه: سيداً رئيساً، مطاعاً معظّماً، جمع قريشاً(١) من متفرقات مواضعهم من جـزيرة العـرب، واستعان بمَن أطاعه من أحياء العرب على حرب خزاعة، وإجلائهم عن البيت، وتسليمه إلى قصيّ، فكان بينهم قتال كثير ودماء غزيرة. . ثم تداعَوْا إلى التحكيم، فتحاكموا إلى يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة، فحكم بأن قصيّاً أولى بالبيت من خزاعة، وأن كل دمٍ أصابه قصيٌّ من خزاعة وبني بكر، موضوع يَشْدخه تحت قدميه، وأنّ ما أصابته خزاعة وبنو بكر من قريش وكنانة وقضاعة، ففيه الديّة مؤداة، وأن يُخلى بين قصيّ وبين مكة والكعبة. .

ومما يروى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنه قال:

«كان قصيّ بن كلاب أول ولد كعب بن لؤي، أصاب ملكاً انقاد له به قومه، فكان شريف أهل مكة، لا ينازع فيها. . فابتنى دار الندوة، وجعل بابها إلى البيت، ففيها يكون أمر قريش كله، وما أرادوا من نكاح أو حرب أو مشورة فيما ينوبهم، حتى إن كانت الجارية تبلغ أن تُدَرّع فما يُشق درعها إلا فيها(٢)، ثم يُنْطَلَقُ بها إلى أهلها، ولا يعقدون لواء حرب لهم، ولا في قوم غيرهم، إلا في دار الندوة: يعقده لهم قصيّ، ولا يُعذر (يختن) لهم غلام إلا في دار الندوة، ولا تخرج عِيْر من قريش فيرحلون، إلا منها، ولا يقدمون ـ إلا نزلوا فيها تشريفاً له، وتيمناً برأيه، ومعرفة بفضله. . ويتبعون أمره. . . كالدين المتبع: لا يعمل بغيره في حياته

---

(١) التقرّش: التجمّع. وبه سمّيت قريش، ليجمعها حول قصي.
(٢) تدرع: تلبس القميص، والمراد يشق الدرع أن تزفّ إلى زوجها.

وبعد موتـه. . وكانت إليـه الحجابـة[1]، والسقايـة[2]، والرفـادة[3]، واللواء[4]، والندوة[5]، وحكم مكة كله، وكان يعشر[6] مَنْ دخل مكة سوى أهلها.

قال: وإنما سمّيت: دار الندوة؛ لأن قريشاً كانوا ينتدون فيها ـ أي يجتمعون للخير والشر. . والنديُّ: مجمع القوم إذا اجتمعوا[7]. .

وقسَّم قصيّ مكة أحياء، وخصّص كل قوم من قريش بحيّ. وضاقت مكة بأهلها. وكانت كثيرة الشجر في الحرم، وكانت قريش تهاب قطع الشجر بالحرم، فـأمرهم قصيّ بقـطعه، وقـال: إنما تقـطعونـه لمنازلكم، ولخططكم: بَهْلَةُ[8] الله على مَنْ أراد فساداً، وقطع هو بيده وأعوانه، فقطعت ـ حينئذ ـ قريش، وسمّته، «مجمعاً». «لما جُمِع من أمرها وتيمنت به وبأمره.

وفرض قصيّ على قريش السقاية والرفادة، فقال:

«يا معشر قريش، إنكم جيران الله، وأهل بيته، وأهل الحرم وإن الحاج ضيفان الله، وزوّار بيته، وهم أحقّ الضيف بالكرامة، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، حتى يصدروا عنكم، ففعلوا. فكانوا يخرجون ذلك كل عام من أموالهم خرجاً، يترافدون[9] ذلك فيدفعونه إليه، فيصنع

---

(١) سدانة البيت.

(٢) سقيا الحجيج.

(٣) إطعام الحجيج.

(٤) راية الحرب.

(٥) مكان الشورى ومجلسها.

(٦) يأخذ منهم العشر لصرفه في المصالح العامة.

(٧) طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٠.

(٨) أي لعنة.

(٩) يترافدون ذلك: يخرجون ويتعاونون عليه.

الطعام للناس أيام منى وبمكة، ويصنع حياضاً للماء من أدم[1]، فيستقى فيها بمكة ومنى وعرفة.. فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على قومه؛ حتى قام الإسلام، ثم جروا في الإسلام على ذلك..

وحينما مات قصي. قالت ابنته تخمر في رثائه:

طـرق النَّعي بعيـد نـوم الهُجَّـدِ   فنعـى قصيّـاً ذا النـدى والسؤدد
فـنعى المهـذبَ من لُـؤَيًّ كلهـا   فـانهلَّ دمعي كـالجُمـان[2] المفـرد
فـأرِقْـتُ مـن حـزن وهـم داخـل   أرق السليم[3] لـوجـده المتفقـد[4]

عبـــد مناف

روى هشام بن محمد، قال:

لما هلَك قصيّ بن كلاب، قام عبد مناف بن قصيّ على أمر قصيٍّ بعده.

ومما يذكر بالنسبة لآل عبد مناف: أن رسول الله ـ ﷺ، اقتصر عليهم حين أنزل الله تعالى:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾[5]..

فإنه حينما نزلت هذه الآية الكريمة، واجتمعت عليه بنو مناف، تلبية لندائه، قال لهم:

«إن الله قد أمرني أن أُنذِرَ عشريتي الأقربين، وأنتم الأقربون من قريش. وإني لا أملك لكم من الله حظاً، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن

---

(١) أدم: جلد.
(٢) الجمان: اللؤلؤ.
(٣) السليم: اللديغ.
(٤) طبقات ابن سعد جـ١ ص٥٣.
(٥) الشعراء: ٢١٤.

تقولوا: «لا إله إلّا الله»، فأشهد بها لكم عند ربكم، وتدين لكم بها العرب، وتذلّ لكم بها العجم».

هاشم

وولد عبد مناف بن قصيّ ستة نفر، وست نسوة، كان من بينهم هاشم بن عبد مناف، واسمه عمرو، وهو الذي عقد الحلف لقريش مع هرقل، من أجل أن تختلف إلى الشام آمنة مطمئنة..

وهاشم هو صاحب: إيلاف قريش.
وإيلاف قريش: هو دأبها وعادتها..

لقد كان هو أول مَن سنّ الرحلتين لقريش، يرحل إحداهما في الشتاء إلى اليمن؛ وإلى الحبشة، إلى النجاشي فيكرمه ويهديه الهدايا.. ورحلة الصيف إلى الشام وإلى غزة، وربما بلغ أنقرة، فيدخل على قيصر، فيكرمه ويهديه الهدايا..

ثم أصابت قريشاً سنوات جدب عِجاف، ذهبن بالأموال، فخرج هاشم إلى الشام، فأتى منها بدقيق كثير، فخبز له بمكة، فهشم ذلك الخبز - يعني كسره وثرده -، ونحر تلك الأبل، ثم أمر الطهاة فطبخوا، وقدّم الطعام لأهل مكة فأشبعهم، وكان ذلك الحيا بعد السنة التي أصابتهم. فسمّي بذلك هاشماً[1] - وفي ذلك يقول عبد اللّه بن الزبعرى:
عمرو العُلاَ هشم الثريدَ لقومه ورجالُ مكة مُسنتون[2] عجاف[3]

وقال وهب بن عبد قصيّ في ذلك:

---

(١) من طبقات ابن سعد.
(٢) مجدبون.
(٣) نحاف.

تحمــل هــاشــم مــا ضــاق عنــه وأعيــا أن يقــوم بــه ابــن بيض[1]
أتــاهم بــالغــرائــر مُتْــأقــاتٍ[2] من أرض الشام بـالبُـرِّ النقيضِ[3]
فــأوســعَ أهــل مكــةَ من هشيــمٍ وشـاب الخبز بـاللحم الغريضِ[4]

وكان هاشم رجلاً شريفاً، طموحاً ذكيّاً، ولم يكن يرضيه قطّ أن يستأثر بنو عبد الدار بمناصب الشرف في مكة، من الحجابة واللواء والرفادة والسقاية والندوة ـ فحمل اللواء ضد بني عبد الـدار، وتهيأ الفريقان وأحلافهم للقتال، وعبأت كل قبيلة لقبيلة. ثم سعى الناس بينهم للصلح، وأصلحوا يومئذ على أن يُوَلى: هاشمُ بن عبد مناف السقاية والرفادة.. وكان هاشم رجلاً عريض الثراء، وكان إذا حضر الحج قام في قريش فقال:

«يا معشر قريش، إنكم جيران الله وأهل بيته، وإنه يأتيكم في هذا الموسم زوّار الله، يعظّمون حُرمة بيته، فهم ضيف الله، وأحقّ الضيف بالكرامة ضيفه، وقد خصّكم الله بذلك، وأكرمكم به، وحفظ منكم أفضل ما حفظ جار من جاره، فأكرموا ضيفه وزوّاره..».

وكان هاشم يأمر بحياض من أدم، فتُجعل في موضع زمزم، ثم يستقى فيها الماء من البئار التي بمكة، فيشربه الحاج.. وكان يطعمهم ـ أول ما يطعم ـ قبل التروية بيوم بمكة، وبمنى وجمع وعرفة.. وكان يثرد لهم الخبز واللحم والسمن، والسويق والتمر، ويَحْمِلُ لهم الماء، فيسقون بمنى ـ والماء يومئذ قليل ـ في حياض الأدم، إلى أن يصدروا من

(١) هكذا بالأصل.
(٢) متأقات: مملوءات.
(٣) البر النقيض: المنقّى.
(٤) شابه باللحم الغريض: خلطه باللحم الطري ـ طبقات ابن سعد جـ ١ ص ٥٥ ـ ٥٦.

مِنى، فتقطعَ الضيافةُ، ويتفرّق الناس إلى بلادهم.

وتكملة للصورة عن هاشم، نذكر ملخصاً لما أورده الماوردي، في «أعلام النبوّة» عنه، قال:

«وكان اسمه عمْرو، فسمى هاشماً، لأنه أوّل من هشم الثريد لقومه بمكة، في سنة لزبة مَحلة رحل فيها إلى فلسطين، فاشترى منها الدقيق وقدم به إلى مكة، ونحر الجزر، وجعل من ذلك ثريداً قدَّمه لأهل مكة».

وهاشم أول مَن سنَّ الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء، ورحلة الصيف كما ذكرنا. وأراد أمية بن عبد شمس، أن يتشبّه بهاشم في ضيفه فعجز عنه، فشمت به ناس كثير من قريش، ونشبت العداوة بين أمية وهاشم. وأراد أمية منافرته، فكره هاشم ذلك لنسبه وقدره، فلم تدعه قريش حتى نافره إلى الكاهن الخزاعي، في خمسين ناقة سود الحدق: ينحرها ببطن مكة، والجلاء من مكة عشر سنين، فنفر الخزاعي هاشماً، وقال لأمية. تُنافر رجلاً هو أطول منك قامة، وأعظم هامة، وأحسن منك وَسَامة، وأقلّ منك لامَة، وأكثر منك ولداً، وأجزل منك صفداً؟!.

فقال أمية: من انتكاث الزمان أن جعلناك حكماً.

فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعمها من حضره. وخرج أمية إلى الشام، فأقام بها[1] عشر سنين.

فكانت هذه أوّل عداوة وقعت بين هاشم وأمية. وملك هاشم الرفادة والسقاية، واستقرت له الرياسة، وصارت قريش له تابعة تنقاد لأمره، وتعمل برأيه، وتنافرت قريش وخزاعة إليه، فخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة، فقال في خطبته:

---

(١) أعلام النبوّة لأبي الحسن الماوردي ص ١٢٤.

أيها الناس، نحن آل إبراهيم، وذريّة إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي بن كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم.

لنا ذروة الحسب، ومعدن المجد، ولكل في كُل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم.

يا بني قصيّ، أنتم كغصني شجرة، أيّهما كسر أوحش صاحبه، والسيف لا يُصان إلا بغمده، ورامى العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج، أخرجه إلى البغي.

أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كنز، والجود سؤدد، والجهل سفه، والأيام دُوَل، والدهر غِيَر، والمرء منسوب إلى فعله، ومأخوذ بعمله.. فاصنعوا المعروف، تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم، وحاموا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا من أنفسكم يوثَقْ بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأخلاق الدنيئة، فإنها تضع الشرف، وتهدم المجد.

ألا وإن نهنهة الجاهل أهون من جريرته، ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمَن انتفع به..

فقالت قريش: رضينا بك أبا نضلة وهي كنيته.

فانظروا إلى ما أمر به من شريف الأخلاق، ونهى عنه من مساوىء الأفعال.

هل صدر إلا من غزارة فضل، وجلالة قدر وعلو همّة؟ وما ذاك إلّا لاصطفاء يراد، وذكر يُشاد، لأن توالى ذلك في الآباء يوجب تناهيه في الأبناء.

ومات هاشم بغزة من أرض الشام[1]:

عبـــــد المطلب

وولد هاشم بن عبد مناف أربعة نفر، كان منهم شيبة الحمد، وهو: عبد المطلب، ولم يولد عبد المطلب بمكة، وإنما ولد بالمدينة، وذلك أنَّ هاشماً خرج في عِير لقريش فيها تجارات، وكان طريقهم على المدينة، فنزلوا بسوق النبط، فصادفوا سوقاً تقوم بها في السنة يحشدون لها، فباعوا واشتروا، ونظروا إلى امرأة على موضع مشرف من السوق، فإذا هي امرأة تأمر بما يُشترى ويُباع لها. فرأى هاشم فيها امرأة حاذقة جلدة مع جمال، فسأل عنها، أأيّم هي أم ذات زوج؟ فقيل له: أيِّم: كانت تحت أحَيحة بن الجُلاح، فولدت له عمر ومعبداً، ثم فارقها. وكانت لا تنكح الرجال - لشرفها في قومها - حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقته. وهي سلمى بنت عمرو بن زيد بن لبيد خداش بن عامر بن غنم بن عديّ بن النجار، فخطبها هاشم، فعرفت شرفه ونسبه، فزوّجته نفسها ودخل بها، وصنع طعاماً، ودعا مَن هناك من أصحاب العِيْر الذين كانوا معه، وكانوا أربعين رجلاً من قريش، فيهم رجال من بني عبد مناف ومخزوم وسهم. ودعا من الخزرج رجالاً، وأقام بأصحابه أياماً. وعلقت سلمى بعبد المطلب فولدته وفي رأسه شيبة، فسمى شيبة.

وخرج هاشم في أصحابه إلى الشام حتى غزة: فاشتكى، فأقاموا عليه حتى مات، فدفنوه بغزة، ورجعوا بترِكته إلى ولده[2].

وقدم ثابت بن المنذر بن حرام - وهو أبو حسّان بن ثابت الشاعر -

(١) أعلام النبوّة لأبي الحسن الماوردي ص ١٢٤ - ١٢٥.
(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٥٨ - ٥٩.

مكة معتمراً فلقي المطلب، وكان له خليلاً، فقال له:

لو رأيت ابن أخيك شيبة فينا لرأيت جمالاً وهيبة وشرفاً؛ لقد نظرت إليه وهو يناضل[١] فتياناً من أخواله فيُدخل مِرْماتيه[٢] جميعاً في مثل راحتي هذه ويقول كلما خَسَق[٣]:

أنا ابن عَمْرو العُلا[٤].

فقال المطلب: لا أمْسى حتى أخرج إليه فأقدم به، فقال ثابت:

ما أرى سلمى تدفعه إليك ولا أخوالَه، هم أضمَن به من ذلك، وما عليك أن تدعه، فيكون في كفالتهم حتى يكون هو الذي يقدُم عليك إلى هاهنا، راغباً فيك.

فقال المطلب: يا أبا أوس، ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه.. وسِطَته[٥] ونسبه وشرفه في قومه ما قد علمت. فخرج المطلب فورد المدينة، فنزل في ناحية، وجعل يسأل عنه، حتى وجده يرمي في فتيان من أخواله، فلما رآه عرف شبه أبيه فيه، ففاضت عيناه، وضمّه إليه وكساه حلّة يمانية[٦].

فأرسلت سلمى إلى المطلب فدعتْه إلى النزول عليها.

فقال: شأني أخفّ من ذلك، ما أريد أن أحُلَّ عقدة حتى أقبضَ ابن أخي، وألحقه ببلده وقومه.

---

(١) يناضل فتياناً: يباريهم في رمي السهام.
(٢) مرماتية: مثنى والمفرد مرماة. وهو سهم صغير ضعيف.
(٣) خسق: أصاب الهدف.
(٤) يقول ذلك من التيه على إخوانه ومن الفخر بعد أن يصيب المرمى.
(٥) سطته: مكانته الوسطى بين قومه.
(٦) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٦٢.

فقالت: لست بمُرْسِلَتِهِ.. وغَلُظَت عليه.

فقال المطلب: لا تفعلي، فإني غيرُ منصرف، حتى أخرج به معي.. ابن أخي قد بلغ وهو غريب في قومه، ونحن أهل بيت شرف، والمقام ببلده خير له من المقام هاهنا، وهو ابنك حيث كان. فلما رأت أنه غير مقصر، حتى يخرج به استنظرته ثلاثة أيام، وتحوّل إليهم، فنزل عندهم فأقام ثلاثاً، ثم احتمله، وانطلقا جميعاً. ودخل به عبد المطلب مكة ظهراً، فقالت قريش: هذا عبد المطلب:

فقال: ويْحكم، إنما هو ابن أخي شيبة بن عمرو، فلما رأوه، قالوا: ابنه لعمري.

فلم يزل عبد المطلب مقيماً بمكة حتى أدرك، وخرج المطلب بن عبد مناف تاجراً إلى أرض اليمن، فهلك بِرَدْمان من أرض اليمن؛ فَوُلِّيَ عبدُ المطلب بن هاشم بعده الرفادةَ والسقاية، فلم يزل ذلك بيده: يطعم الحاج ويسقيهم في حياض من أدم بمكة، فلما سُقيَ زمزم، ترك السقي في الحياض بمكة، وسقاهم من زمزم حين حَفَرَها.

وكان يحمل الماء من زمزم إلى عرَفة فيسقيهم[1].

وكانت زمزم سقيا من الله:

لقد أتى عبد المطلب آياتٍ في المنام مرات، فأمره بحفرها، ووصف له موضعها فقال له:

أحفرُ طيبة.. قال: وما طيبة؟

فلما كان الغد أتاه، فقال احفُر برّة. قال: وما برة؟

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ٦٣.

فلما كان الغد أتاه ـ وهو نائم في مضجعه ذلك، فقال: احفر المضنونة. قال: المضنونة؟ أبِنْ لي ما تقول؟

فلما كان الغد أتاه، فقال: احفر زمزم.

قال: وما زمزم؟

قال: لا تنزح ولا تزم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم.

فلما عين موضعها، غدا عبد المطلب بمعوله ومسحاته، وحفر هو وابنه الحارث حتى وصل إلى الماء، فكانت: زمزم.

وكان عبد المطلب من حكماء العرب، ومن حكام قريش. وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، كالمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة[1]؛

ويصف المؤرخون عبد المطلب، فيقولون:

«كان أحسن قريش وجهاً، وأمدّه جسماً، وأحلمه حلماً، وأجوده كفّاً، وأبعد الناس من كل موبقة تفسد الرجال، لم يره ملك قطّ إلا أكرمه وشفعه، وكان سيد قريش حتى مات»[2].

عبـــــد اللّٰه

أما عبد اللّٰه، والد الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فقد كان صورة طبق الأصل من جدّه. ولو أمهله الزمن لتولى مناصب الشرف التي

(١) التمهيد للشيخ مصطفى عبد الرازق.
(٢) طبقات ابن سعد.

كانت بيد عبد المطلب، وكان شعاره الذي التزمه طيلة حياته، ما عبّر عنه هو بقوله:

«أمّا الحرام فالممات دونـه».

وتقول له فاطمة الخثعمية: «إني لأعرف فيك نسك أبيك».

* * *

وإذا نظرنا ـ إذن ـ إلى رسول الله ﷺ، من ناحية والده وأسلافه، ومن ناحية والدته وأخواله، فإننا نجدهم ـ خلقاً وعراقة أصل ـ من أشرف بيوت العرب وأكرمها وأسماها بشهادة المؤرخين جميعاً ـ فكان صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يقول ابن هشام ـ:

«أوسط قومه نسباً، وأعظمهم شرفاً من قبل أبيه وأمه».

ويقول إمامنا البوصيري رضي الله عنه في همزيته:

لم تـزل في ضمـائـر الكـون تُخْتَـا ... رُ لـك الأمـهـاتُ والآبـاءُ

ويقول في بردته:

أبـان مـولـدُه عن طيب عنصـره ... يـا طـيبَ مبتَـدَإٍ مـنـه ومختتم

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:

«بعثتُ من خير قرون بنى آدم قرناً بعد قرن، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه».

ويقول صلوات الله وسلامه عليه، فيما رواه الإمام مسلم:

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم: إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة: قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

ولقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم».

وعن حذيفة: أنه ذكر مضر في كلام له فقال:

إن منكم سيد ولد آدم، يعني النبي ﷺ.

وكل هذه الأخبار في كونه ﷺ، خير الناس، صحيحة، إذا نظرنا إلى نسبه ﷺ. وهي صحيحة إذا نظرنا إلى مكانته وسنرى ذلك في الفصول التالية.

وهو صلوات الله وسلامه عليه: محمد بن عبد اللّٰه، ابن عبد المطلب ابن هاشم، ابن عبد مناف بن قصيّ:

أما ختام هذا الفصل، فهو هذه الكلمات الرائعة الجميلة، التي وردت في كتاب: أعلام النبوّة.

فكانت إلهاماً مشرقاً، وحكمة عميقة، في تفسير نهاية هذا النسب الكريم إلى النبيّ المصطفى ﷺ:

«لم يشركْه في ولادته من أبويه أخٌ، ولا أُختٌ؛ لانتهاء صفوتِهما؛ وقصور نسبهما عليه، ليكون مختصّاً بنسبٍ جعله الله تعالى للنبوّة غايةً؛ ولتفرّده بها آية، فيزولَ عنه أن يشارَكَ فيه ويُمَاثَلَ به، فلذلك مات أبواه عنه في صغره!!

فأما أبو عبد اللّٰه فمات عنه، وهو حمل.

وأما آمنة فماتت وهو ابن ست سنين»(١).

---

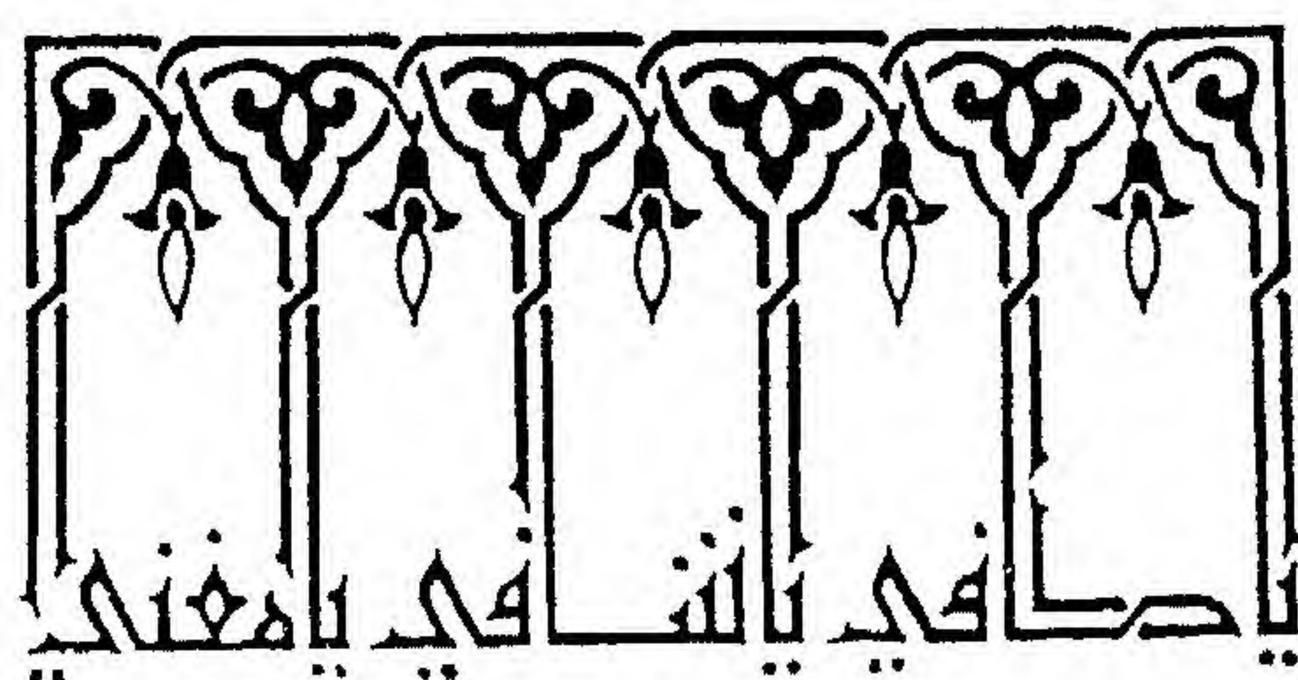
(١) أعلام النبوّة لأبي الحسن الماوردي ص ١٣٣.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الثالث

دلائل النبوة قبل البعثة



دلائل النبوّة
فـي
أخـــــلاقه ﷺ قبل البعثة

شق الصدر:

هذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه، منذ الطفولة المبكرة.

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ـ إذ ذاك ـ في بادية بني سعد، عند مرضعته. وبينما هو يلعب مع الغلمان ـ على ما يروي الإمام مسلم ـ أتاه جبريل، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه، فاستخرج منه علقة فقال:

«هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب، بماء زمزم، ثم لأمَه، ثم أعاده إلى مكانه».

وجاء الغلمان يسعَوْن إلى أمه ـ يعني مرضعته ـ إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وكان ذلك وهو ابن أربع سنوات تقريباً.

فلما كان ابن عشر سنين، تكرر حادث شق الصدر.

فقد روى الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم وابن عساكر، عن

أُبَيّ بن أبي كعب: أن أبا هريرة رضي الله عنه، كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ، عن أشياء: لا يسأله عنها غيره، فقال:

يا رسول الله، ما أوَّلُ ما رأيتَ في أمر النبوّة؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال:
«لقد سألتَ أبا هريرة».

«إني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل:

«أهو هو»؟

قال: نعم.

فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قطّ، وأرواح لم أجدها من خلق قطّ، وثياب لم أرها على أحد قطّ، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي: لا أجد لأحدهما هامساً.

فقال أحدهما لصاحبه: أضجِعه، فأضجعاني بلا قسر[1] ولا هصر[2].

وقال أحدهما لصاحبه: افْلِق صدره.

فَهَوى أحدهما إلى صدري ففلقه، فيما أرى بدون دم ولا وجع، فقال له:

أدخل الرأفة والرحمة: فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة، ثم هزّ إبهامَ رجلي اليمنى فقال: اغْدُ واسْلَم.

---

(١) القسر: الإجبار.

(٢) الهصر: الجذب والإمالة من رأسه، والمعنى: لم يثنيا ظهري ولم يكرهاني.

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير، ورحمة للكبير».

فلما جاوز صلوات الله وسلامه عليه الخمسين، شقّ عن صدره في ليلة الإسراء والمعراج.

فعن أُبيّ بن كعب - فيما رواه الإمام أحمد والإمام مسلم - أن رسول الله ﷺ قال:

«فرج سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثم أطبقه».

ولا يعنينا هنا - لا في قليل ولا في كثير - أن نُجارِيَ الماديّين في جدلهم فيما يتعلق بشقّ الصدر، فالأمر أسمى بكثير من المماراة في الشكل والكيف، والزمان والمكان.

والمغزى أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التي تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين.

لقد روت كتب السنّة بالأسانيد الصحيحة، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التي توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله منذ طفولته المبكرة، وإن من مظاهر هذه العناية أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل.

إن الله سبحانه وتعالى - وقد شاءت إرادته - منذ الأزل - أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين - أراد سبحانه، أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل.

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب، وتصفية النفس، والتوبة والإخلاص، أو بتعبير آخر - بشقّ الصدر واستخراج حظ الشيطان

منه، وأرسل الله ملائكته فشقّوا عن صدر الرسول ﷺ واستخرجوا حظ الشيطان منه. وأرسلهم فشقّوا عن صدره ومَلَئُوه سكينة.

استخرج جبريل حظ الشيطان من قلب صلوات الله وسلامه عليه في سنٍّ مبكرة فكان صلوات الله وسلامه عليه ـ كما تقول السيدة آمنة ـ:

«والله ما للشيطان عليه من سبيل».

وحقيقة أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل، فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس حياته كلها.

الرسول وحياة اللهو في مكة:

لقد كانت مكة ـ حينما كان رسول الله ﷺ، شاباً فتيّاً قوياً: تعجّ بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة:

لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها وكذلك البيوت المريبة. وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات. وكان الشباب يتهالك على كل ذلك ويتهافت عليه، وأراد الله أن يكون رسوله بمنأى عن كل ذلك.

ذكر البخاري عنه، صلوات الله وسلامه عليه، أنه قال:

«ما هَمَمْتُ بشيء من أمرِ الجاهلية إلا مرتين».

أما هاتان المرتان، فإن سيّدنا عليّاً رضي الله عنه: يتحدّث عنهما ـ على ما يروي ابن كثير ـ فيقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما هممت بشيء مما كان أهلُ الجاهلية يهمّون به إلا ليلتين، كلتاهما عصمني الله عزّ وجل فيهما: قلت ليلة لبعض فتيان مكة ـ ونحن في رعاء غنم أهلها ـ فقلت لصاحبي:

ألا تبصر لي غنمي حتى أدخلَ مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان؟

فقال: بلى.

قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفاً بالغرابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟

قالوا: تزوج فلان فلانة.

فجلست أنظر، وضرب الله على أُذني فوالله ما أيقظني إلا مسَّ الشمس.

فرجعت إلى صاحبي فقال: ماذا فعلت؟

فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذي رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لي غنمي حتى أسمر، ففعل، فدخلت، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعته تلك الليلة فسألت فقيل:

نكح فلان فلانة.

فجلست أنظر، فضرب الله على أُذني، فوالله، ما أيقظني إلا مسَّ الشمس.

فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: لا شيء، ثم أخبرته الخبر، فوالله ما هممت ولا عدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمني الله عزّ وجل بنبوّته:

هذا ما كان من أمر عبث الفتيان.

عبادة الأصنام:

أما ما كان من أمر عبادة الأصنام، فإن القصة التالية توضح الأمر:-

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال:

حدّثتني أُم أيمن قالت: كانت بُوانة صَنماً تحضره قريش لتعظمه:

تنسك له النسائك، ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يوماً إلى الليل، وذلك يوماً في السنة. وكان أبو طالب يحضره مع قومه. وكان يكلّم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله ﷺ ذلك حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عمّاته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن:

ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيد ولا تكثر لهم جمعاً؟!

قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقالت له عمّاته: ما دهاك؟ قال:

«إني أخشى أن يكون بي لمم[1]».

فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟

قــال:

«إني كلما دنوت من صنم منها: تمثل لي رجل أبيض، يصيح بي: وراءك[2] يا محمد: لا تمسّه» قلت:

«فما عاد إلى عيدٍ لهم حتى تنبأ».

* * *

لقد كانت حياته صلوات الله وسلامه عليه، شرحاً مستفيضاً،

---

(١) مس من الجنون.

(٢) ارجع وراءك.

وتوضيحاً كاملاً وتعبيراً تاماً، لما ذكره ابن خلدون، وما يتّفق عليه العقلاء، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة: من أن ذلك من علامات الأنبياء:ـ

«إنه يوجد لهم قبل الوحي: خلق الخير والزكاة، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع. وهذا هو معنى العصمة. وكأنه مفطور على التنزّه على المذمومات والمنافرة لها. وكأنها منافية لجبلته».

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه مبيّنة لهذه القاعدة فيقول:

«وفي الصحيح: أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمّه العباس لبناء الكعبة فجعلها في إزاره فانكشف فسقط مغشيّاً عليه حتى استتر بإزاره.

ودعى إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب، فأصابه غش النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم».

ومضت فترة الشباب برسول الله ﷺ، وهو طاهر زكي.

طاهر من الآثام التي تدنس الشباب في مجتمعاتهم. وزكي؛ لأنه بعيد عن الشرك: لم يسجد لصنم قطّ. صلوات الله وسلامه عليه.

وشبّ رسول الله ﷺ، مع أبي طالب: يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها لما يريد به من كرامته حتى صار أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جواراً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رؤي ملاحِياً[1]، ولا ممَارِياً[2] أحداً، حتّى سمّاه قومه:

---

(١) ملاحياً: منازعاً ومخاصماً يقال لاحيت الرجل ملاحاة ولحاة إذا نازعته.
(٢) مماريا: مجادلاً.

الأمين؛ لما جمع الله له من الأمور الصالحة فيه. فلقد كان الغالب عليه بمكة: الأمين[1].

عن نفيسة بنت منبّه أُخت يعلى بن منبّه قالت:

بلغ رسول الله ﷺ، خمساً وعشرين سنة، وليس له بمكة اسم إلّا الأمين؛ لما تكاملت فيه من خصال الخير[2].

وعن منذر قال: قال الربيع: يعني ابن خيثم: كان يُتَحَاكَم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام، ثم اختصّ في الإسلام[3].

ولقد اختاره الله للرسالة ولكنه تعالى اصطنعه لنفسه قبل أن يمنحه النبوّةلله.

أجل! وهذه الفترة من حياته، التي سبقت البعثة، كانت فترة جهاد وصراع روحي هادىء بكل معنى الهدوء، عنيف أشد العنف: مستمر لا ينقطع، فيه الحزن، وفيه الرجاء. وفيه الكثير من الأمل الوثّاب الذي يشحذ العزيمة ويسدّ على اليأس القانط كل منفذ.

إن هذه الفترة من حياته، كانت ـ على حدّ تعبير الجنيد في تعريف التصوف ـ عنوة لا صلح فيها.

كان صلوات الله عليه، يتوّج ـ كل عام ـ جهاده الروحي المتصل، بشهر يقضيه في غار حِراء: حيث الخلوة التامة، وحيث التجرّد المطلق، عن كل ما سوى الله.

وهناك في سجوة الليل، أو في رائعة النهار، يحاول محمد أن

---

(١) ابن سعد جـ ١، ص ١٠٢، ١٠٣.
(٢) ابن سعد جـ ١، ص ١٣٧.
(٣) ابن سعد جـ ١، ص ١٣٩.

يحطم الحجب، وأن يخترق المساتير، وأن ينفذ ببصيرته إلى عالم الغيب، فيصل إلى سدرة المنتهى، وإلى قاب قوسين أو أدنى، حتى يشاهد الجمال في سنائه، والجلال في عظمته وكبريائه.

ها هو ذا الرسول، ﷺ، يبذل مجهوداً جباراً لا يكاد الإنسان يتصوره، فضلاً عن أن يأتي بمثله.

وها هو ذا، يرى الهدف بعيداً لا يكاد الإنسان يفهمه، فضلاً عن أن يصل إليه.

ها هو ذا، يرى الطريق وعثاء صعبة المرتقى.. بيد أن ذلك كله: لم يكن إلا ليزيده عزماً على عزم، وإرادة على إرادة، ونشاطاً مضاعفاً.

إنه الجهاد الأكبر، على حدّ تعبير الأثر المشهور، عن جهاد النفس لتتزكى.

وتمضي السنون بطيئة سريعة في آن واحد، وجهاد الرسول - ﷺ - لا يفتر حتى أصبح - أو كاد - روحاً خالصة، أو قبساً من نور الله، وانتهى به الأمر إلى قرب، يقول الإمام الغزالي إنه:

«أول حال رسول الله، ﷺ حين أقبل على جبل حِراء، حيث تَبَتَّل، حين كان يخلو بربه ويتعبد، حتى قالت العرب:

«إن محمداً عشق ربه»!

ثم كانت الرسالة، وكانت المعجزة التي غيّرت مجرى التاريخ.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(1).

---

(1) العلق: ١ : ٥.

ويقول الدكتور هيكل:

«وجد محمد فيه ـ التحنث ـ خير ما يمكنه من الإمعان فيما شغلت نفسه من تفكير وتأمّل، كما وجد فيه طمأنينة نفسه وشفاء شغفه بالوحدة؛ يلتمس أثناءها الوسيلة إلى ما لم يبرح شوقه يشتد إليه، من نشدان المعرفة، واستلهام ما في الكون من أسبابها.

وكان بأعلى جبل حِراء ـ على فرسخين من شمالي مكة ـ غار، هو خير ما يصلح للانقطاع والتحنّث، فكان يذهب إليه طوال شهر رمضان؛ من كل سنة يقيم به، مكتفياً بالقليل من الزاد. يحمل إليه ممعناً في التأمل والعبادة، بعيداً عن ضجة الناس، وضوضاء الحياة متلمساً الحق، والحق وحده.

ولقد كان يشتد به التأمل ابتغاء الحقيقة، حتى لقد كان ينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لأن هذا الذي يرى في حياة الناس مما حوله، ليس حقاً.

«وشارف محمد الأربعين، وذهب إلى حِراء يتحنث، وقد امتلأت نفسه إيماناً بما رأى في رؤاه الصادقة، وقد خلصت نفسه... وقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه، وقد اتجه بقلبه إلى الصراط المستقيم، وإلى الحقيقة الخالدة: وقد اتجه إلى الله بكل روحه، أن يهدي قومه بعد أن ضربوا في تيهاء الضلال.

وهو في توجهه هذا يقوم الليل، ويرهف ذهنه وقلبه، ويطيل الصوم والتأمّل في آلاء ربه، فينحدر من الغار إلى طريق الصحراء، ثم يعود إلى خلوته ليعود فيمتحن ما يدور بذهنه، وما يتبين له في رؤاه.

ولقد طالت به الحال ستة أشهر: حتى خشي على نفسه عاقبة

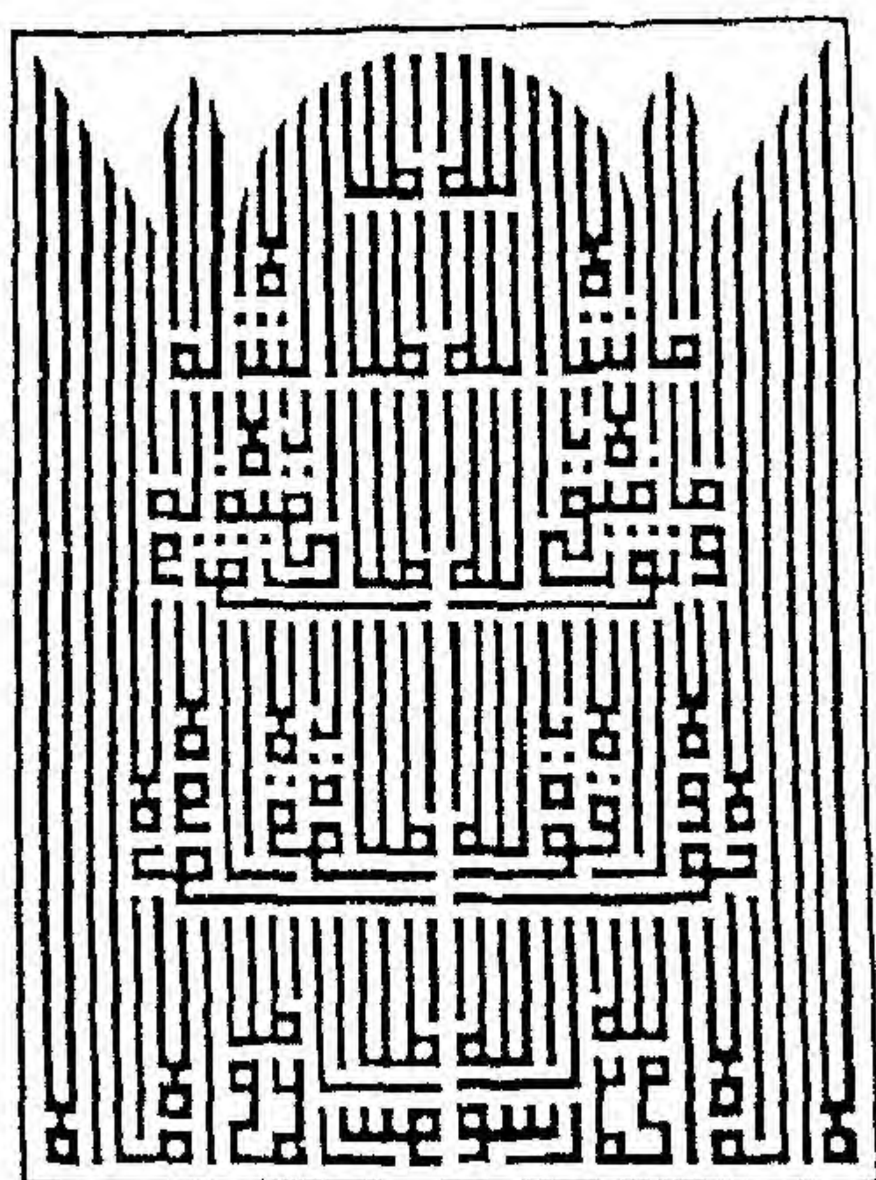
أمره، فأسَرَّ بمخاوفه إلى خديجة، وأظهرها على ما يرى، وأنه يخاف عبث الجن به. فطمأنته الروح المخلصة الوفية، وجعلت تحدّثه بأنه الأمين. وبأن الجنَّ لا يمكن أن تقترب منه، وإن لم يدرْ بخاطرها ولا بخاطره: أن الله يهيىء مصطفاه بهذه الرياضة الروحية، إلى اليوم العظيم وإلى النبأ العظيم: يومِ الوحي الأول؛ ويهيّئه بها إلى البعث والرسالة.

وفيما هو نائم بالغار يوماً، جاءه المَلَكَ وفي يده صحيفة، فقال له: «اقرأ»(١):

كانت «اقرأ» مفتتح عهد جديد في حياة الرسول الله ﷺ، فمنذ تلك الآونة لم يترك رسول الله ﷺ الدعوة إلى الله قطّ، كان يدعو ليلاً وكان يدعو نهاراً، وكان يدعو في كل لحظة من لحظاته.

---

(١) من «حياة محمد» للدكتور هيكل.



﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الرابع

الرسالة
أسباب وبواعث
أهداف وغايات



البعثـــة العامة

جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «بُعِثَ الأنبياء قبلي إلى أُممهم خاصة: وبُعِثت إلى الأمم كلها عامَّة»(١).

المـــأدبة:

عن جابر بن عبد اللَّه قال: «جاءت ملائكة إلى نبيّ الله، ﷺ، وهو نائم؛ فقال بعضهم لبعض: إنه نائم. وقال بعضهم: إن العين نائمة، والقلب يقظان، فقالوا: إنَّ مَثَلَه كمثَلِ رجلٍ بنى داراً فجعل فيها مأدبةً، وبعث داعياً: مَن أجاب الداعيَ دخل الدار وأكل من المأدبة، ومَن لم يجِب الداعيَ لم يدخل الدار ولم يأكل من المأدبة. فقالوا:ـ

أوِّلوها: له يَفْقَهِهَا. فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العين نائمة «والقلب يقظان. قالوا، فالدار: الجنة، والداعي: محمد، فمَن أطاع محمداً فقد أطاع الله، ومَن عصى محمداً فقد عصى الله، ومحمد فَرْق بين الناس» رواه البخاري في الصحيح»(٢).

---

(١) الرسالة المحمدية ص ١٢٨.

(٢) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢٧٦.

مثـــــله ﷺ:

عن جابر بن عبد اللَّه؛ قال: «قال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومثل الأنبياء قبلي، كمثل رجل ابتنى داراً، فأحسنَهَا وأكملَهَا إلا موضعَ لبَنَة، فجعل الناس يدخلونها، ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع هذه اللبنة! قال رسول الله ﷺ: فأنا موضع تلك اللبنة: جئت فختمتُ الأنبياء» رواه البخاري في الصحيح عن محمد بن سنان عن سليمان بن حيان، ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب عن عفان»[1].

مثل ما بعثه الله به من الهدى والعلم:

عن أبي موسى، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مَثَلَ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبةٌ، قبلت الماءَ فأنبتت الكَلأ والعشْبَ الكثير. وكانت منها أجادب أمسكت الماءَ فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى: إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً: فذلك مثل مَن فَقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله تعالى به، فعلِمَ وعَلَّمَ. ومثل مَن لم يرفعْ بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

وبهذا الإسناد عن أبي موسى، عن النبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ مَثَلي ومَثَلَ ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم ِ إني رأيت الجيش بعيني، وأنا النذير العريان، فالنجاء ـ فأطاعه طائفة من قومه، فأدْلَجوا، فانطلقوا على مهلهم فَنَجَوْا، وكذَّبت طائفة منهم، فأصبحوا مكانهم، فصبحهم الجيش، فأهلكهم واجتاحهم. فذلك مَثَل مَن أطاعني

(١) دلائل النبوّة: جـ ١، ص ٢٧٣.

واتَّبع ما جئت به من الحق، ومثل مَن عصاني وكذّب ما جئت به من الحق».

رواهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي كريب.

مثل الأمة الإسلامية:

عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ، قال: «مَثلكم ومَثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً» فقال: مَن يعمل من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط؟ ألا فعملت اليهود، ثم قال: مَن يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال: مَن يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم.

فغضب اليهود والنصارى، فقالوا نحن أكثر عملاً، وأقل عطاءً[1].

قال: فهل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا.

قال: «فإنما هو فضلي أُوتيه من أشاء»[2].

أخرجه الإمام البخاري[3].

بـــواعث وأهداف

إن ربي رحيم ودود:

الإسلام؟ علامَ تدل هذه الكلمة الإلّهية؟ ما مفهومها؟

---

(١) الأصل: نحن أقل عملاً وأكثر عطاء وهو تحريف، ورواية البخاري مثلنا: (أكثر عملاً وأقل عطاء).

(٢) رواية البخاري مخالفة لما هنا. صحيح البخاري كتاب الإجارة.

(٣) الوفا جـ ١، ص ٢٧٦ ـ ٣٧٧. جـ ١ دار الكتب.

لقد تحدث القرآن عن مفهومها في تفصيل كثير، بل يمكنك أن تقول: إن القرآن الكريم كله، إنما هو شرح لمفهومها..

وتحدّث الرسول ﷺ ـ متناسقاً مع القرآن وشارحاً له ـ عن هذا المفهوم..

ولم يكن رسول الله ﷺ، يشرح المفهوم بقوله فحسب، وإنما كان يشرحه بسلوكه أيضاً..

لقد حقّق رسول الله ﷺ، الإسلام في صورة واقعية.

ولقد سُئِلت السيدة عائشة ـ رضوان الله عليها ـ عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت:

«كان خُلُقه القرآن».

ونعود فنقول: ما هو المفهوم؟...

هذا المفهوم، هو الذي نبدأ في تفصيله بعون الله وتوفيقه، هل نبدأ في ذلك بالأهداف. أو نبدأ في ذلك بالبواعث.

قد تكون الأهداف والغايات ـ هي نفسها ـ العِلَلَ والأسباب.

وهذا هو الواقع بالنسبة للإسلام.

ونحن ـ إذن ـ نتحدّث في هذه الكلمة. وفي كلمات تالية، عن العلل والأسباب، وعن الغايات والأهداف..

إن الله سبحانه وتعالى، يقول لرسوله الكريم، صلوات الله وسلامه عليه:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

وانظر التعبير القرآني: «رحمةً للعالمين»!!

إنه سبحانه، لم يقل: رحمة لقطر معين، ولم يقل: رحمة للإنسانية. وإنما قال رحمةً للعالَمِين..

إنه سبحانه، عمّم الرحمة فجعلها: للعالمين..

وفي حديثنا عن الرحمة، نبتدىء بالحديث عنها صفةً من صفات الله تعالى، كما تحدّث عنها في القرآن الكريم، وكما تحدّثت عنها السنّة الشريفة..

إن من أسماء الله تعالى، اسم: الرحمن.

ولقد بلغت منزلة هذا الاسم في الأسماء الكريمة: أنه يذكر مضارعاً لاسم الجلالة المطلق: «الله».

يقول سبحانه:

﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾(١).

ومن أسماء الله سبحانه: «الرَّحيم».

ورحمة الله سبحانه وتعالى، تامة عامة شاملة..

والرحمة التامة ـ كما يقول الإمام الغزالي ـ «إفاضة الخير على المحتاجين وإرادته لهم، وعنايته بهم.

والرحمة العامة: هي التي تتناول المستحق وغير المستحق.

ورحمة الله تامة عامة:

أما تمامها، فمن حيث أراد قضاء حاجات المحتاجين وقضاها.

وأما عمومها، فمن حيث شمولها المستحقَّ وغيرَ المستحق؛ وتناول

---

(١) الإسراء: ١١٠.

الضرورات والحاجات، والمزايا الخارجة عنهما، فهو الرحمن الرحيم المطلق حتماً».

على أن الوصف القرآني لله ـ سبحانه وتعالى ـ في جانب الرحمة يبيّن أن الله سبحانه وتعالى:

﴿أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(١).

وأنه سبحانه:

﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾(٢):

ومن أروع الأحاديث القدسية الرمزية: التي تتحدّث عن رحمة الله سبحانه، والتي لا نجد لها ما يماثلها في سموّها وجلالها، شرقاً أو غرباً، قديماً أو حديثاً: لا في مذاهب الفلاسفة، ولا في الملل والنحل، بل ولا في كلام الشعراء ـ ما رواه الإمام مسلم ـ رضي الله عنه ـ بسنده رسول الله ﷺ، فيما رواه عن ربه:

«إن الله عزّ وجل يقول يوم القيامة:

يا ابن آدمَ، مَرِضتُ فلم تَعُدْني.

قال: يا رب، كيف أعودك وأنت رب العالمين؟.

قال: أمَا علِمتَ أن عبدي فلاناً مرِض فلم تَعده؟.. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟..

يا ابن آدم، استطعمتك فلم تطْعِمْني.

قال؛ يا رب، كيف أطعِمكَ وأنت رب العالمين؟.

قال: أما علمتَ أنه استطعَمَكَ عبدي فلان فلم تطعمه؟. أما علمت أنك لو أطعمتَه لَوَجدت ذلك عندي؟.

---

(١) الأعراف: ١٥١، والأنبياء: ٨٣. (٢) المؤمنون: ١١٨.

يا ابن آدم، استَسْقَيْتك فلم تسقِني!

قال: يا رب، كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟

قال: استقاك عبدي فلان فلم تسقِه، أما علمتَ أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي؟

وهذا الذي رواه الرسول ـ ﷺ ـ عن ربه يساير ويتناسق مع الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبويّة الشريفة.. إن الله سبحانه هو الذي:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[1].

وإن أسلافنا الذين تأملوا في هذه الآية الكريمة، يلجأون إلى الله، ويتجهون إليه بصفتي «الوليّ الحميد» ـ في الشدائد، حينما تلِمّ بهم، فيجدون في التجائهم إليه سبحانه بصفتي «الوليّ الحميد» بَرْدَ الرضا، وراحة النفس، والخروج من ضيق الكرب إلى سعة الرحمة.

إنه سبحانه:

﴿ الوليّ الحميدُ ﴾.

أما رحمة الله في كل لحظات الحياة، فإنها:

﴿ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

إنها تحيط بهم، وتتنزل عليهم، وتقودهم، وتتبعهم في كل مجالات الحياة.

ومن أوائل المحسنين: الأنبياء والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) الشورى: ٢٨.

(٢) الأعراف: ٥٦.

ومن أمثلة رحمة الله سبحانه بأنبيائه ورسله، ما ذكره القرآن عن نوح عليه السلام.

قال تعالى:

﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾[1].

وعن أيوب - عليه السلام - قال تعالى:

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴾[2].

وعن يونس - عليه السلام - قال تعالى:

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

وعن زكريا - عليه السلام - قال تعالى:

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[4].

---

(١) الأنبياء: ٧٦، ٧٧.
(٢) الأنبياء: ٨٣، ٨٤.
(٣) الأنبياء: ٨٧، ٨٨.
(٤) الأنبياء: ٨٩، ٩٠.

ونعود فنقول مع القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

* ومن الأمثلة على ذلك قوله:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[2].

* وقوله:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[3].

* وقوله:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ﴾[4].

ونعود فنقول مع القرآن الكريم:

﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

وهي ليست قريبة من الأنبياء والرسل فحسب، ولكنها قريبة من كل محسن، إنها قريبة ممّن آمن وعمل صالحاً، فتكون السعادة:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[6].

وهي قريبة من المتقين، فتكون تفريجاً للكرَبِ، وإزالة للهمّ، وسَعَةً في الرزق:

يقول سبحانه:

---

(١) الأعراف: ٥٦.
(٢) هود: ٥٨.
(٣) هود: ٦٦.
(٤) هود: ٩٤.
(٥) الأعراف: ٥٦.
(٦) النحل: ٩٧.

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] .

إن الله سبحانه برحمته يجعل له مخرجاً من كل هم ومن كل ضيق، ويرزقه من حيث لا يحتسب .

والله سبحانه يدعو الإنسان دائماً ألاّ ييأس من رحمة الله .

يقول سبحانه :

﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾[2] .

ويأخذ سبحانه على الإنسان بخله وشحّه، ويذكر سبحانه أنه لو ملك خزائن رحمة الله لحمله شحّه على الإمساك خشية الإنفاق :

يقول سبحانه :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴾[3] .

وحينما ينظر الإنسان إلى الكون، يجد رحمة الله بالإنسان سارية في جميع أرجائه، يقول تعالى :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[4] .

ويقول تعالى :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[5] .

---

(١) الطلاق : ٢، ٣ .

(٢) الحجر : ٥٦ .

(٣) الإسراء : ١٠٠ .

(٤) القصص : ٧٣ .

(٥) الروم : ٢١ .

وبعـــد:

فإن من القوانين الإلّهية في الرحمة:

١ - الراحمون يرحَمْهم الرحمن.

٢ - ارحموا مَن في الأرض يرحمْكم من في السماء.

٣ - الشاة، إن رحمتها رَحِمكَ الله.

٤ - من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته.

٥ - مَن فرَّجَ عن مسلم كرْبةً من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كربِ يوم القيامة.

٦ - من سترَ مسلماً سترَه الله يوم القيامة.

٧ - اللَّهَ في عوْنِ العبد ما دام العبد في عون أخيه.

وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين:

يتحدث الرسول الله ﷺ، عن وضعه في هذا العالم فيقول: «إنما أنا رحمةٌ مهداة».

إنه صلوات الله وسلامه عليه «رحمة» أهداها الله إلى الإنسانية؛ ليرحمها به:

ليرحمها بالتعاليم التي أنزلها عليه، ليرحمها به كقدوة؛ ليرحمها به باعتباره صورة للكمال الإنساني كما أحبّه الله.

ويروي الإمام مسلم في صحيحه أنه قيل:

يا رسول الله، ادعِ على المشركين.. فقال:

إني لم أبعث لعَّاناً، وإنما بعثت رحمةً..

ولقد كان رسول الله ﷺ يذكّر المسلمين بالرحمة، كلما كانت هناك مناسبة.

ففي يوم من الأيام، بينما كان المسلمون عائدين من غزوة «ذات

الرقاع» جاء رجل بفرخ طائر، فأقبل أحد أبوَي الفرخ حتى طَرَح نفسه بين يدي الذي أخذ فرخه، فعجب الناس من ذلك!! فانتهز رسول الله ﷺ الفرصة ـ كعادته ـ لِيعِظهم ويُذَكرهم بالله، ويحْبِبُهم فيه، فقال:

«أتعجبون من هذا الطائر؟.. أخذتم فرخه، فطرح نفسه رحمة لفرخه، والله لربكم أرحم بكم من هذا الطائر بفرخه!!

وفي مرة أخرى، رأى رسول الله ﷺ، امرأة تضم طفلها إلى صدرها في حنان بالغ، وحب عميق، فالتفت إلى أصحابه، وقال لهم:

أتَرَوْنَ هذه طارحةً ولدَها في النار؟

قالوا: لا، والله يا رسول الله.

فقال ﷺ:

«والله، لله أرحم بعباده من هذه بولدها»!!

وفي يوم من الأيام، رأى أحد الأعراب رسول الله ﷺ، يقبّل أحد أسباطه، فقال مندهشاً.

أتقبِّلون أبناءكم؟.. إن لي عشرةً من الأولاد ما قبَّلت واحداً منهم قطّ.

فعرفه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في نوع من الاستهجان ـ أن الله قد نزع الرحمة من قلبه..

ولقد تعدت رحمته ﷺ الإنسان إلى الحيوان.

وكتب السيرة تروي أنه صلوات الله عليه وسلامه، مرّ ذات يوم، على بستان رجل من الأنصار، فدخله، فإذا جمل يئن وتذرف عيناه، فأتاه النبيّ ﷺ، فمسح عليه، فسكت.

ثم قال صلوات الله وسلامه عليه: «مَنْ رَب هذا الجمل»؟.

فجاء فتى من الأنصار، فقال: هذا لي يا رسول الله.

فقال له: ألا تتقي الله عزّ وجل في هذه البهيمة التي ملكك الله؟

إنك تجيعه وتدئبه (أي تتعبه وتجهده). .

فخجل الشاب الأنصاري، وتغير سلوكه مع الجمل.

ومن المعاني ذات المغزى، أن رسول الله ﷺ، كان يتحدث عن الرحمة، ويحثّ عليها، ويدعو إليها، ويعرف منزلتها من الدين، فقال بعض الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ :

«إننا نرحم أزواجنا وأولادَنا وأهْلِينا». .

فلم يرضَ هذا القولَ رسولُ الله ﷺ؛ لأنه فهمٌ قاصر محدود لما ينبغي أن يكون عامّاً شاملاً، ولذلك ردّ عليه رسول الله ـ ﷺ ـ بقوله: :

«ما هذا أريد؟. . إنما أريد الرحمة العامة».

وما من شك في أن من الرحمة: رحمة الأزواج والأولاد والأهل. وقد حثّ على ذلك رسول الله ﷺ.

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ؛ إنما هو أن تتغلغل الرحمة في الكيان الإنساني كله، حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته، فيكون الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلّهية، ينثرها إذا سار، وينثرها أينما كان وينثرها حينما حلّ.

وإذا كان كذلك، فإنه يكون قد حقّق الطابع العام للرسالة الإسلامية، واستحق أن يغمره الله برحمته. .

إن رسول الله ﷺ ـ وهو الذي أفهم الصحابة أنه إنما يريد الرحمة العامة ـ تجاوز مفهومه إلى رحمة الحيوان.

ومن أجل ذلك، تتضمن الرحمة في الجو الإسلامي: الرحمة بالحيوانات أيضاً.

عن ابن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: . . .

«دَخلت امرأة النار في هِرَّةٍ ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض».

وفي رواية:

«عذّبت امرأةٌ في هرّة سجنتها حتى ماتتْ، لا هِيَ أطعمتْها وسقتْها إذْ هي حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»: رواه البخاري وغيره. .

وعن سهل بن الحنظلية ـ رضي الله عنه ـ قال:

اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة». .

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ، قال:

«دنا رجل إلى بئرٍ، فنزل فشرِبَ منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرَحِمه، فنزع إحدى خفّيه فسقاه، فشكر الله له، فأدخله الجنة». .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

وهذه جملة من الأحاديث للرسول ﷺ في الرحمـة، تبيّن عن روحه ﷺ الفيّاضة بهذه الصفة، التي جعلها الله سبحانه وتعالى شعار هذه الأمة.

عن جرير بن عبد اللّه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَن لا يَرْحَم الناسَ لا يَرْحَمُهُ الله».

وعن أبي موسى - رضي الله عنه -: أنه سمع النبي ﷺ، يقول:

«لن تُؤْمِنوا حتى تَرَاحموا»، قالوا: يا رسول الله، «كلنَا رحيم». قال: «إنه ليس برحمةِ أحدكم صاحبه، ولكنها رحمةُ العَامَّة».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«مَن لم يَرْحَمِ الناسَ لم يَرْحَمْهُ الله».

وعن جرير رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول:

«مَن لا يرحَمُ مَن في الأرض، لا يَرْحمُه مَن في السماء».

إنما أنا رحمة مهداة ﷺ.

إن الله سبحانه وتعالى، يقول لرسوله الكريم، صلوات الله وسلامه عليه:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(1).

إنه سبحانه، لم يقل رحمة لقطر معين، ولم يقل رحمة للإنسانية فحسب، وإنما قال:

﴿ رحمة للعالمين ﴾.

إنه سبحانه عمّم الرحمة، فجعلها: للعالمين.

وفي حديثنا عن الرحمة ابتدأنا بها صفة من صفات الله تعالى، كما تحدّث عنها سبحانه في القرآن الكريم، وكما تحدّثت عنها السنّة.

والآن نتحدّث عن الرحمة: صفةً من صفات رسول الله ﷺ.

---

(1) الأنبياء: ١٠٧.

لقد التقى رسول الله ﷺ، بالملك في غار حِراء، وبدأت رسالة الإسلام باهرة رائعة، وكان هذا الابتداء متمثلاً في قوله تعالى:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1].

يقول الإمام البخاري ـ فيما رواه عن السيدة عائشة رضي الله عنهما:

«فرجع بها رسول الله ـ ﷺ ـ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروْع، فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ لقد خشِيت على نفسي» فقالت خديجة:

«كلا، والله، ما يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلّ، وتُكْسِبُ الْمُعْدِم، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِين على نوائب الحق».

كانت السيدة خديجة ـ رضوان الله عليها ـ تعرف رسول الله ﷺ حقّ المعرفة، كانت تعرفه عن سماع، وكانت تعرفه عن معاشرة. وحينما قال لها: «لقد خشِيتُ على نفسي» ـ أقسمت مباشرة ـ دون تردد، ودون إبطاء ـ على أن اللَّهِ لا يخزيه أبداً. ثم علّلت ذلك بمجموعة من الصفات، تتبلور كلها في صفةٍ واحدة، هي الرحمة..

لقد أدركت السيدة خديجة ببصيرتها الصافية، أن من القوانين الإلٓهية: أن رحمة الله قريب من الرحماء، وأنه سبحانه لا يخزي الرحيم.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

ولقد وصفت رسولَ الله ﷺ بالصورة التي انفرد بها في حياته «الرحمة».

وبدأت السيدة خديجة ـ رضوان الله عليها ـ بقولها.

«إنك لتصلُ الرَّحم».

والرحم ـ في الجو الإسلامي ـ يبتدىء بالأب والأم، وللأب والأم مكانتهما في الإسلام.

ولقد ذكرهما الله سبحانه وتعالى في القرآن كثيراً في أعقاب ذكره للعقيدة الأساسية في القرآن، وهي عقيدة التوحيد، مباشرة.

ومن ذلك ما يقوله سبحانه في سورة الإسراء:

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾[1].

ويقارن الله سبحانه وتعالى في معاملة الوالدين، وفي الصلاح والتقوى، بين طائفتين:

أما إحداهما: فيتقبل منهم حُسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم.

ويقول سبحانه في هؤلاء:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ

---

(١) الإسراء: ٢٣، ٢٤.

إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾(١).

وأما الطائفة الثانية: فإن الله سبحانه وتعالى يصفها بالخسران.. إنها الطائفة التي عقّت والديها.

يقول سبحانه:

﴿ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾(٢).

وأما أحاديث رسول الله ﷺ، بالنسبة لصلة الرحم، فإنها كثيرة.

منها الحديث المشهور عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ فيما رواه البخاري عن النبيّ ﷺ ـ قال:

«إن اللَّهَ خَلَقَ الخلقَ، حتى إذا فرَغَ من خلقه قالت الرحم: هذا مقام العائذ بكَ من القطيعة. قال: نعم، أما تَرْضَينَ أن أَصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأقطعَ من قطعك»؟!.

قالت: بلى، يا رب..

قال؛ فهو لكِ...

قال رسول الله ﷺ: فأقرأوا إن شئتم:

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ

(١) الأحقاف: ١٥، ١٦.

(٢) الأحقاف: ١٧، ١٨.

﴿ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾[1].

وتقول السيدة خديجة رضوان الله عليها:

«وتحمل الكَلَّ»..

والكلُّ: هو الذي لا يستقِل بأمره؛ لأنه في حاجة إلى مَن يأخذ بيده؛ إلى مَن يحمله.

وكان رسول الله ﷺ، يحمل الكلَّ. وكان صلوات الله وسلامه عليه.

«يكسب المعدم».

والمعدم: هو الذي لا تصرّفَ له ولا كسب.

وكان رسول الله ﷺ يفيده ويعاونه.

وتقول السيدة خديجة:

«وتقْرِي الضيف».

وكان رسول الله ﷺ كريماً. وكان جواداً.

ويصفه ابن عباس في كرمه، فيقول:

«كان أجودَ الناس، وكان أجودَ ما يكون في رمضانَ، حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسُه القرآن، فلرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرْسلةِ».

وتقول السيدة خديجة:

«وتُعين على نوائب الحق».

ولقد كان رسول الله ﷺ، يسارع بتقديم المعونة لكل من نابته نائبة، وقد يكون تقديم المعونة بالمال، وقد يكون بالرأي، وقد يكون

---

(١) محمد: ٢٢، ٢٣.

بالمواساة: وبالكلمة الطيبة، وبالتشجيع، وبغرس التفاؤل في نفس المصاب..

ويقول الإمام ابن حجر عن هذه الكلمة:

«وقولها: «وتعين على نوائب الحق» هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولِما لَمْ يتقدم». وذلك فهم عميق لهذه الكلمة الجامعة.

وكان استنتاج السيدة خديجة - رضوان الله عليها - أن الله سبحانه وتعالى من أجل هذه الصفات الرحيمة، أو من أجل هذه الرحمة الشاملة، لا يخزيه ﷺ ولن يخزِيه.

وكان هذا أول قانون أعلنته السيدة خديجة - رضوان الله عليها - في الجو الإسلامي:

«إن مَن كان رحيماً لا يخزيه الله في الدنيا والآخرة».

وهو قانون عام شامل في الجو الإسلامي، ليس خاصاً برسول الله ﷺ. ومن أحب أن لا يخزيه الله في الدنيا والآخرة، فليلتزم الرحمة. يقول ﷺ:

«ارحَمُوا تُرْحَمُوا، واغفِروا يُغْفَرْ لكم»(1).

ويبيّن الله سبحانه مدى ما بلغت إليه رحمة الرسول ﷺ فيقول:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(2).

ويسجّل القرآن الكريم، حرص الرسول ﷺ، على هداية قومه،

---

(1) رواه البخاري في الأدب وأحمد في مسنده والبيهقي في شعب الإيمان.
(2) التوبة: 128.

وخوفه عليهم من الهلاك، إلا درجة كادت تودي بحياته، فيقول:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ويقــــول:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[2].

ويصف الله سبحانه رسوله، ويصف رسالته، فيقول:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3].

يقوم الإمام الرازي:

«إنه ـ عليه السلام ـ كان رحمة في الدين وفي الدنيا».

أما في الدين: فلأنه بعث والناس في جاهلية وضلالة، وأهل الكتابين كانوا في حيرة من أمر دينهم، لطول مكثهم، وانقطاع تواترهم، ووقوع الاختلاف في كتبهم، فبعث الله تعالى محمداً ﷺ، حين لم يكن لطالب الحق سبيل إلى الفوز والثواب، فدعاهم إلى الحق، وبيَّنَ لهم سبيلَ الثواب، وشرع لهم الأحكام، وميّز الحلال من الحرام. ثم إنما ينتفع بهذه الرحمة مَن كانت همّته طلبَ الحق، فلا يركن إلى التقليد، ولا إلى العِناد والاستكبار، وكان التوفيق قريناً له، قال الله تعالى.

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾[4].

---

(١) الشعراء: ٣.

(٢) الكهف: ٦.

(٣) الأنبياء: ١٠٧.

(٤) فصّلت: ٤٤.

«وأما في الدنيا، فلأنهم تخلصوا بسببه من كثير من الذل والقتال والحروب، ونصروا ببركة دينه».

وروى الإمام مسلم، بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:
قيل: يا رسول، ادْعُ على المشركين.
قال: إني لم أُبْعثْ لعَّاناً، وإنّما بُعِثت رحمةً.

وروى الحاكم بسنده عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال:
«إنما أنا رحمةٌ مُهْدَاةٌ».

وروى البخاري في تاريخه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:
«إنما بعِثْت رحمةً ولم أُبْعثْ عذاباً».
صلوات الله عليك يا سيدي يا رسول الله.

يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم:

لقد تحدّثنا بتوفيق الله تعالى عن الحكمة في إرسال خاتم النبيّين ممثّلة في قوله تعالى:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١).

والآن نبدأ رسماً مجملاً لصورة الأمة الإسلامية، كما أحبها الله ورسوله..

ما هي الصورة التي أحبّها الله ورسوله للأمة الإسلامية؟
إنها الصورة الواقعية لتعاليم الرسول ﷺ.

ما هو الموضوع - في إجمال مجمل - الذي دارت حول تحقيقه

(١) الأنبياء: ١٠٧.

جهود الرسول ﷺ؟

إن الله سبحانه وتعالى، أجمله في عدة آيات من القرآن الكريم.

منها قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(1).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(2).

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾(3).

وإذا أردنا ـ برعاية الله ـ أن نلخص صورة الأمة الإسلامية في تعاليم الله سبحانه، وفي تعاليم رسول الله ﷺ، فإننا نقول:

إنها الأمة العالمة، والتي تزكّت بالمبادىء الإلّهية. وجهد رسول الله ﷺ، إنما كان لإخراج هذه الأمة مِن الظلمات إلى النور: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات السفه إلى نور الهداية.

لأنه ﷺ «يعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم».

ونبدأ في شرح ذلك، بما بدأ الله سبحانه وتعالى به في أول آية نزلت في دستور الأمة الإسلامية. أعني القرآن الكريم.

إن أول كلمة وردت في الوحي الإسلامي، هي: أقرأ.

---

(1) آل عمران: ١٦٤.

(2) الجمعة: ٢.

(3) إبراهيم: ١.

والآيات الأولى التي نزلت في الليلة المباركة هي:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١).

إن هذه الآيات الأولى، تذكر الأمر بالقراءة مرتين، وتذكر مادة العلم ثلاث مرات، وتذكر القلم باعتباره إحدى وسائل العلم.

وحينما فسّر المرحوم الشيخ محمد عبده هذه الآيات، عقّب عليها قائلاً:

«لا يوجد بيان أبرع، ولا دليل أقطع، على فضل القراءة والكتابة والعالم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائِه الوحيَ بهذه الآيات الباهرات» اهـ.

لقد افتتح الله الوحي في الدين الإسلامي، بهذه الآيات المعجزة الخالدة، التي تذكر القراءة والكتابة والقلم، والتي ترددت فيها مادة العلم أكثر من مرة.

وبعد أنْ نزلت هذه الآيات الكريمة نزل قوله تعالى:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾(٢).

وفي هذه المرة الثانية من الوحي، بدأ الله سبحانه بحرف من حروف الهجاء، وأقسم بالقلم والكتابة، فكان أول قسم في هذا القرآن؛ هو القسم بالقلم وبما يسطر القلم.

أما اسم الكتاب الموحى به، فإنه القرآن.

---

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) القلم: ١.

يقول الراغب الأصفهاني:

«قال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآناً من بين كتب الله، لا لكونه جامعاً لثمرة كتبه، بل لجمعه ثمرة جميع العلوم، كما أشار تعالى إليه بقوله:

﴿ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ ﴾(١).

وقولـــه:

﴿ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾(٢).

والقرآن - بتسميته، وبأوّل آيات نزلت منه، وبأول قسم فيه - يوجّه الإنسان - بطريق مباشر، وبطريق إيحائي - إلى الاتجاه نحو المعرفة: قراءةً وكتابةً وعلماً.

ما هي منزلة العلم في الإسلام؟

إن الله سبحانه يقول:

﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾(٣).

وخشية الله التي هي ثمرة للعلم، أساسٌ من أهم أُسس إسلام الوجه لله.

ومن هنا كانت ضرورة العلم في الإسلام. إنه ضرورة وليس ترفاً: فهو من أُسس الإسلام نفسه.

ومن أجل ذلك، كان من مقوِّمات شخصية المسلم: العلم..

---

(١) يوسف: ١١١.

(٢) النحل: ٨٩.

(٣) فاطر: ٢٨.

العلم بالله. . والعلم بالكون، وبالإنسان، وبالنفس، وبكل ما تتّسع له الكلمة من معنى كريم.

ولقد أورد الإمام البخاري في صحيحه كتاباً سمّاه كتاب العلم: قسمه إلى أبواب منها:

«باب: العلم قبل القول والعمل».

لقول الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[1]. . فبدأ بالعلم. . وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ويرثون العلم. . من أخذه أخذَ بحظٍّ وافرٍ، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً، سهّل الله له طريقاً إلى الجنة. . وقال جلّ ذكره: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾[2]. . وقال: ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴾[3]. . ويقول: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[4]. . وقال: ﴿ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ ﴾[5].

وقال النبي - ﷺ -: «مَن يرِدِ الله به خيراً يُفقهه»، «وإنما العلم بالتَّعلُّم».

وقال أبو ذر: لو وضعتم الصَّمصَامة على هذه - وأشار إلى قفاه - ثم ظننت أني أنفِذ كلمة سمعتها من النبيّ - ﷺ - قبل أن تجيزوا عليَّ لأنفذتها. .

وقال ابن عباس: كونوا ربانيّين: حلماءَ فقهاءَ.

---

(١) محمد: ١٩.
(٢) فاطر: ٢٨.
(٣) العنكبوت: ٤٣.
(٤) الملك: ١٠.
(٥) الزمر: ٩.

ويقال: «الرباني الذي يربّي الناسَ بصِغار العلم قبل كباره». (خ).

عن عبد اللَّه بن مسعود قال: قال النبيّ - ﷺ -:

«لا حسدَ إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلِّط على هلكته في الحق، ورجلٍ آتاه الله الحكمةَ فهو يقضي بها ويعلِّمها». (خ).

والآن نتساءل: إلامَ تؤدي خشية الله التي هي ثمرة العلم؟
إلامَ ينتهي العلماء الصادقون المؤمنون؟
يقول الله تعالى:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[1].

إنهم يصلون عن طريق العلم الذي يثمر الخشية إلى التوحيد: التوحيد الذي هو سمة الدين الإسلامي - كما يرى البيروني - والذي هو - في حقيقة الأمر - سمة التديّن الصادق.

ويشهد العلماء التوحيدَ مع اللَّهِ سبحانه، ومع الملائكة الأطهار.

إن الله سبحانه، قرن العلماء به، وبملائكته، في شهادة التوحيد.

وهذا أسمى ما يمكن أن يصل إليه تكريم العلماء من مكانة.

وشهادة التوحيد التي هي قمة الركن الأول في الإسلام؛ وهو: أشهد أن لا إلّه إلّا اللَّهُ، وأشهد أن محمداً رسولُ الله: لا يشهدها إلا العلماء المؤمنون.

إن شهادة التوحيد هذه، قد وجّه الله الأنظار إليها بأساليب شتى.

---

(١) آل عمران: ١٨.

ومن هذه الأساليب، ما لا يقدره - في وقته وروعته الرائعة - إلا العلماء.

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ
بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾
أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ
الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا
بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ
صَادِقِينَ ﴾[1].

ثم يعقب الله سبحانه على هذه الآيات، بأنه مهما بلغ العلماء بعلمهم، فإن المجهول كثير، وإنه لا يعلم هذا المجهول المغيب إلا الله سبحانه. والتعقيب الكريم معناه: أن العلم لا ينتهي إلى غاية، وأن كشف المجهول رسالة لا تنتهي، ما دامت السماوات والأرض، فيقول سبحانه:

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[2].

ومن أجل شهادة التوحيد، أو من أجل وصول الإنسانية إلى أقصى ما

---

(١) النمل: ٥٩ - ٦٤.

(٢) النمل: ٦٥.

ينْتَهى إليه بالنسبة للإنسانية ـ كلٌّ بحسب استطاعته ـ في معارج القدس ـ حثّ الإسلام على العلم، ووجَّه إليه، وجعله من أُسس الدين نفسه.

لقد حثّ عليه في صور بلغت من الروعة حدّاً لا يجارى.

والآيات والأحاديث التي وجّهت الأمة الإسلامية إلى العلم، كثيرة مستفيضة.

وإذا كان العلماء يشهدون التوحيد مع الله ومع الملائكة، فإن منزلتهم بالمكان السامي، ودرجاتهم سامية في الرفعة والعلو.

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾(١).

ولهذه الجوانب من فضل العلم والعلماء، أمر الله سبحانه وتعالى رسوله ـ وهو قدوة المسلمين وأسوتهم أن يقول:

﴿ رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾(٣).

رب زدني علماً في كل يوم، بل في كل لحظة.

ذلك ما يجب أن يكون شعار المسلم..

وإذا ما ازداد المسلم علماً ازداد خشية.. وإذا ما ازداد خشية تحقق فيه إسلام الوجه لله على صورة أكمل..

---

(١) المجادلة: ١١.
(٢) طه: ١١٤.

ومن الملاحظات التي يجب أن تكون دائماً في الذاكرة: أن الكلمة الأولى التي نزل بها الوحي على المصطفى ﷺ، مبشّرة بعهد من النور جديد، هي كلمة: اقْرَأ.

ورضيت لكم الإسلام ديناً:

ونعود فنتساءل من جديد: ما هو مفهوم الإسلام؟

وقد تحدّثنا عن جانب من ذلك فيما مضى، ونستمر في الحديث عن ذلك الآن من زوايا أخرى، منطلقين في ذلك عن القاعدة التي تشير إلى أن صدق الرسالة دليل على صدق الرسول:

إن الله سبحانه وتعالى، بيّن لنا ـ أمة الإسلام ـ أنه سبحانه وتعالى، رضي لنا الإسلام ديناً. ولكنه سبحانه وتعالى، بيَّن أيضاً: أن الدين عنده، إنما هو الإسلام.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾.

إنه إذاً، الدين الذي أخذ سمة العموم والشمول. .

ومن أجل ذلك، فإن الكلمة نفسها «إسلام» لا تشير إلى شخص معين، فليس مثلها مثل؛ البوذية: التي تشير إلى بوذا، ولا الكنفوشيوسية التي تشير إلى كونفشيوس.

ولا تشير الكلمة إلى جنس كما تشير اليهودية.

ولا تشير إلى مكان، ولا تشير إلى زمن، إنها كلمة لا يحدّها شخص، ولا جنس، ولا زمان، ولا مكان.

إنها تضعنا ـ بمجرد سماعها وفهم معناها ـ مباشرة في محيط

الإطلاق والعموم والشمول.

أما معناها، فقد بيّن القرآن الكريم الكثير من زواياه في غير آية من آياته الكريمة، وبيّن الرسول ﷺ كثيراً من زواياه... والمعنى الكامل لها هو القرآن الكريم كله، وأحاديث الرسول ﷺ الصحيحة الورود عنه، وعمله ﷺ.

إن رسول الله ﷺ قد طبّق الإسلام في مجتمع مثالي، فأخرجه بذلك من نظريات ومبادىء إلى واقع محسوس.

ولعل القارىء الكريم يذكر أن أفلاطون قد أُتيحت له الفرصة أن يطبّق نظرياته التي رسمها في جمهوريته، لقد فوّض إليه الأمر في أن يحقّق جمهوريته بحيث يخرج بها من خيال إلى واقع. فأخفق إخفاقاً كاملاً، وبعد سنوات أُتيحت له الفرصة مرة أخرى فأخفق للمرة الثانية إخفاقاً تاماً، وكان ذلك برهاناً كافياً على أنه يسبح بجمهوريته في عالم الخيال والوهم..

أما رسول الله ﷺ فإنه خرج بالإسلام عن المبادىء المكتوبة إلى الواقع المنظور، وكوّن بذلك وبتوفيق الله مجتمعاً إلٓهياً يسير على النسق الذي أحبّه الله سبحانه وتعالى:

لقد غيّر المجتمع وخرج به من جاهلية إلى إسلام، ومن وثنية إلى توحيد، وكان التغيير جذرياً في المجتمع وفي الأفراد، في السلوك والعقيدة والتشريع.

وانظر ـ إن شئت ـ إلى المجتمع الجاهلي في صورته السابقة للإسلام، ثم في صورته الإسلامية.

واقرأ تاريخ هذه النخبة من الأفراد: أمثال عمر رضي الله عنه،

وخالد بن الوليد، وغيرهما من صفوة المسلمين من الرعيل الأول. . اقرأ تاريخهم قبل الإسلام وبعده، فسترى الفرق الواضح بين عهدين: عهد الجاهلية، وعهد الإسلام.

ولقد بدأ الإسلام بقوة بعقيدة التوحيد: هذه العقيدة التي تعتبر الأساس الأول والأصيل في الدين الإسلامي.

إن البيروني ـ العالم المسلم الذي يقول عنه المستشرق ساخاو «إنه أكبر عقلية ظهرت على وجه التاريخ» قد أخذ يشرح في دقة مستنيرة طابع كل دين، فلما وصل إلى الإسلام، قال:

إن طابعه يتركز في كلمة واحدة هي: التوحيد.

يقول تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(١).

ـ ٢ ـ

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ ﴾(٢) صدق الله العظيم.

ونعود إلى هذه الكلمة القرآنية الكريمة لنرى بعض نتائجها.

من هذه النتائج قوله تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ

(١) آل عمران: ٦٤.
(٢) المائدة: ٣.

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

ومنها قوله تعالى:

﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ ﴾[2].

ومنها قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[3].

والكلمة القرآنية الكريمة التي اتخذناها عنواناً، هي تكملة لكتاب: «نورانية مباركة».

وقد وردت هذه الكلمات على النسق التالي:

﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[4].

عن علي بن طلحة، عن ابن عباس، قوله: «اليوم أكملت لكم دينكم» وهو الإسلام ـ أخبر الله نبيّه ﷺ والمؤمنين: أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً. وقد أتمّه الله فلا ينقصه أبداً، وقد رضيه الله فلا يسخط أبداً.

أما عن عنوان كلمتنا هذه، فإن الإمام الأكبر ابن كثير رضي الله عنه، يقول فيه: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾. أي فارضوه أنتم لأنفسكم فإنه الدين الذي أحبّه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرُّسل

(١) الأنعام: ١٢٥.
(٢) الزمر: ٢٢.
(٣) آل عمران: ١٠٢.
(٤) المائدة: ٣.

الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

ولقد رويتْ في هذه الكلمات المباركة روايات بأسانيدَ مختلفة عن كثير من الصحابة: رَوَى بعضَها الإمام البخاري والإمام مسلم. وَرَوَى بعضَها غيرهما.

نذكر منها روايتان، أما أولاهما: فعن طارق بن شهاب قال:

«جاء رجل من اليهود إلى عمرَ بنِ الخطاب، فقال:

يا أميرَ المؤمنين، إنكم تقْرَءون آية في كتابكم لو علينا ـ معشرَ اليهود ـ نزَلت لاتخذنا ذلك اليومَ عيداً.. قال: وأيّ آية؟.. قال:

قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1] ـ فقال عمر:

(والله، إني لأعلم اليوم الذي نَزّلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشيةَ عرفة في يوم الجمعة)[2].

وأما ثانيتهما، فعن عمّار ـ مولى بني هاشم ـ أن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قرأ: (٣)

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[3].

فقال اليهودي: لو نزلت هذه الآية علينا لاتخذنا يومها عيداً.

فقال ابن عباس: فإنها نَزَلت في يوم عيدين اثنين: «يوم عيد (وعرفة عيد) ويوم جمعة»[4].

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) رواه أحمد والشيخان بنحوه والترمذي والنسائي.

(٣) المائدة: ٣.

(٤) رواه ابن جرير.

وكما يعتبر نـزول: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾[1]: مفتتح الوحي، وتعتبر عيداً بالنسبة للمسلمين.. فإن نزول:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[2]: آخر نزول الوحي، وعيداً بالنسبة للمسلمين.

وبعد: فقد روى البغوي ـ بسنده ـ عن جابر بن عبد اللّه قال:

سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال جبريل: قال الله عزّ وجل:

(هذا دينٌ ارتضيته لنفسي[3]، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه).

- ٣ -

﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾.

إن طابع الإسلام الأصيل إنما هو التوحيد كما قلنا.. التوحيد في العقيدة، والتوحيد في العبادة، والتوحيد في الأخلاق.

والتوحيد في العقيدة، تعبّر عنه كلمة الصدق والإخلاص: أشهد أن لا إله إلا الله.

وعقيدة التوحيد كانت أساسَ الرسالة الإسلامية في مكة، واستمرت كذلك في المدينة:

يروي الإمام أحمد، عن ربيعة بن عباد ـ وكان جاهلياً أسلم ـ قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ، بَصَرَ عَيْني، بسوق ذي المجاز، يقول:

«يا أيها الناس، قولوا «لا إله إلاّ الله»، تُفْلِحُوا». ويدخل فجاجها

(١) العلق: ١.
(٢) المائدة: ٣.
(٣) أي لا أقبل غيره كما قال تعالى: ﴿ ومَن يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ﴾.

والناس متقصفون عليه ـ أي مجتمعون حوله ـ فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت، يقول:

«يا أيها الناس، قولوا لا إلّه إلّا الله تُفْلِحُوا».

وفي ذلك يقول ﷺ:

«جَدِّدوا إيمانكم، قيل: يا رسول الله، وكيف نجدّد إيماننا؟.

قال: أكثروا من قول: لا إلّه إلّا الله»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما قال عبد قطّ لا إلّه إلّا الله مخلصاً، إلا فُتِحت له أبوابُ السماء حتى يُفْضَى إلى العرش، ما اجتُنِبَتِ الكبائرُ»(٢).

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال:

«أفضلُ الذكر: لا إلّه إلّا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»(٣).

وإن من الكلمات التي تعبّر عن التوحيد قولَ المؤمنين:

(لا إلّه إلّا اللّهُ وحده لا شريك له: له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كل شيء قدير).

ولأن هذه الكمةَ تعبّر عن التوحيد الخالص، كان ثوابها عند الله عظيماً وكانت مكانتها سامية..

أما عن مكانتها، فعن يعقوب بن عاصم رضي الله عنه، عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ، أنهما سمعا رسول الله ﷺ، يقول:

---

(١) رواه أحمد والطبراني وإسناد أحمد: حسن.

(٢) رواه النسائي.

(٣) رواه ابن ماجة والنسائي وابن حبان في صحيحه والحاكم.

«ما قال عبدٌ قطّ: لا إلَه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، مخلصاً بها رَوحه، مصدقاً بها قلْبُهُ، ناطقاً بها لسانُه، إلا فَتَقَ الله عزّ وجل له السماء فتقاً، حتى ينظرَ إلى قائلها من الأرض، وحق لعبد نظر الله إليه أن يُعْطِيه سُؤلَه».

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدّه رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«خير الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفة، وخير ما قلتُ أنا والنبيّون من قبلي: لا إلَه إلّا الله وحده لا شريك له: له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير»(١).

وأما عن ثوابها، فقد أخرج الإمامان البخاري ومسلم ـ رضي الله عنهما ـ من حديث أبي هريرة ـ نضّرَ الله وجهه ـ أن رسول الله ﷺ، قال:

«مَن قال لا إلَه إلّا اللَّهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، مائة مرة، كانت له عِدْلَ عشرِ رقاب، وكُتِبَت له مائةُ حسنة، ومحِيَتْ عنه مائةُ سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك، حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك».

ومن الكلمات التي تعبّر عن التوحيد تعبيراً قوياً:

«لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله».

وهي كنز من كنوز الجنة: فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال له:

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن غريب.

«قل: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«أكثِرْ من قول: لا حولَ ولا قوةَ إلّا بالله العليّ العظيم، فإنها من كنز الجنة»[2].

وروى الحاكم ـ وقال صحيح لا علّة له ـ أن رسول الله ﷺ، قال لأبي هريرة:

«ألا أعْلِمكَ. . أو: ألا أدلّك ـ على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة؟. . تقول: لا حولَ ولا قوة إلا بالله، فيقول الله: أسْلَمَ عبدي واستسلم».

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ، ليلة أُسرِيَ به مرَّ على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فقال: مَن معك يا جبرائيل؟ قال: هذا محمد ـ فقال له إبراهيم عليه الصلاة والسلام:

«يا محمد، مُرْ أُمَّتَكَ فليكثروا من غِراس الجنة، فإن تربَتَها طيبةٌ، وأرضَها واسعة، قال: وما غِراس الجنة؟. . قال: لا حول ولا قوة إلا بالله».

كل ذلك لأن هذه الأذكار تعبّر عن التوحيد الخالص. .

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

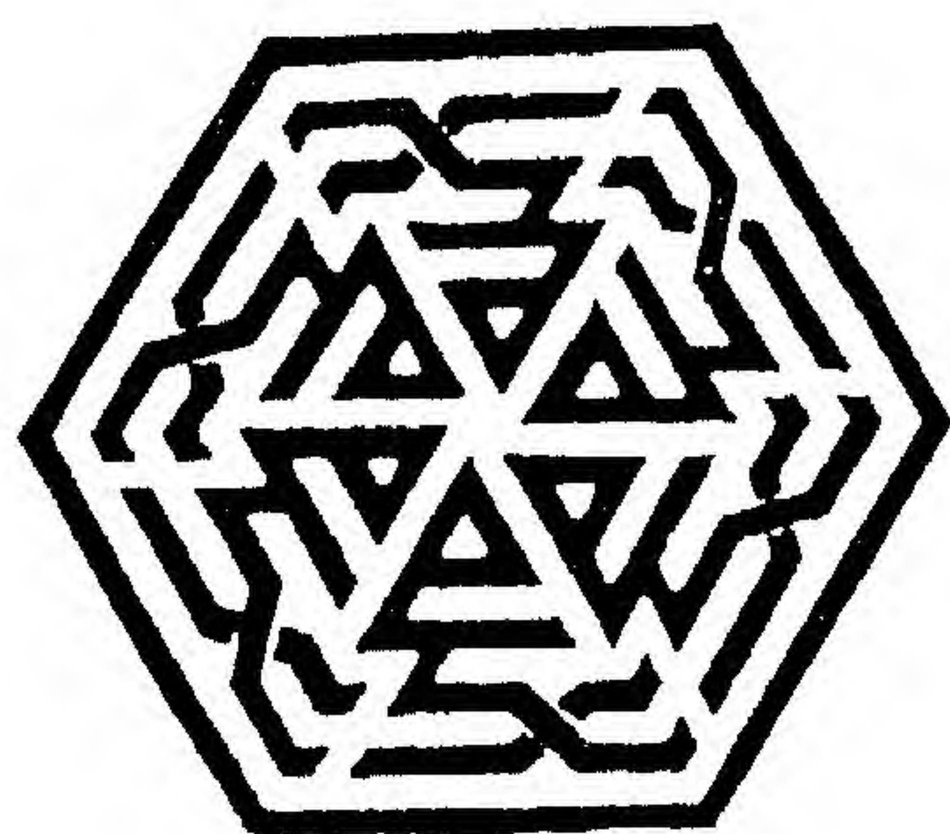
(٢) رواه النسائي والبزار مطوّلاً. ورواته ثقات محتج بهم.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الخامس

البيعة



البيعة

وصلة البيعة بمفهوم الرسالة واضح كل الوضوح: إن البيعة تحمل الرسالة وهذا الفصل إذن شديد الارتباط بما قبله. إنه شرح لمفهوم الرسالة في صورة ثانية، ونحن به نشرح مفهوم الرسالة مرة أخرى.

روى الإمام البخاري - رضي الله عنه - من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه - وكان عبادة قد شهد بدراً، وهو أحد النقباء ليلة العقبة - أن رسول الله ﷺ قال - وحوله جماعة من أصحابه:

«بايعوني على أن لا تُشرِكوا بالله شيئاً، ولا تَسرِقوا، ولا تَزْنوا، ولا تقتلوا أولادَكم ولا تأتُوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فَمَن وَفَى منكم فأجره على الله، ومَن أصاب من ذلك شيئاً فَعُوقب في الدنيا فهو كفّارةٌ له، ومَن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله؛ فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه وإن شاء عاقبه»؛ فبايعناه على ذلك. . .

وروى الإمام أحمد من حديث سلمى بنت قيس - وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ وقد صلَّت معه إلى القبلتين، وكانت إحدى نساء بني عديّ بن النجاري - قالت:

جئتُ رسولَ الله ﷺ نبايعُه في نسوةٍ من الأنصار فلما شَرَط علينا أن لا نشركَ بالله شيئاً ولا نسرقَ ولا نزنِيَ ولا نقتلَ أولادنا ولا نأتِيَ ببهتانٍ نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نَعْصِيَهُ في معروف، قال: «ولا تَغْشُشْنَ أزواجَكن». قالت: فبايعناه ثم انصرفنا؛ فقلت لامرأة منهنّ: ارجعي فَسَلي رسول الله ﷺ: ما غش أزواجنا؟ فسألته فقال: «تأخذ ماله فتحابي به غيرَه».

ولقد وردت بيعة النساء في القرآن الكريم؛ يقول تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(1).

وروى البخاري بسنده عن جرير بن عبد اللّه قال: أتيت النبيّ ﷺ فقلت أُبايعك على الإسلام... فشرط عليّ، والنصحِ لكل مسلم... فبايعته على هذا.

ومما يفصل هذه البيعة قوله تعالى:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ

(1) الممتحنة: ١٢.

بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1].

وإذا أردنا إجمالاً للتعاليم الإسلامية من القرآن الكريم، فهو قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[2].

وهذه الآية الكريمة ألَّف فيها الإمام العزّ بن عبد السلام ـ كما يقول صاحب كتاب النصيحة العلوية ـ كتاباً بيَّن فيه أن هذه الآية اشتملت على جميع الأحكام الشرعية، وبيّن ذلك في سائر الأبواب الفقهية، وسمّى ذلك كتاب الشجرة.

ويقول تعالى:

﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[3].

ويقول سبحانه:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) النحل: ٩٠.

(٣) البقرة: ١٧٧.

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا
خَٰلِدُونَ﴾ (١).

والقصص التالية، تلقي بعض الضوء على مفهوم الرسالة الإسلامية:

* لما ظهر النبيّ ﷺ بمكة؛ ودعا إلى الإسلام، بعث أكثم بن صيفي ابنه، حبيشان فأتاه بخبره؛ فجمع بني تميم وقال لهم ـ فيما قال ـ:

إن ابني شافَهَ هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره، وكتابه: يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران. وقد حلف ـ عرف ـ ذو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي تَرْكُ ما ينهى عنه.

ثم يقول هذه الكلمات الرائعة:

«إن الذي يدعو إليه محمد؛ لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً».

وسبيل الله كما رآه أكثم، هو توحيد الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ والأخذ بمحاسن الأخلاق.

وكلمة: الأخذ بمحاسن الأخلاق، كلمة جميلة: جمعت فاستغرقت، وشملت فعمّت.

---

(١) المؤمنون: ١ ـ ١١.

أما كلمته الرائعة حقاً، السامية حقاً، العجيبة في صدقها وإيجازها وفصاحتها فهي قوله:

«إن الذي يدعو إليه محمد، لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً».

ولما هاجر المسلمون إلى أرض الحبشة، شرح جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، للنجاشي مفهوم الرسالة الإسلامية قائلاً:

أيها الملك؛ كنّا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل المَيْتَة، ونأتي الفواحش؛ ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار؛ ويأكل القويُّ منّا الضعيفَ، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا: نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحِّدَه ونعبده؛ ونخلعَ ما كنّا نعبد وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان...

أمرَنَا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار والكفّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده: لا نشرك به شيئاً؛ وأمر بالصلاة والصيام... وعدَّد له أمور الإسلام.. ثم قال: فصدَّقْناه وآمنّا به، واتبعناه على ما جاءِ به من الله؛ فعبدنا الله وحده، ولم نشرك به شيئاً؛ وحرَّمنا ما حرّم علينا وأحلَلْنا ما أحلّ لنا... فعدا علينا قومنا: فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليردُّونا إلى عبادة الأوثان، من عبادة الله تعالى، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلُّ من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك.

ولمَّا قَرَأ عليه صدراً من صورة مريم، بكى النجاشي، ثم قال:

إن هذا والذي جاء به عيسى، لَيخرُجُ من مشكاةٍ واحدة..؛ لقد قرر النجاشي فور سماعه المبادىء الإسلامية:

إن هذه المبادىء حق، وإنها آيات بيّنات: لا يخفى صدقها على أصحاب الفطر السليمة. وعلم أن ما أتى به محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ إنما يصدر من المنبع الذي كانت تصدر عنه رسالة عيسى عليه السلام.

وسبيل الله كما صوّره سيّدنا جعفر: توحيد الله وعبادته وحده، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء، وإقامَ الصلاة وأداء الزكاة والصيام، والابتعاد عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة.

أول عقد من عقود البيعة

وأول عقد من عقود البيعة عدم الإشراك بالله:

وحينما يسمع الناس الحديث عن الإشراك بالله، يتجه ذهنهم في الأغلب الأعمّ منهم، إلى نفي تعدّد الآلهة..

إن الذهن يتجه: إلى أن هذه العقيدة التي كانت عند اليونان ـ في عهودهم القديمة من تعدّد الآلهة، وعند العرب في جاهليتهم من عبادة الأصنام ـ عقيدة باطلة.

لقد جعل اليونان إلَهاً لكل ظاهرة من ظواهر الكون الكبرى، وكذلك فعل قدماء المصريين في عامتهم وشعبهم، وكذلك فعل وثنيو العرب...

بل إن الإنسانية ـ وقد بدأت بالتوحيد الخالص على لسان آدم عليه السلام ـ قد انحرفت سريعاً إلى التعدّد. فأخذت الأنبياء والرسل تنزل تباعاً، مبشّرة بالتوحيد، مجاهدة في سبيل منع التعدّد، وفي سبيل القضاء على الوثيقة المنتشرة..

ولقد كان عدد الأنبياء والرسل كثيراً، كثرة تتناسب والانحراف المتوالي من الإنسانية منذ ظهورها. لقد نزل الأنبياء جميعاً يبشّرون بالتوحيد، وكان كل نبي يدعو أمته إلى مثل ما دعا محمد ﷺ ـ الإنسانية جمعاء.

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ﴾(١).

وسورة يونس، وسورة هود، والكثير من سور القرآن ـ على وجه العموم ـ تتحدث عن دعوة الرُّسل قومهم إلى التوحيد.

يقول سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٖ ﴾(٢).

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾(٣).

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ﴾(٤).

وهكذا، نرى كل نبيٍّ يدعو إلى عدم الشرك بالله، إنه يدعو إلى

(١) هود: ٢.
(٢) هود: ٢٥ ـ ٢٦.
(٣) هود: ٥٠.
(٤) هود: ٦١.

عبادة الله وحده، فإذا اتجه الذهن إلى عدم تعدّد الآلهة وإلى الوحدانية، فإن هذا الاتجاه طبيعي، وهو اتجاهٌ حق...

وهذا النوع من الشرك هو الذي يقول الله سبحانه وتعالى عنه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾(١).

وهو الذي ينفيه الله منطقياً بقوله:

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٢).

وبقـــوله:

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾(٣).

ولكن التوحيد ليس معناه عدم التعدّد فحسب، كلا، وهو ـ وإن كان من معانيه عدم التعدّد ـ فإن دائرته تتّسع فتشمل أموراً أخرى.

يقول أبو سعيد الخراز:

«فمِنْ شَرْحِ ذلك: أن يكون العبد: يريد اللَّهَ عزّ وجل، بجميع أعماله وأفعاله، وحركاته كلها: ظاهرها وباطنها؛ لا يريد بها إلا اللَّهَ وحده، قائماً بعقله وعلمه على نفسه وقلبه؛ راعياً لهمّه، قاصداً إلى الله تعالى بجميع أمره».

وهذا الذي يقول الإمام أبو سعيد الخراز ـ رضي الله عنه ـ هو تصوير لبعض معاني التوحيد الخالص.

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٢٢.

(٣) المؤمنون: ٩١.

والتوحيد الخالص لا رياء فيه، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾(1).

وإن المادة الأولى من البيعة الإسلامية تعني ـ فيما تعني من معانٍ ـ تجريد القصد لله تعالى في كل عمل. وإلا فلا ثواب ولا قبول للعمل.

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾(2).

ولقد تحدّث القرآن الكريم عن الإخلاص والصدق، وتحدّث عنهما رسول الله ﷺ، فيما لا يكاد يُحْصَى من النصوص والأحاديث.

والتوحيد الخالص والشرك، يبدآن بالنّية.

يقول رسول الله ﷺ، مبيّناً أن قيمة الفعل في الخير والثواب والقبول، تتبع النّية.

«إنما الأعمال بالنِّية، وفي رواية بالنّيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوى، فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرته لدنيا يُصِيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُهَا فهجرته إلى ما هاجر إليه»(3).

فإذا صدقت النّية استقام أمر المسلم فيما بعد. وإذا هفا الإنسان هفوة. فعليه أن يتدارك الأمر: بالتوبة وصدق النّية من جديد..

وصدق النّية شرط من الشروط التي يترتب عليها قبول العمل.

عن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(1) الزمر: ٣.

(2) الكهف: ١١٠.

(3) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

«إن الله تبارك وتعالى ـ يقول: أنا خيرُ شريكٍ، فمَن أشْـرَك مَعِي شريكاً فهو لشريكي، يا أيها الناس، أخْلِصُوا أعمالكم، فإن الله تبارك وتعالى؛ لا يقبل من الأعمال إلا ما خَلُصَ له، ولا تقولوا: هذه لله وللرحم؛ فـإنها للرحم وليس لله فيهـا شيء. ولا تقولـوا: هـذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء»(١).

وعن أبي أمامةَ قال:

«جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: أرأيتَ رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له ـ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيءَ له»، فأعادها ثـلاث مرات».. ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيءَ له». ثم قال ﷺ: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالِصاً وابْتغِيَ به وجْهُهُ»(٢).

والواقع أن الإسلام يعلّق أهمية كبيرة على إخلاص النيّة لله سبحانه وتعالى، فإن في إخلاصها لله صدق السريرة، وطهارة القلب. وفيها انتفاء التملّق والزلفى. وبها تنتفي الزلّة وينتفي الزيف والرياء.

ومن أجل ذلك؛ حذَّر رسولُ الله ﷺ من الرياء تحذيراً شديداً، وحثّ على الصدق والإخلاص في صور شتى..

ولقد قام رسول الله ﷺ، وحيداً فريداً: يدعو إلى التوحيد بكل معانيه، ويعلن الحق في وجه الباطل، ويدعو إلى الله في وسطٍ كله شرك، ويدعو إلى تحطيم الأصنام في بيئة تعبد الأصنام. ودعوته ﷺ ورسالته إلى العالم أجمع، إنما كان أساسها التوحيد. والإسلام إنما هو دين التوحيد، والتوحيد هو الإيمان الصادق اليقيني: بأن المهيمن على الكون والمتصرّف فيه إنما هو الله سبحانه؛ وأنه لو اجتمع أهل السموات

---

(١) رواه البزار بإسناد لا بأس به والبيهقي.

(٢) رواه أبو داود والنسائي بسند جيد.

والأرض على أن ينفعوا أي إنسان بشيء، ما نفعوه إلا بشيء قد قدَّره الله له، ولو اجتمعوا على أن يضرّوا أيّ إنسان بشيء، ما ضَرُّوه إلا بشيءٍ قد قدَّره الله عليه..

وإذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك لا محالة ـ فإنه لا يجتمع الإيمان الصادق والخوف من غير الله تعالى في قلب المؤمن..

والتوحيد صراط الله...

وأول عقد من عقود البيعة إنما هو عدم الإشراك بالله. إنه التوحيد.

ونحن لا نملّ الحديث عن التوحيد حتى ولو اتسمنا من أجل ذلك بشيء من التكرار، فإنه تكرار لتمكين الفكرة وتثبيتها.

يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(١).

وصراط الله: أساسه وجوهره، إنما هو التوحيد.

إن التوحيد، هو أساس صراط الله الذي لا يقيده زمان ولا يحدُّه مكان.

ومن أجل ذلك، كان الأساس في دعوة جميع الأنبياء والرُّسل:

يقول تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(٢).

---

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) هود: ٥٠.

ويقول سبحانه:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ (١).

ويعمّم الله سبحانه وتعالى الحكمَ تعميماً، ويجعله شاملاً شمولاً مطلقاً، فيقول:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ (٢).

وهكذا كان التوحيد: دعوة جميع الأنبياء والرسل.

والتوحيد الذي هو جوهر الرسالات؛ إنما هو التوحيد الشامل العام... أي توحيد الله سبحانه بالإلهية، وتوحيده بالربوبية، وتوحيده بالسيطرة والهيمنة على كل صغيرة وكبيرة:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

ولا يتأتى ـ والله مالك الملك ـ أن يسأل الإنسانُ غيرَ الله، أو أن يستعين بغيره.

وشعار المؤمنين، الصادقين؛ هو: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٤).

إن شعارهم: «إذا سألتَ فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعن بالله،

---

(١) هود: ٦١.
(٢) الأنبياء: ٢٥.
(٣) آل عمران: ٢٦.
(٤) الفاتحة: ٥.

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[1]. . .

ويوضح هذا الإمام القشيري فيقول: إن الله تعالى مُغْنٍ عبادَهُ بعضَهم عن بعض، لأن الحوائج ـ على الحقيقة ـ لا تكون إلاّ إليه، فالمخلوق لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً. . . فكيف يملك ذلك لغيره؟. . .

ولهذا قيل: «تعلُّقُ الخلق بالخلق؛ تعلق المسجون بالمسجون». وقيل: «من رفع حاجَتَهُ إلى الله تعالى، ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره؛ ابتلاه الله بالحاجة إلى الخلق، ثم نزع رحمته من قلوبهم». . .

ومعنى التوحيد الحقيقي في النهاية: أن يُلْقِيَ الإنسان بقياده ـ في استسلام مطلق ـ إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يخلص له وجهه إخلاصاً لا رياء فيه.

ولقد سُئِلَ رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: «إنه الإخلاص». . .

ويقول سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2].

«فكل ما ليس خالصاً لوجهه لا يثيب عليه، ولا يتقبله».

ولقد بيَّن رسول الله ﷺ: أن الرياء ـ على اختلاف صوره ـ شركٌ يحبط العمل. . .

---

(١) من حديث رواه الترمذي وقال فيه حسن صحيح، وهو حديث أوصى فيه النبيّ ﷺ ابن عمّه عبد الله بن عباس أوله «يا غلام أعلّمك كلمات: احفظ الله يحفظك».

(٢) الزمر: ٣.

يقول رسول الله ﷺ ـ فيما رواه الإمام أحمد ـ:

«إن أخْوَفَ ما أخافُ على أُمَّتي: الشركُ الأصغر» قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: «الرياء». يقول الله عزّ وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: «اذهبوا إلى الذين كنتم تُرَاءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»؟

والرياء مجموعة من الآثام: تنزل بالإنسان إلى مستوى من الأخلاق غير كريم.

ولقد حذَّرَ رسول الله ﷺ منه في مختلف صوره.

من ذلك ما قاله ﷺ ـ فيما رواه البيهقي:ـ

«مَن صَام يُرائي، فقد أشرك، ومَن صلّى يُرائي فقد أشرك، ومَن تَصدَّق يُرائي فقد أشرك»...

وبعـــد:

فإن كل عمل لا يراد به وجهُ الله شرك يتنافى مع التوحيد: لا يتقبله ولا يثيب عليه.

والفيصل في هذا، هو ما حدَّث به رسول الله ﷺ، في الحديث الشريف الذي يُعتبَرُ مبدأً هامّاً من مبادىء الإسلام:

روى البخاري ـ رضي الله عنه ـ بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الأعمالُ بالنيّات، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوى، فَمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومَنْ كانت هجرته لِدُنْيا يصيبها، أو امرأة يَنكِحُهَا، فهجرته إلى ما هاجر إليه».

اهدنا الصراط المستقيم:

يقول تعالى في سورة الفاتحة:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾(1). والصراط المستقيم، هو صراط الله الذي رسمه سبحانه في كتابه العزيز، وعلى لسان نبيّه الكريم..

لقد رسمه الله سبحانه منهجاً ووسيلةً، ورسمه مبادىء وقواعد، ورسمه غاياتٍ وأهدافاً.

ونحن بهذه الآية الكريمة، نتجه إلى الله سبحانه، ندعوه أن يَهْدِيَنا إلى صراطه المستقيم. وذلك أنه لا يهدي إليه إلا هو.

يقول سبحانه في حديث قدسي: «يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا مَن هديته، فاستهدوني أَهْدِكُمْ»(2).

إن الهداية من الله سبحانه؛ وأن مَن يهدِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فلا هادي له. وإذا هدى الإنسان إلى الصراط المستقيم؛ فقد فاز بالخير الذي أحبه الله للإنسان كاملاً غير منقوص.

والصراط المستقيم: هو الإيمان الصادق... الإيمان الاتّباعي:

أي الإيمان الذي تتحكم فيه التعاليم الإلّهية تحكماً تامّاً، ويسير في إطارها: راضياً مستسلماً مسلماً:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾(3).

---

(1) الفاتحة: ٦، ٧.

(2) من حديث قدسي طويل أوله: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي..».

(3) النساء: ٦٥.

إن المؤمن، لا يؤمن حتى يحكِّمَ رسول الله ﷺ في أمور عقيدته، وفي أمور أخلاقه، وفي أمور تشريعه. وحتى يتقبل ذلك في سكينة واطمئنان وغبطة.

ويصف الله سبحانه المؤمنين الصادقين فيقول: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾(١).

وهذا الوصف للمؤمنين، يتناول وصف الأساس القلبي: إنه إيمان لا ريب فيه... ويتناول الأثر والمظهر: إنه الجهاد في سبيل مَن آمن به: جهاد النفس، وجهاد المال: جهاد بجميع أقطار النفس، وجهادٌ بكل ما تملك.

وهذه الآية الكريمة، تعتبر مقياساً صادقاً لكل مَن أراد أن يتبين حقيقة إيمانه.

والطريق المستقيم غايته ونهايته التي يؤدي إليها، إنما هي الله سبحانه وتعالى...

وقد حدّدها سبحانه بقوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾(٢) وليس دون الله منتهى للمؤمن.

وغاية المؤمن ـ كل غايته ـ إنما هي الله سبحانه وتعالى...

ويبتدىء السير إلى الله بالتوبة الخالصة النصوح.

والتوبة الخالصة النصوح هي أول خطوة على الطريق المستقيم.

---

(١) الحجرات: ١٥.
(٢) النجم: ٤٢.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1] ويقول سبحانه في حديث قدسي: يا عبادي: «إنكم تُخْطِئُون بالليل والنهار؛ وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفِرلكم»[2].

ورسول الله ﷺ يقول ـ فيما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: ـ «والله، إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

ويقول ﷺ، فيما رواه الإمام مسلم عن الأغر بن يسار رضي الله عنه: «يا أيها الناس: توبوا إلى الله واستغفروه، فإني أتوب في اليوم مائة مرة».

والصراط المستقيم إذن: يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح. وليس له دون الله منتهى.

والله سبحانه وتعالى، يصف المؤمنين ـ مبيّناً خطواتهم في الطريق إلى الله، أو مبيّناً الطريق نفسه في تساميه وتدرجه ـ فيقول سبحانه في وصفهم: ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ﴾[3].

ثم يختم الله سبحانه وتعالى، هذا الوصف بقوله سبحانه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4].

وبعـــد:

فإن قول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) النور: ٣١.

(٢) من الحديث القدسي السابق الذي رواه مسلم وأوله: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي».

(٣)، (٤) التوبة: ١١٢.

﴿ وبشّر المؤمنين ﴾.
لا يحدُّه حدود، ولا يقيده قيود، فالبشرى مطلقة:
إنها بُشرى الله لهم: بالنجاة، وبالفوز في الدنيا والآخرة.

إجمال في معنى التوحيد:
أو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

يقول الله تعالى في سورة الفاتحة:
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(1).

روى الإمام ابن كثير عن بعض السلف قوله:
«إنَّ الفاتحة سِرُّ القرآن، وسرَّها هذه الكلمة».
﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(2).

فالأول: أي قوله تعالى: ﴿ إياك نعبد ﴾: تبرؤٌ من الشرك.

الثاني: أي قوله تعالى: ﴿ وإياك نستعين ﴾: تبرؤٌ من الحَوْل والقوة، وتفويض الأمر إلى الله عزّ وجل.

وهذا المعنى ورد في كثير من آيات القرآن... منها قوله تعالى:
﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾(3)...

هذه الكلمة القرآنية، قد قدّم الله سبحانه وتعالى لها، بما يعتبر أساساً ومبرراً، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(4).

---

(1)،(2) الفاتحة: ٥.
(3) هود: ١٢٣.
(4) هود: ١٢٣.

والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله ﷺ، قائلاً له: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾(١).

ويقول سبحانه: ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾(٢).

وما من شك في أن الآية الكريمة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(٣) تعني ـ عناية واضحة ـ وجوبَ إخلاص العبادة لله وحده، ووجوبَ قصر الاستعانة على الله وحده. والقرآن يوضّح ـ بما لا مزيد عليه ـ أن الله سبحانه وتعالى، هو وحده المتصرّف في الكون.. إنه المتصرف في اليسير من أمر الكون وفي العظيم منه: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) وهو سبحانه كما يملك السموات والأرض وكما يمسكهما أن تزولا: ﴿ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ﴾(٥)، ـ فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم:

إنه يملك البصر في العين، ويملك السمع في الأُذن؛ كما يملك العين والأُذن. ويملك الصحة في الجسم الصحيح، ويملك الجاه عند ذوي الجاه.

ولو شاء سبحانه لأزال ذلك كله ومنع استمراره.

إن قوله تعالى: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾(٦) عام شامل...

ومن أجل ذلك: فإن العبادة يجب أن تكون خالصة له. وإن

---

(١) الملك: ٢٩.
(٢) المزمّل: ٩.
(٣) الفاتحة: ٥.
(٤) آل عمران: ٢٦.
(٥) فاطر: ٤١. (٦) هود: ١٢٣.

الاستعانة يجب أن تتمحص له.

ولقد رسم سبحانه الوسيلة الصحيحة للاستعانة به المثمرة:

إنها إخلاص العبادة له... فمَن أحب أن يكون اللَّهُ سبحانه وتعالى معه بالتوفيق والتيسير والعون... مَن أحب أن يستجيب الله له ـ فليحقّق العبودية له سبحانه:

﴿ فإياكَ نعبد ﴾: وسيلة لتحقيق ﴿ وَإياكَ نستعين ﴾.

وفي حديث قدسيّ رواه الإمام البخاري توضيح لذلك.

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه: «مَنْ عَادى لي وَليّاً فقد آذنته بالحرب؛ وما تَقَرَّب إليَّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحِبَّهُ، فإذا أحبَبْتُهُ كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصَرَه الذي يُبْصر به، ويَدَهُ التي يَبْطِش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذَ بي لأعِيذَنَّه»...

وهذا الحديث الشريف يبيّن ـ في وضوح ـ أن أحبّ شيء يتقرب به الإنسان إلى الله، إنما هو أداء ما افترضه الله عليه، وأن الإكثار من النوافل ـ مع أداء الفرائض ـ وسيلة إلى حبّ الله سبحانه وتعالى لعبده.

وإذا أحبّ الله إنساناً، كان معه بالتوفيق والهداية والتيسير، واستجاب له إذا سأل، وأعاذه إذا استعاذ..

وبعد:

فإن ﴿ إياكَ نعبد وإياك نستعين ﴾ هي تحقيق للإيمان الصحيح، والتقوى الصَّادقة، أي أنها الصورة الواقعية لأولياء الله سبحانه[1].

---

(١) ألّف ابن قيّم الجوزية كتاباً قيّماً في ثلاثة أجزاء كبيرة سمّاه «مدارك السالكين بين منازل ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾».

والله تعالى يقول:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

ومن معاني التوحد الالتجاء إلى الله في اليسير من الأمور والعظيم منها.

يقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[2].

إن من أجمل ما يفسر هذه الآية الكريمة، الحديث القدسيُّ الصحيح الذي رواه الإمام مسلم، والذي كان أبو إدريس الخولاني - رضي الله عنه - يرويه كثيراً، وكان حينما يرويه يجثو - رضي الله عنه - على ركبتيه احتراماً وتقديساً للحديث، ثم يبدأ في ذكره:

عن رسول الله ﷺ؛ فيما يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يا عبادي: إني حَرَّمتُ الظلم على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحَرَّماً، فلا تظالموا.

يا عبادي: كلكم ضالٌّ إلاّ مَن هديتهُ، فاستَهْدُوني أَهْدِكُمْ.

يا عبادي: كلكم جائعٌ إلا مَن أطعمته فاستطعموني أُطْعِمْكُمْ.

يا عبادي: كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أَكْسِكُمْ.

يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوبَ جَميعاً،

---

(١) يونس: ٦٢ - ٦٤.

(٢) فاطر: ١٥.

فاستغفروني أَغفِرْ لكم.

يا عبادي: إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتضروني، ولن تبلغوا نَفْعي فتنفعوني.

يا عبادي: لو أن أوّلَكُمْ وآخِرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أن أوّلَكُمْ وآخرَكم وإنسَكم وجِنّكم كانوا على أفجَرِ قلب رجلٍ واحدٍ منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئاً.

يا عبادي: لو أن أولَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنّكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر.

يا عبادي: إنما هي أعمالُكم أُحْصِيهَا لكم، ثم أوفيكم إياها، فَمَنْ وجد خيراً فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَن وَجَد غيرَ ذلك فلا يَلُومَنَّ إلا نفسَه».

وما من شك في أن الإنسان ـ في كل أحواله ـ فقير إلى الله:

إنه فقير إلى الله فقراً مطلقاً، في الناحية المادية على اختلاف أنواعها:

﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾(١). ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾(٢). ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾(٣).

---

(١) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٢) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٥.

(٣) الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.

والإنسان فقير إلى الله في هدايته الروحية:

وإننا لنردّد كل يوم مرات عدّة:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[1].

والذين أنعم الله عليهم، هم الذين اتبعوا هديه، وعملوا به، والتزموه. وهدى الله سبحانه وتعالى، يتضمنه القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة.

وإذا كان فقر الإنسان إلى الله في الجانب المادي فقراً مطلقاً، فإن فقره إلى الله ـ في الجانب الروحي ـ فقر مطلق أيضاً.

وبعـــد:

فيقول صاحب كتاب التحبير:

«وإغناءُ اللَّهِ عبادَهُ على قسمين»:

فمنهم مَن يغنيه بتنمية أمواله، وهم العوّام، وهو غِنىً مجازي.

ومنهم مَن يغنيه بتصفيةِ أحـواله، وهم الخـواص، وهو الغنى الحقيقي، لأن احتيـاج الخلق إلى همّة صـاحب الحال، أكثـر من احتياجهم إلى لقمة صاحب المال..

الرسول ﷺ والتوحيد:

ونعود فنقول:

إن أول عقد من عقود البيعة. قد حقّقه رسول الله ﷺ، كما يحب الله ورسوله. ويقول في ذلك فضيلة المرحوم الشيخ الدجوي، هذه الكلمات النفيسة التي تصوّر بعض الحقيقة عن توحيد رسول التوحيد:

---

(١) الفاتحة: ٦ ـ ٧.

وبعد، فَمَنْ نظر في أحواله ﷺ، وجده غريقاً في بحر التوحيد، قد امتزج خوفه من الله ومراقبته إياه، بلحمه ودمه، مما يستحيل أن يكون من رجل تلعب به الشهوات، أو تحيط به الظلمات؛ فإذا صادفك الرشد، وبحثت في أحواله عليه السلام، وجدته رجاعاً إلى الله في كل شيء (شأن الأنبياء والمرسلين) فكان يقول إذا جاءه أمر يُحِبّه: «الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات».

وإذا جاءه أمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال».

وإذا أراد أمراً قال: «اللّهمّ خِرْ لي[1] واخترْ لي».

وإن أراد سفراً إلى قوم قال: «اللّهمّ بك أصول وبك أجول».

وإن أراد نوماً قال: «اللّهمّ باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه».

وإن استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور».

وإن لبس ثوباً جديداً قال: «الحمد لله الذي رزقني ما أتجمل به في حياتي».

وإن أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسَقَانَا، وجعلنا مُسْلِمِين».

وإن شرب قال: «الحمد لله الذي جعل الماء عَذْباً فراتاً برحمته، ولم يجعله مِلْحاً أجّاجاً بِذُنُوبِنَا».

وإذا أفطر قال: «الحمد لله الذي أعانني فصمت، ورزقني فأفطرت».

وإذا انقلب من الليل في فراشه قال: «لا إلّه إلّا اللّهُ الواحد

---

(١) خار له في الأمر بخير: جعل له الخير فيه.

القهّار، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار».

وإذا هبّ من نومه ليلاً قال: «ربِّ اغفرْ وارحَمْ واهدِ للسبيل الأقوم».

وإذا خاف قوماً قال: «اللّهمّ إنّا نَجْعَلُكَ في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

وإذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، ولا حولَ ولا قوة إلا بالله. اللّهمّ إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ أو أذِلَّ أو أُذَلَّ أو أظلِمَ أو أُظلَمَ أو أجْهَل أو يُجْهَل عليَّ».

وإذا رأى الهلال قال: «هلال خيرٍ ورشدٍ: آمنت بالذي خلقك».

وإذا رفع بصره إلى السماء قال: «يا مُصَرِّفَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على طاعتك».

وإذا حلف قال: «والذي نَفَسُ محمد بيده».

وإذا عصف الريح قال: «اللّهمّ إني أسألُكَ خَيْرَهَا وخيرَ ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرّها وشرّ ما فيها وشرّ ما أرسلت به».

وهكذا في شأنه كله، كان غريقاً في النظر إلى الله؛ والاستمداد من الله؛ والالتجاء إلى الله: لا يرى ـ لنفسه ولا لغيره ـ حولاً ولا قوة. ولذلك كان يقول إذا أصابه هم «حَسْبِيَ الخالق من المخلوقين. حسبي الرَّازق من المرزوقين. حسبي الذي هو حسبي.. حسبي الله ونعم الوكيل».

التوحيد والشجاعة الأدبية:

والتوحيد ـ إذن ـ هو الأساس الأول الأصيل للشجاعة الأدبية، كما أنه الأساس الحافز لكثير من الفضائل، أو لكل الفضائل.

وتثبيتاً للشجاعة الأدبية، وحفاظاً على استمرارها، بيَّنَ الله تعالى الأسبابَ التي تجعل الشخص يجبن عن قول الحق، ويتراجعُ في إعلان الصواب.

وترجع هذه الأسباب إلى أمرين:

الأمر الأول: هو ما يمكن أن يعبّر عنه بِهَمِّ الرزق، أو خوف الفقر.

وقد بيّن الله تعالى أن الرزق مقسوم، وأنه محدود، وأنه ما كان لك سوف يأتيك، وما كان لغيرك فلن تناله. ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾[1]. ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ومن الحق أن الإسلام يحثّ على العمل، ويشجع الأخذ بالأسباب، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، (ولأن يأخذ أحدكم حبله ثم يغدو إلى الجبل فيحتطب فيبيع فيأكل ويتصدق، خير له من أن يسأل الناس)[3]. . . (واليد العليا خيرُ من اليد السفلى. .)[4].

ومع ذلك، فإن الرزق في يد الله، ولن يمنع الرزق مانع مهما كان

---

(١) الذاريات: ٢٢، ٢٣.

(٢) هود: ٦.

(٣) رواه الشيخان والنسائي.

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير.

جبروته وسلطانه، والله غالب على أمره، وهو ـ سبحانه ـ القويُّ العزيز القهّار.

أما الأمر الثاني الذي يخذل بعض الناس عن الشجاعة الأدبية: فإنه خوف الموت. وهو خوف لا موضع له، فالله قد حدّد الآجال، ولو كان الناس في بروج مشيدة، لبرز الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مَضاجِعِهِمْ التي يقتلون فيها: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾[1].

الآجال والأرزاق بيد الله. وكل فكرة أو رأي أو همس خافت في النفس يخالف ذلك، فإنما هو شرك..

وانظر إلى هذه الصورة الكريمة، للشجاعة الأدبية التي ربتها التعاليم القرآنية، وهي أن يقوم رجل بين يدي سليمان بن عبد الملك فيقول له: «سأطلق لساني بما خَرَست عنه الألسنُ تأدية لحق الله تعالى إنه قد اكتنفكَ رجالٌ أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاكَ بِسَخَطِ ربهم، وخافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك، فهم حربٌ للآخرة وسلْمٌ للدنيا؛ فَلَا تأمَنْهُم على ما ائتمنكَ الله عليه، فإنهم لم يألُوا الأمانَةَ تضييعاً؛ والأمة كسفاً وخسفاً، وأنتَ مسئولٌ عمّا اجْتَرَموا ولَيْسوا مسئولين عمّا اجترمت، فلا تُصْلِحْ دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظمَ الناس عند الله غبناً، مَن باع آخرته بدنيا غيره».

وإن من الصور الكريمة للشجاعة الأدبية: أن يتقبل الإنسان الحق. وكما تكون الشجاعة الأدبية قول الحق، تكون ـ كذلك ـ قبول الحق..

وإذا صدقت النيّة، كان الإخلاص، وكانت الثقة في الله، وكان

---

(١) الأعراف: ٣٤.

الاتجاه الدائم نحوه فكانت العزّة به..

وللإخلاص أهمية كبرى في الإسلام. حتى لقد نادى رجل مرةً رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما الإيمان: قال: «الإخلاص».

وعن معاذ بن جبل أنه قال ـ حين بُعِثَ إلى اليمن ـ: يا رسول الله، أوصني.. قال ﷺ: «أخلص دينَك يَكْفِكَ الْعَمَلُ القليلُ»[١].

وإذا ما صدقت النيّة وتوافر الإخلاص، تقبل الله العمل ومنح صاحبه الثواب، وكان عمله وسيلة له في النجاة: في الدنيا والآخرة.

عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطَلَق ثلاثُ نَفَرٍ ممّن كانوا قبلكم حتى أَوَاهم المبيت إلى غار فدخلوه، فانحدرتْ صخرةٌ من الجبل فسدّت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا يُنْجِيكم من هذه الصخرة، إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم».

فقال رجل منهم: اللّهمّ، كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنتُ لا أغبق[٢] قبلهما أهلاً ولا مالاً، فنأى بي طَلَبُ شجر يوماً فلم أرح[٣] عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقَهُمَا فوجدتهما نائمين، فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً، فلبثتُ ـ والقدح على يدي ـ انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر: زاد الرواة: «والصبية يتضاغون عند قدمي» فاستيقظا فشربا غبوقهما. اللّهمّ إن كنتُ فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك، ففرج عنّا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبيّ ﷺ: قال الآخر: اللّهمّ كانت لِيَ ابنةُ عمٍّ كانت أحبَّ الناس إليّ، فأردتها عن نفسها فامتنعت منّي، حتى ألَّمت[٤] بها سَنَةٌ من

(١) رواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد.
(٢) لا أقدّم في الشرب أحداً قبلهما مساء.
(٣) أي لم أرجع إليهما.
(٤) نزلت بها سنة من سنين الجدباء.

السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخْلِيَ بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قَدَرْتُ عليها قالت: لا يَحِلُّ لك أن تَفُضَّ الخاتم إلا بِحَقِّهِ[1]، فَتَحَرَّجتُ[2] من الوقوع عليها، فانصرفتُ عنها وهي أحبّ الناس إليّ، وتركتِ الذهبَ الذي أعطَيْتُها، اللّهمّ إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاءَ وجهكَ فَأفرِجْ عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبيّ ﷺ: وقال ثالث: اللّهمّ إني استأجرتُ أُجَراءَ وأعطيتُهم أجرتهم غير رجل واحدٍ ترك الذي له وذهب؛ فثمّرتُ أجره حتى كَثُرَتْ منه الأموالُ، فجاءني بعد حينٍ فقال لي: يا عبدَ الله أدِّ إليَّ أجري، فقلت: كُلُّ ما تَرَ من أجرك: من الإبل والبقر والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله، لا تستهزئْ بي.. فقلت: إني لا أستهزيء بك، فأخذه كُلَّه فساقه، فلم يترك منه شيئاً.. اللّهمّ إن كنت فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجهِك فأفرج عنّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون[3]..

والعمل الذي يتقبله الله ويشترط النيّة الصادقة فيه؛ إنما هو العمل الذي كون في الإطار الرباني.. إنه العمل الذي يقوم به الإنسان تلبية لتربية المربي «الله» تلبية واعية شاعرة بأنها استجابة للأمر الإلّهي، فيما يتعلق بالإيجاب، أو النهي الإلّهي فيما يتعلق بالسلب، أي أنها تحقيق في جانبي السلب والإيجاب من العمل لقوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ.. ﴾[4].

وهذا العمل - في اليسير منه والعظيم - إنما هو ما أتى به الوحي

---

(١) فضّ البكارة.
(٢) خفت أن أقع في الذنب.
(٣) رواه الشيخان.
(٤) العلق: ١.

في القرآن، وما فصّلته السنّة النبويّة الكريمة: العملية منها والنظرية. فإذا ما خرج الأمر عن هذا الإطار ـ في النيّة أو في العمل ـ فقد خرج عن أن يكون «قراءة باسم ربك» والبيعة إنما هي بيعة للرسول ﷺ.

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾(١).

ويقول: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(٢)..

والقرآن الكريم ـ إذن ـ، وقول الرسول ﷺ وعمله كل ذلك يمثّل وَحْدَةً واحدة، هي: الإسلام..

ومن مواد البيعة التي صيغت في أسلوب رقيق، وفي إيجاز جميل، قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾(٣).

والمعروف: هو الخير الذي انطوى في ثنايا التعاليم الإلّهية؛ وهو يتضمن كل خير، وبتحقيقه تتحقق الفضيلة في أجمل صورها.

❊ ❊ ❊

ويتصل بالبيعة ـ أو بمفهوم الرسالة ـ توضيحاً لها وتفسيراً ـ نصوصٌ لا تحصى من الكتاب والسنّة، منها على سبيل المثال ما يلي:

عن مالك، عن يحيىٰ بن سعيد قال: أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، عن أبيه، عن جدّه، قال:

«بايَعْنا رسولَ الله ﷺ على السَّمْعِ والطاعة، في اليُسْر والعسر، والمنشط والمكره، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه؛ وأن نقولَ أو نقومَ بالحق

---

(١) الفتح: ١٠.
(٢) النساء: ٨٠.
(٣) الممتحنة: ١٢.

حيثما كنّا، لا نخاف في الله لَوْمَةَ لائم»(١).

وروى الإمام ـ بسنده ـ عن جابر قال:

مكث رسول الله ﷺ، بمكةَ عَشْرَ سنين، يتبع الناس في منازلهم: عكاظ ومَجنَّة، في المواسم، يقول: من يُؤْوِيني؟ مَن ينصرني حتى أبلّغ رسالة ربي. وله الجنة، فَلا يَجِدُ أحداً يُؤويه ولا ينصره، حتى إن الرجل لَيخرجُ من اليَمن أو من مضر، كذا قال فيه، فيأتيه قومه وذوو رحمه، فيقولون: احذر غلامَ قريش لا يفتنك، ويمضي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع.. حتى بعثنا الله إليه من يثرب فآويناه وصدّقناه، فيخرج الرجل منّا فيؤمن به ويقرئه القرآن، فينقلبُ إلى أهله فيُسلِمُون بإسلامه، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام.

ثم ائتمروا جميعاً فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطوف ويُطْرَدُ في جبال مكة وَيَخاف؟

فرحل إليه منّا سبعون رجلًا، حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شِعبَ العقبة، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علامَ نبايعُكَ؟..

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة: في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافوا في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني ـ إذا قدمت عليكم ـ مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة»؛ فقمنا إليه ـ فبايعناه ـ وأخذ بيده أسعد بن زُرارة وهو من أصغرهم

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

ـ وفي رواية البيهقي: ـ وهو أصغر السبعين إلا أنا. . فقال: رويداً يا أهل يثرب؛ فإنّا لم نَضْرب إليه أكباد الإبل؛ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله؛ وأن إخراجه اليوم مناوأة للعرب كافة وقتل خيّاركم، وأن تَعضَّكم السيوف؛ فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله؛ وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه؛ فبيّنوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله. .

قالوا: أمِطْ عنّا يا أسعد؛ فواللَّهِ؛ لا ندعُ هذه البيعةَ ولا نَسْلُبَها أبداً.

قال: فقمنا إليه فبايعناه وأخذ علينا وشرط؛ ويعطينا على ذلك الجنة. .

وحدّثني عاصم بن عمر بن قتادة: أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ، قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف: يا معشر الخزرج، هل تدرون علام تُبايعون هذا الرجل؟. . قالوا نعم.

قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم تَرَوْن أنه إذا أُنهكت أموالكُم مصيبة، وأشرافكم قتلاً، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله ـ إن فعلتم ـ خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وَافُونَ له بما دعوتموه إليه: على نهكة الأموال وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة. .

قالوا: فإنّا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف؛ فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟

قال: الجنة.

قالوا: أبسط يَدك؛ فبسط يده، فبايعوه.

عن العباس بن عبد المطلب: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ذَاقَ طعمَ الإيمانِ مَنْ رضِيَ بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً؛ وبمحمد رسولاً».

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

«كان النبي - ﷺ - بارزاً يوماً للناس؛ فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟(1).

قال: الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث..

قال: ما الإسلام؟

قال: الإسلام: أن تعبدَ الله ولا تشركَ به؛ وتقيمَ الصلاة، وتؤديَ الزكاة المفروضة، وتصومَ رمضان..

قال: ما الإحسان؟..

قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..

قال: متى الساعة؟

قال: ما المسئول عنها بأعْلَمَ من السائل؛ وسأخبرك عن أشراطها:..

«إذا ولدت الأمةُ ربها، وإذا تطاول رعاةُ الإبل البهمُ في البنيان: في خمس لا يعلمهنّ إلا الله، ثم تلا النبيّ - ﷺ -: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾(2)..

ثم أدبر، فقال ردوه، فلم يروا شيئاً.. فقال: «هذا جبريل جاء

---

(1) رواه مسلم وأحمد والترمذي. (2) لقمان: ٣٤.

يُعَلِّم الناس دينهم». . قال أبو عبد اللَّه: جعل ذلك كله من الإيمان»(1). .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:
«الإيمان بضعٌ وستون شعبةً؛ والحياءُ شُعبة من الإيمان»(2).

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبةً، فأفضلها قول لا إلّه إلّا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والحياء شعبةٌ من الإيمان»(3).

عن الزهري عن سالم عن أبيه، سمع النبيّ ﷺ، رجلاً يعظ أخاه في الحياء، فقال: «الحياء من الإيمان»(4).

عن سفيان بن عبد اللَّه الثقفي، قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. وفي حديث أبي أسامة غيْرَكَ. قال: «قل آمنت بالله ثم استقم»(5).

قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(6).

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد

(1) روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ حديثاً بهذا المعنى أورده مسلم في صحيحه.

(2) رواه البخاري. . . وفي رواية لمسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة «بضع وسبعون شعبة».

(3) رواه الأربعة السابقون.

(4) رواه مسلم والترمذي.

(5) رواه مسلم وأحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه.

(6) آل عمران: ٦٤.

بيده لا تدخلون الجنةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنونَ حت تحابُّوا. أَوَلا أدلُّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم» رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي.

قال أبو هريرة إن رسول الله ﷺ، قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»(١): قال ابن شهاب: فأخبرني عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن: أن أبا بكر كان يحدّثهم هؤلاء عن أبي هريرة ثم يقول: وكان أبو هريرة يلحق معه (ولا ينتهبْ نهبة ذاتَ شرف يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن).

عن أبي هريرة: أن النبيّ ﷺ؛ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن؛ والتوبة معروضة بَعْدُ»(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه ـ، عن النبيّ ﷺ ـ، قال: «اجتنبوا السبعَ الموبقات»، قالوا: يا رسول الله: وما هنّ؟ ـ قال: «الشركُ بالله، والسحرُ، وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتوَلّي يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات»(٣).

عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه، ذكر النبيّ ـ ﷺ ـ قعد على بعيره، وأمسك إنسان بخطامه ـ أو بزمامه ـ قال أيُّ يوم: هذا؟.. فسكتنا حتى ظننا أنه سيسمّيه بغير اسمه.. قال: «أليس هذا يوم النحر؟»... قلنا: بلى.. قال: «فأيُّ شهر هذا؟».. فسكتنا حتى ظننا

---

(١) رواه الشيخان وأحمد والنسائي.
(٢) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي.
(٣) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي.

أنه سيسميه بغير اسمه.. قال: «أليس بذي الحجة؟».. قلنا: بلى.. قال: «فإن دماءَكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا.. ليبلغِ الشاهد الغائبَ، فإنّ الشاهد عسى أن يبلِّغَ مَن هو أوعى له منه»[1].

(١) رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل السادس

الهجـــرة

سبح اسم ربك الأعلى

الهـــــجرة

يا لَجَلالِ الإيمان وثباتِهِ وقوتِهِ!!

إن التاريخ نادراً ما يحدّثنا عن هجرة خالصة مخلصة لله ولرسوله: هجرةٍ إلى مكانٍ مجهولٍ: هجرةٍ لا يسأل المهاجرُ عمّا إذا كان مهجره سيستقبله مرحّباً ويُؤويه في ألفةٍ، أم أنه سيقابله بالجفوة والعداوة: هجرةٍ لم يُمَهَّدْ لها الجوُّ من قبل، ولم يُعَبَّدْ لها المكان...

إن التاريخ: لا يكاد يحدّثنا عن الهجرة بالإيمان ومن أجل الإيمان. ولكن التاريخ الإسلامي حافل بهذه الأنواع من الهجرة.

فإنه لما كثر المسلمون بمكة وظهر الإيمان، وكثر الحديث عنه ثار ناس كثيرون من المشركين من كفّار قريش، بمَن آمَنَ من قبائلهم فعذّبوهم، وسجنوهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم. وتحمَّلَ المؤمنون العذاب ألواناً في سبيل الله.

ولما استمر الأمر دون فتور، قال لهم رسول الله ﷺ، شفقةً عليهم ورحمة بهم.

«تفرَّقُوا في الأرض».

فقالوا: أين نذهب يا رسول الله؟

فأشار إليهم: إلى الحبشة. فهاجر إليها - في بادىء الأمر - طائفة من المسلمين: منهم مَن هاجر مع أهله، ومنهم مَن هاجر منفرداً. وأخذوا يعبدون الله مطمئنين آمنين على دينهم من الفتنة. ثم قدِم بعضهم إلى مكة معتقداً أن الأمور قد هدأت، فيما بين رسول الله والمشركين. فلما قدِموا إلى مكة اشتد عليهم قومهم وسَطَت بهم عشائرهم. ولَقُوا منهم أذىً شديداً.

فأذِن لهم رسوُل الله ﷺ، بالخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية. فكانت هجرتهم الثانية أعظمَها مشقةً، ولقُوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى. وقال سيّدنا عثمان رضي الله عنه، مخاطباً رسولَ الله ﷺ: يا رسول الله، فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشي ولست معنا؟

فقال رسول الله ﷺ هذه الكلمة المؤثرة:

«أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ: لكم هاتان الهجرتان جميعاً».

قال سيّدنا عثمان: «حسبُنَا يا رسول الله».

وكان عدد هؤلاء المهاجرين من الرجال ثلاثةً وثمانين رجلاً، وكان عدد النساء ثمانيَ عشرةَ امرأة.

ولم يَرُق لقريش أن يعبدَ اللّهَ هؤلاء القومْ آمنين مطمئنين.. لم يرقها أنهم تخلصوا من التعذيب والفتنة، فأرسلت وفداً من ساسة العرب الدهاة، مزوّداً بالهدايا إلى النجاشي؛ ليعيدوا هؤلاء الموحدين إلى مكة؛ لِيُنزِلوا عليهم العذاب من جديد.

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾(1).

---

(1) آل عمران: ٥٤.

ولم يفلح الوفد، وعاد إلى مكة بخُفَّيْ حُنين.

ولما علمتْ قريش بذلك، ثارت ثائرتها، وزاد غضبها، وأقدمت على عمل يتنافى تنافياً تـاماً مع الإنسانية، فقد كتبوا كتاباً تعاهدوا فيه على ألّا يناكحوا بني هاشم ولا يبايعوهم، ولا يخالطوهم. وكان الكاتب للصحيفة هو، منصور بن عِكرمة العبدري. وكان من تقدير الله تعالى أن شُدَّت يَدهُ.

وبهذه الصحيفة وهذا العهد، حصروا بني هاشم في شِعب أبي طالب.

وكان ذلك في أول المحرم سنة سبعٍ من نبوّته صلوات الله وسلامه عليه.

واستمر بنو هاشم منعزلين محصورين، لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم، حتى بلغ بهم الجهْدُ مبلغاً خطيراً، وكانت قريش تسمع أصوات صبيانهم يبكون جوعاً ومسغبَة فلا ترقّ قلوبهم، ولا يتأثرون. واستمر ذلك سنوات ثلاثاً.

وبينما هذه الأمور ـ من الشدة والقسوة ـ تجري تحت سمع الرسول وبصره، كانت قريش ترسل له صلوات الله وسلامه عليه مَن يعرض عليه المال والغنى، والسلطان والجاه، والملاذ بجميع ألوانها، على أن يترك دعوته، فلا يجدون إلى غايتهم سبيلاً.

وما ترك رسول الله ﷺ الدعوة قطّ: كان يدعو ليلاً وكان يدعو نهاراً. وكان يدعو في كل لحظة من لحظاته.

ويروي الإمام أحمد عن ربيعة بن عباد: وكان جاهلياً أسلم، يقول: رأيت رسول الله ﷺ ـ بَصَرَ عيني ـ بسوق ذي المجاز يقول: «يا

أيها الناس، قولوا: لا إله إلّا الله، تفلحوا. .». ويدخل فِجاجَها والناس متقصِّفون (١) عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلّا الله تُفْلِحُوا».

* * *

أقام رسول الله ﷺ، بمكة ثلاث سنين، من أول نبوّته مستخفياً ثم أعلن في الرابعة، فأخذ يدعو الناس إلى الإسلام، عشر سنين، يوافي المواسم كل عام، يتبع الحاج في منازلهم: في المواسم بعكاظ ومجنّة وذي المجاز: يدعوهم إلى أن يمنعوه، حتى يُبَلِّغ رسالاتِ ربه ولهم الجنّة، فلا يجد قبيلة تنصره أو تجيبه، حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة، ويقول: «يا أيها الناس قولوا: لا إله إلّا الله تُفْلِحوا وتملكوا بها العرب، وتَذِل لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة».

واستمر الأمر كذلك: لا يكُفّ رسول الله ﷺ، عن الدعوة إلى الله، ولا يكف المشركون عن المعارضة والإيذاء، حتى كانت السنة الحادية عشرةَ من نبوّته، صلوات الله وسلامه عليه، وكان الإسراء والمعراج، وارتدّ مَن ارتدَّ، وثبت مَن ثبت. وكان حادث الإسراء والمعراج هو حادثَ التصفية الكاملة. وكان الفيصلَ بين طائفتين: طائفة مؤمنة، ثابتة على إيمانها: لا تزعزعها الأعاصير: تميد الجبال ولا تميد، وطائفة مشركة: قد أحكمت أمرها، ورتبت شئونها، وجزمت العزم على أن تقضي على الإسلام وإنْ طال الزمن.

ولم يكد يعتنق الإسلام في هذه الفترة ـ فترة السنوات الثلاث التي سبقت الهجرة ـ مشرك من أهل مكة. وفيها ثبت المسلمون على إيمانهم

---

(١) يجتمعون ويزدحمون.

ثبات أُولي العزم، كانت هذه الفترة فترةَ تربية للمؤمنين وصقلٍ لهم. وهي ـ وإن كان الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يكفّ فيها عن الدعوة لحظة من اللحظات ـ فإنها مع ذلك، كانت تربية قرآنية لرجال يؤهلهم الله ورسوله لحمل راية الإسلام ونَشْر دعوته.

وإذا كانت المعسكرات قد تحددت في مكة، وإذا كانت الفترة من الإسراء إلى هجرة الرسول صلوات الله وسلامه عليه. فترة تربية وصقل وتعليمٍ وتهذيب ـ فإن الإسلام في هذه الفترة، لم يكن قد وقف راكداً، بل بالعكس، قد هيأ الله له وسيلة الانتشار خارج مكة، لقد ضمّ الرسول في معسكره المكّي كل عناصر الخير بمكة ولم يبق فيها ـ في الطرف المقابل ـ إلا مَن لا ينحسم أمره عن طريق الدعوة وإنما عن طريق آخر.

وما كان هناك مناصٌ من مغادرة مكة، للعودة إليها من جديد في ظروف مهيأة، وبوسائل غلّابة. لقد هيأ الله الأمر لانتشار الإسلام خارج مكة.

ويقول ابن سعد في الطبقات:

«وأقام رسول الله ﷺ: بمكة ما أقام: يدعو القبائل إلى الله، ويعرض نفسه عليهم كل سنة، بمجنة، وعكاظ، ومنى: أن يأووه حتى يبلغَ رسالة ربه، ولهم الجنة، فلم تستجب له قبيلة من العرب، ويؤذى ويُشْتَم حتى أراد الله إظهارَ دينه، ونَصْرَ نبيّه، وإنجاز ما وعد، فساق إليه هذا الحيّ من الأنصار: لما أراد الله بهم من الكرامة».

وكانوا ستة نفر، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فأسلموا، ووعدوه أن يلتقوا به العام القادم.

ولما عادوا إلى المدينة، بشّروا بالإسلام في قومهم، فأسلم مَن أسلم وكثر في المدينة الحديث عن الإسلام.

فلما كان العام الذي يليه، حضر اثنا عشر رجلاً، فبايعوا الرسول ﷺ ـ كما تحدّثوا بذلك عن أنفسهم ـ: «على ألّا نشركَ بالله شيئاً، ولا نسرقَ، ولا نزنيَ ولا نقتلَ أولادنَا، ولا نأتيَ ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيَهُ في معروف».

قال: «فإن وفيتم فلكم الجنة، ومَن غَشِيَ من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله: إن شاء عذّبه، وإن شاء عفا عنه»:

إن هذه البيعة بيعة فضيلة وخير، إنها بيعة على العمل بالمُثُلِ الأخلاقية العليا ونشرها.

وانظر إلى الدقة في قوله ولا نعصيه في معروف. إنه لم يقل ولا نعصيه. ويسكت، وإنما قيد ذلك بقوله: «في معروف» وحاوِلْ أن تتأمَل وثيقة البيعة هذه، فستقرّ ـ لا مناص ـ بأنها وثيقة إلّهية.

وعاد المسلمون إلى المدينة بأخلاقٍ أخرى، ووجوهٍ عليها نور الإسلام وبقلوبٍ انغمست في محيط الرحمة. وأخذوا يدعون إلى الله مبشرين ومنذرين.

ثم عادوا في العام التالي، وهم، سبعون أو يزيدون رجلاً أو رجلين، ومعهم امرأتان، والتقوا برسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ومعه العباس بن عبد المطلب، ليس معه أحد غَيْرَه.

قال أسعد بن زرارة: فكان أول مَن تكلم، العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه، ومحمد من أعزّ الناس في عشيرته، يمنعه الله منّا مَن كان على قوله. ومَن لم يكن منّا على قوله، يمنعه للحسب والشرف، وقد أبى محمداً الناس كلُّهم غيرَكم فإن كنتم أهلَ قوةٍ وجلَدٍ وبصَرٍ بالحرب، واستقلالٍ بعداوة العرب قاطبةً ترميكم عن قوسٍ واحدةً، فأرتأوا رأيكم،

وائتمروا أمركم، ولا تفترقوا إلا عن ملإٍ منكم واجتماع، فإن أحسنَ الحديث الصدقُ.

فقال البَرَاء بن معرور: قد سمعنا ما قلتَ، وإنّا والله، لو كان في أنفسنا غيرُ ما ننطق به لقلناه، ولكننا نريد الوفاء والصدق، وبذل مهج أنفسنا دون رسول الله ﷺ.

قال: وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن، ثم دعاهم إلى الله ورغَّبهم في الإسلام وذكَرَ الذي اجتمعوا له.

فأجابه البَرَاء بن معرور بالإيمان والتصديق، ثم قال: يا رسول الله: بايِعْنا فنحن أهل الحلْقَة[1] ورِثناها كابِراً عن كابِر.

فقال العباس بن عبد المطلب ـ وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ ـ اخفوا جرسكم[2]، فإن علينا عيوناً وقدّموا ذوي أسنانكم، فيكونوا هم الذين يلون كلامنا منكم، فإنا نخاف قومكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالِّكم.

لقد تكلم البَرَاء بن معرور، فأجاب العباس بن عبد المطلب، ثم قال: ابسُط يدك يا رسول الله. فكان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ ـ فيما يقال ـ البراءُ بن معرور.

ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه. فقال رسول الله ﷺ: «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثنَيْ عشر نقيباً، فلا يجدنَّ أحدُ منكم في نفسه أن يؤخذ غيره، فإنما يختار لي جبريل»: فلما تخيَّرهم قال للنقباء: «أنتم كفلاءُ على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا

---

(١) أهل السلاح.
(٢) كلامكم وصوتكم.

كفيل على قومي».

قالوا: نعم...

فقال العباس بن عبادة بن نضلة: يا رسول الله، والذي بعثَك بالحق. لئن أحببْت لنميلنّ على أهل منى بأسيافنا، وما أحدٌ عليه سيف تلك الليلة غيره.

فقال رسول الله ﷺ: «إننا لم نؤمر بذلك فانفضوا إلى رحالكم» ولما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نفسه، وقد جعل الله له مَنَعَةً وقوماً: أهل حربٍ وعُدّةٍ ونجدةٍ.

وجعل البلاءُ يشتد على المسلمين من المشركين، فلما ضاقوا بالأمر ذرعاً؛ شكَوْا إلى رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال لهم: «قد أخبِرْتُ بدار هجرتكم. وهي «يثرب»، فمَن أراد الخروج فليخرج إليها.

وأخذ المسلمون يهاجرون سرّاً، بادية عليهم آثار تربية الرسول ﷺ: من الثقة بالله، والصبر، وتحمّل المشاق في سبيل دينهم، وتوطين النفس على أن يكونوا - في جميع أحوالهم - من جُنْدِ الله؛ مهاجرين إليه؛ للعمل على إعلاء كلمته، ونشر دينه، ولو كره الكافرون.

وما كانت الهجرة قطّ - في نظر الرسول ﷺ، ولا في نظر أصحابه - ركوناً إلى الدِعة والهدوء، أو ميلاً إلى الراحة والسكون.

وإنما كانت محاولةً مصمّمة على قيادة المعركة في سبيل الله من جبهة أخرى. وأخذ المسلمون يهاجرون إلى الله ورسوله: سرّاً، جماعاتٍ أو فرادى، حتى لم يبق بمكة منهم إلا رسولُ الله ﷺ، وأبو بكر وعليّ رضي الله عنهما، أو مريض، أو عاجزٌ عن الخروج.

وعندئذ آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر.

ها هو ذا رسول الله ﷺ، على مشارف مكة مهاجراً: ينظر إليها على أمل واثق من أنه سيعود إليها مبشّراً بدين الله عاملاً على أن يعمّ كل بيت فيها.

ولما أوشكت أن تغيب عن بصره، ودعها بهذه الكلمات المؤثرة.

«والله، إنكِ لأحبُّ البلادِ إلى نفسي، ولولا أن أهلكِ أخرجوني ما خرجت».

ثم مضى هو والصديق إلى غار ثور فاختفيا فيه.

ولما علم المشركون الأمر، ثارت ثائرتهم ووطنوا العزم على ألّا يُفْلِتَ المهاجرون إلى الله من تنكيلهم.

فقد كانوا دبّروا قتل الرسول ﷺ، وما كانوا يبالون قطّ بقتل رجل يقول (ربي الله).

وقد كانوا أحكموا التدبير لقتله قبل أن يخرج، ووضع مشروعَ المؤامرة أبو جهل، وعرضها على الوضع التالي:

أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً، نهْداً، جَلِداً، ثم نعطيَه سيفاً صارماً، فيضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرقَ دمه في القبائل، فلا يستطيع بنو عبد مناف الوقوف في وجه القبائل جميعها. فيقبلوا الديّة فنعطيهم إياها. ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1].

* * *

دخل رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو وأبو بكر الغار

---

(١) آل عمران: ٥٤.

مختفيين. وكان سيّدنا أبو بكر حزيناً، خوفاً على الرسول صلوات الله وسلامه عليه. فجاء النداء الإلٓهي على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه: يملؤه ثقةً وتفاؤلاً: يقول له: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[1].

ولما سمع سيّدنا أبو بكر: خفْقَ نعال المشركين أمام الغار، وأصواتهم الصاخبةَ التي تُعلِن عن سَخَطِهم وغيظهم المكبوت، قال: لو نظر أحدُهم إلى موضع قدمَيْه لأَبْصَرَنا، ويبتسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ويقول: «ما ظنك باثنين اللّٰهُ ثالثهما» ولما انتهى الطلب وعاد المشركون من حيث أتوا، خرج رسول الله ﷺ، هو ورفيقه.

وكان خروجهما من الغار ليلة الإثنين لأربع لَيَالٍ خلون من شهر ربيع الأول.

وبينما هما في الطريق، لحق بهما سُراقة بن مالك: مدججاً بالسلاح، على فرس تسابق الريح، ليأسرهما حتى يفوز بالجائزة التي وعد بها المشركون مَن يأتي بالرسول ﷺ: قتيلاً أو أسيراً.

فلما دنا منهما، دعا عليه رسول الله ﷺ فرسخت قوائم فرسه في الأرض، فقال: يا محمد، ادعُ اللّٰهَ أن يطلق فرسي، وأرجعَ عنك وأردَّ من ورائي، ففعل فَأطلِقَ ورجع، فوجد الناس يلتمسون رسول الله ﷺ، فقال ارجعوا فقد استبرأت لكم ما هاهنا، وقد عرفتم بصري بالأثر فرجعوا عنه.

وسار الركب: تحلُه رعاية الله وعنايته، حتى وصل المدينة، حيث استقبل أروع استقبال.

وكان من أوائل الأعمال التي قام بها رسول الله صلوات الله وسلامه

---

(١) التوبة: ٤٠.

عليه، في المدينة:

١ ـ بناء المسجد: الذي أُسّس على التقوى من أول يوم.

٢ ـ المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، تحقيقاً لمبدأ من مبادىء الدين الإسلامي، يتمثل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾[1].

ولله درُّ البوصيري حيث يقول:

ويحَ قوم جَفَوْا نبيّاً بأرضٍ ... ألِفَتْه ضِبابها والظباءُ
وسَلَوْه، وحنَّ جِذع إليه!!! ... وقَلَوْه، وودَّه الغُرباءُ!!!
أخرجوه منها وآوَاه غارُ ... وحَمَتْه حمامة وَرْقاءُ
وكفتهُ بنسجها عنكبوت ... ما كفته الحمامة الحصْداء
واختفى منهم على قربِ مرآ ... ه ومِنْ شدة الظهور الخفاءُ
ونحا المصطفى المدينة واشتا ... قت إليه مِنْ مكةَ الأنحاءُ

الهجرة من زاوية أخرى:

الهجرة حقيقة تاريخية، ورمز روحي جميل، يعبّر خير تعبير عمّا يجب أن يكون عليه المسلم في كل فترة من فترات حياته، بل في كل نَفَس من أنفاسه.

ونريد أن نتحدث الآن عن الهجرة كرمزٍ عن الهجرة الروحية: عن الهجرة التي لا ترتبط بزمان ولا بمكان.

والهجرة ـ بهذا المعنى الذي يتجاوز الواقع التاريخي ويتجاوز الزمان والمكان ـ قد وردت في الأحاديث النبويّة الشريفة وفي القرآن الكريم.

---

(١) الحجرات: ١٠.

يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ فيما رواه البخاري رضي الله عنه ـ «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويَدِهِ، والمهاجرِ من هَجَر ما نهى اللّهُ عنه».

وهذا المعنى الروحي نتبينُه ـ في وضوح سافر ـ فيما يلي:

يقول الله تعالى:

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(1).

في الآية الكريمة: يصوِّر الله تعالى، إخراجَ الكفارِ للرسول صلوات الله وسلامه عليه من مكةَ، وهجرتَه مستخفياً في جُنحٍ من الليل مفارقاً البلدة التي وُلِدَ بها. والتي بها عشيرته وقومه، إلى بلدة يجد فيها حرية الدعوة إلى الله.

يصور الله ـ تعالى ـ ذلك، بأنه انتصار.

ومن الطريف أن الله سبحانه وتعالى، يصوّره بأنه انتصار، في الوقت الذي كان فيه الرسول صلوات الله وسلامه عليه مختبئاً في الغار، هو والصديق رضوان الله عليه، والمشركون ـ بخيلهم ورجلِهِمْ، وعدّتهم وعتادهم ـ منتشرون في كل مكان يبحثون عنهما: جاهدين للتنكيل بهما.

وما من شك في أن الهجرة كانت انتصاراً مبيناً؛ لأنها فرار إلى الله.

والفرار إلى الله انتصار، حتى ولو انتهى بالموت أو القتل.

---

(1) التوبة: ٤٠.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾(١).

ونحن مأمورون بالفِرار إلى الله؛ أي بالهجرة إليه ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢). وسيدنا لوط عليه السلام قال: ﴿ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(٣).

وسيّدنا إبراهيم عليه السلام قال: ﴿ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾(٤).

والفِرار إلى الله والهجرةُ إليه والذَّهابُ إليه؛ من صفات المؤمنين الصادقين: إنهم يفرّون إلى الله ويهاجرون إليه كل يوم وكل وقت، فهو هدفهم وغايتهم في جميع أعمالهم.

وإذا كانت هجرة بعض الناس إنما هي إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرة المؤمن الصادقِ خالصة لله وحده: متمحضة لوجهه الكريم.

وإذا ما كانت كذلك، كان الله معه.

يقول صلوات الله وسلامه عليه، للصِّدّيق ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: «لا تحزنْ إن اللَّهَ معنا» ذلك أن هجرتهما كانت لله رب العالمين، لا شريك له. ومَن كان كذلك فإن الله يُنزِّلُ عليه السكينة، أي طمأنينة النفس والرضا، ويؤيده بجنود لا تراها الأعين: فيدخلُه في نطاقِ رعايته، ويشمله بجميل عنايته، ويُضفِي عليه ـ من توفيقه ورضاه ـ

---

(١) الحج: ٥٨.
(٢) الذاريات: ٥٠.
(٣) العنكبوت: ٢٦.
(٤) الصافات: ٩٩.

ما يجعله قرير النفس، هادىء البال، سعيداً ولو ألقي في النار؛ لأنه لن يشعر بها إلا برداً وسلاماً.

وقد نظم الله للمؤمنين أمر الهجرة إليه سبحانه وتعالى:

وأول مرحلةٍ في سبيل الهجرة إليه سبحانه، إنما هي النيّة الخالصة لوجهه الكريم.

يقول صلوات الله وسلامه عليه: «إنما الأعمالُ بالنيّات، وإنما لكل امرىءٍ ما نَوَى: فَمَنْ كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومَن كانت هجرتُه لِدُنيا يُصيبها أو امرأةٍ ينكحها فهجرته إلى ما هاجَرَ إليه».

فإذا ما توجهت النيّة بالأعمال إلى الله تعالى، كانت تلك الأعمال هجرةً إليه، أما إذا لم تتوجه النيّة إليه، فإن الأعمال ـ ولو كانت خيراً في ظاهرها ـ تكون هباءً منثوراً.

ومن هنا، يتبين المؤمنون حقاً، فسادَ الأفكار التي يروّجها الحائدون عن النهج الديني الصحيح، من أمثال قولهم: إن العلمَ للعلم، أو الفن للفن، أو الخير للخير، أو الخير لإرضاء الضمير... فإن كُلَّ ذلك يدلّ على عدم الفهم السليم للروح الدينية الصحيحة. وهو ـ أيضاً ـ خطر على المجتمع؛ لأن العلم والفن إذا لم يتجه بهما أصحابهُما إلى الله ـ أسساً وغايات ـ انحرفت بهما الإرادات والنيّات إلى الشر والإفساد: فشقيت بهما الإنسانية بدل أن تسعد.

أما الخير، فإن معرفته معرفة حقيقية، لا تتأتى إلا عن طريق الدين.

وقد حاولت العقول ـ مستقلة عن الدين ـ تحديدهُ فتعارضت

وتضاربت، ولم تصل إلى نتائج.

والمؤمن إذن يهاجر إلى الله بعلمه، ويهاجر إليه بفنه؛ ويهاجر إليه بعلمه الخير.

سأل الصحابي الجليل عمرو بن عنبسة - رضي الله عنه - رسول الله - ﷺ - قائلاً: أيّ الإيمان أفضل؟-

فقال رسول الله - ﷺ -: «الهجرة»...

فقال الصحابي: وما الهجرة؟.

فقال رسول الله - ﷺ -:.. «أن تهجر السوء»..

وعن أُم أنس - رضي الله عنهما - فيما رواه الطبراني بإسناد جيد - أنها قالت: يا رسول الله أوصني،-.

فكان مما أوصاها به رسول الله - ﷺ - أن قال لها:

«اهجُري المعاصِيَ فإنها أفضل هجرة».

على أن العبادات الإسلامية - على تعددها واختلافها - إنما هي تنسيق وتنظيم لأنواعٍ وألوانٍ من الهجرة إلى الله: تسمو بالمؤمن صُعُداً إلى الصلة بالله، وإلى النعيم في رضوانه، وإلى السعادة في رحابه.

فالصلاة فِرارٌ من البيئة والجو والمادة، إلى الوقوف بين يدي الله ومناجاته لحظة من الزمن. فهي هجرة إلى الله.

والزكاة انفصال عن جزء من المادة تقرّباً إلى الله فهي ذهاب إليه تعالى.

والصوم ابتعاد عن المادة فترةً من الزمن: تزكيةً للنفس وقربى إلى الله، فهو ذَهابٌ إليه عزّ وجل.

أما مناسكُ الحج، فإنها صُوَرٌ من التجرّد لله: بلغت الـذِّروة

والسَّنام، وتبلورت في النداء الروحي الكريم: «لبيك اللّهمّ لبيك»، وأكرم بها من هجرة!!.

وختاماً، فإن الصورة التامة الكاملة للهجرة الإسلامية الكبرى، إنما تتمثل ـ في أروع مظاهرها ـ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(1).

يقول صلوات الله وسلامه عليه: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهاد ونيَّة» جهاد في كل ميادين الجهاد، ونيّة خالصة طاهرة متمحضة لله ورسوله.

فإلى الهجرة الكبرى أيها الإخوة المؤمنون فإن فيها الخير كله.. وبالله التوفيق.

- ١ -

النـــــصوص

حاولنا في هذه النصوص أن نعطي صورة واضحة عن الهجرة: في مقدماتها وفي كيفيتها، وفي دلالتها بالنسبة للرسول ﷺ، وبالنسبة لأصحابه وأنصاره، على عمق الإيمان بالرسالة وبالرسول، وعلى اليقين التام: بالصدق وبالحق في أقوال الرسول ﷺ، وفي أعماله، وفي قيادته، وفي تبليغه عن ربه سبحانه.

جهاد في سبيل الدعوة

أقام رسول الله ﷺ بمكة ثلاث سنين من أول نبوّته مستخفياً، ثم أعلن في الرابعة فدعا الناس إلى الإسلام عشر سنين، يُوافي المواسم

---

(١) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

كل عام، يتبَع الحاج في منازلهم في المواسم بعكاظ ومجنَّة، وذي المجاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة، فلا يجد أحداً ينصره، أو يجيبه حتى إنه ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة، ويقول: «يا أيها الناس قولوا لا إلّه إلاّ الله تفلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم، وإذا آمنتم كنتم ملوكاً في الجنة».

وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابىء[1] كاذب، فيردّون على ﷺ أقبح الردّ، ويؤذونه ويقولون: أُسرتُك وعشيرتُك أعلم بك، حيث لم يتبعوك، ويكلّمونه، ويجادلونه، ويكلمهم ويدعوهم إلى الله ويقول: «اللّهمّ لو شئت لم يكونوا هكذا»[2].

- ٢ -

قلنا إن رسول الله ﷺ، كان يقفُ في الموسم على القبائل فيقول: يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، فكان يمشي خلفه أبو لهب ويقول: لا تطيعوه.

وأتى رسول الله ﷺ كِنْدة في منازلهم فلم يقبلوا منه.

وأتى بني حنيفة في منازلهم فردّوا عليه أقبح ردّ.

وأتى عامر بن صعصعة...

وكان لا يدع من العرب مَن كان له اسمٌ وشرف إلا دعاه وعرض عليه ما عنده[3].

(١) صابىء: يقال صبأ فلان إذا خرج من دين إلى دين غيره من قولهم صبأت ناب البعير إذا طلعت وصبأت النجوم إذا خرجت من مطالعها وكانت العرب تسمّي النبيّ ﷺ الصابىء لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام ويسمّون المسلمين الصبأة..

(٢) الطبقات لابن سعد جـ١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

(٣) الوفا بأحوال المصطفى جـ١، ص ٢١٥.

- ٣ -

أشـــــار إلى الحبشة

فلما كثر المسلمون وظهر الإيمان، وتحُدِّثَ به ثار ناس كثير من المشركين من كفّار قريش، بمَن آمن من قبائلهم - وهم بادىء ذي بدء في الأغلب من ضعفائهم - فعذّبوهم وسجنوهم وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تفرقوا في الأرض»، فقالوا أين نذهب يا رسول الله؟ قال: «هاهنا» وأشار إلى الحبشة - وكانت أحبّ الأرض إليه - أن يُهَاجَرَ قِبلَها، فهاجر ناس ذو عَددٍ من المسلمين، منهم: مَن هاجر معه بأهله، ومنهم مَن هاجر بنفسه، حتى قدِموا أرض الحبشة(١).

- ٤ -

أول مَــن هـــــاجر

عن قتادة قال:

«إن أولَ مَن هاجر إلى الله عزّ وجل بأهله: عثمان بن عفان، ومعه رقيّة بنت رسول الله ﷺ - إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله ﷺ خبرهم، فقدِمت امرأة من قريش، فقالت: يا محمد، قد رأيتُ ختنك ومعه امرأته. قال على أيّ حال رأيتهما؟ قالت: رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها. فقال رسول الله ﷺ: صحبهما الله. إن عثمان لأوّلُ مَن هاجر بأهله بعد لوط»(٢).

- ٥ -

المهـــاجرون إلى الحبشة والنجاشي

... فلما دخلوا على النجاشي، كان الذي يكلّمه منهم جعفر بن

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١ ص ١٨٨.
(٢) دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٦٦.

أبي طالب، فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم، ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية. فما هذا الدين؟ فقال جعفر: أيّها الملك، كنّا قوماً على الشِّرك: نعبد الأوثان، ونأكل الميْتَة، ونسبي الجِوارَ ونستحلُّ المحارم: بعضنا من بعض، في سفك الدماء وغيرها، لا نُحلّ شيئاً ولا نُحرّمه، فبعث الله إلينا نبيّاً من أنفسنا: نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبدَ اللَّهَ وحده: لا شريك له، ونصلَ الرحم، ونحسنَ الجوار، ونصليَ لله، ونصومَ له، ولا نعبدَ غيره، فقال: فهل معك شيء مما جاء به، وقد دعا أساقفته، فأمرهم فنشروا المصاحف حوله، فقال له جعفر: نعم، فقال: هلمّ فاتْلُ عليَّ ما جاء به، فقرأ عليه صدراً من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾[1] فبكى - والله - النجاشيُّ حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم[2]، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين. لا والله، لا أردّهم عليكم ولا أنعمكم عيناً[3].

- ٦ -
العــــودة إلى الحبشة

لما قدِم أصحاب النبيّ ﷺ مكة، من الهجرة الأولى، اشتدَّ عليهم قومُهم، وسَطَت بهم عشائرهم، ولقـوا منهم أذىً كثيراً، فـأذِن لهم رسول الله ﷺ، في الخروج إلى أرض الحبشـة مرة ثـانية، فكـانت خرجَتُهم الآخرةُ أعظمَهَا مشقةً، ولقُوا من قريش تعنيفاً شديداً، ونالوهم بالأذى، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حُسن جواره لهم، فقال

(١) مريم: ١.
(٢) المقصود صحفهم وهي الأناجيل.
(٣) دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٧٢.

عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى ـ وهذه الآخرة ـ إلى النجاشي ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله وإليّ: لكم هاتان الهجرتان جميعاً» قال عثمان فحسبُنا يا رسول الله(١).

ـ ٧ ـ

من مقــدمات الهجرة إلى المدينة

أقام رسول الله ﷺ بمكة ما أقام: يدعو القبائل إلى الله، ويعرض نفسه عليهم كل سنة: بمجنة وعكاظ ومنى، أن يؤووه حتى يبلغ رسالة ربه ولهم الجنة، فلم يجد قبيلة من العرب تستجيب له: ويُؤذَى ويُشْتَم، حتى أرادَ الله إظهارَ دينه ونَصْرَ نبيّه، وإنجازَ ما وعده، فساقه إلى هذا الحيّ من الأنصار؛ لما أراد الله بهم من الكرامة، فانتهى إلى نفر منهم ـ وهم يحلقون رءوسهم ـ فجلس إليهم. فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فاستجابوا لله ولرسوله، فأسرعوا وآمنوا، وصدقوا وآووا، ونصروا وواسَوْا، وكانوا والله، أطول الناس ألْسنة، وأحدَّهم سيوفاً . . . وذكروا أن أول مَن أسلم من الأنصار: أسعد بن زَرارة وذكوان بن عبد قيس: خرجا إلى مكة يتنافران إلى عتبة بن ربيعة، فقال لهما: قد شغلنا هذا المُصلّي عن كل شيء ـ يزعم أنه رسول الله ـ قال: وكان أسعد بن زرارة وأبو الهيثم بن التيهانَ متكلمين بالتوحيد بيثرب فقال ذكوان بن عبد قيس لأسعد بن زرارة ـ حين سمع كلام عتبة ـ دونك هذا دينك. فقاما إلى رسول الله ﷺ، فعرض عليهما الإسلام فأسلما، ثم رجعا إلى المدينة، فلقيَ أسعدُ أبا الهيثم بن التيهان، فأخبره بإسلامه، وذكر قول رسول الله ﷺ، وما دعا إليه.

فقال أبو الهيثم: فأنا أشهد معك أنه رسول الله وأسلم(٢).

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ١٩١ ـ ١٩٢.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٠١ ـ ٢٠٢.

فدعاهم إلى الله وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأسلموا، وهم من بني النجار: أسعد بن زرارة وعوف بن الحارث بن عفراء. ومن بني زريق: رافع بن مالك. ومن بني سلمة: قُطْبة بن عامر بن حَديدة. ومن بني حرام: ابن كعب عقبة بن عامر بن نابىء، ومن بني عُبيد بن عديّ بن سلمة: جابر بن عبد اللَّه بن رئاب، لم يكن قبلهم أحد.

قال محمد بن عمران هذا عندنا أثبت ما سمعنا فيهم وهو المجتمع عليه. ثم قدِموا إلى المدينة فدعوا قومهم إلى الإسلام فأسلم مَن أسلم، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر من رسول الله ﷺ كثير[1].

- ٨ -

عن عبادة بن الصامت قالوا لما كان العام المقبل من العام الذي لقي فيه رسول الله ﷺ النفر الستة لقيه اثنا عشر رجلاً بعد ذلك بعام، وهي العقبة الأولى، من بني النجار: أسعد بن زُرارة، وعوف ومُعاذ وهما ابنا الحارث، وهما ابنا عفراء، ومن بني زريق: ذَكْوان بن عبد قيس ورافع بن مالك، ومن بني عوف بن الخزرج: عبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن، ومن بني عامر بن عوف: عباس بن عبادة بن نَضْلة، ومن بني سلمة: عُقبة بن عامر بن نابىء، ومن بني سواد: قُطْبة بن عامر بن حديدة، فهؤلاء عشرة من الخزرج، ومن الأوس رجلان: أبو الهيثم بن التيهان من ملَّى حليف في بني عبد الأشهل، ومن بني عمرو بن عوف: عُويم بن ساعدة. فأسلموا وبايعوا على بيعة النساء: على أن لا نشركَ بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزنيَ ولا نقتلَ أولادَنا ولا نأتيَ

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٠٣.

ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيَهُ في معروف قال: «فإن وَفَيتُمْ فلكم الجنة ومن غَشيَ من ذلك شيئاً كان أمره إلى الله إن شاء عذَّبه وإن شاء عفا عنه».

ولم يفرض يومئذ القتال.

ثم انصرفوا إلى المدينة فأظهر الله الإسلام، وكان أسعد بن زرارة يُجمِّع بالمدينة بمَن أسلم، وكتبت الأوس والخزرج إلى رسول الله ﷺ: ابعث إلينا مقرئاً يقرئنا القرآن. فبعث إليهم مصعب بن عمير العَبْدري، فنزل على أسعد بن زرارة، فكان يقرئهم القرآن، فروى بعضهم أن مُصْعَباً كان يُجمِّع بهم ثم خرج مع السبعين حتى وافوا الموسم مع رسول الله ﷺ[1].

عن الزهري قال: لما اشتد المشركون على رسول الله ﷺ، قال لعمّه العباس بن عبد المطلب: يا عم، إن الله عزّ وجل ناصرٌ دينَه بقوم يهون عليهم الموت ـ رغم قريش ـ عزّاً في ذات الله تعالى، فامضِ بي إلى عكاظ فأرني منازل أحياء العرب حتى أدعُوهمُ إلى الله عزّ وجل، وأن يمنعوني ويُؤووني، حتى أبلِّغَ عن الله عزّ وجل، ما أرسلني به.

قال فقال العباس: يا ابن أخي، امضِ إلى عكاظ، فأنا ماضٍ معك حتى أدلّك على منازل الأحياء. فبدأ رسول الله ﷺ بثقيف، ثم استقرأ القبائل في سنته. فلما كان العام المقبل ـ وذلك حين أمر الله تعالى أن يعلن الدعاء ـ لقي الستة نفر الخزرجيين والأوسيين: أسعد بن زرارة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، والنعمان بن حارثة، وعبادة بن الصامت، فلقيهم النبيّ ﷺ في أيام منى، عند جمرة العقبة ليلاً، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله عزّ وجل، وإلى

---

(١) الطبقات لابن سعد.

عبادته والموازرة على دينه: الذي بعث به أنبياءه ورسله: فسألوه أن يُعرِض عليهم ما أوحِيَ إليه فقرأ رسول الله ﷺ سورة إبراهيم ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾[1] إلى آخر السورة، فرّق القوم وأخبتوا حين سمعوا وأجابوه.

فمرَّ العباس بنُ عبد المطلب ـ وهو يكلّمهم ويكلّمونه ـ فعرف صوت النبيّ ﷺ، فقال: ابنَ أخي، مَنْ هؤلاء الذين عندك؟ قال: يا عم، سكان يثرب: الأوس والخزرج. قد دعوتهم إلى ما دعوتُ إليه مَن قبلهم من الأحياء، فأجابوني وصدقوني، وذكروا أنهم يخرجونني إلى بلادهم؛ فنزل العباس بن عبد المطلب وعقل راحلته، ثم قال لهم.

يا معشر الأوس والخزرج، هذا ابن أخي، وهو أحبّ الناس إليّ، فإن كنتم صدقتموه، وآمنتم به، وأردتم إخراجه معكم؛ فإني أريد أن آخذ عليكم موثقاً تطمئن به نفسي، ولا تخذلوه ولا تغروه، فإن جيرانكم اليهود، واليهود له عدوٌّ. ولا آمَنُ مكرَهم عليه.

فقال أسعد بن زرارة ـ وشقَّ عليه قول العباس حين اتهم عليه سعداً وأصحابه ـ قال: يا رسول الله ائذن لنا فلنجبه غير مخشنين بصدرك، ولا متعرضين لشيء مما تكره، إلا تصديقاً لإجابتنا إياك وإيماناً بك؛ فقال رسول الله ﷺ: «أجيبوه غير متهمين».

فقال أسعد بن زرارة ـ وأقبل على رسول الله ﷺ بوجهه ـ فقال: يا رسول الله، إن لكل دعوة سبيلاً. إن لينٌ وإن شدة. وقد دعوت اليوم إلى دعوة: متجهمة للناس متوعرة عليهم.

دعوتنا إلى ترك ديننا واتّباعك على دينك، وتلك رتبة صعبة، فأجبناك إلى ذلك.

---

(١) ابراهيم: ٣٥.

ودعوتنا إلى قطع ما بيننا وبين الناس من الجوار والأرحام القريب والبعيد، وتلك رتبة صعبة. فأجبناك إلى ذلك.

ودعوتنا ـ ونحن جماعة في دار عز ومنعة لا يطمع فيها أحد ـ أن يرأسَ علينا رجل من غيرنا قد أفرده قومه وأسلمه أعمامه، وتلك رتبة صعبة فأجبناك إلى ذلك. وكل هؤلاء الرتب مكروهة عند الناس، إلا مَن عزم الله على رشده، والتمس الخير في عواقبها. وقد أجبناك إلى ذلك بألسنتنا وصدورنا وأيدينا: إيماناً بما جئتَ به وتصديقاً بمعرفة ثبتت في قلوبنا: نبايعك على ذلك، ونبايع ربنا وربَّك: يد الله فوق أيدينا، ودماؤنا دون دمك، وأيدينا دون يدك: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا، فإن نفِ بذلك فبالله نفي، وإن نغدِرْ، فبالله نغدر، ونحن به أشقياء؛ هذا الصدق منّا يا رسول الله. والله المستعان.

ثم أقبل على العباس بن عبد المطلب بوجهه، فقال: وأما أنت أيها المعترض لنا بالقول ـ دون النبيّ ﷺ: والله أعلم ما أردت بذلك، ذكرت أنه ابن أخيك وأحبّ الناس إليك ـ فنحن قد قطعنا القريب والبعيد وذا الرحم: ونشهد أنه رسول الله ﷺ: أرسله من عنده، ليس بكذاب وإن ما جاء به لا يشبه كلام البشر.

وأما ذكرتَ أنك لا تطمئن إلينا في أمره، حتى تأخذ مواثيقنا، فهذه خصلة لا نردّها على أحدٍ أرادها لرسول الله ﷺ، فخذ ما شئت، ثم التفت إلى النبيّ، فقال: يا رسول الله، خذ لنفسك ما شئت، واشترط لربك ما شئت. فقال النبيّ ﷺ: «أشترط لربي عزّ وجل: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، ولنفسي: أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم». قالوا: فذلك لك يا رسول.

فقال العباس: عليكم بذلكم عهدُ الله مع عهودكم، وذمة الله مع ذمتكم في هذا الشهر الحرام والبلد الحرام، تبايعونه وتبايعون ربَّكم: يد

الله فوق أيديكم. لَتَجِدَنَّ في نصره، ولَتَشُدُّنَّ له من أزرِه، ولَتُوفُنَّ له بعهده، بدفع أيديكم، وصرح ألسنتكم، ونصح صدوركم: لا يمنعكم من ذلك رغبة أشرفتم عليها، ولا رهبة أشرفت عليكم، ولا يؤتى من قبلكم.

قالوا جميعاً: نعم.

قال: الله عليكم بذلك راعٍ ووكيلٌ. قالوا: نعم.

قال: اللّهمّ إنك سامع شاهدُ، وإن هذا ابن أخي قد استرعاهم ذمّته واستحفظهم نفسه، اللّهمّ فكن لابن أخي عليهم شهيداً.

فرضي القوم بما أعطاهم رسول الله ﷺ من نفسه، ورضي النبيّ ﷺ بما أعطَوْه من أنفسهم.

وقد كانوا قالوا له: يا رسول الله إذا أعطيناك ذلك فما لَنا؟

قال: «رضوان الله والجنة».

قالوا قد رضينا وقبلنا.

فأقبل أبو الهيثم بن التيهان على أصحابه فقال: ألستم أنتم تعلمون أن هذا رسول الله إليكم، وقد آمنتم به وصدقتموه؟ قالوا بلى. قال: أو لستم تعلمون أنه في بلد الله الحرام، ومسقط رأسه ومولده وعشيرته؟ قالوا: بلى، قال: فإن كنتم خاذليه أو مسلميه ـ يوماً من الدهر ـ لبلاء ينزل بكم فالآن. فإن العرب سترميكم فيه عن قوسٍ واحدة، فإن طابت أنفسكم عن الأنفس والأموال والأولاد في ذات الله عزّ وجل، فما لكم عند الله عزّ وجل من الثواب، خير من أنفسكم وأموالكم وأولادكم.

فأجاب القوم جميعاً: لا، بل نحن معه بالوفاء والصدق. ثم أقبل على النبيّ ﷺ. فقال: يا رسول الله لعلك إذا حاربنا الناس فيك، وقطعنا

ما بيننا وبينهم من الجوار والحلف والأرحام، وحملتنا الحرب على سيسائها[1] فكشفت لنا عن قناعها ـ لحقت ببلدك وتركتنا وقد حاربنا الناس فيك. فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «الدم الدم والهدم الهدم» قال عبد اللّه بن رواحة: خلّ بيننا يا أبا الهيثم حتى نبايع رسول الله ﷺ، فسبقَهمُ أبو الهيثم إلى بيعته فقال: أبايعُك يا رسول الله، على ما بايع الإثنا عشر نقيباً؛ من بني إسرائيل موسى بن عمران، فقال عبد اللّه بن رواحة: أبايعُك يا رسول الله على ما بايع عليه الإثنا عشر من الحواريين عيسى بن مريم. وقال أسعد بن زُرَارة: أبايع اللّهَ وأبايع رسولَ الله ﷺ على أن أتـمَّ عهدي بوفائي، وأصدُق قـولي بفعلي ونصرتـك. قال النعمان بن حارثة: أبايع الله يا رسول الله وأبايعَك على: الإقدام في أمر الله، لا أراقب فيه القريب والبعيد، فإن شئت والله يا رسول الله، ملنا بأسيافنا هذه على أهل منى. فقال النبيّ ﷺ لم أُومر بذلك.

وقال عبادة بن الصامت: أبايعك يا رسول الله على: ألاَّ تأخذني في الله لومة لائم، وقال سعد بن الربيع: أبايع الله يا رسول الله وأبايعك على: أن لا أعصيكما ولا أكذبكما حديثاً.

فانصرف القوم إلى بلادهم راضين مسرورين. فسرّوا بما أعطاهم رسول الله ﷺ من الوحي، . . . حتى وافوه من العام القابل وهم سبعون رجلاً.

ـ ٩ ـ

لما حضر الحج، مشى أصحاب رسول الله ﷺ: الذين أسلموا بعضهم إلى بعض، يتواعدون المسير إلى الحج، وموافاة رسول الله ﷺ،

(١) سيساء الظهر من الدواب موضع الركوب، أي حملتنا على ظهر الحرب ـ مجمع البحار.

والإسلام يومئذ فاش بالمدينة؛ فخرجوا وهم سبعون يزيدون رجلاً أو رجلين في خمر[1] الأوس والخزرج وهم خمسمائة. حتى قدِموا على رسول الله ﷺ، مكة، فسلّموا على رسول الله ﷺ، ثم وعدهم منى وسط أيام التشويق ليلة النفر الأول، إذا هدأت الرِّجْل: أن يوافوه في الشعب الأيمن إذا انحدروا من مِنى بأسفل العقبة، حيث المسجد اليوم، وأمرهم أن لا ينهبوا نائماً ولا ينتظروا غائباً. قال فخرج القوم بعد هَدْأةٍ: يتسللون[2]: الرجل والرجلان، وقد سبقهم رسول الله ﷺ إلى ذلك الموضع، مع العباس بن عبد المطلب، ليس معه أحد غيرَه، فكان أول مَن طلع على رسول الله ﷺ، رافعُ بن مالك الزُّرقي، ثم توافى السبعون ومعهم امرأتان. قال أسعد بن زرارة: فكان أولَ مَن تكلم العباسُ بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج، إنكم قد دعوتم محمداً إلى ما دعوتموه إليه. ومحمد من أعز الناس في عشيرته: يمنعه والله، منّا مَن كان على قوله. ومَن لم يكن منّا على قوله، يمنعه للحسب والشرف. وقد أبى محمداً الناسُ كلهم غيركم. فإن كنتم أهل قوة وجلد وبَصَر بالحرب، واستقلال بعداوة العرب قاطبة: ترميكم عن قوس واحدة ـ فارتأوا رأيكم، وأتمروا أمركم، ولا تفرقوا إلا عن ملإٍ منكم واجتماع، فإن الحديث أصدقُه.

فقال البَرَاء بن معرور، قد سمعنا ما قلت، وإنّا والله، لو كان في أنفسنا غيرُ ما ننطق به لقلناه، ولكنّا نريد الوفاء والصدق[3] وبذلَ مهج أنفسنا، دون رسول الله ﷺ. قال وتلا رسول الله ﷺ عليهم القرآن. ورغّبهم في الإسلام، وذكر الذي اجتمعوا له، فأجابه البَرَاء بن معرور

(١) خمر: جماعة.

(٢) يتسللون: ينصرفون في خفاء.

(٣) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

بالإيمان والتصديق، ثم قال: يا رسول الله بايِعْنَا، فنحن أهل الحلْقَةِ[١] ورثناها كابِراً عن كابر.

ويقال إن أبا الهيثم بن التيهان، كان أولَ مَن تكلم وأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وصَدقه. وقالوا نقبله على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، ولغطوا[٢].

فقال العباس بن عبد المطلب ـ وهو آخذ بيد رسول الله ﷺ ـ اخفوا جَرْسكم[٣]، فإن علينا عيوناً، وقدِّموا ذوي أسنانكم، فكونوا هم الذين يَلُون كَلاَمَنا منكم؛ فإنّا نخاف قومكم عليكم، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى محالكم.

فتكلم البَرَاء بن معرور، فأجاب العباس بن عبد المطلب. ثم قال: أبْسُطْ يدك يا رسول. فكان أولَ مَن ضرب على يد رسول الله ﷺ، البَرَاءُ بنُ معرور. ويقال أولُ مَن ضرب على يده أبو الهيثم بن التيهان. ويقال أسعدُ بن زرارة. ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه. فقال رسول الله ﷺ: «إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثنيْ عشر نقيباً، فلا يجدَن[٤] أحد منكم في نفسه: أن يُؤخذ غيرُه؛ فإنما يختار لي جبريل» فيما تخيرهم، قال النقباء: «أنتم كُفَلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي» قالوا: نعم.

فلما بايع القوم وكملوا[٥]. قال رسول الله ﷺ: «انْفَضّوا إلى

---

(١) الحلقة: السلاح عامة، وقيل هي الدروع خاصة.
(٢) لغطوا: من اللغط وهو صوت وضجة لا يفهم معناه.
(٣) جرسكم: صوتكم.
(٤) يجدن: يغضبن من وجد عليه يجد وجداً وموجدة.
(٥) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.

رحالكم»[1] فقال العباس بن عبادة بن نضلة يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لئن أحببت لنميلنّ على أهل منى بأسيافنا، وما أحد عليه سيف تلك الليلة غيرُه. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّا لم نُؤمَرْ بذلك فانْفَضُّوا إلى رحالكم»[2].

لما صدر السبعون من عند رسول الله ﷺ، طابت نفسه وقد جعل الله له مَنَعَةً[3] وقوماً أهلَ حرب وعُدَّة ونجدة.

وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين؛ لما يعلمون من الخروج فضيقوا على أصحابه، وتعبثوا[4] به، ونالوا منه ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى.

فشكا ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، واستأذنوه في الهجرة فقال: «قد أُرِيتُ دارَ هجرتكم. أُرِيتُ سَبْخَةً ذاتَ نخل، بين لابتين (وهما الحَرتان) ولو كانت السراة[5] أرض نخل وسباخ لقلت هي هي» ثم مكث أياماً، ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أُخْبِرتُ بدار هجرتكم وهي يثرب، فمَن أراد الخروج فليخرج إليها» فجعل القوم يتجهزون ويتوافقون ويتواسَون، ويخرجون ويخفون ذلك. فكان أول مَن قدِم المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ: أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدِم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدِمت المدينة، ثم قدِم أصحاب رسول الله ﷺ أرسالاً، فنزلوا على الأنصار في دورهم، فآووهم ونصروهم وواسَوْهم.

---

(١) رحالكم: منازلكم، يقال لمنزل الإنسان وسكنه رحله.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٠٧.

(٣) منعة: قوة تمنع مَن يريدهم بسوء.

(٤) تعبثوا: عبثوا وهزءوا.

(٥) السراة: البطحاء.

وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤمّ المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم رسول الله ﷺ[1]. فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كلبت[2] قريش وحربوا[3] واغتاظوا على مَن خرج من فتيانهم.

وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله ﷺ، في العقبة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة. فلما قدِم أول مَن هاجر إلى قُباء، خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قدِموا مع أصحابه في الهجرة.

(هجرة أبي سلمة وزوجه، وحديثهما عمّا لقيا).

- ١ -

... فكان أول مَن هاجر إلى المدينة، من أصحاب رسول الله ﷺ، من المهاجرين من قريش - من بني مَخْزوم - أبو سلمة بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، واسمه: عبد اللَّه، هاجر إلى المدينة، قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة. وكان قَدِم على رسول الله ﷺ مكة من أرض الحبشة، فلما آذته قريش وبلغه إسلامُ مَن أسلم من الأنصار، خرج إلى المدينة مهاجراً.

قال ابن إسحاق: فحدّثني أبي إسحاق بن يسار، عن سلمة بن عبد اللَّه بن عمر بن أبي سلمة، عن جدّته أُم سَلَمة، زوج النبيّ ﷺ، قالت: لما أجمع أبو سلمة الخروجَ إلى المدينة، رحل إلى بعيره، ثم حملني عليه، وحمل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري، ثم خرج بي يقودُ بي بعيرَه، فلما رأته رجال بني المغيرة بن عبد اللَّه بن عمر بن مخزوم، قاموا إليه، فقالوا هذه نفسك غلبتَنا عليها، أرأيت

(١) الطبقات لابن سعد جـ١، ص ٢١٠ - ٢١١.
(٢) كلبت: اشتدت.
(٣) اشتد غضبهم.

صاحبتك هذه؟ علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ قالت: فنزعوا خِطَامَ البعير من يده، فأخذوني منه. قالت: وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد: رَهْط أبي سلمة فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذا نزعتموها من صاحبنا. قالت: فتجاذبوا بُنَيَّ سلَمَة بينهم، حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد، وحبسني بنو المغيرة عندهم، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرّق بيني وبين زوجي وابني قالت: فكنت أخرج كل غداة، فأجلسُ بالأبطح، فما أزال أبكي... حتى أمسى سنة أو قريباً منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمِّي: أحدُ بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها. قالت: فقالوا لي: إلْحَقِي زوجك إن شئتِ. قالت: ورد بنو عبد الأسد إلى عند ذلك ابني. قالت: فارتحلت بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أُريد زوجي بالمدينة. قالت: وما معي أحد من خلْق الله. قالت: فقلت: أتبَلَّغ بمَن لقيت حتى أقْدمَ على زوجي...

حتى إذا كنت بالتَنْعيم، لقيت عثمان بن أبي طلحة بن أبي طلحة، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أُمية؟ قالت: فقلت: أُريد زوجي بالمدينة. قال: أوَ ما معك أحد؟ قالت: فقلت، لا والله، إلا الله وبُنيّ هذا. قال: والله ما لك من مَتْرَك، فأخذ بِخِطام البعير، فانطلق معي يَهْوِي بي، فوالله، ما صحبت رجلاً من العرب قطّ، أرى أنه كان أكرمَ منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم اسأخر عنّي، حتى إذا نزلت أستأخر ببعيري. فحطّ عنه قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى الشجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرَّواح، قام إلى بعيري فقدّمه فرحله، ثم استأخر عنّي، وقال، اركبي، فإذا ركبتُ واستويت على بعيري، أتى فأخذ بِخِطامه، فقاده حتى ينزل بي. فلم يزل يصنع ذلك بي حتى

أقدمني المدينة. فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقُباء، قال زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلَمة بها نازلاً - فادخُليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة. قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهلَ بيتٍ في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة. وما رأيت صاحباً قطّ، كان أكرمَ من عثمانَ بنِ طلحة(١).

أول مَن قدِم المدينة من المهاجرين

يقول البَرَاء:

أولُ مَن قدِم علينا من أصحاب رسول الله ﷺ، مُصْعَب بن عمير، وابن أُم مكتوم. فجعلا يقرئان الناس القرآن. قال ثم جاء عمّار، وبلال، وسعد، قال ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، قال ثم جاء رسول الله ﷺ، قال فما رأيت الناسَ فرِحوا بشيء قطّ، فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله قد جاء، فما قدِم حتى قرأتُ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾(٢). وسوراً من المفصل(٣).

وهاجر المؤمنون...

خرج المسلمون جميعاً إلى المدينة، فلم يبق بمكة منهم إلا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعليّ، أو مفتون(٤) محبوس، أو مريض، أو ضعيف عن الخروج.

وعندئذ، آن لرسول الله ﷺ أن يهاجر(٥).

---

(١) الروض الأنف جـ١، ص ١٤٨ - ١٥٠، ط دار الكتب الحديثة.
(٢) الأعلى: ١.
(٣) الطبقات لابن سعد جـ١، ص ٢٢١.
(٤) مفتون: معذب.
(٥) الطبقات لابن سعد جـ١، ص ٢١١.

هـــجرة رسول الله ﷺ ومقدماتها

لما رأى المشركون أصحابَ رسول الله ﷺ قد حملوا الذراريَ والأطفال إلى الأوس والخزرج. عَرَفوا أنها دارُ مَنَعةٍ، وقوم أهلُ حَلْقةٍ وبأس. فخافوا خروج رسول الله ﷺ فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلّف أحد من أهل الرأي والحجا منهم، ليتشاوروا في أمره.

قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً[1] جلداً، ثم نعطيَه سيفاً صارماً، فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه في القبائل، فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع. فتفرقوا على ذلك وأجمعوا عليه. وأتى جبريل رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة، وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر فقال:

«إن الله عزّ وجل، قد أذن لي في الخروج» فقال أبو بكر: الصحبة يا رسول، الله... فقال رسول الله ﷺ: «نعم».

قال أبو بكر. فخذ ـ بأبي أنت وأمي ـ إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: «بالثمن».

وكان أبو بكر اشتراهما بثمانمئة درهم من نَعَم بني قُشير، وعلفهما وأعدّهما، ارتقاباً للهجرة في صحبة النبيّ كما كان يشتهي. فأخذ الرسول عليه السلام ـ إحداهما وهي القَصْوَاء، وأمر عليّاً أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، فبات فيه عليّ، وتغشّى بُرْداً أحمر حَضْرمِياً: كان رسول الله ﷺ ينام فيه. واجتمع أولئك النفر من قريش: يتطلعون من صير الباب[2] ويرصدونه[3] [4].

---

(١) نهد: قوياً ضخماً.

(٢) صير الباب: خرقه.

(٣) يرصدونه: يترقبون خروجه.

(٤) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢١٢ ـ ٢١٣.

فلما أصبحوا قام عليّ عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ، فقال: لا علم لي به..

وصار رسول الله ﷺ إلى منزل أبي بكر، فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأبو بكر، فمضيا إلى غار ثور فدخلاه[1].

وكانت لأبي بكر منيحة غنم: يرعاها عامر بن فهيرة. وكان يأتيهم بها ليلاً فيحتلبون، فإذا كان سَحَر، سَرَح مع الناس. قالت عائشة وجهزناهما أحبّ الجهاز، وصنعنا لهما سُفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نِطاقها، فأوْكَت[2] به الجِرابَ، وقطعت أخرى فصيّرته عصاماً[3] لفم القِرْبَة، فبذلك سمّيت: ذاتَ النِطاقين.

ومكث رسول الله ﷺ وأبو بكر في الغار ثلاث ليالٍ: يبيت عندهما عبد اللّه بن أبي بكر. واستأجر أبو بكر رجلاً من بني الديل، هادياً خريتاً[4] يقال له عبد اللّه بن أريقط، وهو على دين الكفر، ولكنهما أمِنَاه، فارتحلا ومعهما عامر بن فُهيرة، فأخذ بهم ابن أريقط يرتجز[5] فما شعرت قريش أين وجَّهَ رسول الله ﷺ[6].

أبو جهل يضرب أسماء بنت أبي بكر

قال ابن إسحاق: فحدِّثْتُ عن أسماءَ بنت أبي بكر: أنها قالت:

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢١٣.
(٢) أوكت: ربطت.
(٣) عصاماً: رباطاً.
(٤) خريتاً: الماهر الذي يهتدي لأخرات المغارة وهي طرقها الخفيّة ومضايقها، وقيل إنه يهتدي إلى خرت (ثقب) الإبرة من الطريق.
(٥) يرتجز: ينشد.
(٦) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢١٤.

لما خرج رسول الله ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه، أتانا نفر من قُريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجتُ إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي. قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خديَ لطمة طرح منها قُرطي[1].

أبو بكر رضي الله عنه يتحدّث عن الهجرة:

عن البَرَاء بن عازب يقول: جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى أبي في منزله، فاشترى منه رَحْلاً، فقال لعازب: ابعث ابنَك يحملْه معي، قال فحملته معه... فقال له أبي: يا أبا بكر، حدِّثني كيف صنعْتما حين سَرَيْت مع رسول الله ﷺ، قال: نعم، أسريْنا ليلتنا، ومن الغد، حتى قام قائم الظهيرة، وخلا الطريق لا يمرُّ فيه أحد، فرفَعت لنا صخرة طويلة لها ظلٌّ. لم تأتِ عليه الشمس، فنزلنا عنده، وسَوَّيْت للنبيّ ﷺ مكاناً بيدي ينام عليه، وبَسَطت فيه فروة، وقلت: نمْ يا رسول الله، وأنا أنفضُ لك ما حولك، فنام وخرجتُ أنْفُضُ ما حوله فإذا أنا براعٍ مُقبلٍ بغَنَمه إلى الصخرة، يريد منها مثل الذي أردْنا، فقلت: لِمَن أنت يا غلام؟ فقال لِرجل من أهل المدينة أو مكة، قلت: أفي غنمِكَ لبن؟ قال: نعم. قلت: أفَتحلُبَ؟ قال؛ نعم. فأخذ شاة فقلت انْفُضِ الضَرع من التراب والشَّعر والْقَذَى، قال؛ فرأيت الراعي يضرب إحدى يديْه على الأخرى، ينْفُض، فَحلبَ في قُعْب كُثْبةً من لبن ومعي إداوة حملتها للنبيّ ﷺ: يرتوي منها: يشرب ويتوضأ فأتيت النبيّ ﷺ، فكرهتُ أن أوقظَه، فوافقْتُه حين استيقظ، فصببت من الماء على اللبن حتى برد أسفلُه، فقلت اشرَبْ يا رسول الله، قال: فشرب حتى رضيت، ثم قال: ألمْ يَأنِ

(١) الروض الأنف جـ ٤، ص ١٨٤، ط دار الكتب الحديثة.

للرحيل؟ قلت: بلى. قال: فارتحلْنا بعد ما قالت الشمس واتبَعَنا سراقة بن مالك، فقلت: أتِينَا يا رسول الله، فقال؛ لا تحزن إن الله معنا، فدعا عليه النبيُّ ﷺ فارتطمتْ به فرسه إلى بطنها: أرى في جلَد من الأرض - شك زهير.

خروج رسول الله ﷺ من الغار:

وكان خروج رسول الله ﷺ من الغار، ليلة الاثنين لأربع ليال خلون من شهر ربيع الأول، فَقَالَ[1] يوم الثلاثاء بقُديد. فلما راحوا منها، عرض لهم سراقة بن مالك بن جُعْشُمْ، وهو على فرس له، فدعا عليه رسول الله ﷺ فرسَخَت قوائم فرسه، فقال يا محمد أدع الله أن يطلق فرسي وأرجع عنك وأردّ من ورائي ففعل، فأطلق ورجع[2]....

الوصول إلى قباء.

وكان المهاجرون قد استبطأوا رسول الله ﷺ في القدوم عليهم، فكانوا يغدون مع الأنصار على ظهر حرّة العقبة، فيتحينون قدومه في أول النهار، فإذا أحرقتهم الشمس رجعوا إلى منازلهم.

فلما كان اليوم الذي قدِم فيه رسول الله ﷺ - وهو يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ويقال لإثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول - جلسوا كما كانوا يجلسون، فلما أحرقتهم الشمس رجعوا إلى بيوتهم، فإذا رجل من اليهود يصيح على أطم[3] بأعلى صوته: يا بني قيلة، هذا صاحبكم قد جاء، فخرجوا فإذا رسول الله ﷺ وأصحابه الثلاثة، فسُمعت الرجة في بني عمرو بن عوف والتكبير، وتلبس

(١) فقال: من القيلولة.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٣١٩، مطبعة لجنة النشر للثقافة الإسلامية.

(٣) أطم: بالضم بناء مرتفع.

المسلمون السلاح، فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى قُباء، وجلس رسول الله ﷺ، وقام أبو بكر يذكرَ الناس، وجاء المسلمون يسلّمون على رسول الله ﷺ[1].

الوصول إلى المدينة:

- ١ -

عن زُرارة بن أوفى، قال: قال عبد اللَّه بن سلام: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، انْجفَل[2] الناس إليه وقيل: قدِم رسول الله ﷺ. قال فجئت في الناس لأنظر إليه، قال فلما رأيت وجه رسول الله ﷺ، إذا وجهه ليس بوجه كذاب.

قال فكان أول شيء سمعته يتكلم به، أن قال: «يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وَصِلُوا الأرحام، وَصَلُّوا والناس نيام، وادخلوا الجنة بسلام[3].

- ٢ -

فنزل نبيّ الله ﷺ، جانب الصخرة. وبعث إلى الأنصار فجاءوا نبيّ الله ﷺ، فسلموا عليهما وقالوا: اركبا آمنَيْنِ مطاعين، قال: فركب نبيّ الله ﷺ وأبو بكر، وحفّوا حولهما بالسلاح، قال فقيل في المدينة: جاء نبيّ الله: جاء نبيّ الله. فاستشرفوا نبيّ الله: ينظرون ويقولون: جاء نبيّ الله ﷺ[4].

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٢٠.

(٢) انجفل الناس إليه: ذهبوا مسرعين نحوه.

(٣) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢.

(٤) المرجع السابق.

فلما كان يوم الجمعة، ارتفاعَ النهار، دعا راحلته، وحشد المسلمون وتلبسوا بالسلاح، وركب رسول الله ﷺ ناقته القَصْواء، والناس معه: عن يمينه وشماله، فاعترضته الأنصار: لا يمر بدارٍ من دُورهم إلا قالوا هلُمَّ يا نبي الله، إلى القوة والمنَعَة والثروة، فيقولُ لهم خيراً، ويدعوا لهم ويقول: «إنها مأمورة فخلّوا سبيلها» فلما أتى مسجد بني سالم جمّع بمَن كان معه من المسلمين وهم مائة[1].

لما أراد رسول الله ﷺ أن ينتقل من قُباء اعترضت له بنو سالم، فقالوا يا رسول الله، وأخذوا بِخِطام راحلته، هلمّ إلى العدد والعُدةِ والسلاح والمنعة، فقال: «خلّوا سبيلها فإنها مأمورة» ثم اعترضت له بنو الحارث بن الخزرج فقالوا له مثل ذلك، فقال لهم مثل ذلك، ثم اعترضت له بنو عدي فقالوا له مثل ذلك فقال لهم مثل ذلك حتى بركت حيث أمرها الله[2].

عن أنس قال: قدِم رسول الله ﷺ (المدينة)[3] فنزل في حيّ يقال لهم بنو عمرو بن عوف.

فأقام النبيّ ﷺ أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار، فجاءوا بالسيوف، وكأني أنظر إلى النبيّ ﷺ على راحلته، وأبو بكر رِدفه، ومَلأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلّي حيث أدركته الصلاة ويصلّي في مرابض الغنم، وإنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى بني النجار[4] فقال: يا بني النجار ثامنوني بحائطكم هذا، (قدروا ثمن بستانكم لأشتريه).

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٢٣.
(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ٢٢٣.
(٣) من البخاري.
(٤) البخاري: إلى ملأ من بني النجار.

قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله.

قال أنس: فكان فيه ما أقول لكم، كان فيه قبور المشركين وخَرِبٌ[1] وفيه نخل، فأمر النبيّ ﷺ بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسوّيت وبالنخل فقطع، فصفّوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه حجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون، والنبيّ ﷺ معهم وهو يقول:

اللّهمّ لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة فاغفِرْ للأنصار والمهاجرة[2] [3]

- ٣ -

عن أنس قال: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، لعبت الحبشة بحرابها، فرحاً بذلك.

عن عائشة قالت: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدرُ علينا من ثنيات الوداع
وَجَبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داع[4]

---

(١) الخرب: بفتح المعجمة وكسر الراء جمع خربة ككلمة وكلم وجوز الخطابي أنه خرب بضم المهملة وسكون الراء وهي الخروق المستديرة في الأرض.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ٦٦/١.

(٣) الوفا جـ١، ص ٢٥٤ - ٢٥٥.

(٤) الوفا جـ١ ص ٢٥٢ - وذكر ابن قيّم في كتابه القيّم زاد المعاد جـ٣، ص ١٠، أن هذا النشيد حدث في استقبال النبيّ ﷺ حينما دنا من المدينة عند قفوله من غزوة تبوك؛ ويقول: ويهم (يتوهم) بعض الرواة في هذا ويقول: إنما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة؛ وهو وهم ظاهر لأن ثنيات الوداع إنما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ولا يمرّ بها إلا إذا توجه إلى الشام.

- ٤ -

عن أنس بن مالك قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء[1].

- ٥ -

عن البَرَاء قال: جاء النبيّ ﷺ - يعني إلى المدينة في الهجرة - فما رأيت أشدَّ فَرَحاً منهم بشيءٍ من النبيّ ﷺ، حتى سمعت النساء والصبيان والإماء يقولون:

هذا رسول الله: قد جاء، قد جاء.

عن يحيىٰ بن يعلى، قال: قال عليّ بن أبي طالب يوماً، وهو يذكر الأنصار وفضلهم وسابقتهم، ثم قال: إنه ليس بمؤمن مَن لم يحبَّ الأنصار، ويعرفْ لهم حقوقهم. هم والله، رَبوا الإسلام كما يُرَبِّى الفِلْو[2] في فنائهم: بأسيافهم وطول ألسنتهم وسخاء أنفسهم، لقد كان رسول الله ﷺ، يخرج في المواسم فيدعو القبائل: ما أحدٌ من الناس يستجيبُ له ويقبل منه دعاءه، فقد كان يأتي القبائل بمجنة وعكاظ وبمنى حتى يستقبلَ القبائلَ: يعود إليهم سنةً بعد سنة، حتى إنّ القبائل منهم مَن قال أما آن لك أن تيئس منّا من طول ما يعرض نفسه عليهم، حتى أراد الله عزّ وجل ما أراد بهذا الحيّ من الأنصار، فعرض عليهم الإسلام فاستجابوا وأسرعوا، وآووا ونصروا، وواسوا، فجزاهم الله خيراً. قدِمنا عليهم، فنزلنا معهم في منازلهم. ولقد تشاحوا فينا، حتى إن كانوا ليقترعون علينا، ثم كنّا في أموالهم أحقَّ بها منهم: طيِّبةٌ بذلك أنفسَهم، ثم بذلوا مهجَ أنفسهم دون نبيّهم ﷺ وعليهم أجمعين.

---

(١) انظر الطبقات لابن سعد.

(٢) الفلو: بكسر الفاء وسكون اللام: الجحش أو المهر يفطم أون يبلغ السنة..

عن عائشة قالت: لبِثَ رسول الله ﷺ، في بني عمرو بن عوف، بضع عشرة ليلة، وأسّس المسجد الذي أُسِّس على التقوى، وصلّى فيه رسول الله ﷺ، ثم ركب راحلته وسار يمشي معه الناس، حتى بَرَكَت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلّي فيه رجال من المسلمين، وكان مِرْبَداً للتمر، لسَهل وسُهيل: غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة. فقال رسول الله ﷺ حين بركت به: هذا المنزل إن شاء الله. ثم دعا الغلامين فساومهما بالمِرْبَدِ ليتخذه مسجداً، فقالا: بل نَهَبُه لك يا رسول الله.

ثم بناه مسجداً. وطفق ينقل معهم اللَّبِن في بنائه ويقول:

هـذا الْحِمَـال لا حـمـال خيبـر ... هـذا أبـرُّ ربّـنـا وأطْـهَـرْ

الـلّهمّ إن الـخير خيـرُ الآخـرة ... فـارحم الأنصار والمهـاجـرة(١)

عن أبي سعيد قال: تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم.

فقال رجل: هو مسجد قباء. وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «هو مسجدي» أخرجه مسلم(٢).

عن أبي سعيد قال: «دخلت على النبيّ ﷺ، فسألته عن المسجد الذي أُسِّس على التقوى، قال: فقبض قبضةً من الحصباء، ثم ضرب بها الأرض، ثم قال: هذا يعني مسجد المدينة».

رواه مسلم في الصحيح(٣).

---

(١) الوفا جـ ١، ص ٢٥٤.
(٢) الوفا جـ ١، ص ٢٥٦.
(٣) دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٢٦٣ - ٢٦٤.

حدّثنا نافع أن عبد اللّه بن عمر، أخبره «أن المسجد كان على رسول الله ﷺ، مبنياً باللَّبِن، وسقفه الجريد، وعمده خشب النخل. فلم يزد فيه أبـو بكر شيئـاً، وزاد فيه عمـر وبناه على بنيـانه في عهـد رسول الله ﷺ: باللَّبِن والجريد، وأعاد عمده خشباً. وغيَّره عثمان، فزاد فيه زيادة كثيرة. وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والفضة، وجعل عمده من حجارة منقوشة، وسقفه بالساج»، رواه البخاري في الصحيح.

عن ابن عمر رضي الله عنهما «أن مسجد النبيّ ﷺ، كانت سواريه ـ على عهد رسول الله ﷺ ـ من جذوع النخل: وأعلاه مُظَلّل بجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، فبناها بجذوع النخل وبجريد النخل، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان، فبناها بالآجُر فلم تزل ثابتة حتى الآن[1] أي إلى عهد عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه.

عن عبد اللّه بن زيد: أن رسول الله ﷺ قال: «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة» أخرجاه.

عن أبي هريرة وأبي سعيد: أن رسول الله ﷺ، قال: «ما بين بيتي ومنبـري روضة من ريـاض الجنة: ومنبـري على حوضي. أخـرجه الشيخان[2].

المسجد النبوي:

عن ابن عمر قال: كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنيّاً بالّلبن وسقفه الجريد، وعمده الخشب من النخل، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ بـالّلبن

---

(١) دلائل النبوّة جـ ٢ ص ٢٦١ ـ ٢٦٢.
(٢) الوفا جـ ١، ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧.

والجريد، وأعاد عمده خشباً، ثم غيّره عثمان وزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصّة(1)، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسَقفه بالساج. انفرد بإخراجه البخاري(2).

الخطبة الأولى:

وكانت أولُ خُطْبة خطبها رسول الله ﷺ - فيما أخبر أبو سَلَمة بن عبد الرحمن، ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل - أنه قام فيهم؛ فحمِدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد:

«أيها الناس، فقدموا لأنفسكم. تَعلَمُنَّ والله، ليُصْعَقَنَّ أحدُكم ثم ليَدَعَنَّ غَنَمَه ليس لها راع، ثم ليقولنّ له ربه، وليس له تَرجمانٌ ولا حاجبٌ يحجبُه دونه: ألم يأتك رسولي فبلَّغك، وآتيتك مالاً وأفضلت عليك؟ فما قدّمت لنفسك؟ فلينظُرَنَّ يميناً وشمالاً فلا يرى شيئاً، ثم لَينظرَنَّ قُدَّامه فلا يرى غير جهنم. فمَن استطاع أن يقيَ وجهَه من النار ولو بشِقٍّ من تمرة فليفعل. ومَن لم يَجِد، فبكلمة طيبة، فإنَّ بها تُجزَى الحسنة عشرَ أمثالها، إلى سَبعِمَائة ضِعفٍ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(3).

الخطبة الثانية:

والخطبة الثانية لرسول الله ﷺ، في مسجده المبارك. هي:

«إنَّ الحمد لله، أحمدُه وأستعينه، نعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، مَنْ يهدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له،

---

(1) القصة: الجصد (الجيد).
(2) الوفا جـ1 ص ٢٢٥.
(3) الروض الأنف جـ٤، ص ٢٣٩ ط دار الكتب الحديثة.

وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له. إنَّ أحْسَنَ الحديث كتابُ الله. قد أفلح مَن زيّنه الله في قلبه، وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أحسنُ الحديث وأبلغه، أحِبوا مَنْ أحبَّ الله، أحِبوا الله مِن كل قلوبكم، ولا تَمَلوا كلامَ الله تعالى وذكره، ولا تَقْسُ عنه قلوبُكم، فإنه مِن كل يختار الله ويصطفي، فقد سمّاه خيرته من الأعمال ومصطفاه من العباد. والصالح من الحديث، ومن كل ما أتى الناس من الحلال والحرام، فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، واتقوه حقَّ تُقَاته، وأصدقوا الله صالحَ ما تقولون بأفواهكم. وتحابوا بروح الله بينكم. إن الله يغضَب أن يُنْكثَ عهده. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»(١).

المـــــدينة:

عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ، قال: اللّهمّ إنك أخرجتني من أحبّ البلاد إليّ، فأسكني أحبّ البلاد إليك، فأسكنه الله المدينة».

عن سعيد بن يسار يقول: سمعت أبا هريرة يقول: «قال رسول الله ﷺ: أمِرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب، وهي المدينة: تنفي الناس كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد» رواه البخاري في الصحيح.

عن أبي هريرة «أن رسول الله ﷺ قال: إن الإيمان ليأرِزُ(٢) إلى المدينة كما تأرزَ الحيّة إلى جُحْرِها» رواه مسلم في الصحيح.

عن ابن عمر قال «قال رسول الله ﷺ: إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ وهو يأرز بين المسجدين(٣) كما تأرز الحيّة إلى

---

(١) دلائل النبوّة جـ ٢ ص ٢٤٧.

(٢) يأرز: ينضم ويجتمع بعض إلى بعض.

(٣) المسجد الحرام والمسجد النبوي.

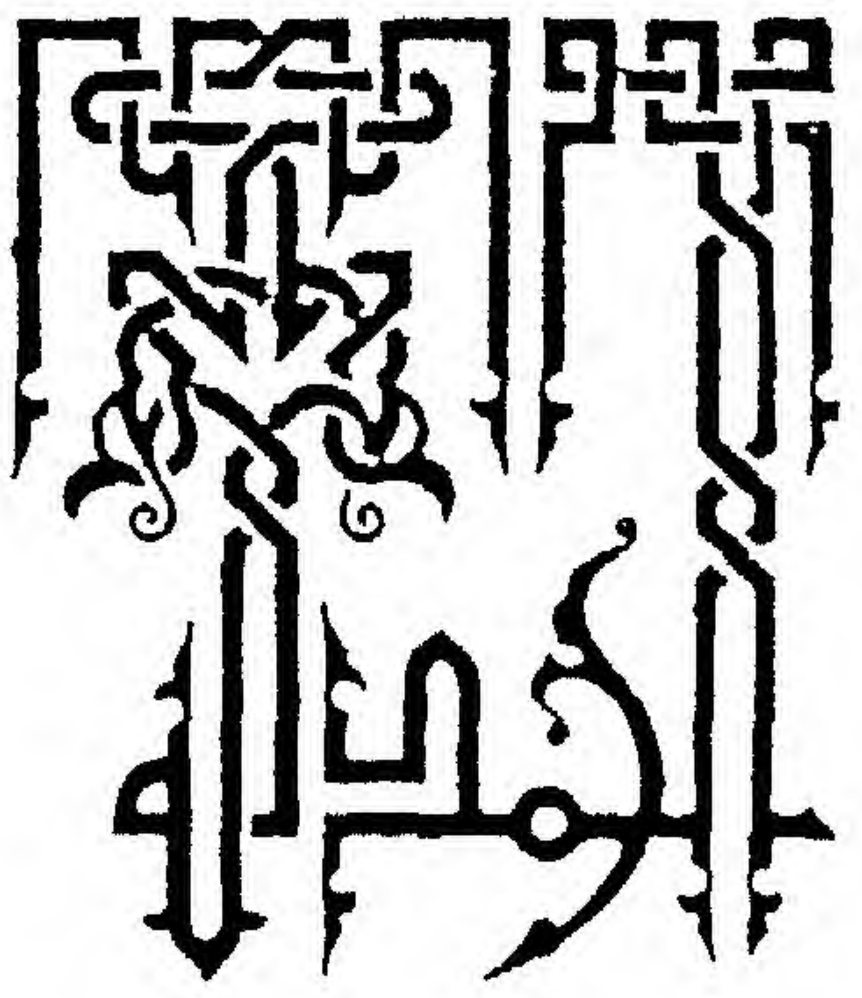
جحرِها» رواه مسلم في الصحيح[1].

عن أبي عبد اللَّه القراظ قال: سمعت أبا هريرة وسعداً يقولان: قال رسول الله ﷺ: «اللّهمّ بارك لأُمتي في مُدَهم[2] وبارك لهم في صَاعهم[3]، وبارك لهم في مدينتهم. اللّهمّ إن إبراهيم عبدُك وخليلُك، وإني عبدُك ورسولُك، وإن إبراهيم سألك لمكةَ، وإني أسألك للمدينة مثل ما سألك إبراهيم لمكة. ومثله معه. إن المدينة مُشبكّة بالملائكة، على كل نَقْب منها ملائكة يحرسونها: لا يدخلها الطاعون ولا الدجال. مَن أراد أهلها بسوء أذابه الله عزّ وجل، كما يذوب المِلح في الماء» رواه مسلم في الصحيح[4].

عن أُبيّ بن كعب، قال: لما قدِم رسول الله ﷺ وأصحابُه المدينةَ وآوتهم الأنصار ـ رمتهم العرب عن قوسٍ واحدة. وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يُصبِحون إلا فيه، فقالوا ترون أنّا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله عزّ وجل؟ فنزلت: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[5].

---

(١) دلائل النبوّة جـ٢، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤.
(٢) المدّ: مكيال وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز ورطلان عند أهل العراق.
(٣) الصاع مكيال يساوي أربعة مداد.
(٤) دلائل النبوّة جـ٢، ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٥) النور: ٥٥، دلائل النبوّة جـ٢، ص ٢٩٩.

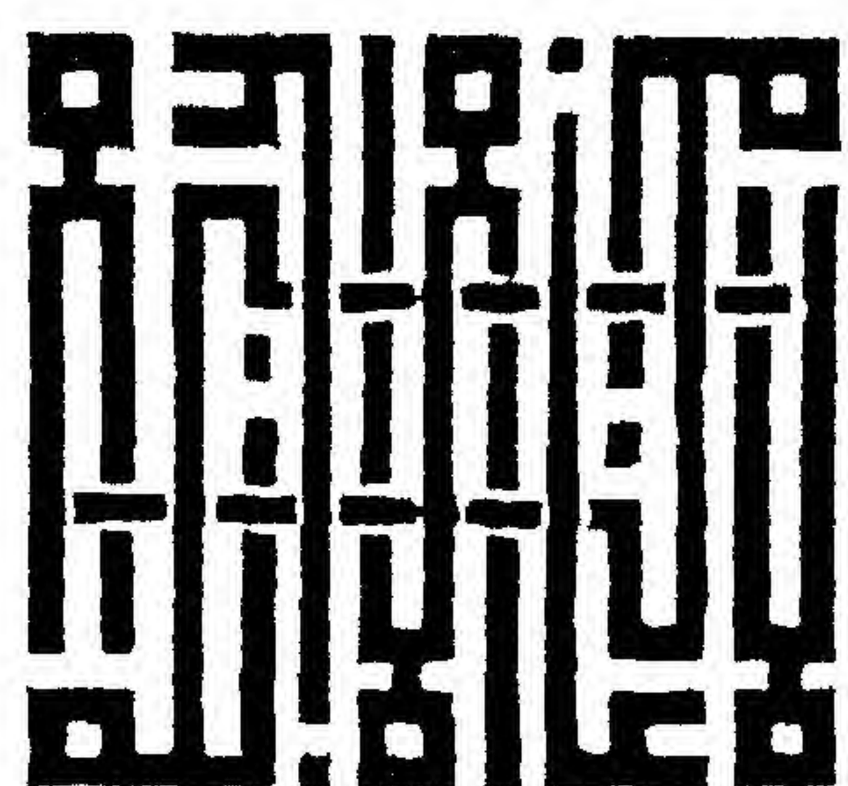


﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل السابع

المعجـــزات



المعجـــــزات

إن القرآن الكريم: تحدث عن معجزات حسيّة كثيرة، تحقّقت على أيدي الرسل، وفي أقوالهم صلوات الله وسلامه عليهم.

والمثال الخِصب في ذلك هو جوّ سيّدنا عيسى ـ عليه السلام ـ كله:

١ ـ جوّه من ناحية أُمه قبل الحمل:

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1].

٢ ـ وجوّه من ناحية الحمل:

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.

---

(١) آل عمران: ٣٧.

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾[1].

وفوجئت مريم بهذا الخبر الغريب: الذي لم تكن تتوقعه..

ويصوّر القرآن الكريم مفاجأتها فيقول:

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾[2]..

وجاءها الردّ الحاسم:

﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾[3]..

ويتابع القرآن الإخبار بما حدث، فيقول:

﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾[4]..

وتصورت مريم ما سيتمخض عنه الوضع: من مفاجأة الناس؛ ومن اتهامهم لها فقالت:

﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[5].

وهنا نصل إلى جوٍّ ثالث في حياة عيسى ـ عليه السلام ـ هو:

٣ ـ جوُّ حديثه في اللحظات الأولى لميلاده:

---

(١) مريم: ١٦، ١٩.
(٢) مريم: ٢٠.
(٣) مريم: ٢١.
(٤) مريم: ٢٢، ٢٣.
(٥) مريم: ٢٣.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾[1].

والقراءات تعيّن أن المنادي عيسى عليه السلام، وذلك أن إحدى القراءات هي:

«فناداها مَنْ تَحْتَها».. بفتح الميم.

وكان ما توقعته مريم من اتهامها.

ويصوّر القرآن ذلك في قوله تعالى:

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ۝٢٧ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾[2]..

وهنا أشارت مريم عليها السلام إلى عيسى، ليخاطبوه، وليردّ عليهم:

فقالوا - في دهشة -: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾[3].

وردّ عليهم عيسى - وهو في المهد - قائلاً:

﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾[4]..

ونشأ عيسى - عليه السلام - وترعرع؛ وأصبح رجلاً مكتملاً،

---

(١) مريم: ٢٤.
(٢) مريم: ٢٧، ٢٨.
(٣) مريم: ٢٩.
(٤) مريم: ٣٠ - ٣٣.

وعلَّمه الله الكتابَ والحكمة، والتـوراة والإنجيل، وآتاه النبوّة، وأرسله إلى بني إسرائيل..

ويسلمنا هذا إلى الحديث عن:

٤ ـ معجـــزاته:

أما معجزته أو معجزاته، فقد بيّنها القرآن في قوله تعالى:

﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1]..

لقد كان جوّ عيسى ـ عليه السلام ـ كله خارقاً للعادة...

وكانت خوارق العادات كثيرة بالنسبة لأمِّه، مع أنها لم تكن نبيّة ولا رسولة..

ونحن نؤمن بذلك كله..

ونؤمن بأن عيسى ـ عليه السلام ـ ما كان في استطاعته الذاتية أن يخلق ذُباباً، هو ولا أمه الصدّيقة، ولو اجتمعا له، وإنْ يسلُبْهُمَا الذُباب شيئاً لا يستنقذانه منه..

إنهما بذاتهما لا يخرقان عادة، ولا يأتيان بمعجـزة... إنهما بشر... وإنما كل ذلك بإذن الله...

ومن أجل ذلك، كان عيسى ـ عليه السلام ـ يقول عقب ذكر المعجزات: «بإذن الله».

---

(١) آل عمران: ٤٩.

وقدرة الله فوق كل ذلك، وهو سبحانه القائل:

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ﴾(1).

فإذا كان عيسى ـ عليه السلام ـ نشأ من غير أب: فإنه قد حمل في الوعاء العادي الذي يحمل فيه الجنين عادة.. أما آدم فإن أمره في خرق العادة أغرب.. إنه من غير أب، ولم يُحمَل في رحم أُم!!.

إننا نؤمن بعيسى، ونؤمن بجميع أجوائه.. ونؤمن بجوّ آدم، ونؤمن بإلقاء إبراهيم في النار فلم تحرقه، ونؤمن بناقة صالح، وبعصا موسى، ونؤمن بهؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم الله هدىً، وأنهم لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعاً..

ونؤمن بهذا الذي مَرَّ على قرية وهي خاويةٌ على عروشها قال:

﴿ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(2)..

ونؤمن أيضـاً بمعجزات محمـد ـ ﷺ ـ التي وردت عن طـريق صحيح..

نؤمن بها على تنوعها واختلافها، ما دامت قد وردت في القرآن الكريم أو في صحاح الأحاديث.

وقد تحدّث القرآن عن معجزة الإسراء والمعراج:

---

(1) آل عمران: ٥٩.

(2) البقرة: ٢٥٩.

﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(١) . .

وتحدّث عن معجزة عصمته ـ ﷺ ـ من أعدائه طيلة حياته ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾(٢) .

وآية انتصار الروم: تحدّث القرآن عنها: إنباءً بالغيب، آيةً للرسول ﷺ(٣) . .

إننا نؤمن بخرق الله للعادة، بالنسبة للأنبياء، وبالنسبة للأولياء.

وتفرقة العلماء بين المعجزة والولاية معروفة. والمسألة ـ في هذا ـ أهون من أن يتناقش فيها الناس . .

ولا مناص من أن نؤمن بالمعجزات لرسول الله ـ ﷺ ـ حينما ترد عن طريقه أو عن طرق صحيحة ـ أي حينما تثبتها السنّة الصحيحة ـ ولا شبهةَ قطّ في قوله تعالى:

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ ﴾(٤) . .

وذلك أن سنّة الله ـ سبحانه وتعالى ـ قاضيةٌ بأنه إذا طلب قوم آية؛ فأذن الله بها؛ وتحققت لهم، ثم لم يؤمنوا بها ـ وهم الذين طلبوها ـ فإن الله ـ سبحانه يدمّرهم تدميراً . .

ولقد دمّر الله قومَ صالح الذين طلبوا الآية، فلما تحققت كفروا بها . .

---

(١) الإسراء: ١.
(٢) المائدة: ٦٧.
(٣) أول سورة الروم.
(٤) الإسراء: ٥٩.

ودمّر الله كل قوم طلبوا المعجزات وألحّوا في طلبها، فأنزل الله عليهم الآياتِ استمروا في كفرهم..

وما من شك في أن الله دمر أُمَماً لأسباب أخرى، ترجع عادة إلى الظلم والكِبَر والطغيان؛ وقصّ علينا قَصَصَهُم في القرآن الكريم، كما قصّ علينا قصة قوم صالح..

تلك سنّة الله..

ولقد طلب أهل مكة ـ في تبجح وعناد ـ بعض الآيات المعينة، ولم يطلبوها من أجل الإيمان، وإنما طلبوها تعنتاً..

يقول سبحانه:

﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾[1]..

ولقد شرح القرآن موقفهم الذي لا إخلاص فيه؛ وكله تعنت وجحود، فقال:

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾[2]..

إنهم ما كانوا ليؤمنوا مهما آتاهم الله من آيات..

---

(١) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.
(٢) الحجر: ١٤، ١٥.

ولقد كان في مقادير الله ـ سبحانه ـ أن يُبْقِيَ هؤلاء المكيّين، ليكونوا من أنصار الإسلام ومن حُماته..

لقد كان في مقادير الله أن يبقي أمثال خالد بن الوليد، حتى يكونوا سيوفاً؛ دفاعاً عن دينه، وسيراً في نور نبيّه..

ومن أجل ذلك لم يُنَزِّلْ عليهم المعجزات التي طلبوها..

أما الآيات التي أتت عفواً، فأثبتتها السنّة الصحيحة، فإنها كثيرة..

والصفحات التالية: بيان لبعض معجزات الرسول ـ ﷺ ـ مبتدئةً بالقرآن الكريم..

وإننا في هذا الباب، لم نثبت كل المعجزات، وإلاَّ لطال بنا القول كثيراً.

والبعض الذي أثبتناه، كان مرجعَنا فيه أصحُّ الكتب: وأوثق المصادر، والله المستعان وله الحمد والمنّة..

وما من شك في أن أشقّ مرحلة يصادفها كل رسول من الرسل: إنما هي إقناع الناس برسالته..

وقد اختلفت وسائل هذا الإقناع؛ واختلفت أساليبه..

وقد بدأ الرسول ـ ﷺ ـ كأسلافه؛ بتقرير أنه رسول، وأنه متصل بالسماء، وأن الوحي ينزل عليه تباعاً.. وقد أرسله الله تعالى لحكمة سامية ردّدها القرآن في غير ما موضع، هي: تزكية النفوس وتطهيرها..

وتزكيتها وتطهيرها خلقياً واجتماعياً: مؤسساً ذلك على تطهيرها وتزكيتها من ناحية العقيدة:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ

﴿ ... ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(1).

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(2)..

ومن أجل ذلك، كان إرساله رحمة للعالمين:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾(3)..

ولكنَّ العرب سخروا من دعوته، وكان لا بد من أن يفحمهم بآية من آيات الله، فكانت هذه الآيةُ هي القرآن.

لقد تحدّاهم به في عُنف، وتحدّاهم ـ مُتَدَرِّجاً بهم ـ من أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، إلى أن يأتوا بعشْر سور مثله، ثم انتهى بهم أخيراً إلى أن يأتوا بسورةٍ من مثله، قال تعالى:

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(4).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(5).

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ

---

(1) آل عمران: ١٦٤.
(2) البقرة: ١٢٩.
(3) الأنبياء: ١٠٧.
(4) الإسراء: ٨٨.
(5) هود: ١٣.

﴿ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

إن الكثيرين من أسلافنا ـ رضوان الله عليهم ـ قد جرّدوا أنفسهم تجريداً كاملاً، أو شبه كامل لخدمة سيرة رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يدعوا شأناً من شئونه إلا حقّقوه[2]، وزاف ما زاف، وبقي الصحيح الطيب..

وإن عملهم في نخل الأخبار، وتنقيتها وتصفيتها ـ بحيث وضح من

---

(١) البقرة: ٢٣، ٢٤.

وفي هذه الآيات كرّر القرآن لفظ «مثل». والمثلية لا تختصّ بجانب دون جانب، وإنما تعمّ جميع المناحي

والواقع: أن النقاش في أن القرآن معجز بأسلوبه، أو بمعانيه، أو بقصصه، أو بإخباره عن المغيبات، أو بغير ذلك من وجوه الإعجاز ـ إنما هو: نقاش لا يتمشى مع الفكرة القرآنية التي هي في التماثل من جميع النواحي.

قال صاحب البحر المحيط:

«والمثلية في: حسن النظم، وبديع الوصف، وغرابة الأسلوب، والإخبار بالغيب، مما كان وما يكون، وما احتوى عليه من: الأمر والنهي، والوعد والوعيد، والقصص، والحِكم، والمواعظ والأمثال، والصدقة، والأمن من التحريف والتبديل».. جـ ١، ص ١٠٤ ـ ١٠٥.

ومنشأ الاختلاف في تحديد وجوه الإعجاز في القرآن: راجع إلى اختلاف درجة الاستعدادات الفطرية، والاتجاهات الفكرية، لإدراكها ومعرفتها..

فمثلاً: مَن وجد القرآن مصدّقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل، وأخبار السابقين، والغيبيات التي لا تحيط بها البشرية علماً ـ حصر وجوه الإعجاز فيما أدرك.

ومَن نظر إلى القرآن من ناحية اللفظ، وحُسن السبك، وجزالة الأسلوب، وما له من روعة تملك على السامع شعوره ووجدانه ـ حصر الإعجاز في ذلك.. ومَن أجال فكره فيما حواه القرآن من الأسرار الكونية، التي تكشف عنها العلوم والبحوث أيّاً ما كانت ـ فهو مصدّق لما في الطبيعة والفطر: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم﴾ ـ سورة فصّلت ٥٣ ـ اتجه هذا الاتجاه.. إلخ...

(٢) يقول أحد المستشرقين عن المحدّثين: إنهم عرفوا كل شيء في حياة نبيّهم حتى عدّوا الشعرات البيض في رأسه.

أمر الرسول ـ ﷺ كل شيء ـ لَعَمَلٌ جليل رائع، دقيق كل الدقة.

وقد ورد في سيرته الشريفة، ذكر من المعجزات الحسيّة وثبتت هذه المعجزات عن طرق عدة كلها صحيح..

ولا مناص للمنصف من الإيمان بها، فهي ثابتة عن طرق توافر لها كل شروط الصحة، وهي ليست بأشدَّ غرابة مما كان للأنبياء من قبل..

ثم إنها لا تناقض العقل..

وما من شك في أن معجزة الرسول الكبرى، هي القرآن..

وإذا كان القرآن هو المعجزة الكبرى؛ فإن معجزات أخرى كثيرة بجوار القرآن مؤيدة له؛ فقد ثبتت لنبيّنا ﷺ..

القرآن أعظم معجزة:

يقول ابن خلدون في علامات الأنبياء:

ومن عَلامَاتهم أيضاً، وقوع الخوارق لهم، شاهدة بصدقهم. وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها، فسمّيت بذلك معجزة، وليست من جنس مقدور العباد، وإنما تقع في غير محل قدرتهم..

وإذا تقرر ذلك، فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها، وأوضحها دلالة: القرآن الكريم، المنزّل على نبيّنا محمد ـ ﷺ ـ فإن الخوارق ـ في الغالب ـ تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبيّ، ويأتي بالمعجزة شاهدة مصدّقة..

والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، وهو الخارق المعجز؛ فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه.

وهذا معنى قوله ـ ﷺ ـ:

«ما من نبيٍّ إلاَّ وقد أُعطيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثَرهم تابعاً يوم القيامة»(١)..

يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان التصديق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن، وهو التابع والأمة..

ويقول صاحب الشفاء:

وعن أبي هريرة، عنه، ﷺ، قال:

«ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أُعطِيَ من الآيات ما مثلُه آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحياً أوْحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثَرهم تابعاً يوم القيامة»(٢)..

معنى هذا عند المحقّقين: بقاء معجزته ما بقيت الدنيا، وسائر معجـزات الأنبياء ذهبت للحين، ولم يشاهدها إلا الحاضر لها. ومعجزة القرآن يقف عليها قرن بعد قرن إلى يوم القيامة..

عن إعجاز القرآن:

لقد كتب الكاتبون من زمن بعيد عن إعجاز القرآن: كتب بعضهم كتباً كاملة في إعجازه، كما فعل الإمام الباقلاني قديماً، وكما فعل مصطفى صادق الرافعي حديثاً. وكانوا في ذلك متابعين للقرآن الكريم الذي

(١، ٢) رواه الشيخان، وأحمد.

تحدى العرب؛ بل تحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو يأتوا بمثل جزء منه.

وفي ذلك يقول صاحب كتاب الوفا: «لما غَلَبَ السحر في زمن موسى عليه السلام، جاءهم بجنسه في معجزاته، فَفَلَقَ البحر، وألقى العصا..

ولما غلب الطب في زمن عيسى عليه السلام؛ جاءهم بجنسه فأحيا الموتى وأبرأ الأكمه..

ولما غلبت الفصاحة وقول الشعر؛ والنظم والنثر في زمن نبيّنا - ﷺ - جاءهم القرآن، وهو معجز من أوجه:

أحدها: ما يشتمل عليه من الفصاحة والبلاغة، في الإيجاز والإطالة، فتارة يأتي بالقصة باللفظ الطويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، فلا يُخِلُّ بمقصود الأولى.

والثاني: مقارنته لأساليب الكلام وأوزان الأشعار..

وبهذين المعنيين تحدثت العرب، فعجزوا وتحيروا وأقرّوا بفضله.

والثالث في معجز القرآن: ما تضمن من أخبار الأمم السالفة، وسِيَرِ الأنبياء التي عرفها أهل الكتاب، مع كون الآتي بها أميّاً: لا يكتب ولا يقرأ، ولا علم له بمجالسة الأحبار ولا الكهان. ومَن كان من العرب يكتب ويقرأ ويجالس علماء الأحبار لم يدرك ما أخبر به القرآن..

والرابع: إخباره عن الغيوب المستقبلة: الدالّة على صدقه قطعاً، لوقوعها على ما أخبر، كقوله ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾(١).. وقوله: ﴿ فأتوا بسورة من مثله ﴾.. ثم قال: ﴿ وَلَن

(١) البقرة: ٩٤، ٩٥.

تَفۡعَلُواْ ﴾[1] . . فما فعلوا . . وقوله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ ﴾[2] . . وغُلِبوا . . وقوله : ﴿ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾[3] . . ودخلوا . . وقوله في أبي لهب : ﴿ سَيَصۡلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمۡرَأَتُهُۥ ﴾[4] . . وهذا دليل على أنهما يموتان على الكفر وكذلك كان[5] . .

والخامس : أنه محفوظ من الاختلاف والتناقض :

﴿ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا ﴾[6] . . . وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[7] . .

قال ابن عقيل : حُفِظَ جميعُه . وآياتُه وسوَرُه التي لا يدخل عليها تبديل ، من حيث عجز الخلائق عن مثلها ، فكان القرآن حافظ نفسه من حيث عجز الخلائق عن مثله . . .

قال أبو الوفا على بن عقيل :

«إذا أردت أن تعلم أن القرآن ليس من قول رسول الله ـ ﷺ ـ وإنما هو ملقى إليه ، فانظر إلى كلامه كيف هو إلى القرآن ، وتلمّح ما بين الكلامين والأسلوبين ـ ومعلوم أن كلام الإنسان يتشابه ، وما للنبيّ ـ ﷺ ـ كلمة تشاكل نمط القرآن . .

---

(١) البقرة : ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) آل عمران : ١٢ .
(٣) الفتح : ٢٧ .
(٤) المسد : ٣ ، ٤ .
(٥) راجع الوفا جـ ١ ، ص ٢٦٩ .
(٦) النساء : ٨٢ .
(٧) الحجر : ٩ .

قال ابنِ عقيل: ومن إعجاز القرآن. أنه لا يمكن لأحد أن يستخرج منه آية قد أُخِذَ معناها من كلام قد سبق، فإنه ما زال الناس يكشف بعضهم عن بعض، فيقال: «المتنبي أخذ من البحتري»..

ويقول صاحب الوفا، عن إعجاز القرآن:

وقد استخرجت معنيين عجيبين:

أحدهما: أن معجزات الأنبياء ذهبت بموتهم، فلو قال ملحد اليوم: أيّ دليل على صدق محمد وموسى؟.. فقيل له: محمد شق له القمر، وموسى شق له البحر.. لقال: هذا محال.. فجعل الله سبحانه هذا القرآن معجزاً لمحمد ـ ﷺ، يبقى أبداً.. ليظهر دليل صدقه بعد وفاته، وجعله دليلاً على صدق الأنبياء؛ إذ هو مصدّق لهم ومخبر عن حالهم.

والثاني: أنه أخبر أهل الكتاب بأن صفة محمد ـ ﷺ ـ مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، وشهد لحاطب بالإيمان، ولعائشة بالبراءة، وهذه شهادات على غيب.. فلو لم يكن في التوراة والإنجيل صفته، كان ذلك منفراً لهم عن الإيمان به ـ ولو علم حاطب وعائشة من أنفسهما خلاف ما شهد لهما به، نفرا عن الإيمان[1]..

وعن إعجاز القرآن يقول الأستاذ «اتيين دينيه»؛ الكاتب الفرنسي الذي أسلم وحج إلى بيت الله الحرام؛ وكتب الكثير في فضل الإسلام؛ وفي بيان مبادئه السامية:

إن معنى «آيات»: «العلامات المعجزة»[2]..

(١) راجع الوفا.. جـ١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٢.

(٢) انظر في ذلك كتاب: محمد رسول الله ـ ﷺ ـ الذي ترجمناه عن الفرنسية ونشرته دار المعارف.

إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرّضة للنسيان السريع؛ بينما نستطيع أن نسمّي معجزة الآية القرآنية. . «المعجزة الخالدة». . ذلك أن تأثيرها دائم، ومفعولها مستمر، ومن اليسير على المؤمن في كل زمان، وفي كل مكان، أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله. .

وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوربيون، لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة، فضلاً عن أنها غير دقيقة. .

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب، الفريد بين أمهات الكتب العالمية؛ لا تحتاج منّا ـ نحن المسلمين ـ إلى تعليل ـ ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله، ولكننا نرى من الطريف أن نورد هنا رأيين لمستشرقيين ذاعت شهرتهما عن جدارة. . يقول «سفرِي» ـ وهو أول مَن ترجم القرآن إلى الفرنسية: «كان محمد عليماً بلغته، وهي لغة لا نجد على ظهر البسيطة ما يضارعها غنىً وانسجاماً ـ إنها بتركيب أفعالها، يمكنها أن تتابع الفكر في طيرانه البعيد، وتصفه في دقة دقيقة. . وهي بما فيها من نغم موسيقي تحاكي أصوات الحيوانات المختلفة، وخرير المياه المنسابة، وهزيم الرعد، وقصف الرياح.

كان محمد عليماً ـ كما قلت ـ بتلك اللغة الأزلية التي تزينت بروائع كثير من الشعراء، فاجتهد محمد أن يحلّي تعاليمه بكل ما في البلاغة من جمال وسحر. .

ولقد كان الشعراء في الجزيرة العربية يتمتعون من التقدير بأسمى مكانة. . ولقد علّق لبيد بن ربيعة، الشاعر المشهور؛ إحدى قصائده على

باب الكعبة، وحالت شهرته وقدرته الشاعرية دون أن ينبري له المنافسون، ولم يتقدم أحد لينازعه الجائزة..

وذات يوم علّق بجانب قصيدته السورة الثانية من القرآن(١) (وقيل السورة الخامسة والخمسين)(٢)، فأُعجب بها لبيد أيما إعجاب، رغم أنه مشرك، واعترف بمجرد قراءة الآيات الأولى بأنه قد هزم، ولم يلبث أن أسلم..

وفي ذات يوم سأله المعجبون به عن أشعاره، يريدون جمعها في ديوان، فأجاب:

«لم أعد أتذكر شيئاً من شعري، إذ أن روعة الآيات المنزلة لم تترك لغيرها مكاناً في ذاكرتي».

ويقول أستانلي لين پول:

«إن أسلوب القرآن في كل سورة من سوره لأسلوب أبي يفيض عاطفة وحياة.. إن الألفاظ ألفاظ رجل مخلص للدعوة، وإنها لا تزال حتى الآن تحمل طابع الحماسة والقوة، وفي ثناياها تلك الجذوة التي ألقيت بها(٣)..

إنها ألفاظ قُدَّتْ من قلب إنسان يستحيل معها أن يكون منافقاً، وهذا القلب هو قلب رجل كان له أخطر الشأن في تاريخ الإنسانية»..

إن كان سحر أسلوب القرآن وجمال معانيه، يُحدث مثل هذا التأثير في نفوس مثل هؤلاء العلماء الذين لا يمتّون إلى العرب ولا إلى

---

(١) البقرة:...

(٢) الرحمن:....

(٣) محمد رسول الله ﷺ.

المسلمين بصلة، فماذا ترى أن يكون له من سحر يستهوي عرب الحجاز، وهم الذين نزلت عليهم الآيات بلغتهم الشعرية الجميلة؟..

لا يستطيع أن يكوّن لنفسه عن ذلك فكرة مقاربة، وإن كانت مصغّرة؛ إلا أنتم أيها المسافرون حينما تُتاح لكم الفرصة لمشاهدة التأثّر الذي يمتلك قلوب قوم ينصتون إلى الإمام، وهو يرتّل الآيات المقدسة..

لقد شاهدتم أقلّ الأعراب شأناً ـ فور وصولهم من أسفارهم المجهدة، وقد كستهم رمال الصحراء، حيث ذاقوا من المتاعب أشقها يتسابقون إلى المسجد، يجذبهم إليه ـ كالمغناطيس ـ صوت الإمام، فيفضّلون الاستماع إلى ترتيله، على الاستسلام إلى نوم هادىء مريح، وفي شهر رمضان يقضون الليل في الإنصات ـ الإنصات المستغرق ـ لآيات الله، بعد يوم شاق لم يذوقوا فيه طعاماً ولا شراباً.

حقاً إن أعراب عصرنا الذين لم ينالوا أدنى قسط من العلم لا يدركون دائماً المعنى الحرفي للألفاظ التي يقرأها الإمام، بيد أن الموسيقى العذبة والتوقيع اللطيف، والجرس المنسجم، كل هاتيك الأشياء التي تلزم الآيات العجيبة، تجد صداها في قلوبهم، فتحمل إليهم شرحاً قد يكون غير دقيق، ولكنه على كل حال يثير الخيال في قوة خصبة، وإليه تطمئن القلوب؛ بجوار هذه الآيات التي ترتل، صادرة عن تأثّر عاطفي؛ يبدو معه شرح النحويين والمنطقيين جثة لا حياة فيها..

أما عرب الحجاز الذين يدركون أدق معاني اللغة القرآنية التي هي لغتهم الخاصة، والذين أخذوا السور عن مواطِنهم الرسول العبقري، فكانوا لا يسمعون القرآن إلا وتتملك نفوسهم انفعالات هائلة مباغتة، فيظلون في مكانهم وكأنهم قد سحروا فيه ـ أهذه الآيات الخارقة تأتي من

محمد؟ . . ذلك الأُميّ الذي لم ينل حظاً من المعرفة، اللّهمّ إلا ما حبته به الطبيعة، وما امتاز به من رقة الشعور؟ . .

كلا، إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العليّ القدير هو الذي أملى تلك الآيات البيّنات . .

إن الرسول لم يكن مخادعاً، حين قال: «إن الله هو الذي أنزل القرآن» . . لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلّهي، فالنوبات الهائلة التي كانت تنتابه عند مجيء الوحي حاملاً إليه ما لم يكن يعلمه، في لغة جديدة كل الجدّة بالنسبة له، تختلف كثيراً عن لغته المألوفة ـ هذا الوحي الذي يعاتبه إن أخطأ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على المقاومة ـ هذا الوحي، خلال تلك النوبات، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في هذا المصدر الإلّهي للقرآن . .

لهذا كله؛ كان إعجاب الرسول ـ ﷺ ـ بالقرآن، أي بكلام الله، لا حدّ له . . وقد أوحى الله إليه:

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾(١).

ولا عجب في أن ترى النبيّ الأميّ يتحدّى الشعراء، ويعترف لهم بحق نَعْته بالكذب إن أتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك(٢) . .

(١) هود: ١٣.
(٢) لغة القرآن . .
لقد حقّق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكّن للغة العربية في الأرض، بحيث لو عاد أحد أصحاب الرسول ـ ﷺ ـ إلينا اليوم، لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد=

لقد حاول بعض المؤرخين المعاصرين أن يدعوا إلى الشك في ذلك الإخلاص العظيم المؤثر التي امتاز به محمد، وحاولوا أن يصوّروه في صورة رجل لا مؤهلات لديه للعظمة؛ إلا الطمع المؤسّس على المهارة، ورأيهم هذا لا يصدر إلا عن شخص أعماه التعصب، ولا يصدر إلا في زمن يشبه الزمن الذي كانت تقوم فيه محاكم التفتيش..

ولقد قضى «كارلايل» في كتابه «الأبطال» على ذلك التعصب الذميم، وتلك الحماقة العمياء، إذ يقول متحدثاً عن محمد:

«أيستطيع رجل مخادع أن يؤسّس ديناً؟ـ كلا وربي: إن رجلاً مخادعاً لا يستطيع أن يقيم بيتاً من آجر»..

إنه لو لم يكن عليماً بخواص الطوب والمونة وسائر المواد البنائية الأخرى؛ لما استطاع أن يقيم بيتاً؛ ولن يقيم ـ إذا أقام ـ إلا أكواماً منقضة؛ لا يمكن أن تقوم اثني عشر قرناً، تضم بين جدرانها ما يربو على مائة وثمانين مليوناً من الناس..

إن بناء المخادع ينهار لا شك لساعته[1]..

= صعوبة تذكر مع الشعوب الناطقة بالضاد، وهذا عكس ما يجده ـ مثلاً ـ أحد معاصري «رابليه» من أهل القرن الخامس عشر، الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العديد الأكبر من فرنسيّي اليوم.

وإن لغة القرآن، وإن كانت تمّت ـ في أصولها ـ إلى عصور بعيدة قديمة، فهي مرنة طيّعة، تسع التعبير عن كل ما يجدّ من المستكشفات والمخترعات الحديثة، دون أن تفقد شيئاً من رونقها وسلامتها. وأما ما نراه من المولدات التي تستعملها الصحف العربية، بنفس أصولها الأجنبية، فليس ذلك عن ضرورة، وإنما هو نوع من التكاسل والتهاون والتساهل، الذي نجد مثله عندنا نحن الفرنسيين، في استعارتنا الاصطلاحات الخاصة بالألعاب الرياضية، عن أصولها الأنجلو سكسونية.. (المؤلف: إتيين دينيه).

(١) محمد رسول الله ﷺ.

ولقد كان للعرب مواقف في شأن القرآن؛ نبدأها بموقف الوليد بن المغيرة؛ ونذكر في ذلك روايتين، تكمل إحداهما الأخرى:

الرواية الأولى:

عن سعيد بن جبير أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش؛ وكان ذا سنٍّ فيهم؛ وقد حضر الموسم.. فقال لهم:

يا معشر قريش: إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه؛ وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا؛ فأجمعوا فيه رأياً واحداً؛ ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً؛ ويردّ قولكم بعضه بعضاً..

قالوا: فأنت يا عبد شمس؛ فقل وأقم لنا رأياً نقل به..

قال: بل أنتم فقولوا وأستمع:

قالوا: نقول كاهن.

قال: ما هو بكاهن؛ لقد رأينا الكهان؛ فما هو بزمزمتهم ولا سجعهم.

قالوا: نقول إنه مجنون.

قال: ما هو بمجنون؛ لقد رأينا الجنون وعرفناه؛ فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول إنه شاعر.

قال: ما هو بشاعر؛ لقد عرفنا الشعر كله؛ رجزه وهزجه؛ ومقبوضه ومبسوطه؛ فما هو بالشاعر.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر؛ لقد رأينا السحّار وسحرهم فما هو بنفثه ولا عقده.

قالوا: فما نقول؟

قال: والله إن لقوله حلاوة، وإن أصله لعـذق[1]؛ وإن فرعـه لجناة[2]، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل.. وإن أقرب القول فيه أن تقولوا: هذا ساحر، يفرّق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته؛ وبين المرء وعشيرته ـ فتفرقوا عنه بذلك..

عن عمرو، أن الوليد بن المغيرة قـال: سمعت الشعر هـزجه وقريضه، فما سمعت مثل هذا ـ يعني القرآن ـ، ما هو بشعر، إن عليه لطلاوة، وإن له لنوراً؛ وإنه يعلو وما يعلى..

الرواية الثانية:

عن عكرمة أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبيّ ـ ﷺ ـ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقّ له، فبلغ ذلك أبا جهل؛ فأتاه؛ فقال: أي عم!.. إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً.. قال: ولِمَ ـ؟..

قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمداً تتعرض لما يقوله..

قال: قد علمت قريش أنّي من أكثرها مالاً..

قال: فقل له قولاً يبلغ قومك أنك منكر لما قال وأنك كاره له..

قال: وماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم أعلم بالأشعار منّي، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ـ والله إن لقوله لحلاوة؛ وإن عليه لطلاوة؛ وإنه لمثمر أعلاه؛ مغدق أسفله؛ وإنه ليحطم ما تحته؛ وإنه ليعلو وما يُعْلى.

---

(١) العذق: النخلة.

(٢) الجناة: ثمر النخل.

فقال: والله ما يرضى قومك حتى تقول فيه.

قال: فدعني حتى أنظر إليه.

قال: فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر ـ أي يؤثر عن غيره.. فنزل فيه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[1]..

موقف عتبة:

كان عتبة بن ربيعة سيداً في قومه؛ وكان جباراً طاغياً، وكان مشركاً.. واستمر على شركه إلى أن هلك؛ وإذا ذكرنا قصته هنا؛ فإننا نذكر حادثة لها مغزاها، ولها قيمتها، وهو وإن لم يؤمن فإن قصته تعبّر عمّا كان ينبغي أن يكون..

لقد قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ـ ﷺ ـ جالس في المسجد وحده:

يا معشر قريش؛ ألا أقوم إلى محمد، فأكلمه وأعرض عليه أموراً، لعله يقبل بعضها فنعطيه أيّها شاء؟..

وذلك حين أسلم حمزة؛ ورأوا أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ يزيدون ويكثرون..

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه..

فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال: «يا ابن أخي؛ إنك منّا حيث علمت من السطة[2] في العشيرة، والكمال في النسب.. وإنك قد أتيتَ قومك بأمر عظيم، فرّقت به جماعتهم،

---

(١) المدّثر: ١١.

(٢) السطه: المتوسط والمنزلة الوسطى، والوسط خير الأمور.

وسفَّهْت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم، وكفّرت مَن مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً، تنظر فيها لعلك تقبل منّي بعضها..

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: قل يا أبا الوليد، أسمع..

قال: يا ابن أخي.. إن كنت، إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً...

وإن كنت إنما تريد به شرفاً سوَّدْناك علينا، حتى لا نقطع أمراً دونك..

وإن كنت تريد به ملكاً مَلَّكْناك علينا.

وإن كان هذا الذي يأتيكَ رِئيّاً تراه[1]؛ لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه..

حتى إذا ما فرغ عتبة، ورسول الله ـ ﷺ ـ يستمع منه، قال: لقد فرغت يا أبا الوليد..

قال: نعم ـ..

قال: فاسمع مني.

قال: أفعل.

قال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ

(١) الجنى الذي يوحي إلى البشر بعض الأمور الغريبة.

﴿ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴾[1]. .

ثم مضى رسول الله ـ ﷺ ـ يقرؤها عليه؛ فلما سمعها منه عتبة أنصت إليها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه. .

ثم انتهى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السجدة[2] فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت؛ فأنت وذاك». .

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض:

نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بوجه غير الذي ذهب به.

فلما جلس إليهم قالوا:

«ما وراءك يا أبا الوليد»؟.

قال: ورائي أني سمعت قولاً ـ والله ما سمعت مثله ـ والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. .

«يا معشر قريش: أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تُصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم؛ وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزّكم؛ وكنتم أسعد الناس به». .

قالوا: سحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. .

---

(١) فصّلت: ١ ـ ٨.

(٢) فصّلت: ٢٧، ﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون ﴾.

والقرآن والطفيل بن عمرو

قال محمد بن إسحاق:

«وكان رسول الله - ﷺ - على ما يرى من قومه، يبذل لهم النصيحة، ويدعوهم إلى النجاة مما هم فيه، وجعلت قريش حين منعه الله منهم يحذرون الناس ومَن قدِم عليهم من العرب منه.

وكان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدّث أنه قدِم مكة، ورسول الله - ﷺ - بها، فمشى إليه رجال من قريش - وكان الطفيل رجلاً شريفاً؛ شاعراً لبيباً، فقالوا له: يا طفيل، إنك قدِمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا، قد أعضل بنا، وفرّق جماعتنا، وإنما قوله كالسحر، يفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلّمه ولا تسمع منه.

قال: فوالله ما زالوا بي، حتى أجمعت على ألّا أسمع منه شيئاً ولا أكلّمه، حتى حشوت أُذني حين غدوت المسجد كُرْسفاً[1]، فرقاً من أن يبلغني شيء من قوله، وأنا لا أُريد أن أسمعه.

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله - ﷺ - قائم يصلّي عند الكعبة - قال: فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يُسمِعني بعض قوله..

قال: فسمعت كلاماً حسناً.. فقلت في نفسي: وأُثْكل أُمي - والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحَسَنُ من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته.

قال: فمكثت حتى انصرف رسول الله - ﷺ - إلى بيته، فاتبعته

---

(١) الكرسف: القطن.

حتى دخلت عليه، فقلت: يا محمد ـ إن قومك قالوا لي كذا وكذا، للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوِّفونني أمرك حتى سَدَدت أُذني بكرسف (قطن)، لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولاً حسناً، فأعرض عليّ أمرك.

قال: فعرض عليّ الإسلام، وتلا عليّ القرآن، فوالله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه.

قال: فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبيّ الله، إني امرؤٌ مُطاع في قومي، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام، فادع الله أن يجعل لي آية لتكون لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه.

قال: فقال: «اللّهمّ اجعل له آية».

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنية تطلعني على الحاضر، وقع نور بين عيني مثل المصباح، قال: فقلت: اللّهمّ اجعله في غير وجهي، فإني أخشى أن يظنوا أنها مثلة وقعت في وجهي لفراقي دينهم.

قال: فتحوّل فوقع في رأسي سوطي، فجعل الحاضرون يتراءون ذلك النور في سوطي كالقنديل المعلّق، وأنا أنهبط إليهم من الثنيّة.

قال: حتى جئتهم فأصبحت فيهم، فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً.

قال: فقلت: إليك عنّي يا أبت، فلست منك ولست منّي.

قال: ولِمَ؟.. أي بنيّ.

قال: قلت: أسلمت وبايعت محمداً ﷺ.

قال: أي بنيّ، فديني دينك.

قال: فقلت: اذهب فاغتسل وطهّر ثيابك، ثم تعالى حتى أعلمك.
قال: فذهب فاغتسل وطهّر ثيابه، فعرضت عليه الإسلام، فأسلم.
قال: ثم أتتني صاحبتي، فقلت لها: إليك عنّي فلست منكِ ولست منّي.
قالت: ولِمَ بأبي أنت وأُمي؟.
قال: قلت فرّق بيني وبينك الإسلام. فأسلمت.

ثم دعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطئوا عليّ، ثم جئت رسول الله - ﷺ - بمكة، فقلتُ: يا نبيّ الله، إنه قد غلبتني دوس، فادع الله عليهم - قال: اللّهمّ اهدِ دوساً - ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم.

قال: فرجعت، فلم أزل بأرض دوس، أدعوهم إلى الإسلام، حتى هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، وقضى بدراً وأُحُداً والخندق، ثم قدِمت على رسول الله - ﷺ - بمَن أسلم معي من قومي ورسول الله - ﷺ - بخيبر، حتى نزلتة المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس - ثم لحقنا برسول الله - ﷺ - بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين.

ولم أزل مع رسول الله - ﷺ - حتى إذا فتح الله عليه مكة قال: قلت يا رسول الله!.. ابعثني إلى ذي الكفّين، صنم عمرو بن حممة، حتى أحرقه.

قال ابن إسحاق: فخرج إليه، فجعل الطفيل يوقد عليه النار ويقول:

يا ذا الكفَّيْن لست من عبادكا ... ميلادنا أقدم من ميلادكا
إني حشوت النار في فؤادكا

قال: ثم رجع إلى رسول الله - ﷺ - فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله - ﷺ - فلما ارتدّت العرب خرج مع المسلمين، فسار معهم،

حتى فرغوا من طليحة، ومن أرض نجد كلها ـ ثم سار مع المسلمين إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو بن الطفيل، فرأى رؤيا وهو متوجه إلى اليمامة، فقال لأصحابه: إني قد رأيت رؤيا فاعبروها لي، رأيت أن رأسي حلق، وأنه خرج من فمي طائر؛ وأنه لقيتني امرأة فأدخلتني في فرجها؛ وأرى ابني يطلبني طلباً حثيثاً، ثم رأيته حُبس عنّي.

قالوا: خيراً..

قال: أما أنا ـ والله ـ فقد أوّلتها.

قالوا: ماذا؟

قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني فرجها: فالأرض تحفر لي، فأغيب فيها، وأما طلب ابني إياي ثم حبسه عنّي، فإني أراهُ سيجهد أن يصيبه ما أصابني.

فقتل رحمه الله شهيداً باليمامة، وجرح ابنه جراحة شديدة، ثم استبلّ[1] منها، ثم قتل عام اليرموك ـ في زمن عمر رضي الله عنه ـ شهيداً...

ومما يتصل بإعجاز القرآن، ما يلي:

روي أنه لما سمع الوليد بن المغيرة من النبيّ ـ ﷺ ـ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾.

قال: «والله، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوةً، وإن أسفله لَمُغْدق، وإن أعلاه لَمُثْمِر.. وما يقول هذا بشر».

---

(١) شـــفي.

وذكر أبو عبيد أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: «فاصْدعْ بما تُؤمَرَ» فقال: سجدتُ لفصاحته.

وسمع آخر رجلاً يقرأ:

«فلما استَيْئَسُوا منه خَلَصُوا نَجِياً».

فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام.

وحُكيَ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان يوماً نائماً في المسجد، فإذا هو بقائم على رأسه، يتشهد شهادة الحق، فاستخبره، فأعلمه أنه من بطارقة الروم، وممّن يُحسن كلام العرب وغيرها، وأنه سمع رجلاً من أسرَى المسلمين يقرأ آية من كتابكم، فتأمَّلَهَا، فإذا قد جُمع فيها ما أنْزِلَ على عيسى بن مريم من أحوال الدنيا والآخرة، وهي قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾(١)..

وحكى الأصمعي أنه سمع كلام جارية، فقال لها: قاتلكِ الله، ما أفْصَحَكِ!.

فقالت: أَوَ فصاحة بعد قول الله تعالى:

﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾(٢).

فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وبشارتين.

ومن وصف القرآن للقرآن، قوله تعالى:

---

(١) النور: ٥٢ ـ راجع الشفاء ص ٢٢٠ ـ ٢٢١.
(٢) القصص: ٧.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾[1].

وقـــوله:

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وقـــوله:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾[3].

وقـــوله:

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[4].

وقـــوله:

﴿ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾[5].

القرآن أعظم معجزة

يقول ابن خلدون في علامات الأنبياء:

ومن علاماتهم أيضاً: وقوعُ الخوارق لهم، شاهدةً بصدقهم، وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها، فسمّيت بذلك معجزة. وليست من جنس

(١) فصّلت: ٤١ ـ ٤٢.
(٢) الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠.
(٣) آل عمران: ٦٣.
(٤) الأنعام: ١٥٥.
(٥) عبس: ١١ ـ ١٦.

مقدور العباد. . وإنما تقع في غير محل قدرتهم. .

وإذا تقرر ذلك، فاعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة، القرآنُ الكريم، المنزل على نبيّنا محمد ﷺ. .

فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبيّ، ويأتي بالمعجزة شاهدةً بصدقه. .

والقرآن هو بنفسه الوحي المدّعى، وهو الخارق المعجز. . فشاهده في عينه. ولا يفتقر إلى دليل مغاير له، كسائر المعجزات مع الوحي. . فهو أوضح دلالةً لاتحاد الدليل والمدلول فيه. . وهذا معنى قوله - ﷺ -: «ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وأُوتيَ من الآيات ما مثلُه آمَنَ عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُه وحياً أُوحىَ إليّ، فأرجو أن أكونَ أكثرهُم تابعاً يوم القيامة». .

يشير: إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح، وقوة الدلالة، وهو كونها نفس الوحي، كان المصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن، وهو التابع والأمة. .

الكندي يتحدث عن إعجاز القرآن:

يقول الكندي عن الرسل:

وهؤلاء الذين اصطفاهم الله فلعلمهم خصائص تبعده عن العلم الكسبي، إنه: «بلا طلب ولا تكلف ولا بحث، ولا بحيلة بشرية، ولا زمان. . . إنه بلا طلب ولا تكلّف، ولا بحث، ولا بحيلة الرياضيات والمنطق، ولا بزمان.

بل مع إرادته، جلّ وتعالى بتطهير أنفسهم وإنارتها للحق بتأييده وتسديده، وإلهامه، ورسالاته. فإن هذا العلم: خاصة للرسل؛ صلوات

الله عليهم، دون البشر، وأحد خوالجهم العجيبة؛ أعني آياتهم الفاصلة لهم من غير البشر..

تستيقن العقول أن ذلك من عند الله؛ جلّ وتعالى؛ إذ هو موجود؛ عندما عجزت البشرية ـ بطبعها ـ عن مثله؟ فإن ذلك فوق طبعها وجِبِلّها فتخضع له بالطاعة والانقياد: وتنعقد فِطَرُها فيه على التصديق بما أتت به الرسل؛ عليهم السلام.

ويستمر الكندي في توضيح الفروق، بين العلم الكسبي والعلم الإلّهي فيقول:

فإنه إن تدبر متدبر جوابات الرسل؛ فيما سئلوا عنه من الأمور الخفيّة الحقِّية التي إذا قصد الفيلسوف الجوابَ فيها بجهد حيلته التي أكسبته؛ علمها لطول الدءوب في البحث؛ والتروي ـ ما نجده أتي بمثلها في الوجازة والبيان؛ وقرب السبيل؛ والإحاطة بالمطلوب».

ثم يضرب الكندي مثالاً تطبيقاً جزئياً لما يقول؛ وذلك:

كجواب النبيّ، ﷺ، فيما سأله المشركون عنه مما علمه الله، إذ هو بكل شيء عليم، لا أولية له، ولا تقضيّاً، بل سرمداً أبداً، إذ تقول له، وهي طاعنة ظانّة أنه لا يأتي بجواب فيما قصد به السؤال عنه، صلوات الله عليك: يا محمد:

﴿ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ؟ ﴾(١): إن كان ذلك عند السائلين أمراً مستحيلاً، فأوحى إليه الواحد الحق:

﴿ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ ٨٠ أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) يس: ٧٨.

وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

ثم يأخذ الكندي في شرح الآيات الكريمة، توضيحاً لفكرته عن العلم الإلٓهي، فيقول[2]:

فأيّ دليل في العقول النيّرة الصافية، أبينُ وأوجزُ من أنه، إذ كانت العظام قد وجدت بالفعل، بعد أن لم تكن.

فإنه من الممكن ـ إذا بطلت وصارت رميماً ـ أن توجد من جديد. فإن جَمْعَ المتفرق: أسهلُ من صنعه من العدم. وإن كان الأمر بالنسبة لله: لا يوصف بكونه أشدَّ أو أضعفَ!

وإنَّ القوة التي أبدعت، ممكن أن تنشىء ما أدثرتْ.

أما كون العظامِ موجودةً بعد أن لم تكن: فذلك، ظاهر للحس فضلاً عن العقل.

وإن السائل عن هذه المسألة: الكافر بقدرة الله، جلّ وتعالى، مُقِرٌّ: أنه هو ـ نفسه ـ: كان بعد أن لم يكن، فَعَظْمه، إذن، وُجِدَ، بعد أن لم يكن، فإعادته وإحياؤه: أمر ممكن، ولا سبيل إلى القول بخلاف ذلك.

ثم يبيّن، سبحانه: أن كون الشيء من نقيضه: موجود، فيقول: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[3]. فجعل من لا نارٍ ناراً، ومن: لا حارٍ حاراً، فإذا كان الشيء يحدُث من نقيضه، فإنه ـ من باب أولى ـ يحدث من ذاته.

(١) يٓس: ٧٨ ـ ٨٢.

(٢) سنحاول هنا الأخذ من كلام الكندي كلما كان واضحاً للقارىء، فإذا ما كان فيه خفاء ذكرنا معناه في دقة.

(٣) يٓس: ٨٠.

وقال سبحانه:

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾(١).

ثم قال، لما وجب من ذلك:

﴿ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾(٢).

والأمر في القضيـة: واضح بديهي.

ثم قال ـ لما في قلوب الكافرين من الإنكار من: خلق السموات لما ظنوا: من مدة زمان خلقها قياساً على أفعال البشر، إذ كان عندهم عملُ الأعظم: يحتاج إلى مدة أطول، في عمل البشر.

فكان عندهم أعظمُ الحساب: أطولها زماناً في العمل ـ إنه جلّ ثناؤه، لا يحتاج إلى مدة للخلق والإبداع؛ لأنه جعل: «هو» من «لا هو»؛ فإن مَن بلغت قدرته، أن يعمل أجراماً من لا أجرام، ويخرج الوجود من العدم، فإنه لا يحتاج أن يعمل في زمان:

﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾(٣).

أي إنما يُريد، فيكون مع إرادته ما أراد، جلّ ثناؤه، وتعالت أسماؤه عن ظنون الكافرين إذ ليس (هناك) مخاطب؛ فإن هذا ـ في لغة العرب المخاطبين بهذا القول ـ بيّنٌ مستعمل؛ فإنما خوطبوا بعادتهم في القول؛ فإن العرب تستعمل للشيء في الوصف، ما ليس في الطبع: كقول آمرِىء القيس بن حجر الكندي:

فقلت لـه لَمَّا تمـطّى بصلبـه وأردف أعـجـازاً ونـاء بكـلكَـلِ
ألا أيهـا الليـل الـطويـل ألا انجلي بصبحٍ وما الإصباحُ منك بـأمثـلِ

---

(١) (٢) يٓس: ٨١.

(٣) يٓس: ٨٢.

والليل لا يقال له ولا يخاطب، ولا صلب له ولا أعجاز، ولا كلكل ولا نهوض؛ وإنما معناه، أنه أحبّ أن يصبح.

ويختم الكندي شرحه للآيات الكريمة، بهذه الكلمة القوية التي تؤكد فكرته فيقول:

«فأيّ بشر يقدر بفلسفة البشر أن يجمع، في قول بقدر حروف هذه الآيات، ما جمع الله، جلّ وتعالى، إلى رسوله ﷺ، فيها، من إيضاح:

أن العظام تحيى بعد أن تصير رميماً، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيء يكون من نقيضه؟! كلَّت عن مثل ذلك الألسنُ المنطقية المتحيلة، وقصرت عن مثله نهايات البشر، وحجبت عنه العقول الجزئية».

هذا النمط من العلم ـ كما وضّحه الكندي ـ ليس مصدره حِسّاً ولا عقلاً.

إن مصدره الوحي، إنه علم إلّهي خاص بمَن يصطفيهم الله تعالى.

المعجـــزات الأخرى

عنـــــاية الله

يقول سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾(١).

ويروي صاحب الروض الأنف ما يلي(٢):

خرج رسول الله - ﷺ - إلى بني النضير، يستعينهم في أداء ديّة. فلما خلا بعضهم ببعض، قالوا: لن تجدوا محمداً أقربَ منه الآن.. فَمَن رجل يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة فيُريحنا منه؟. فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا..

فأتى رسولَ الله - ﷺ - الخبرُ، فانصرف عنهم، فأنزل الله تعالى فيه وفي صحبه، وفيما أراده بنو النضير:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) راجع الروض الأنف جـ ٤، ص ٣٦٨، ط دار الكتب الحديثة.

﴿يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

استجابة الدعاء

إن رسول الله ـ ﷺ ـ قد رسم لأمته الطريق الذي سار فيه أفرادها، استجاب الله دعاءهم. وذلك في حديث صحيح رواه البخاري ـ رضي الله عنه ـ. فقد قال ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه، قال الله تعالى: «مَن عادى لي وَلِيّاً فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّبَ إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببتُه: كنتُ سمعه الذي يسمع به وبَصرَه الذي يُبصر به، ويَدَهُ التي يَبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيتُه ولئن استعاذ بي لأعِيذَنَّه»(٢).

وإذا كان هذا بالنسبة لأفراد الأمة، فإنه ـ من باب أولى ـ بالنسبة لأكرم الخلق على الله..

ومن استجابة دعاء رسول الله ـ ﷺ ـ ما يلي:

عن أنسٍ بن مالك قال: أصابت الناسَ سنةٌ على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ فَبَيْنَا رسولُ الله ـ ﷺ ـ يخطُب على المنبر يوم الجمعة، إذ قام أعرابي فقال: يا رسول الله، هلك المالُ، وجاع العيالُ، فادْعُ اللَّهَ أن يَسقِيَنَا..

فرفع رسولَ الله ـ ﷺ ـ يديه، وما في السماء قزعة(٣)، فثار

---

(١) المائدة: ١١.

(٢) رواه البخاري.

(٣) القزعة: القطعة من السحاب.

السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل عن منبره، حتى رأينا المطر يتحادر على لحيته.

قال: فمطرنا يومنا، ومن الغد، وبعد الغد، والـذي يليه إلى الجمعة الأخرى..

فقام ذلك الأعرابي، أو رجل غيره، فقال: يا رسول الله، تهدَّم البناء، وغرق المال، فادع الله لنا..

فرفع رسول الله - ﷺ - يده، وقال: اللّهمّ حَوَالَيْنَا ولا علينا.

قال: فما جعل يشير بيديه إلى ناحية من السماء إلا وانفرجت، حتى صارت المدينة في مثل الحوبة[1]، حتى سار الوادي قناة شهراً..

قال: «ولم يجىء أحد إلا حدّث بالجَوْد».. أخرجه الشيخان[2].

عن عبد اللّه بن عمرو - رضي الله عنهما -، أن النبيّ - ﷺ - خرج يوم بدر في ثلاثمئة وخمسة عشر. قال: «اللّهمّ إنهم حُفَاةٌ فاحملهم، اللّهمّ إنهم عُراة فاكْسهُمْ، اللّهمّ إنهم جياع فأشْبِعهم. ففتح الله له، فانقلبوا وما منهم رجل إلا وقد رجع بجمل أو جملين، واكتسوْا وشبِعوا»[3].

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال:

«كنتُ أدعو أُمِّي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يوماً فَأسمعتني في رسول الله - ﷺ - ما أكره، فأتيتُ رسول الله - ﷺ - وأنا أبكي.. قلت: يا رسول الله: ادعُ الله أن يهدي أُمَّ أبي هريرة..

---

(١) الحوبة: الحفرة والمراد أن السحاب صار محيطاً بجوّها الذي صفا وصحا..

(٢) راجع الوفا جـ ١، ص ٣٤٦.

(٣) رواه أبو داود.

فقال: «اللّهمّ اهدِ أُمَّ أبي هريرة».. فخرجتُ مستبشراً بدعوة النبيّ ـ ﷺ ـ، فلما صرت إلى الباب، فإذا هو مجاف.. فسمعَتْ أُمي خشف قدمي، فقالت: مكانَك يا أبا هريرة!.. وسمعت خضخضة الماءِ، فاغتسلَت فلبسَت درعَها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريرة!. أشهد أن لا إلّه إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.. فرجعت إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا أبكي من الفرح، فحمِدَ الله وقال خيراً(١).

الإنبـــــاء بالغيب

يَقُصُّ الله سبحانه ما خاطب به سيّدنا عيسى ـ عليه السلام ـ قومه من قوله: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(٢).

والإنباء بالغيب ـ الماضي، أو بالغيب الحاضر.. أي بالغيب الذي وقع بالفعل في الزمن الماضي، والغيب الذي وقع بالفعل في الزمن الحاضر، في مكان بعيد عن مكان المتنبىء ـ أمر مألوف.. أما الغيب المستقبل فهو معجزة أو كرامة يمنحها الله مَنْ شاء من عباده الصالحين..

وقد ذكر القرآن بعضاً من ذلك، معجزةً للرسول ـ ﷺ ـ في قوله تعالى:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِيٓ أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ

(١) رواه مسلم.
(٢) آل عمران: ٤٩.

﴿ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[1].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك، ما يأتي:

عن أبي ذَر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«إنكم ستَفْتَحون مِصْر، وهي أرض فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحماً. أو قال: ذمة وصهراً»[2]..

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال:

«أخرج النبيّ ﷺ ذات يوم الحسن، فَصَعَدَ به على المنبر، فقال: ابني هذا سيِّدٌ، ولعلّ الله أن يُصلح به بين فِئتين من المسلمين»[3]..

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن النبيّ ـ ﷺ ـ نعى جعفر وزيداً قبل أن يجيء خبرهما، وعيناه تَذْرِفان[4].

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«هل لكم من أنماط»[5]؟.. قلت: وأنَّى يكون لنا الأنماط؟.. قال:

«أما إنه سيكون لكم الأنماط، فأنا أقول لها ـ يعني امرأته ـ أخِّري عنّي أنماطَك، فتقول: ألم يقل النبيّ ـ ﷺ ـ: إنها ستكون لكم الأنماط، فأدعُهَا؟..»[6].. يريد جابر أن تُبعد وسائل الترف عنه، فتذكّره امرأته ببشارة الرسول فيسكت.

---

(١) الروم: ١ ـ ٧.

(٢) رواه مسلم وأحمد.

(٣) رواه البخاري.

(٤) نفس المرجع السابق.

(٥) الأنماط: البسط.

(٦) رواها البخاري.

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

«بينما أنا نائمٌ، رأيتُ في يديَّ سِوارَين من ذهب، فأهمَّني شأنهما، فأوحى إليّ في المنام: أن أنفُخْهُما، فنفختهما فطارا، فأوّلتهما: كذابين يخرجان بعدي.. فكان أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة الكذاب: صاحب اليمامة»[1].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت:

«أقبلتْ فاطمةُ تمشي، كأن مِشيتَها مشيُ النبيّ ـ ﷺ ـ فقال النبيّ ـ ﷺ ـ مرحباً بابنتي، ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسرَّ إليها حديثاً، فبكت.. فقلت لها: لِمَ تبكين؟.. ثم أسرَّ إليها حديثاً فضحكت.. فقلت: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقربَ من حزن، فسألتها عمّا قال، فقالت: ما كنت لأفشِيَ سرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ حتى قُبِضَ النبيُّ ـ ـ، فسألتُها، فقالت: أسرَّ إليَّ أن جبريل كان يعارضُني القرآن كلَّ سنة مرة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أرَاه إلا حضر أجلي، وإنك أولُ أهل بيتي لحاقاً بي.. فبكيت، فقال: أما ترضَيْنَ أن تكوني سيدةَ نساء أهل الجنة، أو نساءِ المؤمنين؟ فضحِكتُ لذلك»[2].

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنه قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«إذا هَلَك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصرُ فلا قيصر بعده، والذي نفسُ محمد بيده، لَتُنْفِقُنّ كنوزهما في سبيل الله»[3].

وعن أبي موسى: أنه كان مع رسول الله ـ ﷺ ـ في حائط من حيطان المدينة، فجاء رجل يستفتح، فقال النبيّ ـ ﷺ ـ، افتحْ له وبَشِّره

(١) نفس المرجع السابق.
(٢) رواهما البخاري.
(٣) نفس المرجع السابق.

بالجنة. . فإذا هو أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ. . ثم استفتح برجل آخر، فقال: افتحْ له وبشّره بالجنة، فإذا هو عمر، ففتحت له وبشّرته بالجنة. ثم استفتح رجل آخر، وكان متكئاً فجلس، فقال: افتح له وبشّره بالجنة على بلوى تصيبه. . فإذا عثمان، ففتحت له وبشّرته بالجنّة، فأخبرته بالذي قال: فقال: الله المستعان[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: أخبرني أبو قتادة أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال لعمّار: «تقتُلك الفئةُ الباغية»[2].

وعن أبي حميد الساعدي قال:

«خرجنا مع رسول الله ـ ﷺ ـ عام تبوك، فقال: إنها ستَهبُّ عليكم ريحُ شديدة، فلا يقومنّ فيها رجل. . ومَن له بعير فليوثق عقاله». . قال أبو حميد: «فعقلناها. . فلما كان الليل. . هبّت علينا ريح شديدة، فقام فيها رجل، فألقته في جبل طيء»[3].

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:

«كنّا مع عمر بين مكة والمدينة، فتراءينا الهلال، وكنت رجلاً حديد البصر، فرأيته وليس أحد يزعم أنه رآه غيري، فجعلت أقول لعمر: أما تراه. . فجعل لا يراه، قال: يقول عمر: سأراه وأنا مستلقٍ على فراشي. . ثم أنشأ يحدّثنا عن أهل بدر قال: إن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يُرِينَا مصارِعَ أهلِ بدر بالأمس. . يقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان غداً إن شاء الله. . قال عمر: والذي بعثه بالحق ما خطئوا الحدود التي حدّها رسول الله ـ ﷺ ـ قال: فَجعِلوا في

---

(١) الوفا: وقال: أخرجاه جـ١، ص ٣١١.

(٢) رواه مسلم.

(٣) أخرجاه.

بئرٍ بعضهم على بعض.. فانطلق رسول الله ـ ﷺ ـ حتى انتهى إليهم، فقال: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإني قد وجدت ما وعدني الله حقاً؟..

فقال عمر:

يا رسول الله!.. كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها؟..

فقـــال:

«ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، غير أنهم لا يستطيعون أن يردّوا عليّ شيئاً»(١).

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال:

«خطب النبيّ ـ ﷺ ـ فقال:

أخذ الراية زيدٌ فأُصيب، ثم أخذها جعفرٌ فأصيب، ثم أخذها عبد اللّه بن رواحة فأصيب، ثم أخذها خالد بن الوليد عن غير إمرة ففتح له، وقال: ما يسرُّنا أنهم عندنا، قال أيوب: أو قال: ما يسرّهم أنهم عندنا، وعيناه تذرِفان»(٢)..

عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليّ ـ رضي الله عنه ـ قال:

«بعثني رسول الله ـ ﷺ ـ، وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوّام والمقداد ـ وكلنا فارس ـ فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأةً من المشركين معها كتابٌ من حاطب إلى المشركين. قال: فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ـ ﷺ ـ... فقلنا: الكتاب.. فقالت: ما معي كتاب.. قال: فأنخنا بها والتمسناهُ في رحلها، فلم نَرَ كتاباً.. فقلنا: ما كذب رسول الله ـ ﷺ ـ، لَتُخْرِجَنّ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) البخاري.

الكتاب أو لَنُجردَنَّكِ. . قال:

فلما رأت الجدّ، أهوت حجزتها وهي محتجزة بكساء، فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ، فقال عمر: يا رسول الله!. قد خان اللَّهَ ورسولَه والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. .، فقال النبيّ ﷺ (لحاطب): ما حملك على ما صنعت؟. . قال حاطب: والله، ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ـ ﷺ: أردت أن يكونَ لي عند القوم يَدٌ يدفَعُ الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحدٌ من أصحابك إلا له هناك من عشيرته مَن يدفع الله به عن أهله وماله. . فقال: صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً. .

فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه. .

فقال: أليس من أهل بدر؟. فقال: لعل الله اطَّلع إلى أهل بدر. فقال: اعملوا ما شئتم فقد وَجَبَتْ لكم الجنة، أو: فقد غفرت لكم. . فدمعت عينا عمر. وقال: الله ورسوله أعلم(١).

وفيه نزلت الآية الكريمة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾(٢) فالآية تثبت أنه من المؤمنين، وهو كذلك.

وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في إخبار القرآن بالغيب.

عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال يوم خيبر:

«لأعْطِينّ هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يُحِبّ الله ورسوله

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) الممتحنة: ١.

ويحبّه اللَّهُ ورسولُه». . فلما أصبح الناسَ غدوا إلى رسول الله - ﷺ - كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا. . فقال: «أين عليُّ بن أبي طالب»؟. . فقالوا: يا رسول الله، هو يشتكي عينيه. .

قال: «فأرسلوا إليه». . فَأُتي به، فبصق رسول الله - ﷺ - في عينيه، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية. . فقال عليّ:

يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟. .

قال: «أنفِذ على رِسْلكَ، حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعُهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيهم، فوالله، لأن يهدَيَ الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمرُ النَّعَمِ»(١).

عن أنس بن مالك، عن خالته أُمِّ حرام بنتة ملحان، قالت: نام النبيّ ﷺ، يوماً قريباً منّي، ثم استيقظ يتبسم، فقلت: ما أضحكك؟ قال: «ناسٌ من أمتي عُرضوا عنّي، عليَّ غزاة في سبيل الله: يركبون ثبج هذا البحر ملوكاً على الأسِّرّة أو مثل الملوك على الأسرَّة»، قالت فادعُ الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم نام الثانية، ففعل مثلها، فقالت مثل قولها، فأجابها مثلها، فقالت ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «أنْتِ من الأوَّلين»، فخرجت مع زوجها عبادة بن الصامت غازياً، أول ما ركب المسلمون البحر مع معاوية. فلما انصرفوا من غزوهم(٢). قافلين فنزلوا الشام، فقَرَبت إليها دابة لتركبها فصرعتها فماتت(٣).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) غزوتهم.
(٣) التجريد الصريح جـ ٢، ص ١٦٦ كتاب التعبير.

إبـــــراء المرض

يقصّ الله سبحانه وتعالى، ما جرى مع سيّدنا عيسى عليه السلام وقومه، من قوله لهم: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(١).

ونحن جميعاً: نؤمن بأنه لا يقع شيءٌ من ذلك إلا بإذن الله.. وقد وقع من نبيّنا ﷺ ما يلي:

عن محمد بن حاطب ـ رضي الله عنهما ـ عن أمه أُم جميل بنت المحلّل قالت: «أقبلتُ من أرض الحبشة، حتى إذا كنتُ من المدينة على ليلة أو ليلتين، طَبَخْتُ لي طبخاً فَفَني الحَطَب، فخرجت أطلبه، فتناولتُ القِدر، فانكفأت على ذراعك، فأتيت بك النبيّ ـ ﷺ ـ فقلت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، هذا محمد بن حاطب. فتفل في فيك، ومسح على رأسك، ودعا لك، وجعل يتفل على يديك، ويقول أذْهِب الباس، ربَّ الناس، واشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤُك، شفاءً لا يغادر سَقَماً، قالت: فما قمتَ من عنده حتى برئت يدُك»(٢).

وعن عليّ ـ رضي الله عنه، وكرَّم وجهه ـ قال:

«ما رَمِدْتُ منذ تَفِلَ النبي ـ ﷺ ـ في عيني»(٣).

وعن البراء ـ رضي الله عنه ـ قال:

«انتهت إلى درجة، فوضعت رجلي، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرَتْ ساقي، فعصَّبتها بعمامة، فانطلقت إلى أصحابي، فانتهيت إلى النبيّ ـ ﷺ ـ فحدّثته، فقال: ابسُط رِجْلكَ. فبسطت رجلي، فمسحها،

---

(١) آل عمران: ٤٩.
(٢) رواه أحمد.
(٣) رواه أحمد.

فكأنما لم أَشْتَكِهَا قطّ»[1].

وعن يزيد بن أبي عبيد قال:

«رأيتُ أثر ضربة في ساق سلمة بن الأكوع ـ رضي الله عنه ـ، فقلت: يا أبا مسلم؟.. ما هذه الضربة؟..

قال: ضربةٌ أصابتني يوم خَيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيتُ النبيّ ـ ﷺ ـ، فَنَفَثَ فيه ثلاثَ نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة»[2].

تكـــــثير الماء

ومعجزات تكثير الماء متواترة في جملتها وجوهرها..

لقد رواها غير واحد من الصحابة، وروى كل حادثة منها عدة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ ولقد رُوِيَتْ في أصح الكتب، وفي أوثق المصادر، ونحن لا نشك في أمرها:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال:

كنّا نعدّ الآيات بركة، وأنتم تعدّونها تخويفاً... كنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في سفر، فقلّ الماء، فقال: اطلبوا فضلةً من ماء، فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدْخَلَ يَدَه في الإناء، ثم قال:

«حَيِّ على الطَّهور المبارَك، والبركةُ من الله».. ولقد رأيتُ الماء ينبعُ من بين أصابع رسول الله ـ ﷺ ـ[3].

حدّثنا هاشم بن القاسم، أخبرنا سليمان، عن ثابت قال:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

قلت لأنس: يا أبا حمزة! حدِّثْنَا عن هذه الأعاجيب شيئاً شهدته، ولا تحدّثه عن غيرك. . قال:

صلّى رسول الله - ﷺ - صلاة الظهر يوماً، ثم انطلق حتى قعد على المقاعد التي كان يأتيه عليها جبريل، فجاء بلالٌ فنادى بالعصر، فقال كلّ مَن كان له بالمدينة أهلٌ: يقضي الحاجة، ويصبّ من الوضوء وَبَقِيَ رجال من المهاجرين: ليس لهم أهل بالمدينة. . فأتى رسول الله - ﷺ - بقدحٍ أروح[1]، فيه ماء، فوضع رسول الله - ﷺ - كَفَّه في الإناء، فما وَسع الإناء كفَّ رسول الله - ﷺ - كلها، فقال بهؤلاء الأربع في الإناء، ثم قال:

«ادْنُوا فتوضَّأوا» - ويده في الإناء - فتوضأوا حتى ما بقي منهم أحد إلا توضأ. . قال:

فقلت: يا أبا حمزة، كم تراهم؟.

فقال: ما بين السبعين والثمانين[2].

عن عبد اللّه قال:

كنّا مع رسول الله - ﷺ - في سفر، فلم يجدوا ماء، فأتى بتور[2] من ماء، فوضع النبيّ - ﷺ - فيه يده، وفرج بين أصابعه. . قال: فرأيت الماء ينفجر من بين أصابع رسول الله - ﷺ - فقال: «حيّ على الوضوء، والبركة من الله تعالى». .

قال الأعمش: فأخبرني سالم بن أبي الجعد، قال:

قلت لجابر بن عبد اللّه: كم كان الناس يومئذ؟. .

(١) أروح: متسع مبطوح.

(٢) الطبقات لابن سعد.

(٣) التور: إناء للشرب.

قال: كنّا ألفا وخمسمائة(1).

عن عبد اللّه قال: بينما نحن مع رسول الله - ﷺ - وليس معنا ماء، فقال لنا رسول الله - ﷺ -:

«اطلبوا مَن معه ماء».. ففعلنا، فأتى بماء فَصَبّه في إناء، ثم وضع كفّه فيه، فجعل الماء يخرجُ من بين أصابعه، ثم قال:

«حيّ على الطَّهور المبارك، والبركة من الله»..

فملأت بطني منه، واستقى الناس»(2)..

عن أنس بن مالك، أن نبيَّ الله - ﷺ - كان بالزوراء، فأتى بإناء فيه ماء: لا يغمر صاحبه.. فأمر أصحابه أن يتوضّأوا فوضع كفّه في الماء، فجعل الماء ينبع من بين أصابعه، وأطراف أصابعه، حتى توضأ القوم.. فقلت لأنس: كم كنتم؟.

قال: «كنّا ثلاثمائة»(3).

وعن عمران بن حصين قال:

«كنّا في سفر مع رسول الله - ﷺ - وإنّا أسرينا حتى إذا كان في آخر الليل، وقعنا وقعة، ولا وقعة أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حرُّ الشمس، فكان أولَ مَن استيقظ فلانٌ ثم فلان، كان يسمّيهم أبو رجاء، ونسيهم عوف.. ثم عمر بن الخطاب الرابع..- وكان رسول الله - ﷺ - إذا نام لم يُوقظ حتى يكون هو يستيقظ، لأنّا لا ندري ما يحْدُثُ له في نومه.. فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس، وكان

(1) أخرجه البخاري.
(2) رواه البخاري.
(3) أخرجاه.

رجلاً أجوف جليداً، قال: فكبّر ورفع صوته بالتكبير، حتى استيقظ بصوته رسولُ الله ـ ﷺ ـ فلما استيقظ رسول الله ـ ﷺ ـ شكوا إليه الذي أصابهم، فقال: لا ضير، أو لا تَضَيُّرَ، ارتحلوا. . فارتحلوا، فسار غير بعيد، ثم نزل فدعا بالوضوء فتوضأ، ونوديَ بالصلاة فصلّى بالناس. . فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل معتزل لم يصل مع القوم، قال: ما منعك يا فلان أن تصليَ مع القوم؟ فقال: يا رسول، أصابتني جنابة ولا ماء. قال: عليك بالصعيد. .

ثم سار رسول الله ـ ﷺ ـ وشكا إليه الناس العطش، فنزل، فدعا فلاناً. . كان يسمّيه أبو رجاء ونسيه عوف، ودعا عليّاً، فقال: اذهبا فابغيا لنا الماء. . قال: فانطلقا فلقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين[1] من ماء على بعير، فقالا لها: أين الماء؟. . فقالت: عهدي بالماء أمس هذه الساعة، ونفرنا خُلوف. . فقالا لها: انطلقي إذن. . .

قالت: إلى أين؟. . قالا: إلى رسول الله ﷺ. .

قالت: هذا الذي يقال له الصابىء؟. . قالا: هو الذي تعنين، فانطلقي. . فجاءا بها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فحدّثاه الحديث. . فاستنزلوها عن بعيرها[2]، ودعا رسول الله ـ ﷺ ـ بإناء، فأفرغ منه من أفواه المزادتين أو السطيحتين، وأوكأ أفواههما، وأطلق العَزَالي[3]، ونودِيَ في الناس أن: اسقُوا واستَقُوا، فسَقَى مَن شاء، واستقى مَن شاء، وكان آخر ذلك أن أعطى الذي أصابته الجنابة إناءً من ماء، فقال: اذهبْ فأفرغه عليك، قال: وهي قائمة تنظر ما يفعل بمائها. . قال: وإيم الله،

---

(١) السطيحة: تشبه المزادة، أو وعاء من جلدين مسطح أحدهما على الآخر.
(٢) أي طلبوا منها النزول.
(٣) جمع عزلى، وهي مصبّ الماء من الراوية.

لقد أقلع عنها، وإنه لِيخيلُ إلينا أنها أشدُّ مِلأةً منها حين ابتدأ فيها.

فقال رسول الله ﷺ: اجمعوا لها، فجمعوا لها من بين عجوة ودقيقة وسويقة، حتى جمعوا لها طعاماً كثيراً، وجعلوه في ثوب، وحملوها على بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها.. فقال لها رسول الله - ﷺ -:

«تعلمين والله، ما رزِئنا[1] من مالك شيئاً، ولكن الله عزّ وجل هو الذي سقانا..

قال: فأتت أهلَها وقد احتبست عنهم، فقالوا: ما حبسك يا فلانة؟..

قالت: العجب، لقيني رجلان، فذهبا بي إلى هذا الذي يقال له الصابىء، ففعل بمائي كذا وكذا، فوالله، إنه لأسْحَرُ مَنْ بين هذه وهذه - وقالت بإصبعيها السبابة والوسطى، فرفعتهما إلى السماء - تعني السماء والأرض - أو أنه لرسول الله حقاً»[2].. فكان المسلمون يُغيرون على مَن حولها من المشركين، ولا يصيبون الصِّرم الذي هي منه. فقالت يوماً لقومها:

ما أرى أن هؤلاء القوم يدَعُونَكم عَمْداً، فهل لكم في الإسلام؟. فأطاعوها فدخلوا في الإسلام»[3].

عن عمران بن حصين - رضي الله عنهما - قال:

«كُنّا في سفرٍ مع النبيّ - ﷺ - فاشتكى إليه الناس من العطش،

---

(١) رزئنا: نقصنا.
(٢) الوفا جـ١ ص ٢٨٤ - ٢٨٧.
(٣) أخرجاه.

فنزل، فدعا فلاناً - كان يسمّيه أبو رجاء - ونسيه عوف، ودعا عليّاً فقال:

اذهبا، فابتغيا الماء، فانطلقا فالتقيا امرأة بين مزادتين أو سطيحتين من ماء، فجاءا بها إلى النبيّ - ﷺ - فاستنزلوها عن بعيرها، ودعا النبيّ - ﷺ - بإناء، ففرغ فيه من أفواه المزادتين، ونودي في الناس: اسقوا واستقوا، قال: فشربنا عطاشاً أربعين رجلاً حتى روينا، فملأنا كل قربة معنا وإداوة، وإيم الله لقد أقلع عنها وإنه ليخيل إلينا أنها أشد ملأةً منها حين ابتدأ»[1]. .

وعن جابر - رضي الله عنه - قال:

عطش الناس يوم الحديبية، ورسول الله - ﷺ - بين يديه ركوة، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به، ونشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبيّ - ﷺ - يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون. .

قال: فشربنا وتوضأنا. . قيل لجابر: كم كنتم؟. .
قـــال:
لو كنّا مائة ألف لكفانا؛ كنّا خمس عشرة مائة»[2].

البـــركة في الطعام

وأحاديث البركة في الطعام كثيرة، صحيحة مشهورة، وهي متواترة أيضاً في جوهرها، ومن ذلك بالنسبة لرسول الله - ﷺ - ما يلي:

روى هاشم بن القاسم، أخبرنا سليمان، عن ثابت قال:

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.
(٢) رواه البخاري ومسلم.

«جعلت امرأة من الأنصار طُعَيِّماً لها، ثم قالت لزوجها: اذهب إلى رسول الله ﷺ ـ فادعه، وأسِرّه[1] إلى رسول الله ـ ﷺ ـ.. قال: فجاء، فقال:

يا رسول الله، إن فلانة قد صنعت طُعيِّماً وإني أحب أن تأتينا.. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ للناس: «أجيبوا أبا فلان».. قال: فجئت، وما تكاد تتبعني رجلاي لما تركت عند أهلي، ورسول الله ـ ﷺ ـ قد جاء بالناس.. قال: فقلت لامرأتي: قد افتضحنا، هذا رسول الله ـ ﷺ ـ قد جاء بالناس معه، قالت: أو ما أمرتك أن تُسِرَّ ذلك إليه؟.. قال: قد فعلت.. قالت: فرسول الله ـ ﷺ ـ أعلم، فجاءوا حتى ملأوا البيت وملأوا الحجرة وكانوا في الدار، وجيء بمثل الكفّ فوضعت، فجعل رسول الله ـ ﷺ ـ يبسطها في الإناء، ويقول «ما شاء الله أن يقول؛ ثم قال: ادنوا فكلوا، فإذا شبع أحدكم فليُخْلِ لصاحبه».. قال: فجعل الرجل يقوم والآخر يقعد، حتى ما بقي من أهل البيت أحد إلا شبع، ثم قال: «ادع لي أهل الحجرة»، فجعل يقعد قاعد، ويقوم قائم حتى شبعوا، ثم قال: «ادع لي أهل الدار»، فصنعوا مثل ذلك.. قال: وبقي مثلُ ما كان في الإناء.. قال: فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: «كلوا وأطعموا جيرانكم»[2].

وعن عبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، قال: حدّثني أبي قال:

«كنّا مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزاة، فأصاب الناسَ مخمصةٌ[3]، فاستأذن الناس رسول الله ـ ﷺ ـ في نحر بعض ظهرهم[4]، وقالوا:

---

(١) ادعه في الستر لقلة الطعام.

(٢) الطبقات لابن سعد جـ ١، ص ١٦٠.

(٣) مخمصة: مجاعة.

(٤) ظهرهم: الإبل التي يحمل عليها وتركب، وتجمع على ظهران بضم الظاء.

يبلغنا[1] الله به، فلما رأى عمر بن الخطاب أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد همّ أن يأذن لهم في بعض ظهرهم قال: يا رسول الله، كيف بنا إذا نحر، لقينا القوم غداً جياعاً رجالاً[2]، ولكن إن رأيت أن تدعو الناس ببقايا أزوادهم[3]، فتجمعها، ثم تدعو الله فيها بالبركة، فإن الله سيبلّغنا بدعوتك، أو سيبارك لنا في دعوتك.. فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ ببقايا أزوادهم، فجعل الناس يجيئون بالحثية[4] من الطعام، وفوق ذلك.. وكان من أعلاهم مَن جاء بصاع من تمر، فجمّعها رسول الله ﷺ ـ ثم قام فدعا ما شاء الله أن يدعو، ثم دعا بالجيش بأوعيتهم وأمرهم أن يحثوا، فما بقي في الجيش وعاء إلا ملئوه وبقي منه، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ حتى بدت نواجذه، فقال:

«أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أني رسول الله، لا يلقى الله عبد يؤمن بهما إلا حجبت عنه النار يوم القيامة»[5].

وعن عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قال:

«كنّا مع النبيّ ـ ﷺ ـ ثلاثين ومائة، فقال النبيُّ ـ ﷺ ـ:

هل مع أحد منكم طعام؟.. فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعجن، ثم جاء رجل مشرك مشعان[6] طويل بغنم يسوقها، فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: أبيعاً أم عطية؟، أو قال: هِبَة.. قال: بل بيع، فاشترى منه شاةً فصنعت، وأمر النبيّ ـ ﷺ ـ بسواد البطن أن يشوى.. قال: وأيم

---

(١) يبلغنا: يوصلنا.
(٢) رجالاً: ليس لهم ظهر يركبونه.
(٣) أزوادهم: جمع زاد.
(٤) الحثية: القبضة أو الغرفة باليد.
(٥) طبقات ابن سعد جـ ١، ص١٦٣، ورواه مسلم بنحوه ـ حدث هذا في غزوة تبوك.
(٦) أي ثائر الرأس.

الله ما من الثلاثين والمائة إلا قد حزّ رسول الله - ﷺ - حزّة من سواد بطنها، إن كان شاهداً أعطاه إياه، وإن كان غائباً خبأ له، قال: وجعل منها قصعتين.. قال: فأكلنا أجمعون وشبعنا، وفضل في القصعتين(١) فحملناه على بعير أو كما قال»(٢)..

وعن جابر، أن أُم مالك الفهرية كانت تهدي في عكة لها سمناً إلى رسول الله - ﷺ -. فبينا بنوها يسألونها الإدام - وليس عندها شيء - عَمَدَت إلى عكتها التي كانت تهدي فيها إلى رسول الله - ﷺ - فوجدت فيها سمناً، فما زال يأدم لها أدم بنيها حتى عصرته، فأتت النبيّ - ﷺ - قال: «أعصرته»؟.. قالت نعم.. قال: «لو تركته ما زال ذلك لك مقيماً»(٣)..

وعن أبي إياس قال:

«خرجنا مع رسول الله - ﷺ - في غزاة، فأصابنا جَهد، حتى هممنا ننحر بعض ظهرنا، فأمر رسول الله - ﷺ -، فجمعنا مزاودنا، فبسط له نطعاً، فاجتمع زاد القوم على النطع، فتطاولت لأحرزه، فإذا هو كربضة العنز، ونحن أربع عشر مائة، قال: فأكلنا حتى شبعنا جميعاً، ثم حشونا جُربنا»(٤).

وعن جابر بن عبد اللَّه قال:

«عملنا مع رسول الله - ﷺ - في الخندق، وكانت عندي شويهة عنز جذعة سمينة، فقالت: لو صنعناها لرسول الله - ﷺ - فأمرتُ امرأتي

(١) في رواية: ففاضت القصعتان.
(٢) الوفا جـ ١، ص ٢٧٩، وفيه: أخرجه الشيخان.
(٣) الوفا جـ ١، ص ٢٨١ - ٢٨٢، وفيه: انفرد بإخراجه مسلم.
(٤) انفرد بإخراجه مسلم.

فطحنت لنا شيئاً من شعير، وصنعت لنا منه خبزاً، وذبحت تلك الشاة.. فشويناها لرسول الله - ﷺ -.. قال: فلما أمسينا، وأراد رسول الله - ﷺ - الانصراف عن الخندق، قال: وكنّا نعمل فيه نهاراً، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا، قال: قلت: يا رسول الله، إني صنعت لك شويهة كانت عندنا وصنعنا معها شيئاً من خبز الشعير، فأحبّ أن ينصرف معي رسول الله - ﷺ - وحده..

فلما قلت ذلك قال: نعم.. ثم أمر صارخاً فصرخ: أن انصرفوا مع رسول الله - ﷺ - إلى بيت جابر.. قال: قلت: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.. فأقبل رسول الله - ﷺ - وأقبل الناس معه، فجلس، فأخرجناها إليه.. قال: فبارك وسمّى ثم أكل، وتواردها الناس، كلما فرغ قوم قاموا وجاء ناس حتى صدر أهل الخندق عنها»[1].

وعن أنس - رضي الله عنه - قال: قال أبو طلحة لأُم سليم:

لقد سمعتُ صوت رسول الله - ﷺ - ضعيفاً. أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟

فقالت نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخرجت خماراً لها لفّت الخبز ببعضه، ثم دسّته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله - ﷺ - فذهبت به، فوجدت رسول الله - ﷺ - في المسجد، ومعه الناس، فسلّمت عليهم، فقال لي رسول الله - ﷺ -: «أرسلك أبو طلحة»؟.. قلت: نعم.. قال: «بطعام»؟.. قلت: نعم.. فقال رسول الله - ﷺ - لمن معه: قوموا، فانطلق وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أُم سليم، قد جاء رسول الله - ﷺ - بالناس وليس، عندنا ما نطعمهم، فقالت: الله ورسوله

(١) أخرجاه.

أعلم، فانطلق أبو طلحة حتى لَقيَ رسولَ الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ؛ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«هلمّي يا أُم سليم، ما عندك»؟.. فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ـ ﷺ ـ ففتّ، وعصرت أُم سليم عكة فآدمته، ثم قال رسول الله ـ ﷺ ـ فيه ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة، ثم لعشرة»، فأكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلاً(١).

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ.. جاءه رجل ليستطعمه؛ فأطعمه شطر وسق شعير، فما زال الرجل يأكل منه، وامرأته، وضيفهما، حتى كاله.. ففنى.. فأتى النبيّ ـ ﷺ فقال: «لو لم تكله لأكلتم منه ولقام لكم»(٢).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال:

«لما كان يوم غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فقال عمر: يا رسول ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم بالبركة، فقال: نعم.. فدعا بنطع، فبسط، ثم دعا بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف ذرة، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع على النطع شيء يسير، فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ بالبركة، ثم قال: خذوا في أوعيتكم.. فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا في العسكر وعاء إلا ملأوه.. قال: فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ: أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّي رسول الله.. لا يلقى

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه مسلم.

الله بهما عبد غيرُ شاكٍّ فيحجب عن الجنة»[1].

وعن جابر رضي الله عنه قال:

«توفي أبي وعليه دين، فعرضت على غرمائه أن يأخذوا التمر بما عليه، فأبوا فأتيت النبيّ ﷺ، فقلت:

قد علمتَ أن والدي استشهد يوم أُحُد وترك ديناً كثيراً، وإني أحب أن يراك الغرماء، فقال لي:

اذهبْ فبيدر كل تمر على ناحية، ففعلت ثم دعوته، فلما نظروا إليه كأنهم أغروا بي في تلك الساعة، فلما رأى ما يصنعون طاف حول أعظمها بيدراً ثلاث مرات، ثم جلس عليه، ثم قال:

ادع إليّ أصحابَك، فما زال يكيل لهم حتى أدّى اللّهُ عن والدي أمانَته وأنا أرضى أن يؤدِّيَ الله أمانة والدي، ولا أرجع إلى أخواتي بتمرة؛ فسلّم الله البيادر كلها، حتى أني أنظر إلى البيدر الذي كان عليه النبيّ ﷺ، كأنما لم تنقص ثمرة واحدة[2].

حنين الجذع

عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما أن النبيّ ﷺ، كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار، أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً؟.

قال: «إن شئتم».

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري، انظر جامع كرامات الأولياء للشيخ يوسف النبهان جـ١، ص ١١٦ ـ ١١٧.

فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة، رفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبيّ، ثم نزل النبيّ ﷺ، فضمّها إليه: تَئِنُّ أنين الصبيّ، الذي يُسكّن، قال: كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها[1].

وعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنهما يقول:

كان المسجد مسقوفاً على جذوع من نخل، فكان النبيّ ﷺ، إذا خطب، يقوم إلى جذع منها. صُنع له المنبر، فكان عليه، فسمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار، حتى جاء النبيّ ﷺ، فوضع يده عليها فسكنت[2].

يقول صاحب الشفا، عن حنين الجذع: إنه في نفسه مشهور منتشر والخبر به متواتر، قد خرجه أهل الصحيح، ورواه من الصحابة بضعة عشر: منهم أُبيّ بن كعب وجابر بن عبد اللّه وأنس بن مالك وعبد اللّه بن عمر، وعبد اللّه بن عباس، وسهل بن سعد، وأبو سعيد الخدري وبريدة وأُم سلمة والمطلب بن أبي وداعة كلهم يحدث بمعنى هذا الحديث قال الترمذي وحديث أنس صحيح قال جابر بن عبد اللّه كان المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان النبيّ ﷺ، إذا خطب يقوم إلى جذع منها، فلما صُنِع له المنبر: سمعنا لذلك الجذع صوتاً كصوت العشار. وفي رواية أنس: حتى ارتجّ المسجد بجواره. وفي رواية سهل: وكثر بكاء الناس لما رأوا به. وفي رواية المطّلب وأُبَيّ: حتى تصدّع وانشقّ، حتى جاء النبيّ ﷺ فوضع يده عليه فسكت. زاد غيره: فقال النبيّ ﷺ: إن هذا بكى لما فقد من الذكر[3].

---

(١) صحيح البخاري جـ ٨، ص ٢٣٨، ط الشعب.

(٢) صحيح البخاري جـ ٨، ص ٢٣٧، ط الشعب.

(٣) الشفاء ص ٢٥٧.

أراكم من وراء ظهري:

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«هل ترون قِبْلتي هاهنا؟

فوالله مايخفى عليَّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري»[1].

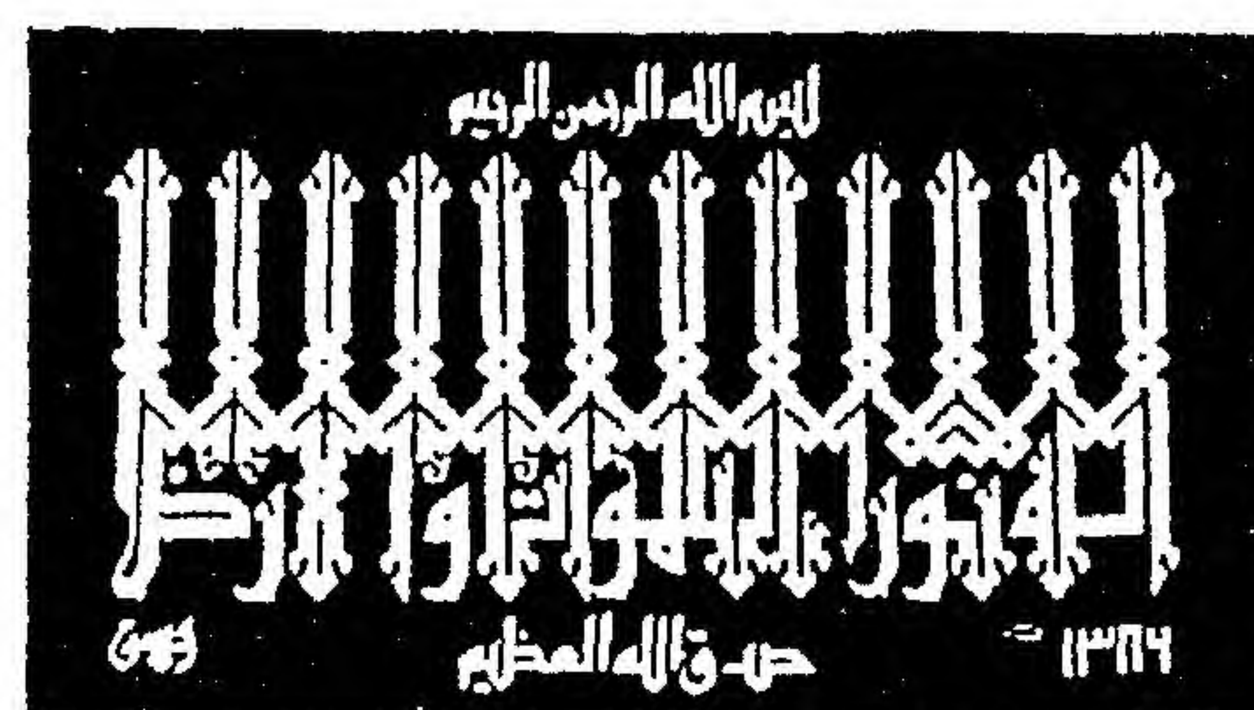
عن أنس قال: كان رسول الله ﷺ، يُقْبل علينا بوجهه قبل أن يكبِّر، فيقول:

«تراصُّوا واعتدلوا، فإني أراكم من وراء ظهري»[2].

---

(١) الحديث في الصحيحين انظر الوفا: جـ١، ص٣٤٤.

(٢) الحديث في الصحيحين، انظر الوفا: جـ١، ص٣٤٣، ط دار الكتب الحديثة.


بسم الله الرحمن الرحيم
الله نور السموات والأرض
صدق الله العظيم
١٣٦٦ هـ

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الثامن

دلائل النبوة في معجزة الاسراء والمعراج

---

(١) إن ترتيب الإسراء والمعراج الزمني يسبق الهجرة ولكنّا أتينا بها هنا لأننا جمعنا المعجزات في فصل متخصّص.

وترتبط معجزة الإسراء والمعراج ارتباطاً محكماً بالفصل الذي تحدّثنا فيه عن مفهوم الرسالة وذلك أن منهج الحياة الذي ترسمه حادثة الإسراء والمعراج إنما هو توضيح من زاوية أخرى لمفهوم الرسالة الإسلامية في صدقها وفي كمالها.



الإســـراء والمعراج

إن الناس ـ عادة ـ حينما يتحدثون عن معجزة الإسراء والمعراج، يتحدثون عن جانبها الذي يتصل بقطع المسافات، وطيّ المكان، والعروج من سماء إلى سماء، في لحظات لا تُعَادل بالأيام والشهور، وإنما بالساعات والدقائق . .

وما من شك في أن الإسراء والمعراج معجزة من هذه الزاوية، . . ومعجزة كبرى . . ولكنها أيضاً: آيات ودلالات على صدق الرسول ﷺ، من زاوية أخرى: تتجه نحو الجانب الأخلاقي في تزكية النفس، واستقامة الأسرة، وإصلاح المجتمع . .

وكما تعبّر حياة الشخص عن صدقه أو زيفه، فإن تعاليمه كذلك تعبّر عن صدقه أو زيفه. وإن أصحاب الآفاق المستنيرة ـ كما ينظرون إلى سلوك الشخص وحياته ـ فإنهم ينظرون أيضاً، إلى تعاليمه ورسالته، حتى يكونوا على بيّنةٍ من الحكم عليه.

ومن أجل ذلك، تحدّثنا عن الإسراء والمعراج من هذه الجوانب جميعاً، واستفضنا في الزاوية التي تتصل بالجانب الأخلاقي والجانب

الروحي، لنُزيل ما علق بالنفوس من: قصر الحديث - في الإسراء والمعراج - على الجانب الذي يتصل بطيّ الأرض، والعروج إلى السماوات..

والحديث عن الإسراء والمعراج - من هذه الجوانب جميعاً - إنما هو واجب من حيث إثبات الدلائل الحسيّة والمعنوية، فيما يتعلق بصدق النبوّة..

ونحن من الآن، نعتذر عن هذه الاستفاضة التي اتّسم بها البحث في الإسراء والمعراج.

ولقد استفضنا متعمدِين. وذلك أن من دلائل النبوّة أن تكون آثار النبيّ، وأن يكون موضوع رسالته، متّسماً بالأخلاق الكريمة، والروحانية العالية، وأن يحتلّ المنهج - للسير بالحياة الاجتماعية إلى السمو - مكانة كبرى في رسالته. إننا من أجل ذلك، استفضنا.

إن قصة الإسراء، لا ينبغي أن تؤخذ على أنها رحلة شديدة الغرابة في أعراف الناس، وإنما على أنها - مع ذلك - رسم للكثير من جوانب حياة المسلم في معراجه إلى الله.

إنها رحلة لم تنته - ولن تنتهي - من حيث توجيه المسلم إلى الله سبحانه.

إنها دلالة على النبوّة من حيث هي معجزة، وهي دلالة على النبوّة من حيث هي أخلاق.

يقول سبحانه وتعالى:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا

ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2].

هذه هي الآيات القرآنية: عن الإسراء والمعراج.

أما الأحاديث النبوية فإنها كثيرة مستفيضة. ولقد رويت عن أكثر من ستة وعشرين صحابياً، يكمّل بعضها بعضاً.

رواها الكثير من المحدّثين، واستفاض في ذكرها الإمام السيوطي ـ طيّب الله ثراه ـ في كتابه «الخصائص الكبرى».

ونحن هنا لا يعنينا أن نذكر الموضوع بكل تفصيلاته، فإنه معروف عادة للمسلمين. وإنما الذي يعنينا أن نذكر ـ على الخصوص ـ الجانب الأخلاقي فيه، وجانب المغزى فيه.

ومجمل الأمر: أن رسول الله ﷺ، بينما كان نائماً، أتاه جبريل، فأيقظه وخرج معه، فإذا أمامهما دابّة بيضاء، هي البراق. . وركبها رسول الله ـ ﷺ ـ، وسارت الدابّة، وجبريل معه على حدّ تعبيره ـ ﷺ ـ:

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) النجم: ١ ـ ١٨.

«لا يفوتني ولا أفوته» ـ حتى انتهى إلى بيت المقدس. . فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى ـ عليهم السلام ـ في نفر من الأنبياء، فأمّهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وصلّى بهم. . ثم أتى بإناءين: بأحدهما خمرٌ، وبالآخر لَبَن، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ إناءَ اللبن، وشرِب منه، وترك إناءَ الخمر. .

فقال له جبريل:

(هُـديت للفطرة، وهديت أمتك، وحرّمت عليكم الخمر).

وتروي كتب السيرة؛ أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتاه ليلةَ الإسراء آتٍ، فَفَرَحَ صدره، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطَستٍ من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدره الشريف ثم أطبقه.

ثم كان الإسراءُ إلى بيت المقدس.

ولما انتهى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من بيت المقدس، عُرِجَ به إلى السماء، وأخذ يرتقي سماءً سماءً. ثم تجاوزها جميعَها، إلى سدرة المنتهى، وإلى قابِ قوسين أو أدنى. .

وهناك حيّا الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ربَّه: «التحيّات لله، والصلوات والطيبات». .

وحيّاه الله سبحانه وتعالى:

«السَّلامُ عليك أيّها النبيّ ورحمةُ الله وبركاته». .

وقال الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

«السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». .

وفي هذه اللحظات الخالدة: التي لا يتأتّى أن توصف، فرض الله

ـ سبحانه وتعالى ـ الصلواتِ، على الأمة الإسلامية ـ.

وبلَّغَ رسولَ الله ﷺ الخَبَر، وتحدَّث بنعمة الله تعالى عليه، فأنكر المشركون ذلك وعارضوه. وبلَّغ المشركون الخبر إلى أبي بكر رضي عنه: مستنكرين له متعجبين منه، فقال لهم، والله لئن كان ما قاله لقد صدق. . فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فأصدّقه. . فهذا أبعد مما يعجبون منه.

فقال رسول الله ـ ﷺ ـ لأبي بكر:

«وأنت يا أبا بكر: «الصدّيق». . فيومئذ سمّاه : الصدّيق».

هذا هو الموجز لما ترويه السنّة مؤيدة للقرآن، عن هذا النبإ الجليل. .

ولقد حاول «ابن إسحاق» أن يبين الحكمة في هذا الحادث، فقدّم ـ حسبما يروي ابن هشام ـ لحديث الإسراء بكلمة نفيسة، يقول فيها:

«وكان في مسراه، وما ذكر منه، بلاء وتمحيص، وأمر من أمر الله في قدرته وسلطانه، فيه عبرة لأُولي الألباب، وهدىً ورحمة، وثبات لمَن آمن بالله وصدق، وكان من أمر الله على يقين ـ فأُسْرِيَ به كيف شاء، وكما شاء، ليريَهُ من آياته الكبرى ما أراد، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم، وقدرته التي يصنع بها ما يريد».

أما الإمام البوصيري، فإنه يقول في «همزيته» المباركة:

فطوى الأرض سائراً والسموا ... تِ العلا فوقها له إسراءُ
فصِفِ الليلةَ التي كان للمخـ ... ـتارِ فيها على البراق استواءُ

وتـرقّـى بـه إلـى قـاب قـوسـيـ ـن وتـلـك الـسـيـادة الـقـعـسـاءُ
رُتَبٌ تسقط الأمانيُّ حسرى دونها ما وراءهنّ وراءُ
ثم وافى يحدّث الناسَ شكراً إذ أتته من ربه النعماءُ
وتحدّى فارتاب كلُّ مريب أوَ يبقى مع السيول الغثاءُ؟

هذا النبأ الجليل: يسمعه قوم، فلا يصل إلّا إلى الجوانب الظاهرية منهم، فيأخذون في الجدل الشكلي: أكان ذلك في اليقظة، أم كان ذلك في النوم؟..

أكان ذلك بالروح والجسد؟ أم كان بالروح فقط؟..

أكان ليلاً؟ أم كان نهاراً؟..

وهذه كلها صور من الجدل الذي يثور، حينما يخفف وَزْنُ الإيمان في النفوس[1].

ويسمع هذا النبأ قوم، فيصل إلى أعماق قلوبهم؛ فيتجهون - في صورة طبيعية - إلى مغزاه العميق، وإلى روحانيته السامية، ويرون أن هذا النبأ ينطوي على توجيهات لا ينبغي أن يمرَّ عليها الناس مرّ الكرام.. من هذه التوجيهات:

---

(١) يقول شوقي - رحمه الله - في قصيدته التي عارض فيها الإمام البوصيري - هذه الأبيات الجميلة:

يتساءلون وأنت أطهرُ هيكلٍ بالروح أم بالهيكل الإسراءُ
بهما سموتَ مطهراً وكلاهما نور وروحانية وبهاءُ
فضل عليك لذي الجلال ومنّة والله يفعل ما يرى ويشاءُ
تغشى الغيوبَ من العوالم كلما طُوِيتْ سماء قلّدتك سماءُ
الله هيأ من حظيرة قدسه نزلا لذاتك لم يجزه علاءُ
العرش تحتك سدّة وقوائم ومناكب الروح الأمين وطاءُ
والرسل دون العرش لم يؤذن لهم حاشا لغيرك موعد ولقاءُ

١ ـ لقد كان رسول الله ـ ﷺ ـ خاتمَـةَ سلسلةٍ من الأنوار التي يرسلها الله إلى العالم بين الفينة والفينة؛ لتهدِيَ إلى الرشاد، ولتقودَ إلى الله؛ ولتسموَ بالمؤمنين درجاتٍ في معارج القدس، لتصل بالجديرين منهم إلى الكمال المرجو، عن الإرشاد الإلٓهي..

وكان الكتاب الذي أنزل عليه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو القرآن ـ خاتَمَ الكتب وأكملَها، ومهيمناً عليها..

ولأن رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ تخلَّق بأخلاق أكمل كتاب رباني، فهو ـ إذن ـ أكملُ رسول ـ ﷺ ـ:

ومن هنا، كانت إمامته ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ للرسل والأنبياء في بيت المقدس..

ولأنه ـ صلوات الله عليـه وسـلامـه ـ أكمل رسول، كان من أجلّ ذلك ـ أقرَبَ المقربين إلى الله، سبحانه وتعالى..

لقد تخطّى الأرضين والسموات، وتجاوز الكَوْنَ كلَّه، ووصل إلى ما لم يصل إليه بشر. بل إلى ما لم يصل إليه جبريل نفسه؛ عليه السلام..

لقد وصل ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ إلى: «قاب قوسين أو أدنى»..

وكما أن المعنى الذي يدلّ عليه نبأ المعراج، من: وجود الأنبياء والرسل في السموات، ومن أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أخذ يتجاوز هذه السموات الواحدة بعد الأخرى، ويتجاوز الأنبياء واحداً بعد الآخر..

نقول: كما أن المعنى الذي يدلّ عليه النبأ معنىً مكاني ـ فإنه ـ

أيضاً، بل وبطريق أولى ـ معنى روحي . . أي أن الرسول ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ في تساميه الروحي في كل لحظة من اللحظات ـ قد بلغ في معراجه، إلى درجات تجاوزت ـ في روحانيتها ـ آدم في سمائه الأولى . . ثم تجاوزت عيسى وموسى . . و . . وهكذا ـ حتى تجاوزت روحياً إبراهيم ـ عليه السلام ـ في سمائه السابعة . .

ولقد تجاوز رسول الله ـ ﷺ ـ كل ذلك، وتجاوز الكون كله، إلى سدرة المنتهى، إلى شجرة النهاية، ثم إلى حيث لا يبلغ مَلكٌ مقرَّبٌ، ولا نبيّ مرسلٌ: إلى قاب قوسين أو أدنى . .

لقد رأى من آيات ربه الكبرى ـ هذا هو مقام الرسول ـ صلوات الله عليه . .

ولكنّ بعض الناس ينزلُ بنا من هذه الآفاق العليا، والسموات السامية ومن الرحاب(١) الإلهية. ينزل بنا منحدراً، فيجادل في الإسراء والمعراج . . أكان رؤيا أم كان يقظة؟ .

أستغفر الله، وأتوب إليه . .

إن ذلك الجدل، إذا دلَّ على شيء فإنما يدلّ على ضعف الإيمان في قلب المجادل المخازي .

ومن الشعر الديني الحديث في ذلك قول الشاعر الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح من قصيدة في الإسراء والمعراج :

والنجم حين هوى لقد صعد الهدى
كالنجم يسبح في السماء مُضَاءَ

---

(١) الرحاب: جمع رحبة: المكان الواسع.

ما ضلّ صاحبكم ولم ينطق لكم
إلا بما يوحَى له إيحاءَ
صدق الفؤاد فلا تُمارِ فقد رأى الـ
آيات كبرَى تملأ الأرجاءَ
قالوا أيصعد في السماء وهل بها
يجد الهواء، ألا يشم هواءَ؟
قاسوا الأمور بما رأوه أمامَهم
والمعجزاتُ ألّا تكونُ وراءَ
لا تجعلوا أمر الرسول كأمركم
أرضٌ تنافس في العلو سماءَ
نسمَ من الفِردوس حفَّ ركابه
أيحسُّ ضيقاً أن يحسّ عناءَ
ووراء هذا الكون قوة خالق
فوق الظنون جلالةً وعلاءَ
الله أكبر أن نحدّد فضله
جلّ الإلّه على العباد عطاءَ
أيصغِّرون جلال ربّ قادر
ملكت يداه الموت والأحياءَ

٢ ـ وإذا كانت التوجيهات السابقة، إنما كانت لتدلّنا على مقام رسول الله ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ فنزداد بذلك تقديراً، وحبّاً واتّباعاً، فإن من هدى الله سبحانه وتعالى، وتوجيهاته في نبإ الإسراء والمعراج ـ هذه الرمزيات الأخلاقية، التي تربط ربطاً محكماً بين الدين والأخلاق. .

والواقع أن الأخلاق ـ في جو الإسلام ـ مرتبطة بالدين ارتباطاً لا

ينفصل: منه تنبع، وعلى أساسه تقوم، وعنه تصدر؛ إنها جزء من الدين الإسلامي لا يتجزأ، مصدرها هو مصدره: إلّهي رباني..

وبعض الناس ـ في العصر الحديث ـ يريد أن يجعل للأخلاق مصادر أخرى.. يريد بعضهم أن يجعل أساس الأخلاق الضمير، بيد أن ذلك خطأ بيّن.. فالضمير يربّى ويكوَّن. وتربيته وتكوينه هما: شكله، ونزعته، واتجاهه الذي يتكيّف بحسب الثقافة والبيئة، والعصر والوسط.

إن الضمير يصنع كما تصنع المزيفات، وهو ـ إذن ـ مقياس للأخلاق خاطىء.. وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة العامة، ولكن المصلحة العامة كلمة غير محددة. وكلّ مَن يتحدّث باسم المصلحة العامّة، إنما يتحدث باسم فكرته هو: منحرفةً كانت هذه الفكرة أو غيرَ منحرفة..

والمصلحة العامة ـ إذن ـ كأساس للأخلاق، أساس غير مضمون.. وبعض الناس يريد أن يرجع بالأخلاق إلى المصلحة الشخصية، أو إلى اللذة، أو إلى المنفعة.. وكل هذا وارد الغرب الأوربي، أو الغرب الأمريكي عندما انحرف هذا الغرب وألْحَدَ، ودخل في إغماء أخلاقي.

أما وارد الشرق الإسلامي، أو بتعبير أدق. وارد الإسلام الإلّهي، فإن مقياس الأخلاق فيه، إنما هو المبادىء الدينية.. إنما هو آيات القرآن.. وإنما هو الفضائل التي أوحاها الله ـ سبحانه وتعالى ـ.. هذه الفضائل التي حددها القرآن في أسلوب عربي مبين، وتحدّث عنها نبأ الإسراء والمعراج في صور رمزية دالّة، هادفة مؤثرة، وبيَّنتها السنَّةُ النبوية الشريفة، وركّزها القرآن والسنّة على أُسس من الإيمان قوية ثابتة.. إنها ـ في رحلة الإسراء والمعراج ـ تكون منهج حياة مؤسسة على الإيمان بالله ورسوله.. وهذا المنهج هو الذي نريد رسمه الآن بتوفيق الله.

منهج الحياة الذي رسمته أنباء
الإســــراء والمعراج

ونعود من جديد إلى أسانيد حادث الإسراء والمعراج، في السنّة الشريفة، فنقول:

«إن حادث الإسراء والمعراج، ورد في روايات عدّة: منها الصحيح ومنها الحَسَن: أخرجها أئمة الحديث - رضوان الله عليهم - يذكر بعضها ما لم يذكره البعض الآخر، تَتَفق في جوهرها، ولا تتعارض في جزئياتها. يرويها بعضهم مختصرة، ويرويها بعضهم متوسطة، ويرويها بعضهم مطوَّلة، وكلُّ صورة منها يتعدّد سندها، أي يختلف الرواة الذين روَوْها. ومع ذلك تكون الصورة واحدةً في جوهرها..

الجوهر - إذن - متواتر...

وإذا أخذنا برأي الإمام ابن حزم، في أن المتواتر ما روي بروايتين، فإن التفاصيل - في أغلبها - تكون أيضاً متواترة.

كل هذا مع ثبوت الأمر - في جوهره - بالكتاب العزيز..

ونحن - إذن - حينما نبدأ في الحديث عن الإسراء والمعراج، على أنه منهج الحياة. ونستمد الصور أحياناً من الجزئيات والتفاصيل، فإنما نقف في ذلك على أرض صلبة، ونسير في الرسم على أساس من المرويّ.

التـــــوبة

وتبدأ قصة الإسراء والمعراج - في بعض روايات البخاري، وفي بعض روايات غيره - بشقّ الصدر.

من ذلك ما يرويه الإمام أحمد ـ بسنده ـ عن أنس بن مالك قال: «كان أُبيّ بن كعب يحدّث: أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «فُرِج سقفُ بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله من ماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلىء حكمةً وإيماناً، فأفرغها في صدري، ثم أطبقه»..

هذا الحادث هو ـ بالنسبة لنا ـ التوبة، فإن تطهير القلب الذي حدث لرسول الله ـ ﷺ ـ عدة مراتٍ في حياته، إنما هو بالنسبة لأتباعه بمثابة التوبة..

والواقع أن حياةَ المسلم ـ في طريقه إلى الله ـ إنما تبدأ بالتوبة.. وليس قبل التوبة من درجة تسبقها. والتوبة التي نتحدث عنها، إنما هي التوبة الخالصة النَّصوحُ، فإن الله تعالى يقول:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾(١).

فأرشد ـ سبحانه ـ إلى أن التوبة المطلوبة، إنما هي التوبة النصوح..

ولأجل أن تكون التوبة خالصةً نصوحاً، فإنه لا بدّ من توفر شروط..

ويتحدث الإمام النووي عن شروطها ـ في كتابه المبارك ـ: «رياض الصالحين» ـ فيقول:

التوبة واجبة من كل ذَنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى، لا تتعلق بحق آدمي، فلها ثلاثة شروط:

---

(١) التحريم: ٨.

أحدها: أن يقلع عن المعصية.
والثاني: أن يندم على فعلها.
والثالث؛ أن يعزم على أن لا يعود إليها أبداً..
فإن فقد أحد الثلاثة، فلا تصحّ التوبة..

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي، فشروطها أربعا:

هذه الثلاثة،
وأن يبرأ من حقِّ صاحبها.. فإن كانت مالاً أو نحوه، ردّه إليه.
وإن كان حَدَّ قذف، أو نحوه، مكّنه منه، أو طلب عفوه..
وإن كانت غِيبةً، استحلّه منها..

ولأن التوبة أول سلَّم في معراج السالكين إلى الله؛ ولأنها واجبة من كل ذنب. ولأنها تَجُبُّ[1] ما قبلها، ولأنها تضع الإنسان ـ فور تحقّقه لها ـ في مرتبة البراءة والطهارة والنقاء ـ فإن الإسلام حثّ عليها كثيراً..

يقول الله تعالى آمراً بها: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[2].

وقد فتح الله بابها ـ خالصة نَصوحاً ـ على مصراعيه.. فقال في أسلوب يسيل رحمةً ورأفةً:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[3]..

إنه ـ سبحانه ـ يغفرها بالتوبة؛ لأنه سبحانه ـ يقول بعد ذلك موجّهاً

---

(١) تجب: تمحو وتزيل.
(٢) النور: ٣١.
(٣) الزمر: ٥٣.

المسلمين إلى الطريق:

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾[1].

ويتابع القرآن في التوجيه إلى التوبة - في أسلوب كله رحمة ورأفة - ما جاء في حديث قدسي طويل رائع. يقول الله تعالى فيه:

«يـا عبادي، إنكم تخطِئون بالليل والنهار، وأنا أغفِرُ الذنوب جميعاً، فاسْتَغْفِروني أغفِرْ لكم»..

ويتابع ذلك كله الأحاديث النبويّة:

« إنَّ اللَّهَ يبسُطُ يَدَهُ بالليل ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسُطُ يَدَهُ بالنهار ليتوبَ مُسِيءُ الليل »..

ورسولُ الله - ﷺ - يعترف بالخطيئة، كواقع لا يتأتى إنكاره، فيقول:

«كل ابنِ آدمَ خطّاءٌ».

ولكنه يرشد إلى الوسيلة التي تفضِّل بعض الخطائين، وتجعلُ لهم منزلةً في الخير، فيقول:

«وخيرُ الخطّائين التّوّابونَ»..

يقول الإمام القشيري:

ومن لطائف المعراج: ما خصّ به أولَ حاله في تلك الليلة: بالطهارة على ما ذكرنا.

---

(١) الزمر: ٥٤ - ٥٥.

وقد شُقَّ قلبُ النبيّ ـ ﷺ ـ مرتين[1]: مرة في حالة صباه، وهو بعد في حُجر حليمة، والمرة الثانية ليلة المعراج. .

وفي تخصيص قلبه بالغسل ـ دون غيره من البدن ـ إشارات:

منها: أن القلب محل العرفان، وهو المضغة التي بصلاحها صلاح البدن، وهو محل المشاهدة. . ومركز الشعور، ومصدر الإشعاع.

ولكي لا يكون لغير الحق نصيب في قلبه.

ولتنبيه الأمة على طهارة القلب. .

وإذا كان شقّ الصدر: الذي سبق هذا الحادث الخطير ـ حادث الإسراء والمعراج ـ هو ـ بالنسبة لنا ـ التوبة. . فإنه أيضاً: توجيه واضحٌ لنا، إلى أن نلجأ إلى الله تائبين، عند الشروع في أيّ أمرٍ له قيمته. .

إنه توجيه لنا: أن نلجأ إلى الله تعالى، تائبين: عند الشروع في شراء وفي بيع. . في ارتباط بزواج، في بناء بيت، في الشروع في سفر. .

وليست التوبة في مثل هذا توبةً من ذنب، وإنما هي التجاء إلى الله، وتشفعٌ إليه ـ سبحانه ـ بتأكيد صفاء النفس، وطهارة القلب؛ من أجل أن يُسَدّد الخُطَا، ويمنحَ التوفيق، ويحفظ معه الأخطاء. .

إنها توسل إلى الله بعمل صالح، هو التوبة. .

الغاية في منهج الحياة

ويمكن للإنسان أن يتعجل السؤال عن الغاية، فيقول:

---

(١) ولقد روي أيضاً في حديث أخرجه الإمام أحمد أنه ﷺ، قد شقّ صدره وهو في سن العاشرة، فهي ثلاث مرات «راجع ص ٧٠ دلائل النبوّة».

إذا كان بدءُ الرحلة الإسلامية إنما هو التوبة، فما نهايتها؟.

ونقول دون تردد ولا شك: ليس دون الله منتهى..

وذلك أن الله سبحانه وتعالى، هو الغاية الأخيرة للمؤمن المتبصّر..

ولقد أعلن الله صراحةً: أنه سبحانه، إليه المنتهى، فقال:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾(1)..

ويقول أبو سعيد الخرّاز ـ رضي الله عنه ـ معبّراً عن شعور المؤمن بالنسبة لله سبحانه:

«كل ما فاتَك من الله سوى الله يسير،

وكل حظ لك سوى الله قليل»..

إن هجرة المؤمن، إليه سبحانه، وذهابه إليه:

﴿ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ﴾(2).

وقال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾(3).

وفِرارُ المؤمن، إلى الله.. ولقد أمر الله بالفرار إليه فقال:

﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾(4).

ولقد كانت نهاية الرحلة التي نحن بصددها ـ رحلةِ الإسراء والمعراج ـ الانتهاءَ إلى الله سبحانه وتعالى.. فهي رحلة انتهت إلى غايتها الحقيقية التي هي الله فَحققت:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾.

---

(1) النجم: 42.

(2) العنكبوت: 26.

(3) الصّافّات: 99.

(4) الذاريات: 50.

وأنه ـ إذا تحدّثنا عن ثمرة السلوك إلى هذا المنتهى ـ فإنه، بمقدار قرب السالك من هذا المنتهى، تكون رعايةُ الله له، وعنايتُه به..

على أن هذه الرعاية، وهذه العناية، تبدأ منذ الخطوة الأولى، التي تتمثل في الاستغفار..

والله ـ سبحانه وتعالى ـ يأمرُ بالاستغفار، ويبيّن ما يترتب عليه من آثار، وهي آثار ليست بالهيّنة أو التافهة.. إنها آثار ضخمة..

يقول سبحانه:

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾[1].

ويقول سبحانه:

﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾[2].

وكلما ازداد الإنسان استغراقاً في السلوك إلى الله، بالتوبة والاستغفار، كلما فعل ذلك ازدادت رعاية الله له، وعنايته به.. حتى إذا ما انتهى إليه سبحانه، كانت العناية المناسبة، والرعاية الكافية، في الدنيا وفي الآخرة:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

---

(١) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٢) هود: ٥٢.

(٣) يونس: ٦٢ ـ ٦٤.

وليس معنى الوصول إلى المنتهى، وهو الله سبحانه ـ الاستقرارَ والسكونَ الروحي.. فحسب ـ وإنما معناه من جانب: زوال القلق والاضطراب النفسي، وزوال هم الرزق، وخوف الموت.. وزوال كل ما يصرف الإنسان عن الله أن يشغل بؤرة التفكير، ويَحُلَّ في أعماق النفس..

معناه ـ من جانب آخر ـ الرُّقي الروحي الدائم، الفيوضات الإلّهية المستمرة: المعرفة اللدُنِّيَّةُ المتتالية.. وصلوات الله وسلامه على مَن وَصَل إلى هذا المنتهى.

وأمِرَ ـ مع ذلك ـ أن يقول:

﴿ رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾(1).. أي فيضاً..

فزيادة العلم ـ في عرف أولياء الله ـ إنما هو زيادة الفيض بالسعادة..

ومن أجل ذلك يقول أحد العارفين:

«نحن في سعادة لو عرفها الملوك، لجالدونا عليها بالسيوف»..

وتتلوّن السعادة بلون المعرفة. ولكل باب من أبواب المعرفة مذاق خاص، فله ـ إذن ـ لذة خاصة ـ إذا أمكن التعبير بكلمة: اللذة، في هذا المقام.

وهو يسلم إلى ما يليه.. وما يليه له مذاقه الخاص، فله أيضاً لذّته!!!

إنها جَنَّة الدنيا، في سموّها وجمالها وجلالها..

---

(1) طه: ١١٤.

ولا يحجب أولياءَ الله عن الله مالٌ.. وقد يكونون في ثراء عريض، فلا يصرفهم ذلك عن الله.

وما صرف سليمانَ عليه السلام ملكُهُ عن الله..

وقد يعرض عليهم الثراء العريض فلا يعيرونه أهمية...

ولقد قال رسول الله ـ ﷺ ـ.

«خُيِّرت بين أن أكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً، فاخترت أن أكون عبداً رسولاً».

ويتحدث الإمام أبو سعيد الخراز عن ذلك ـ بالنسبة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فيقول: وهذا النبيّ ـ ﷺ ـ: بينما جبريل عليه السلام عنده، إذ تغيَّر جبريل، فإذا مَلَك قد نزل من السماء لم ينزل قطّ.. فقال جبريل عليه السلام: خشيتُ أنه نزل فيّ بأمر. فجاء إلى النبيّ ـ ﷺ ـ بالسلام من عند الله عزّ وجل، وقال له: ﴿ هذه مفاتيحُ خزائن الأرضِ: تسير معك ذهباً وفضة، مع البقاء فيها إلى يوم القيامة، ولا تنقصك مما لك عند الله شيئاً ﴾.. فلم يختر النبيّ ـ ﷺ ـ ذلك: وقال: «أجوعُ مرّة وأشبَع مرة»..

ولا يحجب أولياءَ الله عن الله لذّة حسيّة؛ فهم في لذة دائمة مستمرة: أسمى وأنفس..

إنهم لا يحجبهم عنه متاع دنيوي أيّاً كان؛ فاستبشار قلوبهم، بقرب الله تعالى، وسرورُها به، وهدوؤُها: في سكونها إليه وأمنها معه..

ما بين البدء والغاية

- ١ -

الجهـــاد

كيف الوصول إلى هذا المنتهى الذي فيه الرضا، وفيه زيادة الأنوار، وتلاحقها على الدوام، وفيه السعادة التي لا تنقطع، وفيهِ مرضاة الله - سبحانه وتعالى -، وحفظه وعنايته ومحبته؟..

هذا ما ترسمه الرحلة المباركة - فيما بين: شقّ الصدر، أو التوبة.. وبين:

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾[١].

وبمجرد أن تبدأ الرحلة المباركة، يرى رسول الله - ﷺ - أمراً عجيباً.. إنه يرى قوماً: يزرعون ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عادَ كما كان.. فقال النبيّ - ﷺ - لجبريل - عليه السلام -: «ما هذا؟.. قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله: تُضاعَفُ لهم الحسنةُ إلى سَبعمائة ضِعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخْلِفه، وهو خير الرازقين»..

وتنقلنا هذه الرؤية من التوبة مباشرة، إلى الجهاد.. وهذا انتقال طبيعي، فإنه إذا كانت التوبة حقاً خالصة نَصوحاً، استتبعت - لا محالة - الجهاد: وللجهاد في الدين الإسلامي مكانة عظمى.. فقد روى الشيخان - بسندهما - عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال:

قلتُ: يا رسول الله. أيّ الأعمال أفضل؟

قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله»..

والجهاد في سبيل الله، أوسع وأعمّ من أن يقتصر على الجهاد

---

(١) النجم: ٨، ٩.

الحربي.. إن من أنواع الجهاد في سبيل الله، جهاد النفس، حتى تستقيم على التوبة، وجهادها حتى تقيم على الفرائض، وجهادها حتى تقيم الفرائض، وجهادها حتى تلتزم بالفضائل، وجهادها ـ دائماً ـ حتى تنزكي من بعد التوبة:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾[1]. ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ﴾[2].

وجهاد الأسرة، حتى تستقيم على أمر الله.. والله سبحانه وتعالى، يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3]. وكان سيّدنا إسماعيل ـ عليه السلام ـ يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مَرْضِياً.

ولا يُغْني جهادُ النفس وجهادُ الأسرة، عن جهاد المجتمع..

وكل ذلك أنواع متناسقة: من ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو مبدأ أساسي في الدين الإسلامي.

ولأجل أن يبيّن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أهميته الكبرى، ذكره قبل الإيمان بالله، مبيّناً أنه مناطُ خيريةِ الأمة الإسلامية، فقال سبحانه:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾[4]..

وعلى العكس من ذلك اليهود، فقد: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ

---

(١) الشمس: ٩.
(٢) فاطر: ١٨.
(٣) التحريم: ٦.
(٤) آل عمران: ١١٠.

يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[1].

ولقد بيّن الإسلام وسائلَ الجهاد بحسب الظروف والملابسات، وبحسب الإمكانيات والاحتمالات. .

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - فيما رواه مسلم - أن رسول الله - ﷺ - قال:

«ما مِن نبيّ بعثه الله في أُمةٍ قبلي، إلاّ كان له مِنْ أُمَّته حَواريونَ وأصحابٌ يأخذون بِسنَّته، ويقتدون بأمره. . ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف: يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمَرُون. فَمَنْ جاهدهم بِيَدِهِ فهو مؤمن، وَمَن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن - ليس وراءَ ذلك من الإيمان حبةُ خَرْدلٍ». .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - ﷺ - يقول:

«مَن رأى منكم منكراً فلْيغَيرْهُ بِيَده، فإن لم يستطعْ فبلسانه، فإن لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

وصوَّر رسول الله - ﷺ - المجتمع، ووجوبَ الأخذ على يد المفسد فيه، حتى لا يكونَ الهلاكُ - بالصورة الرائعة التالية: التي رواها الإمام البخاري عن النعمان بن بشير، عن رسول الله - ﷺ - قال: «مَثَلُ القائمِ على حدودِ الله، والواقعِ فِيها كَمَثَلِ قومٍ اسْتهَموا على سفينة، فصار بعضهم أعلاها؛ وبعضهم أسفلها، وكان الذين أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نصيبنا خَرقاً؛ ولم نُؤْذِ مَن فوقنا. . فإن تركوهم وما أرادوا - هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على

---

(١) المائدة: ٧٨ - ٧٩.

أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً».

وروى الترمذي عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال:

«والذي نفسي بيَدِهِ، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولَتَنْهَوُنَّ عن المنكر، أو لَيُوشِكَنَّ الله عن يبعثَ عليكم عقاباً منه، ثم تَدْعُونَهُ فلا يُسْتجابُ لكم»..

وعن أبي سعيد الخدري عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال:

أفضلُ الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائرٍ»..

وإن الله سبحانه وتعالى لا يخلي الأرض من الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر.. فقد جاء في الصحيحين:

«لا تَزَال طائفةٌ من أُمتي ظاهرين على الحق، لا يَضرُّهم مَن خَذلهُم، ولا مَن خَالفهم، حتى يأتيَ أمر الله وهم كذلك»..

أما الجهاد الحربي، فيكفي ـ لبيان أنه من طبيعة الإسلام ـ أن نذكر فيه حديثين، أو ثلاثة، وأن نذكر فيه آيتين من القرآن أو ثلاثاً..

ونبدأ ـ في ذلك ـ بما رواه الإمام مسلم، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«مَن ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ نفسه بغزوٍ، مات على شُعبةٍ من النفاق»..

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه الترمذي ـ قال:

مرَّ رجل من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ بشعب، فيه عيينة من ماء عذبة، فأعجبته، فقال:

«لو اعتزلتُ الناسَ فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستأذنَ

رسول الله ـ ﷺ ـ فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لا تفعلْ، فإن مقامَ أَحَدِكم في سبيل الله أفضل من صلاتهِ في بيته سبعين عاماً. . ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟. . اغْزوا في سبيل الله. مَنْ قاتلَ في سبيل الله ـ فواق ناقةٍ ـ وجَبت له الجنة». .

وروى أبو داود بإسناد جيد، عن أبي أمامة ـ رضي عنه ـ أن رجلاً قال: يا رسول الله!. . ائذن لي في السياحة. . فقال النبيّ ـ ﷺ ـ: «إن سياحة أمَّتي، الجهادُ في سبيل الله». .

والقرآن يربط بين الجهاد بالإيمان، بحيث لا يتأتّى أن يوجد الإيمان الصادق، إلا والجهاد من عناصره.

لقد اشترى الله ـ في عقد الإيمان ـ من المؤمنين أنفسهم وأموالهم:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(١). .

والجهاد تجارة مع الله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٢).

---

(١) التوبة: ١١١.
(٢) الصفّ: ١٠ ـ ١٢.

والجهادُ داخل في صدق الإيمان:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[1].

إن الجهاد ـ بأوسع معانيه ـ إنما هو الخطوة الأولى بعد التوبة.

فبَعْدَ التطهير يكون لقاء الله تعالى.

حياة الأنبياء والشهداء بعد الموت

إن الصلاة في ترتيب الرحلة المباركة يأتي رمزها بعد الجهاد مباشرة، ولكننا مراعاة لما بين هذا الموضوع وما قبله، نذكره هنا، ثم نعود للترتيب الطبيعي في الرحلة المباركة..

روى الإمام مسلم بسنده ـ عن أنس بن مالك، أن رسول الله ـ ﷺ ـ، قال: «أتيت ـ وفي رواية هداب: مررت ـ على موسى ليلة أُسري بي، عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلّي في قبره».

وأخرج الإمام مسلم ـ أيضاً ـ بعدة طرق، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مررت على موسى وهو يصلّي في قبره».

وقد أخرج الإمام مسلم في الصحيح، من حديث عبد العزيز، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «... وقد رأيتُني في جماعة من الأنبياء... فإذا موسى قائم يصلّي، فإذا رجل ضَرْبٌ[2] جعدٌ، كأنه من رجال شنوءة[3]،

---

(١) الحجرات: ١٥.

(٢) الضرب من الرجال: هو الخفيف اللحم.

(٣) شنوءة: قبيلة من قبائل العرب.

وإذا عيسى بن مريم قائم يصلّي، أقرب الناس به شبهاً، عروة بن مسعود الثقفي.. وإذا إبراهيم قائم يصلّي، أشبه الناس به صاحبكم ـ يعني نفسه ـ فحانت الصلاة، فأممتهم...». والأنبياء أحياء في قبورهم.

فقد أخرج الإمام أحمد ـ بإسناده ـ عن أوس بن أوس، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه قُبِض، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصعقة، فأكثروا عليَّ من الصلاة فيه، فإن صلاتكم معروضة عليّ»..

قالوا: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ـ يريدون بليت ـ فقال:

«إن الله حَرَّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء ـ عليهم السلام».

هذا الحديث أخرجه الحاكم وصحّحه النووي.. ويقول البيهقي عنه:

أخرجه أبو داود والسجستاني في كتاب السنن، وله شواهد..

ثم يروي ـ من هذه الشواهد ـ بإسناده ـ عن أبي مسعود الأنصاري، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «أكْثِرُوا من الصلاة عليَّ في يوم الجمعة، فإنه ليس أحدٌ يصلّي عليَّ يوم الجمعة، إلا عُرِضَت عليَّ صلاتُه».. وروى البيهقي ـ من هذه الشواهد ـ أيضاً ـ بإسناده عن أبي أمامة: قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «أكْثِروا عليَّ من الصلاة في كل يوم جمعة، فإن صلاة أُمَّتي تُعرَض عليَّ في كل يوم، فمَن كان أكثرَهم عليَّ صلاةً، كان أقربَهم مِنِّي منزلةً».. وسواء أكان الإنسان بجوار الضريح الشريف، أم كان بعيداً عنه، فإن صلاته تبلغ رسولَ الله ـ ﷺ ـ فلقد أخرج البيهقي في شُعَب الإيمان، والأصبهاني في الترغيب، عن

أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«مَنْ صلَّى عليَّ عند قبري سمِعْتُه، ومَن صلَّى عليَّ غائباً بُلِّغته».

ومن هذا القبيل: ما أخرجه الإمام البخاري في تاريخه، عن عمّار: قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول:

«إن لله تَعالى مَلكاً أعطاه أسماعَ الخلائق، قائمٌ على قبري، فما مِن أحدٍ يصلّي عليَّ صلاةً إلا بلَّغْتَها»..

ولقد أثبت الإمام القشيري، حياة الأنبياء بِعِدَّة طرق. وأورد أحاديثَ في ذلك. نذكر منها حديث عبد اللَّه بن مسعود، عن النبيّ ـ ﷺ ـ:

«إن لِلَّه ملائكةً سيَّاحين في الأرض، يبلّغوني عن أمتي السلام».

ويقول الإمام القشيري تعليقاً على الحديث: ولا يبلِّغ السلام إلاّ ويكون حيّاً».

وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه ابن ماجه بإسناد جيد، قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«أكثروا من الصلاة عليّ يوم الجمعة، فإنه مَشْهودٌ، تشهده الملائكة. وإن أحداً لن يصليَ عليَّ إلا عُرِضت عليّ صلاته حتى يَفْرغَ منها».. قال أبو الدرداء: قلت: وبعد الموت؟.. قال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجسادَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام»...

إن الأنبياء أحياءٌ في قبورهم، بشهادة رسول الله ﷺ لموسى عليه السلام، وبرؤيته الأنبياء، وحديثه معهم، وصلاته بهم..

أما الصلاة التي كانوا يصلّونها، فإنها لم تكن فرضاً وتكليفاً، وإنما

كانت شكراً وحمداً لله على نِعَمه، فليس في الآخرة تكليف، وإن كان فيها أيضاً تَرَقٍّ روحي لا ينتهي، لأن المدد الإلّهي لا ينتهي.. ولكلِّ درجةٍ من درجات هذا المدد، شعورٌ بالحمد والثناء على الله..

والله سبحانه يقول:

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)..

وقد يتساءل إنسان عن هذه الحياة بعد الموت.. أهي خاصة بالأنبياء؟.

ونقول: إن القرآن الكريم يثبتها - في يقين جازم - للشهداء..

يقول تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٢).

وبمناسبة هذه الآية، رَوَى الترمذي وحسّنه، وابن ماجة - بإسناد حسن أيضاً - والحاكم وقال: صحيح الإسناد - أن رسول الله - ﷺ - لما رأى جابر بن عبد اللّه مهتمّاً لاستشهادِ أبيه في غزوة أُحُد، قال له مطمئناً مبشّراً - ألَا أخْبِرك ما قاله الله لأبيك؟..

فقال جابر: بَلَى.

قــال ﷺ:

---

(١) يونس: ١٠.
(٢) آل عمران: ١٦٩ - ١٧٠.

«ما كلّمَ الله أحداً قطّ إلا مِن وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحاً ـ والكفاح: المواجهة ـ قال: سلني أعْطِكَ».

قال: أسألك أن أرَدَّ إلى الدنيا فأُقْتَلَ فيك ثانية..

فقال الرب عزّ وجل: إنه قد سبق منّي القول بأنهم إليها لا يرجعون..

قال: أي رب، فأبلغْ مَن ورائي: أي أبلغهم هذه النعمة الكبرى في الجنة التي يتقلب فيها الشهيد.. فأنزل الله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(١)

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾(٢). ويقول الإمام القشيري: «فأخبر ـ سبحانه ـ أن الشهداء أحياءٌ عند ربهم، فالأنبياء أولى بذلك، لتقاصُرِ رتبةِ الكافَّةِ عن درجة النبوّة». قال الله تعالى: ﴿ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾(٣). فرتبة الشهادة.. هي الدرجة الثالثة بعد النبوّة. ولقد وردت الأخبار الصحيحة، والآثار المروية، بما يدلّ على هذه الجملة.. وبمناسبة الآيات القرآنية الشريفة عن الشهداء، يقول ابن قيّم الجوزية: «إن الله تعالى عَزّى نبيَّه وأولياءَه عمّن قُتِل منهم في سبيله أحسنَ تعزيةٍ وألطَفَها وأدعاها إلى الرضا بما قضاه لهم. بقوله: ﴿ ولا تحْسَبنَّ ﴾.. الآيات»..

فجمع لهم ـ إلى الحياة الدائمة ـ منزلةَ القرب منه، وأنهم عنده. وَجَرَيَانُ الرزقِ المستمر عليهم، وفَرَحُهم بما آتاهم من فضله، فوق

(١) آل عمران: ١٦٩.
(٢) البقرة: ١٥٤.
(٣) النساء: ٦٩.

الرضا. . بل هو كمال الرضا. . واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم: يتمُّ سرورهم ونعيمهم. واستبشارهم بما يجدَّدُ لهم كل وقت، من نعمته وكرامته.

ولقد أخرج أحمد في مسنده، والطبراني بسند حسن، عن محمود بن لبيد، عن عباس مرفوعاً: «الشهداءُ على بارقِ نهرٍ بباب الجنة، في قبة خضراءَ: يخرج إليهم رزقهم من الجنة غُدْوةً وعشيَّةً».
وفي حياة الأنبياء والشهداء، يقول القرطبي:

«الموت ليس بعدمٍ محض، وإنما هو انتقالٌ من حال إلى حال». .

ويدلّ على ذلك أن الشهداء ـ بعد قتلهم وموتهم أحياء ـ يرزقون فرحين مستبشرين. . وهذه صفة الأحياء في الدنيا.

وإذا كان في الشهداء، فالأنبياء أحقّ بذلك وأولى. وقد صحَّ: «أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنه ـ ﷺ ـ اجتمع بالأنبياء ليلةَ الإسراءِ في بيت المقدس، وفي السماء. . ورأى موسى ـ عليه السلام ـ قائماً يصلّي في قبره، وأخبر ﷺ بأنه يردّ السلام على كل مَن يسلِّم عليه. . إلى غير ذلك مما يحصل من جملته القطع بأنَّ موتَ الأنبياء، إنما هو راجعٌ إلى أنهم غُيِّبوا عنّا، بحيث لا نُدركهم، وإن كانوا موجودين أحياء. وذلك كالحال في الملائكة. . فإنهم موجودون أحياء، ولا يراهم أحد ـ من نوعنا ـ إلا مَنْ خصَّه الله بكرامته من أوليائه»اهـ.

والفقهاء يتحدثون عن الشهداء في استفاضة. ومما أثاروه بهذه المناسبة مسألة سؤال القبر بالنسبة للشهيد. .

ولقد أفتى الإمام السيوطي: بأن سؤالَ القبر، ليس عامّاً للخلق، بل يُستثنى منه الشهيد. . ففي الحديث: أنه صلّى الله عليه وآله وسلم ـ

سُئل: أيُفْتَنُ الشهيد في قبره؟. . فقال: «كفى ببارقةِ السيوف على رأسه فتنة».

قال القرطبي في التذكرة، نقلاً عن الحكيم الترمذي: معناه أنه لو كان عنده نِفاق، لَفَرَّ عند التقاء الزحفين وبريق السيوف؛ لأن من شأن المنافق، الفرارَ عند ذلك. وشأن المؤمن: البذل والتسليم لله، فلما ظهر صدقُ ضميره، حيث برز للحرب والقتل، لم يعد عليه السؤال في القبر: الموضوعُ لامتحان المسلم الخالص، من المنافق.

قال القرطبي: وإذا كان الشهيد لا يفتن، فالصِّدِّيق من باب أولى، لأنه أجلّ قدراً.

وممّن يستثنى: المرابط. . فقد وردت فيه أحاديث، والمطعون، والصابر في بلد الطعن محتسباً وإن مات بغير الطاعون. صرّح به الحافظ ابن حجر في كتاب: «بذل الماعون».

وليست هذه الحياة البرزخية، للأنبياء والشهداء فحسب، وإنما هي لجميع الناس حتى الكفَّار منهم.

على أن القرآن والسنّة: يشيران إلى حياة الكفّار بعد الموت قبل القيامة.

يقول تعالى عن آل فرعون:

﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾(١). ولا ريب في أن النار التي يعْرَضون عليها، ليست نارَ يوم القيامة، فما في القيامة غُدوٌّ وعَشِيٌّ. . وما فيها شروق وغروب.

ثم إن العطفَ يقتضي المغايرة. . ومنطوق الآية: «أن آل فرعون

(١) غافر: ٤٦.

يعرضون على النار في الصباح وفي المساء، يرَون مكانهم فيها، ومصيرهُم الذي سيصيرون إليه.. حتى إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ آمراً:

﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾[1]. أدخِلوهم بعد أن كانوا يُعرَضون غدواً وعشياً، أدخلوهم إلى إقامة مستمرة»..

على أن حادثة أصحابِ القليب، معروفة مشهورة.. رواها الإمام البخاري بعدة روايات، ورواها غيره بعدة روايات أيضاً.

من هذه الروايات: الرواية الآتية عن البخاري:

حدّثنا عبد اللّه بن محمد: سمع روح بن عبادة، حدّثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة قال: ذكر لنا أنس بن مالك، عن أبي طلحة، أن رسول الله ـ ﷺ ـ أمَرَ يوم بدرٍ بأربعةٍ وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فَقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث. وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال. فلما كان ببدر اليوم الثالث، أمر براحلته فشدّ عليها رحلها؛ ثم مشى وتبعه أصحابه وقالوا:

ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركى.. فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان.. أيَسرّكمْ أنكم أطعتم الله ورسوله؟.. فإنّا قد وَجَدْنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟. فقال عمر: يا رسول الله: مَنْ تُكلِّم مِن أجسادٍ لا أرواح فيها:. فقال النبيّ ﷺ: «والذي نفْس محمد بيده، ما أنتم بأسمَعَ لما أقولُ منهم».

هذه الروايات كلها، تتكاتف وتتساند، مع الأحاديث التي رويت في عذاب القبر ونعيمه، والتي تخبر أن القبر إما روضةٌ من رياض الجنة، أو حفرةٌ من حفر النار، فتدلّ ـ بمجموعها ـ على أن كل إنسان إذا فارق

(١) غافر: ٤٦.

الدنيا، فإنما انتقل من طور إلى طور، وإنه إذا كان الجسم سيبلى، فإن الروح ـ مركز الشعور والإحساس والفكر ـ باقيةُ: تحِسُّ وتشعر وتفكر..

وعن المؤمنين عامة، يحسن أن نورد القصة التالية:

أخرج البيهقي في البعث، والطبراني ـ بسند حسن ـ عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: لما حضَرت كعباً الوفاةُ، أتته أُم بشر بنت البراء، فقالت: يا أبا عبد الرحمن، إن لقيتَ بِشراً فأقرئه منّي السلام، فقال لها: يغفر الله لكِ يا أُم بشر.. نحن أشغل من ذلك.. فقالت:

أما سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إن نسمة المؤمن تسرح الجنة حيث شاءت، ونسمة الكافر في سجِّين؟. قال: بلى.. قالت: فهو ذاك.

أما الحديث الذي صحّحه أبو محمد عبد الحق، فهو ما رواه ابن عبد البرّ في: الاستذكار والتمهيد، من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «ما مِن أحدٍ يمرّ بقبر أخيه المؤمن: كان يعرفه في الدنيا، فيسلّمُ عليه، إلا عَرَفَه، وردّ عليه السلامَ».. لعلّ السؤال الملحّ فيما نحن بصدده هو: ما نوع هذه الحياة التي يحياها الأنبياء والشهداء، وغيرهم؟.

ومن أجل الإجابة على هذا السؤال، نورد ما ذكره ابن قيّم بهذا الصدد في كتابه النفيس «الروح». «إن الله سبحانه وتعالى جعل الدور ثلاثة: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وجعل لكل دار أحكاماً تختصّ بها، وركّب هذا الإنسان من بَدَنٍ ونفْس، وجعل أحكامَ دار الدنيا على الأبدان، والأرواحُ تبعٌ لها.. ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فكما تبعت

الأرواحُ الأبدانَ في أحكام الدنيا فتألمت بألمها، والتذَّتْ براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب ـ تبِعت الأبدان الأرواحَ في أحكام دار البرزخ: في نعيمها وعذابها، والأرواح ـ حينئذ ـ هي التي تباشر العذاب والنعيم.. فالأبدان هنا[1] ظاهرة، والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها.. والأرواح هناك[2] ظاهرة، والأبدان خفيّة في قبورها.. فتجري أحكام البرزخ على الأرواح، فترى إلى أبدانها نعيماً وعذاباً، كما تجري أحكام الدنيا على الأبدان، فترى إلى أرواحها نعيماً وعذاباً. فأحِطْ بهذا الموضوع علماً وأعرِفْه كما ينبغي، يَزُلْ عنك كلّ إشكال يورَدُ عليك من داخل وخارج.

وقد أرانا الله ـ سبحانه ـ بلطفه ورحمته وهدايته من ذلك أُنموذجاً في الدنيا، من حال النائم؛ فإنَّ ما ينعم به أن يُعذَّب في نومه، ويجري على روحه أصلاً، والبدن تبع له.. وقد يقوى حتى يؤثر في البدن تأثيراً مشاهداً فيرى النائم أنه في نومه ضُرِب، فيصبح وآثار الضرب في جسمه، ويرى أنه قد أكَلَ وشرب. فيستيقظ وهو يجد أثر الطعام والشرب في فيه، ويذهب عنه الجوع والظمأ.

وأعجب من ذلك أنك ترى النائم قد يقوم من نومه، ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان، وهو نائمٌ لا شعور له بشيء من ذلك؛ لأن الحكم لما جرى على الروح، استعانت بالبدن من خارجه، ولو دَخَلَتْ فيه لاستيقظَ وأحسَّ..

فإذا كانت الروح تتألم وتتنعم، ويصلُ ذلك إلى بدنها بطريق الاستتباع، فهكذا في البرزخ.. بل أعظم، فإن تجرُّدَ الروح هناك،

---

(١) في الدنيا.

(٢) في البرزخ.

أكمل وأقوى. . وهي متعلقة ببدنها لم تنقطع عنه كل الانقطاع. .

فإذا كان يوم حشر الأجساد، وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد ظاهراً بادياً، ومتى أعْطَيْتَ هذا الموضع حقه، تبين لك أن ما أخبرَ به الرسول ـ من عذاب القبر ونعيمه، وضيقه وسعته؛ وضمّه للأجسام، وكونه حفرة من حفر النار، أو روضة من رياض الجنة ـ مطابق للعقل، وأنه حقٌّ لا مِرْية فيه. . وأن مَنْ أشكَلَ عليه ذلك، فمن سوء فهمه، وقلّة علمه. . اهـ.

أما بعد: فإنّا نختم هذا البحث بكلمة يقولها حجة الإسلام الإمام الغزالي عن تجربة شخصية: يؤيد ما هو واضح من بدهيات الجو الإسلامي، في هذا الموضوع، وهي كلمة تعبّر عن رأي جميع الصوفية، وجميع فلاسفة الإشراق:

ومن أولِ الطريق، تبتدىء المكاشفات والمشاهدات، حتى إنهم ـ في يقظتهم ـ يشاهدون الملائكة، وأرواحَ الأنبياء، ويسمَعُون منهم أصواتاً، ويقتبسون منهم فوائد. . ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق.

* * *

ـ ٢ ـ
الصـــــلاة

ونعود إلى رحلة الإسراء. ماذا بعد رمز الجهاد؟

. . . ثم أتى رسول الله ـ ﷺ ـ على قومٍ تُرضخ رءُوسهم بالصخر، وكلما رُضخت عادت كما كانت: لا يفتر عنهم من ذلك شيء. . فقال:

ما هذا يا جبريل؟.. قال: هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة..

***

أتى دور الفروض الدينية، وبدأت هذه الفروض بالصلاة..

والصلاة هي الركن الثاني في الإسلام.. منزلتها تأتي بعد الإيمان بالله وبرسوله.. إن الرحلة المباركة، ترسم الماضي والحاضر والمستقبل.. إنها ترسم الحياة الإسلامية، في جميع أدوارها الزمنية في جانب العقيدة والأخلاق منها.. والصلاة - في الوضع الإسلامي - عماد الدين، فمَن أقامها فقد أقام الدين ومَن هدمها فقد هدم الدين.. ومثلها في حياة المسلم، كمثل نهرٍ جارٍ غمر[1] على باب أحدكم،- على حدّ تعبير رسول الله - ﷺ - يغتسل منه كل يوم خمس مرات.. وعن عبد اللّه بن قرط - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «أوَّلُ ما يحاسَب به العبدُ يوم القيامة: الصلاة، فإن صَلُحَت صَلُح سائرُ عملِهِ، وإن فَسَدت فَسَد سائر عمله»[2].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «لا إيمانَ لِمَنْ لا أمانةَ له، ولا صلاةَ لَمَن لا طَهُورَ له، ولا دين لمَن لا صلاةَ له. وإنّما موضع الصلاة من الدين، كموضع الرأس من الجسد»[3]. إن الرسول ﷺ - رأى يوماً - فيما يراه النائم - تمثيلاً لتارك الصلاة، يشبه التمثيلَ الذي تقدم. يقول صلوات الله وسلامه عليه:

«... فانطلقتُ فمررتُ على مَلَكٍ وأمامَه آدميٌّ، وبيد المَلَكِ صخرةٌ يضربُ بها هامة الآدميِّ، فيقعُ دِمَاغُه جانباً، وتقع الصخرةُ

(١) الغمر: الكثير الماء.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط، لا بأس بإسناده إن شاء الله.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط والصغير، وقال: «تفرّد به الحسين بن الحكم الحبرى».

جانباً». . ولما سأل ـ ﷺ ـ عن ذلك، قيل له: أولئك الذين كانُوا ينامُون عن صلاةِ العشاء الآخِرَة، ويُصَلُّون الصلاةَ لغير مواقيتها، فهم يُعَذَّبون بها حتى يصيروا إلى النار. .

يقول الإمام القشيري: سمعتُ الأستاذ: أبا علي الدقّاق ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن نبيّنا عليه السلام ـ أتى للأمة بالمعراج على التحقيق، فإن الصلاة لنا بمنزلة المعراج. وقد كان المعراج له عليه السلام ثلاثَ منازل:

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم من المسجد الأقصى إلى سدرة المنتهى، ثم منها إلى قاب قوسين أو أدنى. .

فكذلك الصلاة ثلاث منازل:

القيام، ثم الركوع، ثم السجود ـ قال الله تعالى:

﴿ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ﴾(1).

ـ ٣ ـ
الـــزكاة

وتأتي الزكاة بعد الصلاة في ترتيب منهج الحياة الذي نحن بصدده. .

---

(١) العلق: ١٩.

١ ـ من شعر الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح في هذه المعاني:

فُرض الصلاة عليه خمساً قدرها ... خمسون إن أحسنتهنّ أداء
فُرضت علينا في السماء لحكمة ... هل نستطيع لكنهها استجلاء
كي نذكر المعراج في صلواتنا ... ونرى بها شرفاً لنا وعلاء
وتطير في أجوائها أرواحنا ... صُعُداً لتدرك في السماءِ رجاء
كي نهجر الأكوانَ حين نقيمها ... ونعدَّ أنفسنا بها سعداء
ونَجِدَّ فيها في السُّرى حتى نرى ... صبحَ النجاةِ فنحمَدَ الإسراء

لقد أتى رسول الله - ﷺ - على قومٍ، على أقبالهم رقاع، وعلى أدبارهم رقاع: يسرحون كما تسرح الأنعام: يأكلون الضريعَ والزُقُّومَ، ورضفَ جهنم.. فقال: ما هؤلاء؟.. فقال جبريل عليه السلام: هؤلاء الذين لا يؤدون زكاةَ أموالهم، وما ظلمهم الله، وما ربك بظلامٍ للعبيد..

والزكاة: هي الركن الثالث من أركان الإسلام.. ولقد حارب عليها سيّدنا أبو بكر - رضي الله عنه -، وذلك أنه حينما انتقل الرسول - ﷺ - إلى الرفيق الأعلى، قال بعض القبائل من الأعراب.. إنّا نشهد أن لا إلّه إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وسنستمر نؤدي الصلاة، ونصوم رمضان، ونحج.. أما الزكاة فإنها مادةٌ ومالٌ، ولا شأن للدين بذلك؛ وأعلنوا الامتناع عن أدائها.. وكان هذا أولَ تفكيرٍ منحرف من بعض المسلمين - في الإسلام: يهدف إلى فصل الدين عن الدنيا أو المادة، أو بالتعبير الحديث - يهدف إلى فصل الدين عن الدولة.

فقال سيّدنا أبو بكر: سأحاربكم.. إنه سيحارب مَن أراد فَصْلَ الدين عن الدولة..

فقيل له: كيف تحارب مَن يشهد أن لا إلّه إلّا الله، وأن محمداً رسول الله؟..

فكانت إجابته: إن الشهادتين لهما حقوق، إذا امتنع إنسان عن أدائها، فإنه يحارب عليها.. وإنَّ من حقوق الشهادتين أداءَ الزكاة..

رَوَى الإمام البخاري - رضي الله عنه -، عن أبي هريرة - نضّر الله وجهَه - قال:

«لما تُوفِّيَ رسول الله - ﷺ -، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - وكَفَرَ مَن كفر من العرب - بسبب عدم إخراجهم الزكاة، وامتناعهم عن تأديتها - فقال عمر - رضي الله عنه -: كيف تقاتل الناس؛ وقد قال

رسول الله ـ ﷺ ـ:

«أُمِرْت أن أقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: «لا إله إلاّ الله». . فمَن قالها فقد عَصَمَ منّي مالَه ونفسَه إلاّ بحقه. وحسابُه على الله». .

فقال: واللَّهِ، لاقاتلَنَّ مَن فَرَّق بين الصلاة والزكاة؛ فإن الزكاة حق المال ـ والله، لو منعوني عَنَاقاً[1] كانوا يؤدّونها إلى رسول الله ـ ﷺ ـ لقاتلتهم على منعها». .

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «فوالله، ما هو إلا أن شرح الله صدر أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ للقتال، فعرفت أنه الحق». .

من هذا الحديث الشريف، نعلم أن مانع الزكاة ـ بهذا الوضع وعلى هذه الصورة ـ كافر، وأنه يحارب حتى يؤديها وإلا قُتِل. .

وقد حارب سيّدنا أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ مانِعي الزكاة؛ لأنه رأى أنّ الامتناعَ عن الزكاة ـ إنكارٌ لها ـ ارتدادٌ عن الإسلام. . ولم ينفعهم ـ فيما رأى سيّدنا أبو بكر، وفيما رأى الصحابة معه ـ صلاةٌ أو صيامٌ، أو غير ذلك من الشعائر الإسلامية. .

ذلك أن الزكاة ركن من أركان الإسلام، والامتناع عن أدائها إنما هو هدم لركنٍ من أركان الدين. .

إنها الركن الثالث: يدفعها مَن تجب عليه لمستحقيها، «لِيُحييَ بها نفوساً، ويُشْبعَ بها بطوناً، ويمسحَ بها دموعاً، ويُزيلَ بها آلاماً، وينالَ بها ثواباً وأجراً من الله».

وما من شك في أن الزكاة رابطةٌ بين الإنسان وربه. . إنها رابطة

---

(١) أي شاة صغيرة، وفي رواية أخرى (عقالًا) والمقصود أي شيء ولو كان يسيراً.

رضوانٍ من الله، وأجرٍ وثوابٍ، ونماءٍ وبركة.. ورابطة شكرٍ من الإنسان لله تعالى، على ما أنعم به وتفضّلَ وأحْسَنَ وأكرَمَ..

وهي - من ناحية أخرى - رابطةٌ بين الإنسان وأفراد المجتمع الذي يعيش فيه.. رابطة مودّة وتعاطف وتراحم..

وقد أنذر الله تعالى، الممتنعَ عن أدائها وتوعّده بعذاب أليم..

أما الذي يؤدّيها، فقد ذكره الله سبحانه وتعالى، فيمن رضي عنهم، وأجزل لهم ثوابه.. يقول سبحانه:

﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾(٢).

- ٤ -

الصـــــدقة

وبجوار الزكاة، يحسن الحديث عن الصدقة، وسواء كنّا بصدد الزكاة، أو بصدد الصدقة، فإن الله سبحانه وتعال يقول:

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ

---

(١) الليل: ١٤ - ٢١.

(٢) آل عمران: ١٨٠.

﴿فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1]. ويقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[2].

ويقول سبحانه: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

لقد رأى رسول الله - ﷺ - صورة الممتنعين عن الزكاة، ورأى - أيضاً - فيما يراه صورة آكلِي الرِّبا. ورأينا أن نتحدث عن الربا بعد الحديث عن الزكاة والصدقة مباشرة، لما بينهما من فرقٍ: هو الفرق بين الخير والشر..

فالزكاة والصدقة منح وعطاء. والربا أخذٌ وسلْب.

- ٥ -
الــــــربا

فقد رأى رسول الله - ﷺ - نهراً من الدم: يفور كفورانِ المِرْجل، وعلى حافتي النهر ملائكة بأيديهم نار، كلما طلع طالعٌ قذفوه بها، فيقع في فيه، فيشتعِلُ إلى أسفلِ ذلك النهر، فلما سأل رسول الله - ﷺ - عنهم، قيل له: أولئك الذين أكلوا الرِّبا فهم يعذَّبون بها، حتى يصيروا إلى النار.

أما في رحلة الإسراء والمعراج، فإنه - ﷺ - مَرَّ بقوم بطونهم أمثال

(١) البقرة: ٢٦١.
(٢) الليل: ٥ - ١١.
(٣) سبأ: ٣٩.

البيوت، كلما نهض أحدهم خرّ على الأرْض، فلما سأل عنهم جبريل، قال: هم أكَلَةُ الرِّبا.

وللصورة البشعة للربا، آذن الله سبحانه المتعاملين به بالحرب..

لقد آذن الله بالحرب صنفين من الناس:

١ ـ أكَلَة الربا.

٢ ـ المعادين لأولياء الله. أعلن الحرب على أكَلَة الربا في القرآن الكريم: ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(١).. وأعلن الحرب على مَن عادى الأولياء، في الحديث القدسي، الذي رواه الإمام البخاري:

«مَنْ عَادَى لي وليّاً فقد آذنتُهُ بالحرب»..

ورمز المرابي لي ليلة الإسراء، رجل يسبح في بحرٍ من الدم، ويلقى في فمه قطع من النار يبتلعها..

«إنه يسبَحُ في الدماء التي امتصَّها ممّن تعامَلَ معهم، وما أخَذَ من قطع النقود تلتهب ناراً: تصير في جوفه: تحترق وتشتعل فيها..

ولا ريب أن الطرف المعارض للصدقة وللزكاة ـ الطرف الذي يبغضه الله، ويبغض المتعاملين به ـ هو الربا..

ولقد حارب الإسلام الربا حرباً لا هوادة فيها: حاربه لأنه مبدأ ليس بإنساني، واستعمل في محاربته من التعبير أقساه..

لقد حاربه في جملته وتفصيله، يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾(٢).. والمتعاملون بالربا: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا

(١) البقرة: ٢٧٩.
(٢) البقرة: ٢٧٥.

خَٰلِدُونَ ﴾[1]. . والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[2]. . ولكنه سبحانه وتعالى، يفتح للمتعاملين بالربا أبواب توبته. . يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾[3].

ومما لا شك فيه: أن الربا ـ على أية صورة من صوَره ـ يتعارض مع الروح الدينية العامة، التي هي الرحمة، والتعاون. . ونذكر في نهاية الحديث عن الصدقة والربا والزكاة: قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4]. .

وفي هذه الآية الكريمة يشير الله سبحانه، إلى أن الشحَّ والبخلَ وعدمَ الإنفاق في سبيل الله، إنما هو إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة. .

ويقول سبحانه: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴾[5].

وفي هذه الآية الكريمة، يرشد الله سبحانه وتعالى، إلى أن أصحاب الأموالِ قد استخلفهم الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ماله هو، وأنهم مجرد مستخلفين. وهذا يشير إلى أنهم إذا أساءوا، فإنه يرفع استخلافَهم على المال، فيصبحون ولا مَالَ لهم.

---

(١) البقرة: ٢٧٥.
(٢) البقرة: ٢٧٦.
(٣) البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩.
(٤) البقرة: ١٩٥.
(٥) الحديد: ٧.

ويقول سبحانه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾[1].

إنه سبحانه وتعالى، يضاعِفه له في الحياة الدنيا، ثم يجزِل له الأجر:

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[2].

ـ ٦ ـ
الثبات على العقيدة

نقلتنا هذه الرحلة المباركة: من التوبة إلى الجهاد مباشرة، ثم كانت الصلاة والزكاة ممثلتين لبقية فروض العبادة..

وقد تحدّثت الرحلة عن أنواع من الآثام، باعتبارها ممثّلة لما عداها، وأن الله سبحانه، يحاسب عليها وعلى غيرها من المعاصي، إذا لم يبادر الإنسان بالتوبة الخالصة النَّصوح..

وقبل أن نبدأ في ذكر هذه الآثام، نتحدث عن قوة الإيمان، وثبات المؤمنين، والتمسك بالعقيدة، حتى ولو أدّى ذلك إلى الموت على أيّ كيفية.. إن الشهداءَ ـ من أجل عقيدتهم ـ لهم رائحة زكية: تستمر حتى يومِ القيامة.. وإن الرائحة الزكية التي تنبعث من الأماكن التي استشهدوا فيها، والأماكنِ التي وقفوا فيها، لتدلّ دلالةً واضحة، على أنهم في رياض الجنة، مُحاطين بروح من نسماته، ومن رحمته.

(١) الحديد: ١١.
(٢) الحديد: ١٢.

لقد شمّ رسول الله ـ ﷺ ـ في مسراه رائحةً طيبة.

فقال: «ما هذا يا جبريل»؟. قال: هذه رائحة ماشطةِ بنتِ فرعون وأولادها..

أما قصتهم فهي كما يلي: لقد شمّ رسول الله ـ ﷺ ـ الرائحة الطيبة، وسأل عنها جبريل، فأخبره أنها رائحة ماشطةَ بنتِ فرعون وأولادها: بينما تمشُط بنتَ فرعون، إذ سقط المشط من يدها.

فقالت: باسم الله، تَعِسَ فرعون. فقالت ابنة فرعون، أوَلَكِ؟؟ رب غير أبي؟.. قالت: نعم.

قالت: فأخبِر بذلك أبي؟. قالت: نعم. فأخبرَتْه، فدعاها، فقال: أولَك رب غيري؟.

قالت: نعم، ربّي وربك الله، وكان للمرأة زوج وثلاثة أولاد، أصغرهم رضيع. فأرسلَ إليهم، فراود المرأة وزوجها أن يرجعَا عن دينهما، فَأَبَيَا ـ فقال: إني قاتلكما. قالت: إحساناً منك إلينا ـ إن قتلتنا ـ أن تجعلنا في مكان واحد، فتَدْفِنَنَا فيه جميعاً. فقال: ذاك لكِ، بما لكِ علينا من الحق. فأمر ببقرة من نحاس، فَأحْمِيت بزيت، ثم أمَرَ بهم فألقوا فيها واحداً واحداً حتى بلغ الرضيعَ ـ وكانت أمه تحمله ـ ولشفقتها عليه تلكَّأتْ، وكادت ترجع لموافقة فرعون.. فقال: يا أمَّه، قَعي ولا تَقَاعَسي،.. فأنكِ على الحق فكان هذا الرضيع ممَّن تكلموا في المهد، خرقاً للعادة.

وإنّا لنا في تاريخنا الإسلامي مواقفَ مشهورةً مشهودة: وقف فيها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مواقفَ مَن لا يُبالي على أيِّ جنبٍ كان في الله مصرعُه..

ففي غزوة بدر: استشار رسول الله ـ ﷺ ـ الصحابة في الجهاد، فقام المقداد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ وكان من المهاجرين، فقال: «يا رسول الله، امضِ لما أراكَ الله، فنحن معك.. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾[1]. ولكن: «اذْهَبْ أنتَ وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سِرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك دونه حتى تبلغـه»..

وقام سعد بن معاذٍ ـ رضي الله عنه ـ، وكان من الأنصار، فسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عمّا إذا كان يعني الأنصار باستشارته هذه؟ فلما أجاب رسول الله ـ ﷺ ـ بالإيجاب، قال:

«لقد آمنّا بك وصدَّقناك، وشهِدنا أن ما جئتَ بـه هو الحقُّ، وأعطيناك على ذلك عهودَنا ومواثيقَنا على السمع والطاعة.. فامضِ يا رسـول الله لما أردتْ، فنحن معـك.. فوالـذي بعثك بـالحق، لو استعْرَضْتَ بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك.. ما تخلَّف منّا رجلٌ واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً.. إنا لصُبرٌ في الحروب صُدقٌ عند اللقاء، لعلَّ الله يريك منّا ما تَقَرّ به عينك، فسِرْ على بركة الله».

ـ ٧ ـ
الـــرموز الخاصة باللسان

يقول العرب: «مقتَل الرجلِ بين فكَّيه».

ومن المعروف: أنه مما يكب الناسَ على وجوههم في جهنم؛ إنما هي حصائد ألسنَتهم..

ولقد حذَّر الله سبحانه ـ في كثير من آي القرآن ـ من آثام اللسان،

(١) المائدة: ٢٤.

وحذر رسوله ﷺ ـ في كثير من الأحاديث النبوية ـ عن آثام اللسان..
يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾(1).

ويصوّر القرآن مثل المغتاب في صورة بالغة الشناعة: يقول تعالى:

﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾(2).

فقد مثّل الله سبحانه الاغتياب، بأكل لحم الإنسان. وجعل المأكول أخاً. وجعل الأخ ميتاً. وعقب على ذلك بقوله: ﴿ فكَرِهتموه ﴾.

ولقد نالت آثام اللسان في رحلة الإسراء، قدراً موفوراً من التشبيه والتمثيل..

١ ـ لقد أتى رسول الله ـ ﷺ ـ على قومٍ تُقْرَضُ ألسِنَتهُم وشِفَاهُهم بمقاريضَ من حديد. كلما قرِضت، عادت كما كانت. لا يفتر عنهم من ذلك شيء، فقال: ما هذا يا جبريل؟.

قال: هؤلاء خطباء الفتنة: خطباء أمتك، يقولون ما لا يفعلون.

٢ ـ وَأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثورُ يريد

---

(1) الحجرات: ١١.
(2) الحجرات: ١٢.

أن يرجعَ من حيثُ خرجَ فلا يستطيع. فقال: ما هذا يا جبريل؟.

قال: هذا مَثَلُ الرجلِ يتكلم بالكلمة العظيمة، ثم يندم عليها، فلا يستطيع أن يردَّها.

٣ ـ ورأى قوماً أظفارهم من نحاسٍ: يخمشون بها وجوههم وصدورَهم.

فقال: مَن هؤلاء يا جبريل؟.

قال: هؤلاء الذين يأكلون لحومَ الناس ويَقَعُون في أعراضهم.

٤ ـ ورأى قوماً تُقطَّع لحومهم من جُنوبهم، وتُطعم لهم كَرْهاً، فقال: مَن هؤلاء يا جبريل؟.

قال: هؤلاء مثل الغمّازين والهمّازين واللمّازين.

٥ ـ وفي إحدى رؤاه ـ ﷺ ـ رأى مَلكاً، وبين يديه آدميٌّ، وبيد الملك كلوبٌ من حديد.. فيضَعه في شِدقِه الأيمن، فيشقه حتى ينتهي إلى أُذنه، ثم يأخذ في الأيسرِ فيلتئمُ الأيمن.. فلما سأل جبريل عنه، قال له:

«أولئك الذين كانوا يمْشون بين المؤمنين بالنَّميمة؛ ليفرِّقوا بينهم، فهم يعذَّبون بها حتى يصيروا إلى النار».

ـ ٨ ـ
آثــــام الجوارح

والجريمة الكبرى: الجريمة الأساس. إنما هي الإلحاد. يقول سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾(١).

وقد وضع الله سبحانه وتعالى للملحدين تمثيلاً في القرآن الكريم: بيّن فيه العلل والأسباب، وأوضح فيه النتائج، وأسفر عن الصورة صارخة، واضحة، لا يحجبها قناع.. يقول سبحانه:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ﴾(٢).

وجرائم الجوارح: ذكر الله سبحانه وتعالى، كثيراً منها في قوله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣).

---

(١) الكهف: ١٠٣ - ١٠٦.

(٢) الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) الأنعام: ١٥١ - ١٥٣.

ولقد ذكرت الرحلة المباركة، بعضَ الرموز التي تمثِّل آثامَ الجوارح ذكرت البعض ولم تذكر الكل.. وذلك أنها ما كانت بصدد الإحصاء والاستقصاء..

١ ـ من ذلك مثلاً: أن رسول الله ـ ﷺ ـ أتى على قومٍ بين أيديهم لحمٌ نضج في قِدر، ولحم نيء خبيث، فجعلوا يـأكلون من النيء الخبيث، ويَدَعون النضيج.. فقال: ما هؤلاء يا جبريل؟.

قال: هذا الرجل من أمتك: تكون عنده المرأة الحلال الطيبة؛ فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها، حتى يصبح.. والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيِّباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت عنده حتى تُصبح.. والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

٢ ـ ثم أتى على رجلٍ قد جمع حزمةَ حطبٍ عظيمةً، لا يستطيع حملَها، وهو يزيد عليها.. فقال: ما هذا يا جبريل؟.

قال: هذا الرجل من أمَّتك: تكون عليه أمانات الناس: لا يقدر على أدائها، وهو يريد أن يحمل عليها.

ورسول الله ـ ﷺ ـ يقول:

«لا إيمانَ لمَن لا أمانَةَ له»..

٣ ـ وفي حديث أبي سعيد: أنه رَأى أخوِنة عليها لحمٌ طيب، ليس عليها أحد، وأخرى عليها لحم نتنٌ: عليها ناس يَأكلون..

---

(١) النور: ٢.

قال جبريل: هؤلاء الذين يتركون الحلاَلَ، ويأكلون الحرام.

٤ ـ وأنه مرَ بقومٍ مشافرهم كالإبل: يلتقمون جمراً، فيخرجُ من أسْفَلِهِم، وأن جبريل قال عنهم: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً.

أما جزاء أصحاب الآثام إذا لم يتوبوا، فهو دخولهم في جهنم، حيث العذاب ألواناً.

وعن جهنم نقول: إن رسول الله ـ ﷺ ـ أتى على وادٍ، فسمع صوتاً منكراً، ووجد ريحاً منتنةً.

فقال: ما هذا يا جبريل؟.

قال: هذا صوت جهنم تقول:

رب آتني ما وعدتني، فقد كَثَرت سلاسلي وأغلالي، وسعيري وحميمي وضريعي وغساقي، وعذابي.. وقد بَعد قعري، واشتد حَرِّي، فأتِني ما وعدتني».

قال: لك كلُّ مشركٍ ومشركةٍ، وكافرٍ وكافرةٍ، وكلُّ جبّار لا يؤمن بيوم الحساب.

قالت: قد رضِيت.

* * *

ـ ٩ ـ
الــــوصول إلى بيت المقدس

ووصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيت المقدس..

وفي رواية أنس عند مسلم:

«ثم دخلتُ المسجد، فصلّيت فيه ركعتين؛ ثم خرجت، فجاءني جبريل عليه السلام، بإناء من خمر، وإناء من لَبن. . فاخترت اللبن.

فقال جبريل: اخترت الفطرة، أي اخترت اللبن الذي عليه بنيت الخلقة.

وقال النووي: المراد بالفطرة هنا: الإسلام والاستقامة.

والخمر - في التعبير الإسلامي - هي أُم الخبائث. وأخبر الله سبحانه وتعالى أنها رجس من عمل الشيطان.

وقد لعن الله: شاربها وبائعها وحاملها والمحمولة إليه، ولعن: عاصرَها، والمتّجرَ فيها، على أيّ وضع كان.

والبيرة من أنواع الخمور، وكل ما أسكر كثيره فقليله حرام. .

وفي رواية ابن مسعود نحوه - أي نحو رواية أنس السابقة - ثم دخلتُ المسجد فعرفت النَّبِيِّين: ما بين قائم وراكع وساجد. . ثم أذَّن مؤذّن، فأُقيمت الصلاة، فقمنا صفوفاً: ننتظر مَن يؤمنا: فأخذ بيدي جبريل، فقدَّمني، فصلّيت بهم.

وفي رواية أبي أمامة عند الطبراني: ثم أُقيمت الصلاة، فتدافعوا، حتى قدِموا محمداً - ﷺ -.

- ١٠ -
عند سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى

ثم عرِج به - ﷺ - إلى السموات العلا، فتجاوزها سماءً سماءً: حتى تجاوز الكون كله، وكان عند سدرة المنتهى: عندها جنة المأوى. . الجنة التي يأوي إليها المتّقون من عباد الله. . وشم رسول الله - ﷺ -

ريحاً طيبة باردةً كريح المسك، وسمع صوتاً:

فقال: «ما هذا يا جبريل؟.

قال: هذا صوت الجنة، تقول: ربِّ آتِني ما وعدتَني به، فقد كَثَرَ غرفي واستبرقي، وحريري وسندسي، وعبقري ولؤلؤيّ، ومرْجاني وفِضتي، وذهبي وأكوابي، وصِحافي وأباريقي، ومراكبي وعسلي ومائي ولبني وخمري.. فآتني بما وعدتني..

قال: لكِ كل مسلمٍ ومسلمةٍ، ومؤمنٍ ومؤمنةٍ، ومَن آمن بي وبرسلي، وعمل صالحاً، ولم يشرك بي شيئاً، ولم يتخذ من دوني أنداداً. ومَن خشِيَني، ومَن سألني فقد أعطيته، ومَن أقرضني جازيته، ومَن توكّل عليّ كفيته.. إنني أنا الله لا إله إلّا أنا: لا أخْلِف الميعاد.. قد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحسن الخالقين..

قالت: قد رضيت».

- ١١ -
إذ يغشى السدرة ما يغشى

في إبهام «ما يغشى» من التفخم، ما لا يخفى..

فكأن الغاشِيَ أمرٌ لا يحيط به نطاق البيان، ولا تسعه أردان الأذهان.

وصيغة المضارع لحياة الحال الماضية، استحضارٌ لصورتها البديعة، وجوز أن يكون للإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدّد.

وورد في بعض الأخبار، تعيين هذا الغاشي.

فعن الحسن:

«غشيها نور ربِّ العزةِ جلّ جلاله».

ونحوه ما روي عن أبي هريرة:

«يغشاها نور الحقِّ سبحانه»(١).

المشـــــاهدة

يقول الله تعالى:

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾(٢).

ويقول الإمام ابن حجر:

«وقد أخرجَ الأمَوِيُّ في مغازيه، عن طريق البيهقي عن محمد بن عمرو. وعن أبي سلمة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴾(٣).. قال: دنا منه ربّه..

يقول الإمام ابن حجر: وهذا سند حسن. وهو شاهد قوي لرواية شريك، ويكون المعنى على غرار: ﴿ ينزل ربنا ﴾..

ثم نسأل: هل رأى محمد ـ ﷺ ـ ربه؟.. هل شاهد الجلال والجمال؟.

نقول أولاً: إن الإمام الصاوي ذكر بمناسبة تفسير قوله تعالى:

﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ۝١٦٤ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ۝١٦٥ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴾(٤).

---

(١) عن الألوسي.

(٢) النجم: ٨ ـ ٩.

(٣) النجم: ١٣.

(٤) الصافات: ١٦٤ ـ ١٦٦.

إن هذه الآياتِ، حكايةٌ عن اعتراف الملائكة بالعبودية، ردّاً على عَبَدتهِمْ. . والمعنى: ليس منّا أحد إلا له مقام معلوم في المعرفة والعبادة، وامتثال ما يأمرنا الله تعالى به.

قال ابن عباس: «ما في السموات موضع شبر، إلا وعليه مَلكٌ يصلّي ويسبّح»، ثم يقول الإمام الصاوي:

قيل: إن هذه الآياتِ الثلاثَ، نزلت ورسول الله ـ ﷺ ـ عند سدرة المنتهى، فتأخَّر جبريل، فقال النبيّ ـ ﷺ:

«أهنا تفارقني»؟.

فقال جبريل: ما أستطيع أن أتقدم من مكاني هذا. .

وأنزل اللّهَ تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1].

«وقف جبريل، واقترب محمد». .

لقد ذهب غير واحد في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[2].

إلى أنه في أمر العروج إلى الجناب الأقدس، ودنوّه سبحانه منه ـ ﷺ ـ.

ثم عَلَا فوقَ ذلك، بما لا يعلمه إلا الله، حتى جاء سدرةَ المنتهى، فأوحى الله إليه فيما أوحى خمسين صلاة. . الحديث. . فإنه ظاهر فيما ذكر. .

يقول العلّامة الطيبي، فيما يرويه الإمام الألوسي:

«ولا يخفى على كل ذي لب، إباء مقام: ﴿فأوحى﴾. . الحمل

(١) الصافات: ١٦٤.
(٢) النجم: ٨ ـ ١٠.

على أن جبريل أوحى إلى عبد اللّٰه ﴿ ما أوحى ﴾.. إذ لا يذوق منه أرباب القلوب إلا معنى المناغاة بين المتسارين، مما يضيق عنه بساط الوهم، ولا يطيقه نطاق الفهم..

وكلمة ﴿ ثم ﴾ على هذا للتراخي الرتبي..

والفرق بين الوجهين.. أن أحدَهما وحي بواسطة وتعليم، والآخر بغير واسطة بجهة التكريم..

وعن جعفر الصادق ـ عليه الرضا ـ أنه قال: لما قرب الحبيب غاية القرب، نالته غاية الهيبة، فلاطفه الحق سبحانه بغاية اللطف؛ لأنه لا تتحمّل غاية الهيبة إلا بغاية اللطف، وذلك مثل قوله تعالى:

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾[1].

أي: كان ما كان، وجرى ما جرى.. قال الحبيب للحبيب، ما يقوله الحبيب لحبيبه، وألطف به إلطاف الحبيب بحبيبه، وأسَرّ إليه ما يُسِرّ الحبيب إلى حبيبه، فأخفيا ولم يطّلعا على سرِّهما أحداً..

وإلى نحو هذا يشير ابن الفارض بقوله:

ولقد خلوتُ مع الحبيب وبيننا   سرٌّ أرق من النسيم إذا سَرَى

ومعظم الصوفية على هذا: فيقول يدنو الله عزّ وجل من النبيّ ـ ﷺ ـ ودنوّه سبحانه على الوجه اللائق..

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2].. أي: ﴿ ما زاغ ﴾ بصر النبيّ ـ ﷺ ـ، وما التفت إلى الجنة ومزخرفاتها ولا إلى

---

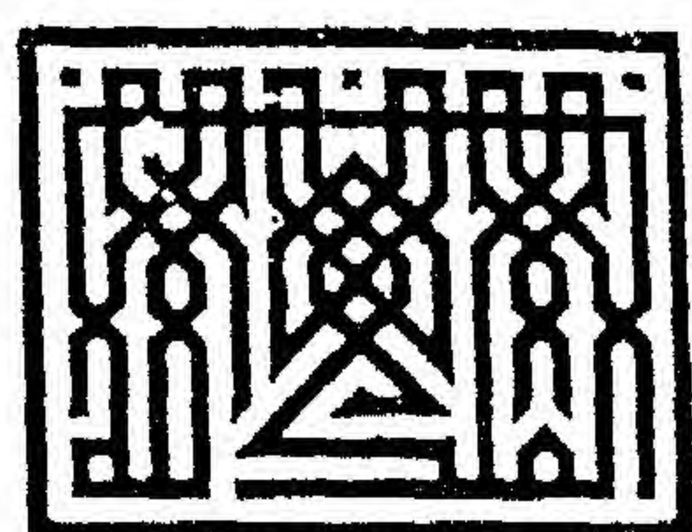
(١) النجم: ٨.

(٢) النجم: ١٧.

الجحيم وزفراتها، بل كان شاخصاً إلى الحق.. ﴿ وما طغى ﴾ عن الصراط المستقيم.

وقال أبو حفص السهروردي: ما زاغ البصر: حيث لم يتخلّف عن البصيرة، ولم يتقاصر.. ﴿ وما طغى ﴾ لم يسبق البصيرة ويتعدّ مقامه..

وما من شك في أن المشاهدة أنواع وألوان. والمشاهدة هنا على الوجه اللائق. أما كيفيتها فلا يعلمها إلا الله ورسوله.

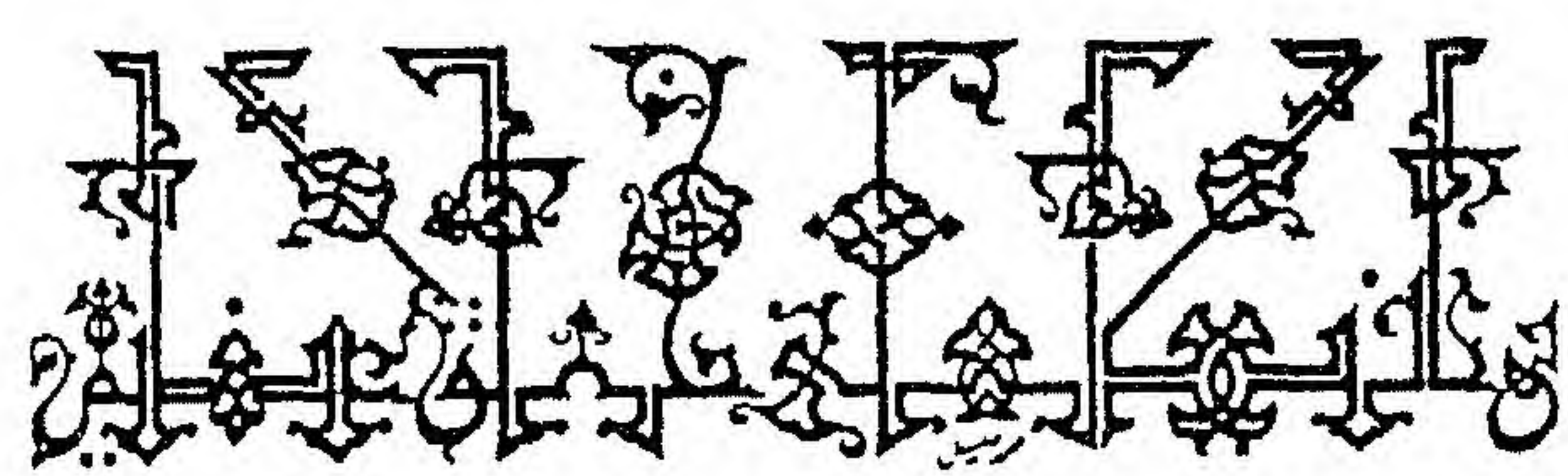


﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشۡهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيۡكَۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل التاسع

طرق في إثبات النبوة



طــــرق في إثبات النبوّة

يتفاوت الناس في طاقاتهم التي يثبتون بها النبوّة. وعندنا عدة طرق تعبّر ـ بمجرد ذكرها ـ عن نفاستها في الاستدلال.

ولسنا ـ من أجل تَعْبيرها الواضح ـ في حاجة إلى شيء كثير من التعليق عليها. بل إنه ليكفي مجرد ذكرها.

ونحن نذكر هنا بعضها دون ترتيب معين.

وهذا الذي نذكره هنا، هو في غاية النفاسة.

وسيرى القارىء منازع مختلفة: من المنطق ومن الحكمة: أجمل ما يكون المنطق، وأحكم ما تكون الحكمة.

سيرى القارىء الأدلة العقلية في ألوان شتى: منها ما يرجع إلى السيرة الشخصية للرسول ﷺ. ومنا ما يرجع إلى تعاليمه العظيمة. ومنها ما يرجع إلى ثقة أصحابه فيه. ومنها ما يرجع إلى التزامه هو ـ عليه السلام ـ. ومنها ما يرجع إلى الآثار الحميدة التي ترتبت على الرسالة... ومنها ما يمزج بين بعض هذه الأدلّة. ومنها ما يجمع بينها.

وبعض الذين عاشروه ﷺ ـ قبل البعثة ـ آمنوا به دون استدلال.

إنهم ليعرفون فيه الصدق والأمانة والحكمة، فماذا يعوزهم بعد ذلك؟

لقد عرفوه: غلاماً مباركاً، وشاباً أميناً، ورجلاً ناضجاً... فآمنوا بمجرد سماع الخبر.

وإن في ذكر هذه الألوان البديعة من منطق النابهين، لَمُتعةً عقليةً وروحية للقارىء الكريم.

وإننا نتبع منهج القرآن في إثبات النبوّة. وهذا المنهج، اتّبعه الإمام الغزالي، واتبعه عالم الاجتماع الكبير (ابن خلدون).

ولأجل أن يكون منهجنا ـ من أول الأمر ـ واضحاً؛ فإننا نورد هنا، لمحة خاطفة عن منهج القرآن، تتلوها فكرة الإمام الغزالي، ومنهج الإمام ابن خلدون في ذلك. وكلها مناهج عامّة: تثبت النبوّة من زوايا كثيرة، ثم نتبع ذلك بطرقٍ شبه خاصة.

والطريقة القرآنية في إثبات النبوّة، هي إيراد أدلة كثيرة تتكاتف لتؤدي إلى اليقين.

إن القرآن الكريم، تحدّى العرب والعجم، والإنس والجن: أن يأتوا بمثله. أو بسورة من مثله... وكان القرآن ـ ولا يزال ـ معجزة الرسول ﷺ، وَلَقد كتبنا عن ذلك في مكان آخر.

ومع ذلك، فإن القرآن والرسول ﷺ، يأتيان بأدلة كثيرة أخرى؛ لإثبات النبوّة.

ولِمَ الشك في أمر الرسول ﷺ، مع أنه لو أخبرهم:

أن خيلاً وراءَ الوادي ستُغير عليهم لصدَّقوه؛ لأنهم لم يعهدوا عليه كذباً؟..

على أنه قد لبِثَ فيهم - من قبل ذلك - أربعين عاماً، فلم يحدّثهم بنبوّة ولا برسالة!

ذلك أن هذا الأمر، إنما يرجع إلى مشيئة الله فحسب:

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١)؟.

ويطلب إليهم القرآن: أن يتفكروا في أمر صاحبهم هذا الذي نشأ بينهم وترعرع على مرأى ومسمعٍ منهم، بل كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم: بالصدق، والأمانة، ورجاحة العقل. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾(٢).

---

(١) يونس: ١٦.

(٢) سبأ: ٤٦، والمعنى على ما ورد في الزمخشري «ملخصاً».

إنما أعظكم بواحدة، إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلّصتم، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين: اثنين اثنين، وواحداً واحداً «ثم تتفكروا» في أمر محمد ﷺ، وما جاء به:

أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه وينظران فيه متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتّباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى لا يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسنّته.

وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفه، غير أن يكابر. ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده. من عادات العقلاء ومجاري أحوالهم.

والذي أوجب تفرّقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوّش الخواطر ويمنع من الرؤية ومع ذلك يقلّ الإنصاف، ويكثر الاعتساف.

وقد علمتم أن محمداً ﷺ: ما به من جنة، بل علمتوه: أرجح قريش عقلاً، وأصلهم رأياً، وأصدقهم قولاً، وأنزههم نفساً، فكان مظنة لأن تظنوا به الخير، وإذا فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية.

ولِمَ الشك في أمره مع أنه قد تجرد من كل مطمع دنيوي[1]؟

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[2].

ولِمَ التشكّك في أمره وهو أُميٌّ: لا يقرأ ولا يكتب! ومَن كانت حاله هذه لا يمكنه أن يستمد ما يقول من كتاب، قال تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾[3].

هذه الظروف، وهذه الملابسات ـ فضلاً عن القرآن الكريم ـ ترشد إلى أن محمداً ﷺ، كان صادقاً في دعواه[4].

الإمام الغزالي وإثبات النبوّة

هذه الطريقة تأسّى بها الإمام الغزالي.

إن الإمام الغزالي يرى: أن القطع فيما يتعلق بدلائل النبوّة: لا يستفادُ من طريقٍ واحد. وإنما تتكاتف عدةُ دلائل، فتفيد اليقين بمجموعها.

إنه يرى: أن المعجزة نفسَها ـ إذا استقلّت ـ لا تؤدّى عند بعض الناس، إلى اليقين التام.

إنها لم تؤدّ إلى ذلك عند فرعون ومَن تبعه بالنسبة لمعجزات سيّدنا

---

(١) التفكير الفلسفي ص ٥٨.
(٢) سبأ: ٤٧.
(٣) العنكبوت: ٤٨.
(٤) التفكير الفلسفي ص ٥٩.

موسى عليه السلام، وقالوا: ساحرٌ كذّابٌ.

ولم تؤدّ إلى ذلك عند مَن بشَّرَ لديهم عيسى عليه السلام، وإلَّا آمنوا كلهم، وما آمن به إلا القليل: الذي لا يكاد يذكر.

وهؤلاء الرسل الذين دمَّر الله قومهم تدميراً، ألَمْ يأتوا بمعجزات؟

لقد كان التدمير؛ لأنهم طلبوا المعجزات، فلما أتتهم كذبوا بها وأعرضوا عنها، ولم يستجيبوا لنداء الهداية.

ما هي الطريقة الصحيحة فيما يرى الإمام الغزالي ـ متابعاً في ذلك القرآن الكريم ـ لإثبات النبوّة؟

إنّا نتركه يتحدّث عن ذلك بنفسه.. إنه يقول:

«فإن وقع لك شك في شخص معين: أنه نبيّ أم لا؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله:

إما بالمشاهدة، أو بالتواتر، والتسامع.

فإنك إذا عرفت الطب، والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء، والأطباء بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم وإن لم تشاهدهم.

ولا تعجز أيضاً عن معرفة كون «الشافعي»، رحمه الله ـ فقيهاً، وكون «جالينوس» طبيباً، معرفة بالحقيقة، لا بالتقليد عن الغير، بل بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب، وتطالع كتبهما وتصانيفهما، فيحصل لك علم ضروري بحالهما.

فكذلك إذا فهمت معنى النبوّة، فأكثرت النظر في القرآن، والأخبار، يحصل لك العلم الضروري، بكونه ﷺ، على أعلى درجات النبوّة.. وأعضِدْ ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية

القلوب، وكيف صدق في قوله.

«مَن عمل بما علم ورّثه الله علم ما لم يعلم»؟

وكيف صدق في قوله:

«مَن أعانَ ظالِماً سلّطه الله عليه»؟!.

وكيف صدق في قوله:

«مَن أصبحَ وهمومه همٌّ واحد (هو التقوى)[1] كفاه الله تعالى هموم الدنيا والآخرة»[2]!!.

فإذا جرّبت ذلك في ألف، وألفين، وآلاف ـ حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق: اطلب اليقين بالنبوّة، لا من قَلْبِ العصا ثعباناً، وشقِّ القمر؛ فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده؛ ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر ـ ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله إضلال؛ فإنه تعالى: ﴿ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾[3].

وترد عليك أسئلة المعجزات، فإن كان مُسْتَنِداً إيمانُك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينخرم إيمانك بكلام مرتب في وجوه الأشكال والشبهة عليها.

فليكن مثل الخوارق، إحدى الدلائل والقرائن في مجلة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين،

(١) ما بين القوسين زيادة عن الجامع الصغير، وضعناها لبيان المعنى.

(٢) وفي سنن ابن ماجه: عن رسول الله ﷺ.

«... ومَن جعل الهموم همّا واحداً، همّ المعاد، كفاه الله همّ الدنيا، ومَن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبالِ الله في أيّ أوديته هلك».

(٣) فاطر: ٨.

كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر: لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري. ولا يخرج عن جملة ذلك، ولا بتعيين الآحاد.. فهذا هو الإيمان القوي العملي.

وأما الذوق، فهو كالمشاهدة، والأخذ باليد. ولا يوجد إلا في طريق الصوفية. فهذا القدر ـ من حقيقة النبوّة ـ كافٍ في الغرض الذي أقصده الآن.

«وسأذكر وجه الحاجة إليه»[1] اهـ.

ابن خلدون وإثبات النبوّة

يقول ابن خلدون، في المقدمة السادسة، من كتابه النفيس: «المقدمة».

اعلم أن الله سبحانه، اصطفى من البشر أشخاصاً فضّلهم بخطابه، وفطرهم على معرفته، وجعلهم وسائل بينه وبين عباده: يُعرفونهم بمصالحهم، ويحرّضونهم على هدايتهم، ويأخذون بحجزاتهم عن النار، ويدلّونهم على طريق النجاة.

وكان ـ فيما يلقيه إليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والأخبار ـ الكائنات، المغيبَةُ عن البشر التي لا سبيل إلى معرفتها إلا من الله بوساطتهم، ولا يعلمونها إلا بتعليم الله إياهم.. قال ﷺ:

«ألا وإني لا أعلمُ إلاّ ما علّمني اللّهُ».

واعلم أن خبرهم في ذلك، من خاصِّيَّته وضرورته الصدق، لما يتبين لك عند بيان حقيقة النبوّة.

---

(١) راجع المنقذ من الضلال، تحقيقنا ـ الطبعة السابعة.

وعلامة هذا الصنف من البشر: أن توجد لهم - في حال الوحي - غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنها غَشْيٌ أو إغماء في رأي العين، وليست منهما في شيء، وإنما هي - في الحقيقة - استغراق في لقاء الملكِ الروحاني: بإدراكهم المناسب لهم، الخارج عن مدارك البشر بالكليّة. ثمَ يتنزل إلى المدارك البشرية: إما بسماع دَوِي من الكلام فيتفهمه، أو يتمثّل له صورةَ شخصٍ يخاطبه بما جاء به من عند الله.

ثم تنجلي عنه تلك الحال، وقد وعى ما أُلْقَى عليه.

قال ﷺ، وقد سُئِل عن الوحي:

«أحياناً يأتيني مثل صَلْصَلَةِ الجَرَس، وهو أشدُّه عليَّ، فيفصِمَ عنّي وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثَّل إليَّ الملكُ رجلاً فيكلّمني فأعي ما يقول».

ويدركه أثناء ذلك، من الشدة والغَطّ ما لا يُعَبّر عنه.. ففي الحديث:

«كان مما يعالج من التنزيل شدة».

وقالت عائشة:

«كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جَبينه ليتفصّدُ عرقاً» وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾(١).

ولأجل هذه الحالة في تَنَزُّلِ الوحي، كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون، ويقولون له رئى، أو تابع من الجن.. وإنما لُبِّس عليهم، بما شاهدوه من مظاهر تلك الأحوال:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾(٢).

---

(١) المزمل: ٥. (٢) الرعد: ٣٣.

ومن علاماتهم أيضاً: أنه يوجد لهم ـ قبل الوحي ـ خلُقُ الخير والزكاة، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع.

وهذا هو معنى العصمة. وكأنه مفطور على التنزّهِ عن المذمومات والمنافرة لها. وكأنها منافيةٌ لجِبِلّته.

وفي الصحيح: أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمّه العباس؛ لبناء الكعبة، فجعلها في إزاره، فانكشف، فسقط مغشياً عليه، حتى استتر بإزاره. ودعي إلى مجتمع وليمة فيها عُرْس ولَعِب، فأصابه غَشْيُ النوم إلى أن طلعت الشمس، ولم يحضرْ شيئاً من شأنهم، بل نزّهه الله عن ذلك كله، حتى إنه ـ بجبلّته ـ يتنزّه عن المطعومات المستكرهة. فقد كان ﷺ، لا يَقرب البصل والثوم، فقيل له في ذلك، فقال: «إني أُناجي مَن لا تناجونَ».

وانظر، لَمَّا أخبر النبيّ ﷺ خديجة رضي الله عنها، بحال الوحي أول ما فجأهُ وأراد اختباره.

فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك؛
فلما فعل ذلك، ذهب عنه.
فقالت: إنه مَلَك، وليس بشيطان.
ومعناه: أنه لا يقرب النساء.
وكذلك سألته عن أحبّ الثياب إليه أن يأتيه فيها.
فقال البياض والخضرة.
فقالَتْ إنه الملَكَ.

يعني: أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة. والسواد من ألوان الشرّ والشياطين، وأمثال ذلك.

ومن علاماتهم أيضاً: دعاؤهم إلى الدين والعبادة من: الصلاة والصدقة والعفاف.

وقد استدلّت خديجة رضي الله عنها، على صدقه ﷺ بذلك، وكذلك أبو بكر، ولم يحتاجا في أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه.

وفي الصحيح أن هرقل ـ حين جاءه كتاب النبيّ ﷺ يدعوه إلى الإسلام ـ أحضر من وُجِدَ ببلده من قريش، وفيهم أبو سفيان؛ ليسألَهم عن حاله. فكان ـ فيما سأل ـ أن قال:

بِمَ يأمركم؟ فقال أبو سفيان: «بالصلاة، والزكاة، والصلة والعفاف، إلى آخر ما سأل. فأجابه فقال: إن يكن ما تقول حقاً فهو نبيّ، وسيملك ما تحت قَدميَّ هاتين».

والعفاف الذي أشار إليه أبو سفيان، هو العصمة.

فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليلاً على صحة نبوّته، ولم يحتج إلى معجزة، فدلّ على أن ذلك من علامات النبوّة!!.

ومن علاماتهم أيضاً: أن يكونوا ذوي حسب في قومهم.
وفي الصحيح: «ما بَعَثَ الله نبيّاً، إلا في مَنَعَةٍ من قومه».
وفي رواية أخرى: «في ثروةٍ من قومه».
استدركه الحاكم على الصحيحين.

وفي مساءلة هرقل لأبي سفيان كما هو في الصحيح قال:
«كيف هو فيكم»؟.

قال أبو سفيان:
«هو فينا ذو حسب».

فقال هرقل:
«والرسل تُبْعَثُ في أحساب قومها».

ومعناه: أن تكون له عصبة وشوكة تمنعه عن أذى الكفّار، حتى يبلّغ رسالة ربه، ويتمّ مرادَ الله من إكمال دينه وملّته.

* * *

إســـــلام خديجة رضي الله عنها

يتحدّث ابن خلدون ـ طيّب الله ثراه ـ عن السيدة خديجة، رضي الله عنها، وعن أبي بكر، رضي الله عنه، في إسلامهما، فيقول: إنهما:

«لم يحتاجا في أمره ﷺ، إلى دليل خارج عن حاله وخلقه»اهـ.

كيف أسلمت خديجة رضي الله عنها؟

لقد رجع رسول الله ﷺ، من الغار إلى بيته، بعد أن فجأه الوحي في غار حِراء. رجع يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد، فقال:

«زمّلوني، زمّلوني».
فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع.
فقال لخديجة ـ وأخبرها ـ: لقد خشيت على نفسي.

فقالت خديجة:

كلاَّ، والله، لا يخزيك الله أبداً: إنك لتصل الرّحم، وتَقْرِي الضيفَ؛ وتحمل الكَلّ وتكْسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق.

وبذلك أسلمت خديجة، رضي الله عنها. وذلك أنها صدقت، وآمنت، وأقسمت على أن الله سبحانه وتعالى متَولّ رسولَ الله ﷺ برعايته

وعنايته. . وعلّلت ذلك بما تعرفه عنه من الرحمة، والخلق الكريم.

وكانت بذلك أولَ مَن اعتنق الإسلام بعد رسول الله ﷺ.

وهي ـ وإن كانت قد ذهبت إلى ورقة وإلى غيره ـ فإنما كان ذلك لتكونَ الرؤية واضحة في ذهنها وفي ذهنه ﷺ.

ولقد سبق إيمانها سؤالها!!.

والسيدة خديجة رضوان الله عليها ـ في صلتها برسول الله ـ ﷺ ـ تستحق دراسة أوسعَ، وتفصيلاً أكثر.

ومن أجل ذلك كتبنا الآتي:

رضي الله عنها: لقد كانت تسمى وزيرة صدق.

وكانت تسمى: الطاهرة.

وكانت تسمى: سيدة نساء قريش.

قال المؤرّخ الكبير: ابن إسحاق، عن السيدة خديجة رضي الله عنها:

«وكانت خديجة وزيرة صدق».

ويقول السهيلي، صاحب: الروض الأنف:

وخديجة بنت خويلد تسمى: الطاهرة في الجاهلية والإسلام.

وفي سيرة التيمي: أنها كانت تسمى سيدة نساء قريش.

وقالت عائشة رضي الله عنها:

كان رسول الله ﷺ، إذا ذكر خديجة، لم يكد يسأم من ثناءٍ عليها، واستغفارٍ لها، فذكرها يوماً، فحملتني الغيرة، فقلت:

لقد عوّضك الله من كبيرة السنّ. . . قالت: فرأيته غضب غضباً.

فأسْقِط في يدي، وقلت في نفسي:

«اللّهمّ إن أذهبتَ غضبَ رسولك عنّي، لم أعُدْ أذكرها بسوء».

فلما رأى النبيّ ﷺ ما قالت قال:

«كيف قلت؟ والله، لقد آمنَتْ بي إذ كذّبني الناس، وواستني إذ رفضني الناس، ورزقت منها الولد وحُرِمْتِه منّي». قالت: فَغَدا ورَاح عليَّ بها شهراً.

ولسنا هنا بصدد التأريخ لحياة وزيرة الصدق الطاهرة: سيدة نساء قريش، وإنما نريد أن نرسم بعض لوحات من حياتها؛ لنرى منها الدرجة السامية التي كانت عليها: رويةً، وعقلاً، وفطرة طاهرة، وذكاءً، وفطنة.

وصلتها بالرسول ﷺ: تبدأ، في صورةٍ وثيقة: بعمله لها في مالها، متاجِراً به.

ولقد عَرَفته بسبب ذلك، بصورة طبيعية عن قرب، ولاحظت ـ متعمدة وغير متعمدة ـ الكثير من الخلال الجميلة، التي تحلّى بها.. وحدّثها غير واحد عن وكيلها في التجارة، وحدّثها ميسرة حديثاً مثيراً: يبعث في النفس العجب والإعجاب.

وبدأت، فكرة الزواج بمحمد تتبلور في نفسها الطاهرة شيئاً فشيئاً، ولكنها ما كانت تتعجّل الأمور.

وها هي ذي تذهب إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، وتذكر له ما لاحظته من صفات محمد وأحواله، وتذكر له ما قاله ميسرة: مما رآه، ومما سمعه، فيقول ورقة:

«لئن كان هذا حقّاً يا خديجة، إن محمداً لَنَبيّ هذه الأمة.. وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبيّ يُنْتَظر.. هذا زمانه»اهـ.

وعادت خديجة من عند ابن عمّها، وقد أصبحت فكرةُ الزواج بمحمد أكثَرَ تبلوراً وأكثر جاذبية.

وما كانت بالجاذبية ـ في أساسها، أو في أهدافها ـ تتمثل في الجانب الجسماني، وإن كان محمد من أحسن الناس خَلْقاً.

وما كانت تتمثل في جانب الثروة، فما كان محمد صاحبَ ثراءٍ عريض وإن كان عنده من الذكاء ما يمكنه ـ لو أراد ـ أن يكون من أصحاب الثرواتِ. وإنما كان منطلِقَ الجاذبية.

هذه السمات الخلقية الكريمة، وهذه الروحانية البادية الشفافية، وهذه الإشراقات التي تتلألأ ثم تخفت، ثم تعود إلى لألائها من جديد، نفَّاذةً أخَّاذةً، ماذا يكون من الأمر!!.

وذات يوم بدأت الطاهرة في الأخذ في المقدمات.

ولم تكن المقدمات مقدمةً واحدة.

أما أولاها ـ فيما نرى ـ فهو ما رواه الفاكهي في كتاب: مكة، قال:

عن أنس، أن النبيّ ﷺ، كان عند أبي طالب، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة، فأذن له.

وبعث بعده جارية له يقال لها: نبعة، فقال:

انظري ما تقوله له خديجة.

قالت نبعة: فرأيتُ عجباً: ما هو إلّا أن سمِعَتْ به خديجة، فخرجت إلى الباب؛ وكان مما قالت: أرجو أن تكونَ أنتَ النبيّ الذي ستُبعث، فإن تكون هوَ، فاعرِف حقّي ومنزلتي، وادع الإلّه الذي يبعثك لي.

قالت: فقال لها:

«. . . والله لئن كنت أنا هو، قد اصطنعتِ عندي ما لا أضَيِّعهُ أبداً. وإن يكن غيري. فإن الإلّه الذي تصنعين هذا لأجله، لا يضَيِّعكِ أبداً».

وقد روى القصة: الفاكهي. ورواها الإمام ابن حجر، ولم يضعفها.

وما من شك في أن هدف الطاهرة، هدفٌ نبيل.

ولقد لاحظَ محمد كل ذلك حين قال لها: «فإن الإلّه الذي تصنعين هذا لأجله».

أي أنها لم تصنع هذا إلا من أجل الإلّه الحق: الذي تعتقد أن محمداً سيكون رسولَه!!.

وأما المقدمة الثانية: فهي ما حدّثت به نفيسة بنت منبّه، قالت:

كانت خديجة بنت خويلد، امرأة حازمة شريفة، مع ما أراد الله بها من الكرامة والخير. وهي - يومئذ - أوسط قريش نسباً، وأعظمُهم شرفاً، وأكثرهم مالاً. وكل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو قَدرَ على ذلك. . ولقد طلبوها، وبذَلوا لها الأموال، فأرسلتني دسيساً إلى محمد بعد أن رجع عِيرها من الشام.

فقلت: يا محمد، ما يمنعك أن تتزوج؟

فقال: ما بِيَدي ما أتزوج به.

قلت: فإن كُفِيتَ ذلك، ودُعِيت إلى الجمال والمال، والشرف والكفاءة، ألا تجيب؟

قال: فمَنْ هي؟

قلت: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قلت: عليَّ.

قال: فأنا أفعل.

فذهبت فأخبرتها.

وأصبحت المسألة واضحة في ذهن محمد ﷺ.

أما المقدمة الثالثة: فهي المقدمة المباشرة.

يقول السهيلي:

«كانت خديجة امرأةً حازمة، شريفة لبيبة مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به، بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له فيما يزعمون:

يا ابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك وحُسن خلقك، وصدق حديثك.

ثم عرضت عليه نفسها.

وكانت خديجة يومئذ، أوسطَ نساء قريش نسباً، وأعظَمَهُنّ شرفاً، وأكثَرَهُنّ مالاً: كل قومها كان حريصاً على ذلك منها، لو يقدر عليه، وتمّ الاتفاق على كل شيء.

وجاء آل عبد المطّلب ـ وعلى رأسهم حمزة رضي الله عنه، وأبو طالب ـ إلى بيت خديجة، وكان في استقبالهم عمّ خديجة عمرو بن أسد، وابن عمّها ورقة بن نوفل. وقام أبو طالب خطيباً فكان مما قال:

أما بعد: فإن محمداً ممّن لا يوزن به فتىً من قريش، إلا رجَحَ به: شرفاً ونبلاً، وفضلاً وعقلاً. وإن كان في المال قُلّ، فإنما المال ظل

زائل، وعاريَّة مسترجعة. وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك».

ورضِيَ عمْرو وقال:

«هو الفحل لا يُقْدَعُ أنْفُه».

ورضي ورقة...

وتمّ الزواج.

هذه هي اللوحة الأولى. وهي دليل واضح على الرويّة والنضج، والذكاء وحُسن التأنّي للأمور، وحُسن الاختيار.

واللوحة الثانية جميلةٌ حقاً، رائعة حقاً. وإنه ليتمثل فيها وضوح العبقرية والنضج النادر..

فلقد سارت الحياة رخاء في عش الزوجية: لقد كان محمد ـ بالنسبة لخديجة ـ الأخ والابن والزوج، وكانت خديجة ـ بالنسبة له ـ الأخت والابنة والزوجة.

لقد كان بينهما حنان وعطف وحب، وكان بينهما ـ من قبل ذلك ومن بعده ـ تقدير متبادل.

وذات يوم:

«رجع رسول الله ﷺ: يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها؛ فقال: زمِّلوني، زمِّلوني».

«فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع»(١).

لم يكن هذا شأن محمد ﷺ: فيما مضى؛ وقد لاحظت وزيرة

---

(١) صحيح الإمام البخاري.

الصدق؛ تغيّراً محسوساً في شأن محمد، فجلست تنتظر أن يحدّثها الحديث جلست يسرح بها الخيال ويملؤها الإشفاق.. واحترمت إرادته.. لقد أراد الخلوة بنفسه في غرفته منفرداً، فلم تقتحم عليه الغرفة، ومع حبّها الشديد له ولهفتها عليه - آثرت هواه، وانتظرت وكان الانتظار طويلاً.. وفي النهاية، ها هو ذا يتحرك ويأتي نحو خديجة فيحدّثها بما يذهلُها ويسعِدها من خبر الوحي والـملَك، ومجيء الحق وهو في غار حِراء، ثم قال لها:

«لقد خشِيتُ على نفسي».

وتسارع الوزيرة - دون فتور، ودون تباطؤ أو تلكؤ - فتقول بملء فيها - مقسمة على ما تقول -: «كلاَّ، والله ما يخْزِيكَ الله أبداً».

لماذا؟ لقد علّلت ذلك قائلة:

إنك لَتَصِلُ الرحم، وتحملُ الكَلَّ، وتكْسِب المُعْدِمَ، وتَقرِي الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق!!.

هذا قانون سنَّه ربّ العزّة، وأعلنته الوزيرة؛ إنه قانون له مقدماته، وله نتائجه.

أما المقدمات فهي كلها تتبلور في كلمة: «الرحمة».
أما النتائج، فإنها تتبلور في: «عدم الخِزْي».

وكان هذا أولَ قانونٍ: تعلنه الوزيرة بعد الوحي، ويؤيده الإسلام، ويؤكده، ويبينه من زوايا متعددة.

«الراحمون يَرْحَمُهمُ الرحمن».
«ارحموا مَن في الأرض يَرحَمكُم مَن في السماء».
«لا تنزع الرحمةُ إلا من قَلبٍ شقي».

إلى غير ذلك من المبادىء الإسلامية التي تتعلق بالرحمة.
ونشِطت خديجة نشاطاً عظيما.

لقد دخل في هذه الحياة الهادئة الوديعة عنصر جديد مفاجىءٌ مذهل، سعيد عذب..

وغمر خديجة شعور قوي بالمسئولية الملقاة على عاتقها.. وكانت رضوان الله عليها. في المستوى الجدير بهذه المسئولية. وكان أول شيء في نظرها، هو أن تصبح صورة ما حدث واضحةً في ذهنها، وفي ذهن زوجها: واضحة أسباباً، وواضحة موضوعاً، وواضحة غايةً وهدفاً..

وأرادت أن تنطلق لتسعدَ بالحديث في هذا، مع مَن يعرفون هذه الأمور في بصيرة، وفي استنارة وقبل أن تنطلق، اتجهت إلى زوجها في حَنان، وأخذتْ تمسحُ عن وجهه وتقول:

أبشِرْ فوالله، لقد كنتُ أعلم أن اللَّهَ لن يفعلَ بك إلا خيراً، وأشهد أنك نبيّ هذه الأمة الذي تنتظره اليهود..

قد أخبرني به ناصح غلامي، وبحَيْرَى الراهب.

فلم تزل برسول الله ﷺ، حتى طعم وشَرِب وضحك.

فلما ضحك رسول الله ﷺ، قامت، فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت من مكانها، فأتت غلاماً لقيه ربيعة بن عبد شمس: نصرانياً من أهل نينوى: يقال له عداس، فقالت له:

يا عداس، أذكِّرك بالله، ألا ما أخبرتني: هل عندك علم من جبريل! فقال:

قدُّوسٌ!! قدوس!! ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل الأوثان.

فقالت أخبرني بعلمك فيه.

قال: فإنه أمين الله بينه وبين النبيّين.. وهو صاحب موسى وعيسى عليهما السلام.

ثم ركبت إلى الراهب، وكان قريباً من مكة، فلما دنت منه وعرفها؛ قال:

ما لك يا سيدة قريش؟

فقالت: أقبلت إليك لتخبرني عن جبريل، فقال:

سبحان الله ربنا القدّوس: ما بال جبريل يُذكر في هذه البلاد التي يعبد أهلها الأوثان؟ جبريل أمين الله ورسوله إلى أنبيائه ورسله... وهو صاحب موسى وعيسى.

فعرفت كرامة الله لمحمد.

وكانت خاتمةُ المطاف: أن أتت ورقة بن نوفل، فسألته عن جبريل، فقال لها مثل ذلك، ثم سألها، ما الخبر؟

فأحلفته: أن يكتم ما تقول له، فحلف لها فقالت له:

إن ابن عبد اللّه ذكر لي ـ وهو صادق ـ أحلف بالله ما كذب، ولا كذب: أنه نزل عليه جبريل بحراء، وأنه أخبره أنه نبيّ هذه الأمة، وأقرأه آيات أُرْسِلَ بها.

قال: فَذُعِر ورقةُ لذلك، وقال:

لئن كان جبريلُ قد استقرت قدماه على الأرض، لقد نَزَل على خير أهلِ الأرض، وما نزل إلا على نبيّ.. وهو صاحب الأنبياء والرسل: يرسله الله إليهم. وقد أفدتك عنه، فأرسلي إليَّ ابن عبد اللّه: أسأله

وأسمع من قوله وأُحدّثه، فإني أخاف أن يكون غير جبريل، فإن بعض الشياطين يتشبّه به؛ ليضلّ به بعضَ بني آدم ويفسدهم، حتى يصيرَ الرجلُ ـ بعد العقل الرضي ـ مدلهاً مجنوناً.

فقامت من عنده، وهي واثقة بالله أن لا يفعل بصاحبها إلا خيراً..

وانطلقت خديجة بمحمد ﷺ، إلى ورقة، فقالت له خديجة:

يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى. فقال له ورقة:

هذا الناموسُ الذي نَزَّلَ الله على موسى... يا ليتني فيها جَذَعاً.. ليتني أكونُ حيّاً إذ يخرجُك قومك.

فقال رسول الله ﷺ:

«أوَ مخرِجيَّ هم»؟.

قال: نعم، لم يأتِ رجلُ قطّ، بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإن يدركْني يومك أنْصُرْك نصراً مؤزَّراً.

وتنفست خديجة مِلْءَ رئتيها، ونظرت إلى محمد نظرة فيها ما لا يوصف من المعاني، ودخل في صلتها به عنصر جديد: إنها زوجةُ رسولٍ يوحَى إليه!! وكما حملتها السعادة التي يحب السعيد نشرها وإذاعتها، والعملَ على أن يحظى بمثلها أو بنصيب منها الآخرون، على أن تطوف وأن تتحدث إلى هذا وذاك ـ فقد حملتها على أن تُجرِيَ التجارب على جبريل نفسه.

لقد أحبّت السيدة الذكيّة أن تضع جبريل عليه السلام موضع الاختبار والملاحظة، وأن تجرِيَ عليه بعض التجارب: لتتبين أمره في

وضوح أوضح، وفي تأكيد آكد.. وما كان يتأتى أن يدور إلا بذهن خديجة. نظراً لفطنتها ونباهتها.

يقول ابن خلدون، معتمداً على الأحايث الصحيحة:

وانظرْ لما أخبر النبيّ ﷺ: خديجة رضي الله عنها، بحال الوحي أول ما فجأه، وأرادت اختباره.

فقالت: اجعلني بينك وبين ثوبك.
فلما فعل ذلك ذهب عنه.
فقالت: إنه مَلَكٌ وليس بشيطان.
ومعناه: أنه لا يقرُبُ النساء.

وروى البيهقي هذه القصة في شيء من التفصيل: وذلك أن خديجة رضي الله عنها، قالت لرسول الله ﷺ، فيما بيَّنَهُ مما أكرمه الله به من نبوّته:

يا ابن عم، تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك.

فقال: نعم.
فقالت: إذا جاءك فأخبرْني.

فبينما رسول الله ﷺ عندها، إذ جاءه جبريل، فرآه رسول الله ﷺ، فقال: يا خديجة، هذا جبريل.

فقالت: أتراه الآن؟

قال: نعم.

قالت: فاجلِس إلى شِقِّي الأيمنِ. فتحوَّلَ فجلس، فقالت أتراه الآن؟

قال: نعم.

قالت: فتحوّل فاجلس في حِجري. فتحوّل فجلس في حجرها، فقالت: أتراه الآن؟

قال: نعم.

فحسرت رأسها، فشالت خمارها، ورسول الله ﷺ جالس في حجرها، فقالت:

هل تراه الآن؟ قال: لا.

قالت: ما هذا بشيطانٍ، إنّ هذا: المَلَك يا ابن عم... فاثبُتْ وأبشِرْ، ثم آمنت به، وشهدت أن ما جاء به هو الحق.

لقد آمنت به منذ اللحظة الأولى لحديثه معها عن الوحي.

قال ابن إسحاق: فحدّثت عبد اللّه الحسن هذا الحديث فقال:

قد سمعت أُمِّي فاطمةَ بنتَ الحسين، تحدّث بهذا الحديث عن خديجة، إلا أني سمعتها تقول: أدخلَتْ رسول الله ﷺ، بينَها وبين دِرْعِها، فذهب عند ذلك جبريل عليه السلام.

قال البيهقي: وهذا شيء كان من خديجة: تصنعه تستثبت به الأمر، احتياطاً لدينها وتصديقاً.

ويقول ابن خلدون أيضاً:

«وكذلك سألَتْهُ عن أحبّ الثياب إليه أن يأتيه فيها، فقال:

البياض والخضرة.

فقالت: إنه مَلَكٌ.

يعني أن البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة، والسوادَ من

ألوان الشرّ والشياطين وأمثال ذلك.

هذه هي خديجة سيدة نساء قريش: الطاهرة، التي يصفها الذهبي فيقول:

وهل ممّن كَمُلَ من النساء، كانت عاقلةً، جليلةً، ديِّنةً، مصونةً، كريمة، من أهل الجنة..

وكان النبيّ ﷺ، يُثني عليها ويفضّلها على سائر أُمهات المؤمنين، ويبالغ في تعظيمها». لقد كانت حقّاً، وزيرة صدق.

وبعد، فإن ما قلناه هنا، يلخصه الإمام البوصيري فيقول في همزيته المباركة:

ورأتــه خـــديـجــة، والتُـقـى والـ ـزُهــدُ فـيــه سـجِـيــةٌ والـحـيــاء
وأتَـاهَـا أنّ الـغــمــامَــةَ والـسَّــرْ حَ أظـلـتــه مـنــهـمــا أفْـيــاء
وأحــاديــثُ: أن وعــدَ رســول الله بــالـبـعــث حــان مـنــه الــوفــاء
فــدعــتــه إلـى الــزواج ومــا أحْـ ـسَنَ مــا يـبـلغ المـنـى الأذكـيــاءُ
وأتــاه فــي بـيـتـهــا جَـبْـرَئِـيــلُ ولــذِي الـلـبُّ في الأمــور ارْتـيــاء
فــأمـاطت عنهــا الخمــار لتــدري أهــوَ الــوحــي أم هــو الإغـمــاء
فـاختفى عند كشفهـا الرأسَ جبريـ ـلُ فـمــا عــاد أو أُعـيــدِ الـغــطــاءُ
فــاستبــانت خــديـجــة أنــه الكنـ ـز الــذي حــاولَـتــهُ والكـيـمـيــاءُ

أما بعد: فإنّا نختم الكلام عن خديجة رضي الله عنها بالحديثين التاليين:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما غِرت على امرأةٍ لرسول الله ﷺ ما غِرتْ على خديجة، مما كنت أسمع من ذكره لها.. وما تزوجني إلا بعد موتها بثلاث سنين. ولقد أمَره ربه أن يبشرَها ببيتٍ

في الجنة من قصب[1] لا نصب فيه ولا صخب» أخرجاه في الصحيح من أوجه أُخر.

عن أبي زرعة قال: سمعت أبا هريرة قال: «أتى جبريل عليه السلام إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه خديجة أتتك: معها إناءٌ فيه إدام طعامٍ أو شرابٍ، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومنّي، وبشّرها ببيتٍ في الجنة من قصب: لا صخب فيه ولا نصب».

رواه البخاري في الصحيح، عن قتيبة ورواه مسلم عن ابن أبي شيبة.

ورقـــة بن نوفل

لقد كان ورقة عربياً أصيلاً، من ذِروةِ بيوتات قريش. وهو ـ كما يروي صاحب الأغاني ـ:

«أحد مَن اعتزلَ عبادة الأوثان في الجاهلية، وطَلَبَ الدين، وقرأ الكتب، وامتنع من أكل ذبائح الأوثان».

طلب ورقة الدينَ، ولم يكتف في طلبه باللغة العربية، بل لعلّ اللغة العربية إذ ذاك، لم تكن تسعفه بما يريد من معرفة، فتعلّم العبرانية.

يقول الإمام البخاري عنه:

«وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب».

---

(١) يقول صاحب مختار الصحاح: والقصب أيضاً أنابيب من جوهر، وفي الحديث: «بشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب».

وهو القائل هذه الأبيات الشائقة في الأوساط المؤمنة:

لا شيء مما تَرى تبقى بشاشتُه ... يبقى الإلَه ويُرْدَى المال والولد
لم تُغن عن هرمز، يوماً خزائنه ... والخلدَ قد حاولت عاد فما خَلَدوا
ولا سليمانَ إذ دانَ الشعوب له ... والجنُّ والإنس تجري بينها البُرد[1]

ولقد سئل عنه صلوات الله وسلامه عليه، فيما بعد، فقال:

«قد رأيته في المنام: كأن عليه ثياباً بيضاً، فقد أظن: أن لو كان من أهل النار لم أرَ عليه البياض».

وقد كان ورقة معروفاً بالعقل الناضج، والمعرفة الواسعة، والإخلاص المخلص، وقد كان في فترة بدء الوحي هذه: «شيخاً كبيراً قد عَمى، أي أنه مرَّ بالتجارب الكثيرة في الدين والدنيا، فأصبح لا يرجو إلا حُسْنَ الخاتمَة، والعمل ـ ما استطاع ـ في سبيل الله.

من أجل كل ذلك، انطلقت السيدة خديجة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه إليه، وقالت له: «يا ابنَ عم، اسمع من ابنِ أخيك»:

فلما أخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى، قال ورقة دون تردّد، ولا تلعثم ولا انتظار:

«هذا هو: الناموس الذي نزَّل الله على موسى».

قال ذلك في يقين جازم وفي إيمان مؤمن.

أما الأسباب التي دعت ورقة إلى هذا القول فإن منها ـ لا شك ـ معرفتَه بحياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه: عازفاً عن طلب المجد الزائف، والجاه المفتعل.. وكان ـ وهو الأهم ـ بعيداً عن أن يكون عبداً للدنيا.

---

(١) البرد: جمع بريد، وهو: الرسول.

ولقد سمع ورقة حديثاً يحدّد معالم صورة صحيحة: مخلصة للصدق الصادق. وسمع هذا التعبير البريء عن عنصر المفاجأة في الموضوع.

إن الحديث لا يتّسم بمنطق مرويّ، ولا بتفكير مدبّر، ولا بمحاولة ـ أيّاً كانت ـ للتلبيس والزيف... إنها البراءة المطلقة:

لقد فاجأه المَلَك على غير انتظار، وعلى غير توقع، وفاجأه في خَلوةٍ يرجو فيها رحمةَ الله، ويأمل فيها رضاءه، وفاجأه بأمرٍ لم يكن له على بال.

﴿ اقــرأ ﴾:

﴿ ما أنا بقارىء ﴾.

ففاجأه المَلَك بأمر غريب آخر، لقد أخذه فغَطَّه، حتى بلغ منه الجَهْد، ثم أرسله، وقال له من جديد: ﴿ اقْرَأ ﴾ وتكرر ذلك.

ورجع رسول الله ﷺ «يرجُف فؤاده». قال:

«زمِّلوني، زمِّلوني».

فلما ذهب الروع، قصّ على السيدة خديجة رضي الله عنها ما رأى ثم قال:

«لقد خشيت على نفسي».

إن كل ذلك: برهان واضح على الصدق، وعلى الإخلاص، فإذا ما أُضيف ذلك إلى ما يعرفه ورقة من حياة الرسول ﷺ، فإن ثمرة ذلك: التصديق والإيمان، بيد أن النور الذي غمر ورقة، إنما كان إشعاع قوله تعالى:

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾(١).

حينما سمع ورقة أول آية من القرآن.

﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾.

لم يملك أن آمن بأن هذا الذي يُتْلَى - إنما هو وحي من السماء.

إن ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾، تنصّ على أن القِراءة: لا تكون باسم وزير ولا أمير، ولا باسم منفعة شخصية، ولا باسم مصلحة إقليمية، ولا باسم غاية مادية: أيّاً كانت، ولا باسم وطن أو بيئة، وإنما هي: باسم الله.

وإذا كانت باسم الله، فإنها تفيد الشخص، باعتباره فرداً؛ وتفيد المجتمع الخاص الذي نسمّيه: «وطناً»، وتفيد المجتمع الإسلامي العام، بل وتفيد الإنسانية جمعاء.

وإذا ما تجردَتِ القراءةُ لله تعالى، وكان هدفُها الأول والأخير، هو الله: مصدر الخير والنور، كانت خيراً، وكانت نوراً في جميع الأرجاء، وفي جميع الأزمان.

وما كان يقصد القرآن قطّ بهذه الكلمة الأولى: القراءة وحسب، وإنما كانت القراءة رمزاً لكل ما يأتيه الإنسان في الجانب الإيجابي، وكل ما يَدَعُه الإنسان في الجانب السلبي.

إن هذه الكلمة الأولى، تريد أن تقول:

«اقرأ باسم ربك: تحركْ باسم ربك، تكلّمْ باسم ربك، اعمَلْ باسم ربك. أما إذا امتنعتَ عن حركة أو فعل، فينبغي أن يكون ذلك

---

(١) العلق: ١.

أيضاً باسم ربك، ويكون معنى الآية في النهاية: جرِّد حياتَك كلها وكيَانَكَ كلَّه: أسباباً وغايات إلى الله سبحانه وتعالى».

وإذا كانت الآية الكريمة واضحة المعنى في الجانب الإيجابي: الذي يحثّ على القراءة، والذي يحثّ على أن تكون القراءة باسم الله ـ فإن الجانب السلبي، قد نزلت فيه ـ فيما بعد ـ آيات صريحة الدلالة، واضحة المعنى. يقول الله تعالى:

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ﴾(1).

وأما ما ذبح على النصب: فهو لم يُرَدْ به وجه الله تعالى، وهو أيضاً فسق؛ لأنه لم يُذكَرِ اسم الله عليه كله حرام.

اقـــرأ. . . والإخلاص

وحينما سمع ورقة هذه الكلمة الأولى. . . لم يملك أن آمن، وماذا يمكن أن تقول لشخص تجرّد إلى الله، ويدعوك أن تتجرد إليه سبحانه؟! شخص لم يطلب مالاً، ولا جاهاً، ولا زعامة، ولا ملكاً. . إنه يريد أن تقرأ الإنسانية كلها باسم ربها، وأن تقوم ـ في كيانها كله ـ على أساس من تربية ربها.

ماذا يمكن أن تقول؟

أيمكن أن تقول له: إنك كذّاب؟ فما هو الصدق إذن؟

أيمكن أن تقول له: إنك منافق؟ فأين هو الإخلاص؟

إن هذه الكلمة الأولى، قادت ورقة ـ فور سماعها ـ إلى الإيمان.

وأسلم ورقة، ورآه رسول الله ﷺ في المنام، كأن عليه ثياباً بيضاً،

---

(1) الأنعام: 121.

وقال صلوات الله وسلامه عليه، تعليقاً على الرؤيا:

«فقد أظن أن لو كان من أهل النار، لم أرَ عليه البياض»، رضي الله عنه.

* * *

أبو بكر رضي الله عنه

كان أبو بكر ـ كما يقول ابن كثير ـ صدراً معظماً، ورئيساً في قريش مكرَّماً، وصاحب مال.

ويقول ابن إسحاق:

«وكان أبو بكر رجلاً متألَفاً لقومه، مُحَبَّباً سهلاً. وكان أنسبَ قريش لقريش، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر. وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق ومعروف.

وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجاربه وحُسن مجالسته».

ويقول رسول الله ﷺ ـ فيما رواه ابن إسحاق ـ:

«ما دعوتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردّد ونظر، إلا أبا بكر، ماعكم (تلبث) عنه حين ذكرته ولا تردّد فيه».

كيف أسلم؟

يقول ابن إسحاق:

ثم إن أبا بكر الصديق لقي رسول الله ﷺ، فقال:

أحقٌّ ما تقول قريش يا محمد؟ مِن تَركِـكَ آلهتَنا، وتسفيهـكَ عقولَنا، وتكفيركَ آباءَنا؟

فقال رسول الله ﷺ:

«بلى إني رسولُ الله ونبيّه.. بعثني لأُبلِّغَ رسالته، وأدعوَك إلى الله بالحق. فوالله إنه للحق.. أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيرَه، والموالاةِ على طاعته».

فأسْلَم وكفر بالأصنام، وخَلَعَ الأنداد، وأقرّ بحق الإسلام.

ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدّق.

وكل هذا الذي ذكرناه، إنما هو تصديقٌ لقول ابن خلدون: من أن أبا بكر رضي الله عنه، لم يحتجْ في أمر رسول الله ﷺ، إلى دليلٍ خارجٍ عن حاله وخلقه.

ولعلّ القارىء، قد لاحظ أن رسول الله ﷺ، لم يَـدْعُ السيدة خديجة رضي الله عنها إلى الإسلام، وإنما قصَّ عليها الخبَرَ فقط، فأسلمت بمجرد سماعها الخبر.

وكذلك كان أمر ورقة.

* * *

أبو ذر الغفاري رضي الله عنه

ولقد كانت هناك نماذج كريمة رائعة لتغلغل الدعوة إلى أعماق سرائر المؤمنين؛ والأمثلة لذلك كثيرة:

منها: إسلام أبي ذر، الذي يقول: «كنت رُبُعَ الإسلام، أسلم قبلي ثلاثة نفر، وأنا الرابع، أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأن محمداً رسول الله، فرأيتُ الاستبشارَ في وجه رسول الله ﷺ..

وحديث إسلام أبي ذر، رضي الله عنه، حديثٌ مستفيض جليل: رَوته كتب السنّة الموثوق بها، أمثال البخاري ومسلم، وغيرهما.

ولقد روته هذه الكتب في زواياه المختلفة، الثرية بالعِبر والمواعظ. وذلك:

أنه لما بلغ أبا ذر مبعث رسول الله ﷺ، قال لأخيه أنيس:

«اركَبْ إلى هذا الوادي، فاعْلَم لي علمَ هذا الرجل: الذي يزعم أنه نبيّ، يأتيه الخبر من السماء، فاسمعْ من قوله، ثم ائتني».

فانطلق «أنيس» إلى مكة: وسمع من كلام الرسول ﷺ، ثم رجع إلى أبي ذر فقال له: «رأيته يأمر بمكارم الأخلاق». فقال له أبو ذر: ما يقول الناس له؟ قال: يقولون: إنه شاعر، وساحر ـ وكان أنيس شاعراً ـ وتابع أنيس حديثه قال:

لقد سمعتُ الكهان فما يقول بقولهم، وقد وضعت قوله على أنواع الشعر، فوالله ما يلتئم لسان أحد أنه شعر، ووالله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون. .

فقال أبو ذر لأخيه: هل أنت كافيَّ حتى أنطلق؟ قال: نعم، وكنْ من أهل مكة على حذَر، فإنهم قد شنعوا له، وتجمعوا له.

فتزوّد وحمل شنة له فيها ماء، حتى قدِم مكة، فأتى المسجد، فالتمس رسول الله ﷺ، وهو لا يعرفه، واتبع نصيحة أخيه في أن لا يسأل عنه، وأن يحذر أهل مكة، حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع لينام، فرآه سيدنا عليّ فعرف أنه غريب، فدعاه إلى المبيت عنده، فتبعه ولم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثم احتمل قربته وزاده إلى المسجد، وظل ذلك اليوم، فلم يرَ النبيّ ﷺ، حتى أمسى، فعاد

إلى مضجعه، فمرّ به عليّ فقال:

أما آن للرجل أن يعرف منزله؟ وسار به إلى المنزل: لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، ومرّ اليوم الثالث على هذه الكيفية.

فلما كان في البيت، سأله عليّ رضي الله عنه قائلاً:

ألا تحدّثني بالذي أقدمك؟

قال: إن أعطيتني تعهداً وميثاقاً لَتُرشِدَنّني، فعلت. . ففعل، فأخبره.

وفي الصباح ذهبا ـ على حذر ـ إلى رسول الله ﷺ، وأخذ أبو ذر يستمع إلى القرآن الكريم، فأسلم في جلسته، فقال له النبيّ ﷺ.

ارجعْ إلى قومك فأخبرْهم حتى يأتيكَ أمري، فقال:

«والذي بعثك بالحق، لأصرُخَنَّ بها بين ظهرانيهم». . فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته:

«أشهد أن لا إله إلاّ اللّهُ، وأن محمداً رسول الله». . . فقام إليه الحاضرون فاشتبكوا معه في معركةٍ حامية، واستمروا به حتى رمَوْه أرضاً، فأتى العباس وأنقذه منهم. . ، ولكنه عاد في الغد إلى مثلها، وعادوا إلى مثل ما فعلوا، وأنقذه من جديد العباس. وعاد أبو ذر إلى أخيه؛ وأعلن إسلامه، فأسلم أخوه، وذهبا إلى أمهما فأعلنت إسلامها، وأخذ أبو ذر يبشّر الإسلام في قومه. رضي الله عنه.

قصـــــة ضماد

كان ضماد رجلاً من أزد شنوءة، تخصّص في معالجة الأمراض العقلية كان يعالج بالرقى، ويعالج بالإيحاء، ويعالج باللمس والدعاء.

وكانت مكانته في ذلك الزمن مكانةَ مَن نسمّيهم نحن في العصر الحاضر بالأطباء النفسيين..

ويذكر الإمام مسلم، والإمام البيهقي قصته: لقد قدِم ضماد مكة، وكان يرقى من هذه الرياح، فسمع سفهاء مكة يقولون: إن محمداً مجنون.

سمع هذا الخبر هنا، وسمعه هناك، وعلم من الجو الاجتماعي، ومن الأخبار الكثيرة ـ أهمية محمد القصوى في هذه المدينة.

وصدَّق ضماد الخبر، واهتم به اهتماماً كبيراً وخُيِّلَ إليه أنه إذا عالجه فقد اكتسب شهرة، واكتسب مثوبة، فقال: أين هذا الرجل، ثم يقول: لعلّ الله يشفيه على يدي؟ فلقيتُ محمداً فقلت: إني أرقى من هذه الرياح، وإن اللَّهَ يشفي على يدي مَن شاء، فهلُمَّ..

أي أنه يدعوه إلى أن يستسلم له ليعالجه. فقال له رسول الله ﷺ:

«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، مَن يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إلَه إلاّ الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً رسول الله».

وتعلقت عينا ضماد برسول الله ﷺ، وأنصتت أُذناه، وكان كيانه كله مرهفاً مبهوراً. ثم قال:

والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل هذه الكلمات، ثم طلب من رسول الله ﷺ، إعادتها، وكان يسمع بجميع أقطاره.

ولم تكفه الإعادة، فطلب من جديد أن يسمعها للمرة الثالثة، ثم قال فور الانتهاء من سماعها:

هلمّ يدك أبايعْكَ على الإسلام، فقد بلغت كلماتـك هؤلاء، قاموس البحر.

ومعنى أنها بلغت قاموس البحر أنها تغلغلت إلى أعمق أعماق نفسه، وامتزجت بباطنه امتزاجاً كليّاً، وذلك أن قاموس البحر هو أعمق مكان فيه.

ولم ينسَ المسلمون ـ فيما بعد ـ موقف ضماد هذا فكانوا إذا مرّت جيوشهم على قوم ضماد أحسنوا إليهم وقالوا في مودّة: «إنهم قوم ضماد».

وكثيراً ما كانت تبلغ الدعوة إلى التوحيد قاموس البحر ـ على حد تعبير ضماد ـ فلا يبالي مَن آمن، بإيذاء المشركين له في نفسـه أو ماله(١).

---

(١) عن ابن عباس قال: قدِم ضماد مكة وهو رجل من أزد شنوءة، وكان يرقى من هذه الرياح، فسمع سفهاء من سفهاء الناس يقولون:

إن محمداً مجنون، فقال: آتي هذا الرجل لعلّ الله أن يشفيه على يدي.

قال فلقيت محمداً فقلت: إني أرقى من هذه الرياح، وإن الله يشفي على يدي مَن شاء، فهلمّ، فقال محمد:

«إن الحمد لله نحمده ونستعينه، مَن يهده الله فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ثلاث مرات».

فقال : والله لقد سمعت قول الكهنة، وقول السَحَرَة، وقول الشعراء فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات، فهلمّ يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه رسول الله ﷺ، وقال له: وعلى قومك؟ فقال: وعلى قومي.

فبعث رسول الله ﷺ سريّة فمرّوا بقوم ضماد فقال صاحب الجيش للسريّة: «هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل منهم: أصبت منهم مطهرة، فقال ردّوها عليهم، فإنهم قوم ضماد» رواه الإمام مسلم في صحيحه.

وعن إسحاق بن إبراهيم ومحمد بن المثنى زاد فيه ابن المثنى: وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد.

وها هي ذي رواية أخرى عن إسلام ضماد تكمِل ما سبق وتوضحه:

عن عبد الرحمن العدوي، قال: قال ضماد: قدِمت مكة معتمراً فجلست مجلساً فيه أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف. فقال أبو جهل هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا، وسفّه أحلامنا، وأضلّ مَن مات منّا، وعاب آلهتنا. فقال أُمية: الرجل مجنون من غير شك. قال ضماد: فوقعت في نفسي كلمته، وقلت: إني رجل أعالج من الريح، فقمت من ذلك المجلس أطلب رسول الله ﷺ. فلم أصادفه ذلك اليوم، حتى كان الغد، فجئته، فوجدته جالساً خلف المقام يصلّي، فجلست حتى فرغ، ثم جلست إليه، فقلت: يا ابن عبد المطلب، فأقبل عليّ، فقال: «ما تشاء»؟ فقلت: إني أعالج من الريح، فإن أحببت، عالجتك. ولا تكبرنّ ما بك، فقد عالجت مَن كان به أشدّ مما بك فبرأ. وسمعت قومك يذكرون فيك خصالاً سيئة من: تسفيه أحلامهم، وتفريق جماعتهم، وتضليل مَن مات منهم، وعيْب آلهتهم. فقلت: ما فعل هذا إلا رجل به جنة.. فقال رسول الله ﷺ: «الحمد لله: أحمده وأستعنيه، وأُومن به وأتوكل عليه. مَنْ يهدِهِ اللَّهُ فلا مضلَّ له. ومَن يضلله فلا هاديَ له. وأشهد أن لا إلّه إلّا الله، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله». قال ضماد فسمعت كلاماً لم أسمع كلاماً قطّ أحسن منه. فاستعدته الكلام فأعاد عليّ، فقلت: إلَامَ تدعو؟ قال: «إلى أن تؤمنَ بالله

= وزاد أيضاً: «ولقد بلغن قاموس البحر» يريد كلماته.

أنبأنا، أبو عبد اللّه الحافظ قال: حدّثنا أبو عبد اللّه بن يعقوب بن يونس، قال: حدّثني أبو محمد بن المتني، قال حدّثني عبد الأعل فذكره بزيادته ومعناه، وروى عن يزيد بن زريع عن داود بن أبي هند بزيادته.

وزيد أيضاً: ونؤمن بالله ونتوكل عليه، ونعود بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا.

وحده لا شريك له، وتخلعَ الأوثان من رقبتك، وتشهدَ أني رسول الله». فقلت: فماذا لي إن فعلت؟ قال: «لك الجنة». قلت: فإني أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأخلعُ الأوثان من رقبتي، وأبرأ منها. وأشهد أنك عبد اللّه ورسوله. فأقمت مع رسول الله ﷺ، حتى عُلِّمتُ سوَراً كثيرة من القرآن، ثم رجعت إلى قومي. قال عبد اللّه بن عبد الرحمن العدوي: فبعث رسول الله ﷺ، عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، في سرية، وأصابوا عشرين بعيراً بموضع، واستاقوها. وبلغ عليَّ بن أبي طالب أنهم قوم ضماد، فقال: ردّوها إليهم فَرُدَّت.

النـــــجاشي

قال ابن إسحاق: حدّثني محمد بن مسلم الزهري، عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي، عن أم سَلَمة بنت أبي أمية بن المغيرة، زوج رسول الله ﷺ قالت:

«لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار: النجاشي، أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى: لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم: أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جلدين، وأن يهْدُوا للنجاشي هدايا مما يُسْتَطْرَفُ من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد اللّه بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلّما النجاشي فيهم، ثم قدّما إلى النجاشي هداياه، ثم اسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلّمهم، قالت: فخرجا حتى قدِما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار عند خير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلّما النجاشي، وقالا لكل بطريق

منهم: إنه قد ضوى إلى بلد المَلِك منّا غلمانُ سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم. وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم إليهم، فإذا كلّمنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأن يسلّمهم إلينا ولا يكلّمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم إنهما قدّما هداياهما إلى النجاشي، فقبلها منهما، ثم كلّماه فقالا له:

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء: فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعوه: لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردّهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه، قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد اللّه بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، فقالت بطارقته حوله: صدقاً أيها الملك: قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بنا عابوا عليهم، فأسلِمهُم إليهما، فليردُّوهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي، ثم قال:

الله!! إذن لا أسْلِمهُمْ إليهما، ولا يكَادُ قوم جاوروني، ونزلوا بلادي واختاروني على مَن سواي حتى أدعوَهم، فأسألَهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

حوار بين النجاشي وبين المهاجرين

قالت: ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلما جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول والله ما عِلْمنَا وما أَمَرَنَا به نبيّنا ﷺ: كائناً ذلك ما هو كائن. فلما جاءوا - وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله - سألهم، فقال لهم:

ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب، فقال له:

أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية: نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف. فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا: نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله، لنوحِّدَه ونعبدَه، ونخلعَ ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه، من الحجارة والأوثان.

وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفّ عن المحارم والدماء؛ ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات.

وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. .

قالت: فعدّد أمور الإسلام - فصدّقناه وآمنّا به، واتّبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نُشْرِك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحلَلْنا ما أحلّ لنا، فعَدَا علينا قومنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا؛ ليردّونا

إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنّا عليه من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على مَن سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك. قالت:

فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال النجاشي فأقرأه عليّ، قالت: فقرأ عليه صدراً من ﴿ كهيعص ﴾. قالت:

فبكى والله النجاشي، حتى اخضلّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي:

إن هذا والذي جاء به عيسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلّمهم إليكما ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأتينّه غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم..

قالت: فقال له عبد اللّه بن أبي ربيعة ـ وكان أنقى الرجلين فينا ـ لا تفعل فإن لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال:

والله لأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد اللّه، قالت:

ثم غدا عليه من الغد.

فقال له: أيها الملك! إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً، فأرسِلْ إليهم فَسَلْهُم عمّا يقولون فيه.

قالت: فأرسل إليهم، ليسألهم عنه. فقالت:

ولم ينزل بنا مثلها قطّ، فاجتمع القوم ثم قال بعضهم لبعض: ماذا

تقولون في عيسى بن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا:

نقول: ـ والله ـ (فيه) ما قال الله، وما جاءنا به فنهينا، كائناً في ذلك ما هو كائن. قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟ قالت: فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبيّنا ﷺ:

هو عبد اللّه ورسوله، ورُوحه، وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت:

فضرب النجاشي بيده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال:

والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود، قالت:

فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال:

وإن نخـرتم. . والله، اذهبوا فـأنتم شيوم بـأرضي ـ والشيوم: الآمنون ـ من سبكم غَرِم، ثم قال:

مَن سبّكم غَرِم، ثم قال: من سبكم غَرِم. ما أحِبُّ أنَّ لي ديراً من ذهب، وأنّي آذيت رجلاً منكم.

قال ابن هشام:

ويقال دبري من ذهب، ويقال: فأنتم شيَوم، والدبر بلسان الحبشة الجبل ـ ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها. . قالت:

فخرجا من عنده مقبوحَين، مردوداً عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

قالت: فوالله، إنّا على ذلك إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في ملكه، قالت:

فوالله، ما علمتُنَا حَزِنَّا حُزْناً قطّ، كان أشدَّ علينا من حُزْنٍ حَزِنَّاه عند ذلك، تخوُّفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي، فيأتي رَجلٌ لا يعرفُ من حقّنا ما كان النجاشي يعرف منه، قالت:

وسار إليه النجاشي، وبينهما عرض النيل (النيل الأزرق).

قالت: فقال أصحاب رسول الله ﷺ.

مَن رجلٌ يخرج حتى يحضُرَ وقيعة القوم، ثم يأتينا بالخبر؟

قالت: فقال الزبير بن العوّام: أنا..

قالوا فأنت ـ وكان من أحدث القوم سنّاً ـ قالت:

فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم، ثم انطلق حتى حضرهم، قالت: فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوّه، والتمكين له في بلاده، قالت:

فوالله إنّا لَعَلَى ذلك متوقعون لما هو كائن، إذ طلع الزبير، وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول:

ألا أبشروا فقد ظَفِرَ النجاشي، وأهلَكَ الله عدوّه، ومكَّن له في بلاده.

قالت: فوالله ما علمتُنَا فَرِحنا فرحةً قطّ مثلَها.

قالت: ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوّه، ومكَّن له في بلاده،

واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنّا عنده في خير منزل، حتى قدِمنا على رسول الله ﷺ، وهو في مكة(١).

عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عبد اللّه بن مسعود يقول: ما كنّا نقدر على أن نصلّي عند الكعبة، حتى أسلم عمر بن الخطاب، فلما أسلم، قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة، وصلّينا معه. وكان إسلام عمر بعد خروج مَن خرج من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة. قال عبد اللّه بن مسعود:

إن إسلامَ عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة.

ولقد كنّا ما نصلّي عند الكعبة حتى أسلمَ عمر، فلما أسلم، قاتل قريشاً حتى صلّى عند الكعبة، وصلّينا معه. قال ابن إسحاق:

وكان إسلامُ عمر ـ فيما بلغني ـ أن أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر، وكان نُعيم بن عبد اللّه النَّحام من مكة، رجل، من بني عديّ بن كعب قد أسلم، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خبَّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه، يريد رسول الله ﷺ، ورهطاً من أصحابه، قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ، عمّه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قُحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين رضي الله

---

(١) الروض الأنف جـ٣، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٩.

عنهم، ممّن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكّة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نُعيم بن عبد اللّه، فقال له:

أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابىء، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله. فقال له نعيم:

والله ولقد غرّتك نفسُك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟. قال: وأي أهل بيتي؟

قال: خَتَنُك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك: فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعاً محمداً على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامداً إلى أُخته وختنه، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة، فيها: «طه» يقرئهما إياها، فلما سمعوا حسّ عمر، تغيب خباب في مخدع لهم ـ أو في بعض البيت ـ وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة، فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: ما هذه الهينمةُ التي سمعت؟

قال: ما سمعت شيئاً؟

قال: بلى والله لقد أخْبِرتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أُخته فاطمة بنت الخطاب لتكفَّه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنهُ:

نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدَّمِ، ندم على ما صنع، فارعوى، وقال لأخته:

أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً: انظر ما هذا

الذي جاء به محمد؟ وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك، قالت له أخته:

إنّا نخشاك عليها؟

قال: لا تخافي؛ وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له:

يا أخي، إنك نجس، على شركك، وإنه لا يمسّها إلا الطاهر.

فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: «طه»، فقرأها فلما قرأ منها صدراً، قال: ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرَمَه!! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه، فقال له:

يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيّه. فإني سمعته أمس، وهو يقول: اللّهمّ أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب... فاللَّهَ اللَّهَ يا عمرَ... فقال له عند ذلك عمر:

فدلّني يا خباب على محمد حتى آتيه، فأسلم. فقال له خباب:

هو في بيت الصفا، معه فيه نَفَر من أصحابه.

فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثم عَمَدَ إلى رسول الله ﷺ، وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ، وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف. فقال حمزة بن المطلب:

فَأذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان جاء يريد شرّاً قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ﷺ:

ائذَن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ، حتى لقيه

في الحجرة، فأخذ بحُجْزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه بـه جبذة شديدة، وقال:

ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله، ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر:

يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قـال: فكبّر رسـول الله ﷺ تكبيرة، عـرَف أهل البيت من أصحـاب رسول الله ﷺ، أن عمر قد أسلم.

وحديث إسلام عمر، وإن كان من أحاديث السير، فقد خرّجه الدارقطني في سننه، غير أنه خرج أيضاً من طريق أنس أن أخت عمر قالت له:

إنكَ رِجْسٌ، ولا يمسّه إلا المطهَّرون. فقم فاغتسل أو توضأ؛ فقام فتوضأ، ثم أخذ الصحيفة، وفيها سورة طه.

ففي هذه الرواية: أنه كان وضوءاً، ولم يك اغتسالاً.

وفي رواية يونس: أن عمر حين قرأ في الصحيفة سورة طه انتهى منها إلى قوله:

﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾[1].

فقال: ما أطيب هذا الكلام وأحسنه! وذكر هذا الحديث بطوله، وفيه:

أن الصحيفة كان فيها مع سورة طه: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾[2]. وأن عمر انتهى في قراءتها إلى قوله: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴾[3].

---

(١) طه: ١٥. (٢) التكوير: ١.

(٣) التكوير: ١٤. انظر الروض الأنف جـ٣، ص ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٦، ٢٧٧.

عن عمـــر:

عن عبد اللّٰه بن هشام قال:

«كنّا مع النبيّ ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر:

يا رسول الله، لأنت أحبّ إليّ من كل شيء إلا نفسي»، فقال النبيّ ﷺ:

«لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحبّ إليك من نفسك»..

قال عمر: فأنت الآن ـ والله ـ أحبُّ إليّ من نفسي..

فقال النبيّ ﷺ: «الآن يا عمر»[1]..

قال عبد اللّٰه بن مسعود: «ما زلنا أعزةً منذ أسلم عمر»[2].

وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ قال لأصحابه العرب في الشام ـ وهم كبار الصحابة، وقادة الفتح الإسلامي، وقد عابوه ببعض صنيعه ـ تواضعه ـ الذي لا يتفق مع رئيس حكومة كبيرة ـ: «إنكم كنتم أذلَّ الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمتى تطلبوا العزّ بغيره يذلّكُم الله».

وكان عمر صاحب فراسة:

عن عبد اللّٰه بن عمر قال:

«ما سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لشيء قطّ: إني

---

(١) الوفا جـ ١، ص ٣٨٢.

(٢) البخاري في الصحيح.

لأظن كذا وكذا، (إني لأظنه كذا) إلا كان كما يظن..

وعن عبد اللّه بن عمر قال:

«ما سمعت عمر رضي الله عنه يقول لشيءٍ قط: «إني لأظنه كذا» إلا كان كما يظن، بينما كان عمر جالساً إذ مرّ به رجل جميل فقال: لقد أخطأ ظنّي، أو أن هذا على دينه في الجاهلية، أو لقد كاهنَهم... عليَّ الرجل، فَدُعيَ له، فقال له عمر: لقد أخطأ ظنّي، أو إنك على دينك في الجاهلية، أو لقد كنت كاهنَهم.. فقال: ما رأيتُ كاليوم استُقْبِلَ به رجلٌ مسلم، قال: فإني أعزم عليك إلاَّ ما أخبرتني.. قال: كنت كاهنَهم في الجاهلية[1].

وعن ابن عمر قال:

بينما عمر رضي الله عنه جالس إذ رأى رجلاً فقال: قد كنت مرة ذا فراسة، وليس لي رأيٌ إن لم يكن قد كان هذا الرجل ينظر ويقول في الكهانة، ادعوه لي، فدعَوْه، فقال: من أين قدمت؟.. قال: من الشام.. قال: فأين تريد؟.. قال: أردت هذا البيت ولم أكن أخرج حتى آتيَك، فقال عمر: ألا تخبرني عن شيء أسألك عنه؟.. قال: بلى.. قال: هل كنت تنظر في الكهانة شيئاً؟.. قال: نعم..

عبد اللّه بن سلام

عن يحيى بن عبد اللّه، عن رجل من آل عبد اللّه بن سلام، قال:

كان من حديث عبد اللّه بن سلام حين أسلم، وكان حَبراً عالماً قال:

(١) دلائل النبوّة جـ٢، ص ٢٥ تحقيق عبد الرحمن عثمان، ط المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

لما سمعت رسول الله ﷺ، وعرفت صفته واسمه وهيئته، والذي كنّا نتوقف له، فكنت مُسرّاً لذلك، صامتاً عليه، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمّتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة. فلما سمعْتُ الخبر بقدوم رسول الله ﷺ، كبَّرْت، فقالت لي عمّتي حين سمعت تكبيري: لو كنتَ سمعتَ بموسى بن عمران ما زاد؟ قال قلت لها: أي عمّة، هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه: بعث بما بعث به، قال فقالت: يا ابن أخي، أهو النبيّ الذي كنّا نُخْبرُ به. أنه يُبْعَثُ مع بَعث الساعة قال: قلت لها نعم. قالت فذاك إذاً... قال: ثم خرجتُ إلى رسول الله ﷺ، فأسلمتُ ثم رجعتُ إلى أهل بيتي فأمرتهم، فأسلموا، وكتمت إسلامي من اليهود، ثم جئتُ رسول الله ﷺ، فقلت:

إن اليهود قوم بُهُتٌ، وإني أحِب أن تُدخِلَني في بعض بيوتك: تغيبني عنهم، ثم تسألهم عنّي؛ فيخبرونك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إن علموا بذلك، بهتوني وعابوني، قال: فأدخلني بعض بيوته، فدخلوا عليه فكلموه، وسألوه، قال لهم: أي رجل عبد اللّه بن سلام فيكم؟ قالوا: سيّدنا، وابن سيّدنا، وحَبْرُنا، وعالمنا.

قال: فلما فرغوا من قولهم، خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله وأقبلوا ما جاءكم به. فواللّه إنكم لتعلمون أنه رسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله، وأؤمن به، وأصدقه وأعرفه، قالوا: كذبت.. ثم وقعوا فيّ.

قال: فقلت يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بُهُتٌ؟ أهل غدر، وكذب، وفجور؟ قال: فأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتي، وأسلَمَتْ

عمّتي ابنة الحارث فحسن إسلامها»[١].

* * *

وهذه رواية أخرى عن إسلام عبد اللَّه بن سلام لا تناقض الأولى وإنما تؤيدها وتفسرها.

سمع به (برسول الله ﷺ) عبد اللَّه بن سلام وهو في نخل لأهله يخترف لهم[٢] منه، فعجّل أن يضع التي يخْترف[٣] فيها، فجاء، وهي معه فسمع من نبيّ الله ﷺ، ثم رجع إلى أهله، فقال نبيّ الله ﷺ: «أي بيوت أهلنا أقرب»؟. قال: فقال أبو أيوب: أنا يا نبيّ الله، هذه داري، وهذا بابي. فقال: اذهب فهيّء لنا مقيلاً. فذهب فهيأ لهما مقيلاً، ثم جاء فقال: يا نبيّ الله، قد هيّأت لكما مقيلاً، قوما على بركة الله فقيلا.

قال: فلما جاء نبيّ الله ﷺ، جاء عبد اللَّه بن سلام رضي الله عنه، فقال:

أشهد أنك رسول الله حقاً، وإنك جئتَ بحق، ولقد علمتْ يهود أني سيدُهم، وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعُهم فسَلْهم عنّي قبل أن يعلموا أني قد أسلمت؛ فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت، قالوا فيّ ما ليس فيّ، فأرسل نبي الله ﷺ إليهم، فدخلوا عليه، فقال لهم نبيّ الله ﷺ: يا معشر يهود، ويلكم اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أني رسول الله حقاً، وإني جئتكم بحق. أسلموا!!!.

قالوا: ما نعلمه. فأعاد ذلك عليهم ثلاثاً، ثم قال: فأيّ رجل فيكم

---

(١) انظر دلائل النبوّة جـ٢، ص ٢٥١ ـ ٢٥٣.
(٢) اخترف الثمر: جناه.
(٣) الآنية التي يجنى فيها الثمر.

عبد اللّه بن سلام؟ قالوا: ذاك سيّدنا، وابن سيّدنا، وأعلمنا، وابن أعلمِنا.

قال: أفرأيتم إن أسلم؟ قالوا: حاش لله، ما كان ليسلم.

قال: يا ابن سلام، أخرج عليهم! فخرج عليهم، فقال: يا معشر يهود، ويلكم، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو، إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقاً، وأنه جاء بحق. فقالوا: «كذبت، فأخرجهم رسول الله ﷺ»(١).

وعن الترمذي وابن نافع وغيرهما بأسانيدهم: أن عبد اللّه بن سلام قال: لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة، جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب(٢).

زيد بن سعنة وعلامات النبوّة

قال عبد اللّه بن سلام: إن الله عزّ وجل، لما أراد هدي زيد بن سعنة، قال زيد بن سعنة: إنه لم يبقَ من علامات النبوّة شيء، إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ، حين نظرت إليه، إلا اثنين لم أخْبرْهُما منه: يسبق حلمه جهلَه، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. فكنت أتلطف له؛ لأن أخالطه فاعرف حلمه وجهله. قال: فخرج رسول الله ﷺ، يوماً من الحجرات ومعه علي بن أبي طالب، فأتاه رجل على راحلته كالبدوي. فقال: يا رسول الله، إن قرية بني فلان قد أسلموا ودخلوا في الإسلام، فكنتُ حدّثتهم: أنهم ـ إن أسلموا ـ أتاهم الرزق رغَداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحوط من الغيث. وإني أخشى يا رسول

(١) دلائل النبوّة جـ٢، ص ٢٤٩، ٢٥٠.
(٢) الشفاء ص ٢٠٧.

أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً، فإن رأيت أن ترسلَ إليهم بشيء تعينهم به؟ قال فنظر رسول الله ﷺ، إلى رجل إلى جانبه أراه عليّاً، فقال: ما بقي منه شيء يا رسول الله. قال زيد بن سعنة: فدنوت إليه، فقلت له يا محمد، هل لك أن تبيعني تمراً معلوماً من حائط بني فلان إلى أجل كذا وكذا؟ فقال: لا يا يهودي، ولكن أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل كذا وكذا، ولا أسمّي حائط بني فلان. قال فقلت نعم، فبايَعني فأطلقت همياني فأعطيته ثمانين مثقالاً. من ذهب في تمر معلوم إلى أجل كذا وكذا، فأعطى الرجل، وقال: أعجل عليهم وأغثهم بِمَالِ زيد بن سعنة. فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، فخرج رسول الله ﷺ، في جنازة رجل من الأنصار، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، في نفر من أصحابه، فلما صلّى على الجنازة ودنا من جدار ليجلس إليه، أتيته فأخذت بجوامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، وقلت: ألا تقضيني يا محمد حقّي. فوالله، ما علمتكم يا بني عبد المطلب إلا لمطل، وقد كان لي بخالطتكم علم. قال فنظر إليَّ عمر بن الخطاب وعيناه تدوران في وجهه كالفلك المستدير. ثم رماني بطرفه وقال: يا عدوَّ الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ وتفعل به ما أرى؟ فوالذي بعثه بالحق، لولا ما أحاذر فوته، لضربت بسيفي رأسك. ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم. ثم قال: أنا وهو كنّا أحوجَ إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحُسن التقاضي. اذهبْ به يا عمر فاقضِهِ حقه، وزده عشرين صاعاً مكان ما رعته.

قال زيد فذهب بي عمر فقضاني حقي، وزادني عشرين صاعاً من تمر، فقلت ما هذه الزيادة؟ فقال أمرني رسول الله ﷺ، أن أزيدك، مكان ما رعتك. فقلت: أتعرفني يا عمر؟ قال: لا، فمَن أنت؟فقلت: أنا زيد بن سعنة. قال: الحَبر. قلت: الحبر. قال فما دعاك أن تقول

لرسول الله ﷺ ما قلت، وتفعل به ما فعلت؟ قلت يا عمر، كل علامات النبوّة قد عرفت في وجه رسول الله ﷺ، حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً. فقد أَخْبرتُهُمَا. فأشهدك يا عمر إني قد رضيت بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيّاً، وأشهدك أن شطر مالي - فإني أكثرها مالاً - صدقةٌ على أمةِ محمد ﷺ. فقال عمر أو على بعضهم، فإنك لا تسعهم كلهم. قلت: أو على بعضهم. قال: فرجع عمر وزيد إلى رسول الله ﷺ، فقال زيد: أشهد أن لا إلَه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، فآمن به وصدقه وتابعه، وشهد مع رسول الله ﷺ، مشاهد كثيرة. ثم قتل في غزوة تبوك: شهيداً مقبلاً غير مدبر رحمه الله.

سلمان الفارسي رضي الله عنه

عن محمد بن إسحاق قال: حدّثني عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد، عن ابن عباس قال: حدّثني سلمان الفارسي قال:

كنت رجلاً من أهل فارس، من أهل أصبهان من قرية يقال لها: «جيٍ»، وكان أبي دهقان أرضه(1)، وكان يحبني حبّاً شديداً: لم يحبّه شيئاً من ماله ولا ولده، فما زال به حبه إياي حتى حبسني في بيت كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية، حتى كنت قاطن النار الذي يوقدها ولا يتركها تخبو ساعة. فكنت كذلك: لا أعلم من أمر الناس شيئاً إلا ما أنا فيه. حتى بنى أبي بُنياناً له، وكانت له ضيعةٌ فيها بعض العمل، فدعاني فقال: أي بني، إنه قد شغلني ما ترى من بنياني عن ضيعتي هذه، ولا بدّ من اطّلاعها، فانطلِقْ إليها، فمرهم بكذا وكذا، ولا تحتبس عنّي، فإنك إن احتبست عنّي، شغلتني عن كل شيء، فخرجت أريد

(1) أي سيد أهل بلده ص ٣٥٨ دلائل النبوّة.

ضيعته، فمررت بكنيسة النصارى، فسمعت أصواتهم فيها، فقلت: ما هذا؟ فقالوا هؤلاء النصارى يصلون. فدخلت أنظر، فأعجبني ما رأيت من حالهم، فوالله ما زلت جالساً عندهم حتى غربت الشمس، وبعثَ أبي في طلبي في كل وجه حتى جئته حين أمسيت، ولم أذهب إلى ضيعته، فقال أبي: أين كنت؟ ألم أكن قلت لك لا تحتبس عنّي، فقلت:

يا أبتاه! مررت بناس يقال لهم: النصارى، فأعجبني صلاتهم ودعاؤهم فجلست أنظر كيف يفعلون؟

فقال: أي بنيّ، دينك ودين آبائك خير من دينهم.

فقلت: لا والله، ما هو بخير من دينهم، هؤلاء قوم يعبدون الله، ويدعونه ويصلّون له. ونحن إنما نعبد ناراً نوقدها بأيدينا، إذا تركناها ماتت فخافني، فجعل في رجلي حديداً، وحبسني في بيت عنده، فبعثت إلى النصارى، فقلت لهم:

أين أصلُ هذا الدين الذي أراكم عليه؟ فقالوا: بالشام. فقلت: فإذا قدم عليكم من هناك ناس فأذِنُوني. فقالوا: نفعل. فقدِم عليهم ناس من تجّارهم، فبعثوا إلى أنه قد قدِم علينا تجّار من تجّارنا فبعثت إليهم إذا قضَوْا حوائجهم وأرادوا فأذِنُوني بالخروج فقالوا: نفعل. فلما قضَوْا حوائجهم وأرادوا الرحيل، بعثوا إليّ بذلك، فطرحت الحديد الذي في رجلي، ولحقت بهم. فانطلقت معهم حتى قدِمت الشام، فلما قدِمتها سألت: مَن أفضل أهل هذا الدين؟ فقالوا: الأسقف صاحب الكنيسة، فجئته، فقلت له: أني أحببت أن أكون معك في كنيستك، وأعبدَ الله فيها معك، وأتعلم منك الخير. قال: فكن معي. قال: فكنت معه، وكان رجل سوء: كان يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعها إليه

اكتنزها ولم يعطها المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً لمَا رأيت من حاله، فلم يَنْشَبْ أن مات، فلما جاءوا ليدفنوه قلت لهم: إن هذا رجلُ سوء. وكان يأمركم بالصدقة ويرغّبكم فيها، حتى إذا جمعتموها إليه، اكتنزها ولم يعطها المساكين، فقالوا: وما علامة ذلك؟ فقلت: أنا أخرج لكم كنزها، فقالوا: فهاته؛ فأخرجتُ لهم سبع قلال مملوءة ذهباً وَوَرِقاً، فلما رأوا ذلك. قالوا: والله لا يُدْفَن أبداً. . فصلبوه على خشبة ورمَوْه بالحجارة، وجاءوا برجل آخر فجعلوه مكانه فلا والله ـ يا ابن عباس ـ ما رأيت رجلاً قطّ لا يصلّي الخمس، أرى أنه أفضل منه وأشدّ اجتهاداً ولا زهادة في الدنيا، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، ما أعلمني أحببت شيئاً قطّ قبله حبه. فلم أزل معه حتى حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان قد حضرك ما ترى من أمر الله، وإني والله ما أحببت شيئاً قطّ حبك، فماذا تأمرني؟ وإلى مَن توصيني؟ فقال لي: أي بني، والله ما أعلمه إلا رجلاً بالموصل فأته، فإنك ستجده على مثل حالي. فلما مات وغيب، لحقت بالموصل فأتيت صاحبها فوجدته على مثل حاله من الاجتهاد والزهادة في الدنيا، فقلت له: إن فلاناً أوصى بي إليك أن آتيك وأكون معك. قال: فأقم أي بني، فأقمت عنده على مثل أمر صاحبه حتى حضرته الوفاة، فقلت له: إن فلاناً أوصى بي إليك وقد حضر لك من أمر الله ما ترى، فإلى مَن توصيني؟ قال: والله ما أعلمه أي بني، إلا رجلاً بنصيبين، وهو على مثل ما نحن عليه، فالحِق به، فلما دفناه لحقت بالآخر، فقلت له: يا فلان، إن فلاناً أوصى بي إلى فلان وفلان أوصى بي إليك. قال: فأقم يا بني؟.

فأقمت عنده على مثل حالهم حتى حضرته الوفاة. فقلت له: يا فلان، إنه قد حضرك من أمر الله ما ترى، وقد كان فلان أوصى بي إلى فلان، وأوصى بي فلان إلى فلان، وأوصى بي فلان إليك، فقال: أي

بني، والله ما أعلم أحداً على مثل ما نحن عليه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم، فأتِهِ، فإنك ستجده على مثل ما كنّا عليه. فلما واريته خرجت حتى قدمت على صاحب عمورية، فوجدته على مثل حالهم، فأقمت عنده واكتسبت حتى كانت لي غُنَيْمَةٌ وبقرات. ثم حضرته الوفاة، فقلت: يا فلان إن فلاناً (كان) أوصى بي إلى فلان، وفلان إلى فلان، وفلان إليك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله (تعالى) فإلى مَن توصيني؟ قال: أي بني، والله ما أعلمه بقي أحد على مثل ما كنّا عليه، آمرك أن تأتيه.. ولكنه قد أظلك زمانه نبي يُبْعَثُ من الحرم، مهاجره بين حرَاثين إلى أرض سبخة ذات نخيل، وإن فيه علامات لا تخفى: بين كتفيه خاتم النبوّة، يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، فإن استطعت أن تخلص إلى تلك البلاد فافعل، فإنه قد أظلّك زمانه.

فلما واريناه، أقمت حتى مرّ بي رجال من تجّار العرب من كلب. فقلت لهم تحملونني معكم إلى أرض العرب، وأعطيكم غُنَيْمَتي هذه وبقراتي؟ قالوا نعم، فأعطيتهم إياها وحملوني، حتى إذا جاءوا بي وادي القرى، ظلموني فباعوني عبداً من رجل من يهود بوادي القرى. فوالله، لقد رأيت النخل وطمعت أن يكون البلدَ الذي نُعِتَ لي صاحبي. وما حقّت عندي حتى قدِم رجل من بني قريظة من وادي القرى، فابتاعني من صاحبي الذي كنت عنده، فخرج بي حتى قدِم بي المدينة فوالله، ما هو إلا أن رأيتها فعرفت نعمتها، فأقمت في رقى مع صاحبي، وبعث الله رسوله ﷺ بمكة، لا يذكر لي شيء من أمره، مع ما أنا فيه من الرقّ، حتى قدِم رسول الله ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخلة له. فوالله إني لفيها إذ جاء ابن عم له فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة[1] والله، إنهم ـ الآن ـ لفي قباء مجتمعون على رجل جاء من مكة، يزعمون أنه نبيّ.

---

(١) هم الأوس والخزرج ص٣١٢ دلائل النبوّة.

فوالله، ما هو إلا أن سمعتهما، فأخذتني العرواء ـ يقول الرعدة ـ حتى ظننت لأسقُطَنَّ على صاحبي، ونزلت أقول: ما هذا الخبر؟. ما هو؟. فرفع مولاي يده فلكمني لكمة شديدة، وقال: ما لك ولهذا؟ أقبِلْ على عملك، فقلت: لا شيء، إنما سمعت خبراً فأحببت أن أعلمه. فلما أمسيتُ ـ وكان عندي شيء من طعام ـ فحملته وذهبت إلى رسول الله ﷺ، وهو بقباء. فقلت: إنه (قد) بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحاباً لك غرباء ـ وقد كان عندي شيء من الصدقة. فرأيتكم أحقَّ مَن بهذه البلاد به. فها هو ذا فكُلْ منه؟. فأمسك رسول الله ﷺ يده، وقال لأصحابه: كُلوا، ولم يأكل. فقلت ـ في نفسي ـ هذه خلّة مما وصف لي صاحبي، ثم رجعت، وتحوّل رسول الله ﷺ، إلى المدينة، فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئته به، فقلت: إني قد رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية وكرامة ليست بالصدقة. فأكَلَ رسول الله ﷺ وأكل أصحابه، فقلت: هذه خلّتان، ثم جئت رسول الله ﷺ، وهو يتبع جنازة وعليَّ شملتان لي، وهو في أصحابه، فاستدرت به لأنظر إلى الخاتم في ظهره، فلما رآني رسول الله ﷺ استدبرته، عرف أني استثبت شيئاً قد وُصِفَ لي، فوضع رداءه عن ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه؛ كما وصف لي صاحبي، فأكببت عليه أقبّله وأبكي، فقال لي: تحوّل يا سليمان، هكذا.. فتحوّلت فجلست بين يديه. وأحبَّ أن يسمع أصحابه حديثي عنه، فحدّثته يا ابن عباس كما حدّثتك، فلما فرغت، قال رسول الله ﷺ: كاتب يا سلمان، فكاتبت صاحبي على ثلثمائة نخلة أحييها، وأربعين أوقية، وأعانني أصحاب رسول الله ﷺ بالنخل: الرجل بثلاثين ودية[٢] وعشرين ودية وعشر، كل رجل منهم على

---

(١) فقد بتشديد القاف: حفر لزرع مسائل النخل.

(٢) الودية بكسر الدال وتشديد الياء الفسيلة الصغيرة.

قـدر ما عنـده، فقال لي رسـول الله ﷺ[1] فقر لهمـا، فإذا فـرغت فآذني، حتى أكون أنا الذي أضعها بيدي، فنقرتها وأعانني أصحابي. ـ يقـول: حفرت لهـا حيث تـوضـع ـ حتى فـرغنـا منهـا، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، قد فرغنا منها فخرج معي حتى جاءها، وكنّا نحمل إليه الودى، ويضعه بيده ويسوّي عليها، فوالذي بعثه بالحق، ما ماتت منها وديّة واحدة، فأدّيت النخل وبقيت على الدراهم، فـأتاه رجـل من بعض المعـادن بمثـل البيضـة من الـذهـب، فقـال رسول الله ﷺ: أين الفارسي المسلم المكاتب؟ فَدُعِيت له فقال: هذه يا سلمان، فأدّها مما عليك. فقلت: يا رسول الله، وأين تقع هذه مما عليَّ؟ قال فإن الله تعالى سيؤدّي بها عنك. فوالذي نفس سلمان بيده، لَوَزَنتُ لهم منها أربعين أوقية فأدّيتها إليهم، وكان الرقّ قد حبسني، حتى فاتني مع رسول الله ﷺ: «بَدْرٌ» و«أُحُدٌ»، ثم عُتِقْتُ، فشهِدْتُ: الخندق، ثم لم يفتني معه مشهد»[1]اهـ.

وقـال النضر بن الحرث لقريش: قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغَيه الشيبَ، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم: ساحر. لا واللَّهِ ما هو بساحر[2].

أخرج الواحدي، عن مقاتل، قال:

كان الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، يكذب النبيّ ﷺ في العلانية، فإذا خلا مع أهل بيته، قال: ما محمد ﷺ من أهل الكذب، ولا أحسبه إلا صادقاً، فأنزل الله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ

---

(١) راجع النص في دلائل النبوّة جـ ١، ص ٣٥٨ ـ ٣٦٤.

(٢) الشفا ص ١٠٥ وروى هذا بصورة أكثر استفاضة وإن كان الجوهر واحداً.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾[1].

عن أنس بن مالك، قال:

«بينما نحن جلوس مع النبيّ - ﷺ - في المسجد، دخل رجل على جمل، فأناخه في المسجد، ثم عقله، ثم قال لهم: أيّكم محمد؟.. والنبيّ ﷺ متكىء بين ظَهْرانيهم. فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكىء.. فقال له الرجل: ابنَ عبدِ المطلب؟.. فقال النبيّ - ﷺ -: قد أجبتك. فقال الرجل للنبيّ - ﷺ -: إني سائلك، فمشدّد عليك في المسألة، فلا تجد عليّ في نفسك.

فقال سَلْ عمّا بدا لك.. فقال: أسألك بربك وربّ مَن قبلَك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟.. فقال: اللّهمّ نعم..

قال: أنشُدُكَ بالله، آلله أمركَ أن تصلّي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟.. قال: اللّهمّ نعم..

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تصوم هذا الشهرَ من السنة؟ قال: اللّهمّ نعم..

قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقَةَ من أغنيائنا فتقسمَهَا على فقرائنا؟.. فقال النبيّ - ﷺ -: «اللّهمّ نعم».

فقال الرجل: آمنتُ بما جئتَ به، وأنا رسولُ، مَن ورائي قومي، وأنا ضِمامُ بن ثعلبة، أخو بني سعد بن بكر...

(١) الأنعام: ٣٣.

ونيسرك لليسرى

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل العاشر

مواقــف

وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ

مــــــواقف[1]

- ١ -

الجهر بالدعوة:

عن ابن عباس قال: لما أنزلت: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾[2] صَعدَ رسول الله ﷺ، على الصفا فقال: «يا معشَرَ قُريش». فقالت قريشٌ: محمد على الصَّفَا يهتف، فأقبلوا واجتمعوا فقالوا: ما لك يا محمد؟ قال:

«أرأيتُكم أو أخبرتَكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم تصدقوني»؟ قالوا: نعم. أنت عندنا غيرُ متّهم، وما جرَّبْنا عليك كذباً قطّ. قال:

«فإني نذيرٌ لكم بين يدَيْ عذابٍ شديد، يا بني عبد المطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهرة، حتى عدّد الأفخاذ من قريش:

---

(١) هذه المواقف التي نذكرها هنا تبيّن اليقين المطلق عند الرسول ﷺ برسالته، وتبيّن قوة ثقة أصحاب رسول الله ﷺ بالرسول، وقوة إيمانهم بالرسالة، وهي إجابة عن سؤال هرقل: هل يرتدّ أحد منهم سخطة لدينه؟

(٢) الشعراء: ٢١٤.

«إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين. وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعةً، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا: لا إله إلّا الله»[1].

* * *

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قام رسول الله ﷺ، حين أنزل الله عزّ وجل: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾. قال: يا معشر قريش، أو كلمة نحوها: اشتَرُوا أنفسَكم، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب، لا أغنى عنكَ من الله شيئاً، ويا صفيةُ عمةَ رسول الله، لا أغنى عنكِ من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد[2] سليني ما شئتِ من مالي، لا أغنى عنكِ من الله شيئاً»[3]اهـ.

- ٢ -

الاستمرار في الدعوة:

تتحدث كتب السيرة عن سَعْي قريش إلى أبي طالب؛ لِيَنهى محمداً ﷺ، عن الاستمرار في الدعوة.

ولما التقى القرشيون به، قالوا: يا أبا طالب، إن ابنَ أخيك قد سبّ آلهتَنا، وعاب دينَنا، وسفّه أحلامَنا، وضلّل آباءَنا، فإمّا أن تكُفَّه عنّا، وإما أن تخلِيَ بيننا وبينه - فإنك على مثلِ ما نحن عليه من خِلافه - فنكفيكَه؟ قال لهم أبو طالب، قولاً رفيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

---

(١) الطبقات: ١٨٤.
(٢) ﷺ، كذا في اليونانية من غير رقم ولا تصحيح.
(٣) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٧ - ٨، جـ ١ الشعب.

ومضى رسول الله ﷺ، على ما هو عليه: يظهر دين الله، ويدعو إليه. ثم شرى الأمر بينه وبينهم، حتى تباعد الرجال، وتضاغنوا، وأكثرت قريش ذكرَ رسول الله ﷺ بينها، فتذامروا فيه، وحضّ بعضهم بعضاً عليه، ثم إنهم مشَوْا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا. وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَه عنّا، وإنّا والله، لا نصبرُ على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفَّه عنّا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلِكَ أحدُ الفريقين، أو كما قالوا له. ثم انصرفوا عنه. فعظم على أبي طالب فراقُ قومه وعداوتهم، ولم يَطِبْ نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانِه.

* * *

فبعث إلى رسول الله ﷺ، فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأبْقِ عليَّ، وعلى نفسك، ولا تحمِّلْني من الأمر ما لا أطيق:

فظن رسول الله ﷺ، أنه قد بدا لعمِّه فيه بُدُو، وأنه خاذلُه ومسلِمُهُ، وأنه قد ضعُف عن نُصرته والقيامِ معه. قال رسول الله ﷺ: «يا عم، والله، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته».

قال: ثم استعبر رسول الله ﷺ، فبكى، ثم قام. فلما ولّى، ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ. فقال؛ اذهَبْ يا ابن أخي، فقُلِ ما أحببتَ، فوالله، لا أسلِمُك لشيءٍ أبداً.

- ٣ -

الرسول ﷺ في الطائف:

لما تُوفيَ أبو طالب، اجترأت قريش على رسول الله ﷺ، ونالت منه، فخرج إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة، وذلك في ليالٍ بقية مِن شوّال سنة عشر من حين نُبىء رسول الله ﷺ، فأقام بالطائف عشرة أيام: لا يدع أحداً من أشرافهم إلا جاءه وكلّمه. ومحمد دعاهم إلى الإسلام أخوة ثلاثة، وهم سادة ثقيف وأشرافهم، وهم عبد ياليل، ومسعود وحبيب بنو عمرو بن عمير بن عوف. فجلس إليهم فدعاهم إلى الله، وكلّمهم لما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على مَن خالفه من قومه، فقال أحدهم: هو - يعني نفسه - يَمْرُط ثيابَ الكعبة إن كان الله أرسلك؛ وقال الآخر: أما وجد الله أحداً أرسله غيرَك؟. وقال الثالث: والله، لا أكلمك أبداً. . . لئن كنتَ رسولاً من الله - كما تقول - لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام. ولئن كنت تكذب على الله، ما ينبغي لي أن أكلمك.

فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، . . . وأغْروا به سفهاءَهم وعبيدَهم: يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجئوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف مَن كان يتبعه.

فَعَمَدَ إلى ظل حُبلة[1] من عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة: ينظران إليه، يريان ما يلقى من سفهاء أهل الطائف.

فلما اطمأن قال فيما ذكر: «اللّهمّ إليك أشكو ضَعْفَ قوّتي، وقلة

(١) الحبلة: الكرمة.

حيلتي، وهـوانـي على النـاس، يـا أرحم الـراحمين، أنـت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَن تكِلني؟ إلى بعيدٍ يتجهمني، أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي.. ولكنَّ عافيتك هي أوسعُ لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزِلَ بي غضبَك أو يَحُلَّ على سخَطك، لك العُتبى حتى ترضى، ولا حولَ ولا قوة إلا بك»[1].

فلما رأى ابنا ربيعة: عتبةُ وشيبةُ ما لَقى، دعَوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له: عدَّاس فقالا له: خذ قِطْفاً من هذا العنب، فضَعه في ذلك الطبق، ثم اذهبْ به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكلُ منه. ففعل، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، فلما وضع رسول الله ﷺ يده، قال: بسم الله، ثم أكل.

فنظر عَدَّاس إلى وجهه. ثم قال: والله، إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذا البلد.

فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أيّ البلاد أنت؟ وما دينك؟».

قال: أنا نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال له رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى».

قال: ذاك أخي، كان نبيّاً، وأنا نبيّ.

فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ، فقبّل رأسه ويديه ورجليه.

قال: يقول ابنا ربيعة: أحدهما لصاحبه:

أما غلامُك، فقد أفْسَدَهُ عليك.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ٢، ص ١٤٩، ١٥٠، ط الحلبي.

فلما جاءهما عدّاس قالا له: ويلك يا عدّاس، ما لك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض خيرٌ من هذا الرجل. لقد أخبرني بأمرٍ لا يعلمه إلا نبيّ[1].

- ٤ -

أشـــجع الناس:

عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبيّ ﷺ، أحسنَ الناس، وأشجعَ الناس. ولقد فزع أهل المدينة ليلة، فخرجوا نحو الصوت، فاستقبلهم النبيّ ﷺ، وقد استبرأ الخبر، وهو على فرسٍ لأبي طلحة عُرْيٍ، وفي عُنقِه السيف، وهو يقول: لم تُراعوا، لم تُراعوا.

ثم قال: وجدناه بحراً، أو قال: إنه لبحر»[2].

- ٥ -

فاطمة رضي الله عنها:

أخبر عليّ أن فاطمة عليها السلام، اشتكت ما تلْقَى من الرَّحى، مما تطحن، فبلغها أن رسول الله ﷺ، أتَى بِسَبْيٍ، فأتته تسألُه خادماً، فلم توافقه، فذكرت لعائشة، فجاء النبيّ ﷺ، فذكرت ذلك عائشة له، فأتانَا، وقد دخلنا[3] مضاجعَنَا، فذهبنا لنقوم، فقال مكانكما، حتى وجدت برْد قدَميه على صدري، فقال:

«ألا أدلّكما على خيرٍ مما سألتماه: إذا أخذتما مضاجِعَكما، فكبّرا

---

(١) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١، ص ٢١٣، ٢١٤.

(٢) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٤٧.

(٣) أخذنا.

الله أربعاً وثلاثين، واحمداه ثلاثاً وثلاثين، وسبّحاه ثلاثاً وثلاثين. فإن ذلك خيرٌ لكما مما سألتماه»[1].

- ٦ -

في حفر الخندق:

عن أنس رضي الله عنه قال: جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقُلون التراب على متونهم (ظهورهم)، ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد[2] ما بقينا أبداً

والنبيّ ﷺ يجيبهم ويقول: «اللّهمّ إنه لا خيرَ إلا خيرُ الآخرة: فباركْ في الأنصارِ والمهَاجِرة»[3].

* * *

عن البراء رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ، يوم الأحزاب، ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه وهو يقول:

«اللّهمّ لولا أنتَ ما اهتدينا، ولا تصدّقنا ولا صلّينا، فأنزلن[4] سكينة علينا، وثبّت الأقدامَ إن لاقينا. إن الأولَى قد بَغَوْا علينا، إذا أرادُوا فِتْنَةً أبَيْنَا»[5].

---

(١) صحيح البخاري جـ ٧، ص ١٢٠، ط الشعب.
(٢) وفي رواية: على الإسلام.
(٣) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٣١، ط الشعب.
(٤) فأنزل السكينة.
(٥) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٣١، ط الشعب.

- ٧ -

الله المـــانع:

عن جابر بن عبد اللَّه قال: غزوْنا مع رسول الله ﷺ، قِبَل نجد، فلما قفل رسول الله ﷺ، قَفَلتُ معهم، فأدركَتْه القَائلة في وادٍ كثير العضاه(١)، فنزل أصحاب رسول الله ﷺ، تحت الشجرة، ونزل رسول الله ﷺ، تحت سَمُرة، فعلَّق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه، فإذا أعرابي عنده جالس، فقال رسول الله ﷺ:

«إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظتُ وهو في يدي صَلْتاً(٢). فقال لي: مَن يمنعك منّي؟ قلت: الله. وها هو ذا جالس. ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ(٣).

- ٨ -

ابن مظعون يؤثر جوار الله:

لما رأى عثمان بن مظعون، ما فيه أصحاب رسول الله ﷺ، من البلاء، وهو يغدو ويروح في أمان من الوليد بن المغيرة، قال: والله، إنّ غَدوِّي ورَواحي آمناً بجوار رجل من أهل الشرك ـ وأصحابي، وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يُصيبني ـ لنقصٌ كبير في نفسي. فمشى إلى الوليد بن المغيرة فقال له: يا أبا عبد شمس، وفَتْ ذمَّتُك، وقد رددتُ إليك جوارَك.

---

(١) العضاء: شجر عظيم له شوك.

(٢) صلتاً: مجرداً من غمده، بمعنى مصلت.

(٣) الوفا بأحوال المصطفى ﷺ جـ١، ص٣٢٦، والحديث أخرجه البخاري ومسلم.

فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ لعله آذاك أحدُ من قومي؟ قال: لا، ولكني أرضى بجوار الله، ولا أُريد أن أستجير بغيره؟

قال: فانطلِقْ إلى المسجد، فارددْ عليَّ جواري علانية، كما أجرتُك علانية. قال: فانطلقا فخرجا حتى أتيا المسجد، فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يردّ عليّ جواري.

قال: صدق، قد وجدتُه وفيّاً كريم الجوار، ولكني قد أحببت أن لا أستجير بغير الله، فقد رددتُ عليه جواره. ثم انصرف عثمان، ولبيد بن ربيعة بن مالك بن جعفر بن كلاب في مجلس من قريش يُنشدهم، فجلس معهم عثمان، فقال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا اللَّهَ باطل».

قال عثمان: صدقت، قال:

«وكل نعيم لا محـــــالةَ زائل»

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول.

قال لبيد بن ربيعة: يا معشر قريش، والله ما كان يُؤْذَى جليسُكم، فمتى حَدَث هذا فيكم؟

فقال رجلٍ من القوم: إن هذا سفيهٌ في سُفهاءَ معه، قد فارقوا ديننا، فلا تَجِدَنَّ في نفسك من قوله، فردّ عليه عثمان حتى شَرِي أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلَطَم عينه، فخضَّرها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال:

أما والله يا ابن أخي، إن كانت عينك عمّا أصابها لغنية، لقد كنت في ذمّة منيعة.

قال يقول عثمان: بل والله إن عيني الصحيحةَ لفقيرة إلى مثل ما

أصاب أختها في الله. وإني لفي جوار مَن هو أعزّ منك وأقدر يا أبا عبد شمس، فقال له الوليد: «هلمّ يا ابن أخي، إن شئت فعدْ إلى جواري، فقال: لا»(١).

- ٩ -

أبو بكر رضي الله عنه وابن الدغنة:

التقى ابن الدَّغْنَّة، بأبي بكر في الطريق خارج مكة، فقال ابن الدغنة: أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجني قومي وآذَوني، وضيَّقوا عليّ.

قال: ولِمَ؟ فوالله إنك لَتَزِين العشيرة وتُعين على النوائب، وتفعلُ المعروف، وتكسب المعدم، ارجع وأنت في جواري، فرجع معه، حتى إذا دخل مكة، قام ابن الدغنة فقال:

يا معشر قريش، إني قد أجرتُ ابن أبي قحافة، فلا يعرضَنَّ له أحد إلا بخير: فكفّوا عنه. وكان لأبي بكر مسجد عند باب داره في بني جُمح، فكان يصلّي فيه. وكان رجلاً رقيقاً، إذا قرأ القرآن استبكى. قالت: فيقف عليه الصبيان، والعبيد، والنساء، يعجبون لما يرون من هيئته. فمشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة، فقالوا له:

يا ابن الدغنة، إنك لم تجر هذا الرجل، ليؤذيَنَا.. إنه رجل إذا صلّى وقرأ ما جاء به محمد يَرِقُّ ويبكي. وكانت له هيئة ونَحْو (مظهر كريم) فنحن نتخوف على صبياننا ونسائنا وضعفتنا أن يفتنهم. فأتِهِ فمُرهُ أن يدخل بيته فليصنع فيه ما شاء.

فمشى ابن الدغنة إليه، فقال له: يا أبا بكر، إني لم أجِرك لتؤذيَ

---

(١) الروض الأنف جـ٣، ص٣٣٣، ٣٣٤.

قومَك. إنهم قد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخُل بيتك، فاصنع فيه ما أحببت، قال:

أوَ أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله؟ قال: فاردُد على جواري. قال: قد رددتُه عليك. قالت: فقام ابن الدغنة. فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد ردّ عليّ جواري، فشأنَكم بصاحبكم. قال ابن إسحاق: وحدّثني عبد الرحمن بن القاسم: عن أبيه القاسم بن محمد قال: لقيه سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً. قال: فمرّ بأبي بكر الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل. قال: فقال أبو بكر: ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه!

قال: أنت فعلت ذلك بنفسك. قال: وهو يقول:

أي رب!!! ما أحلَمَكَ؛ أي رب!!! ما أحْلَمك، أي رب!!! ما أحلمك(1).

- ١٠ -

بـــلال رضي الله عنه:

هل أتاك حديث أمية بن خلف، وقد علم بإسلام عبده بلال، فلم يكن له من هم إلا التفنّن المخجل في إذاقته العذاب ألواناً؟

لقد أحاط عنقه بحبلٍ ليف النخيل الخَشِن، وأسلمه إلى أيدي الصبيان الذين لا سبيل للرحمة إلى قلوبهم، فأخذوا يعبثون بجرّه كحيوان، يجرّونه إلى الأمام، ويجرّونه إلى الوراء؛ يجرّونه يميناً، ويجرّونه شمالاً، والحبل يَحُزُّ في عنقه، حتى حَفَرَ فيه مجرىً دامياً. غير

(١) الروض الأنف جـ٢، ص ٣٣٦، ٣٣٧.

أن بلالاً، رَغْم كل ذلك، لم يبدُ عليه التأثر، فما كان من أمية إلا أن منع عنه الطعام والشراب، وكان يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحُه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضعُ على صدره، على هذا الرمل الذي جعلته حرارة الشمس، كالجمر، كان يلقى أميةُ بلالاً ويقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزّى».

تُجَاه كل هذا كان بلال الصبور: يكتفي برفع سبّابته إلى السماء مكرراً «أحَدٌ أحَدٌ». يظهر بذلك احتقاره لسيّده الذي بلغت به الجُرْأَةُ أن جعل لِلّه شركاء، بزعمه من خشب أو حجارة. وكان تأكيد الأحدية لله تعالى، يثير في رُوعه: أنه شهيد الإيمان، ويبعث في نفسه عذوبةً فائقة الوصف، فلا يشعر معها بأليم العذاب.

وكان ورقةُ بن نوفل يمرّ به وهو يُعذَّب، فلا يفتر عن قوله: أحَد أحَدٌ، فيقول ورقة: أحدٌ أحدٌ، والله يا بلال. ثم يقبل على أمية بن خلف، ومَن يصنع ذلك به من بني جمح، فيقول: أحلِفُ بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنّه حناناً.

وشاءت الأقدار أن يمرّ أبو بكر بالرمضاء، حيث كان يُعذَّبُ بلال، ويشهد هذا المنظر البشع، فقال في اشمئزاز: ألا تخشى عقاب الله يا أمية حينما تذيق هذا المسكين العذاب ألواناً؟ فأجاب في برودٍ صارخ: إنّك أنت الذي أفسدته، فأنقذه بما ترى.

قال أبو بكر: عندي غلام أسود أقوى منه وأجلَدُ، وهو على دينك. أعطيكه به؟ قال: قبلت، هو لك.

فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك، وأخذ بلالاً فأعتقه[1].

(١) محمد رسول الله ﷺ.

- ١١ -

أول صحابي جهر بالقرآن:

قال ابن إسحاق: وحدّثني يحيىٰ بن عروة بن الزبير، عن أبيه، قال: كان أول مَن جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ، بمكة، عبد اللّٰه بن مسعود رضي الله عنه قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجْهَرُ لها به قطّ، فمَن رجل يُسمِعهمُوه؟ فقال عبد اللّٰه بن مسعود: أنا.

قالوا: إنّا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه. قال: دعوني فإن الله سيمنعني. قال فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ:

«بسم الله الرحمن الرحيم»، رافعاً بها صوته. «الرحمن علم القرآن». قال: ثم استقبلها يقرؤها. قال: فتأملوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أُم عبد؟ قال: ثم قالوا: إنه يتلو بعض ما جاء به محمد، فقاموا إليه، فجعلوا يضربون في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك، فقال: ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غداً، قالوا: لا. حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون.

- ١٢ -

إسلام عمرو بن عبسة:

عن عمرو بن عبسة قال: «أتيت رسول الله ﷺ، في أول ما بعث،

هو بمكة، وهو مستخفٍ، فقلت: ما أنت؟ فقال: أنا نبيّ. فقلت: وما النبيّ؟ قال: رسول الله. قلت: آلله أرسلك؟ قال: نعم، قلت: بِمَ أرسلك؟ قال: بأن نعبد الله ونكسِرَ الأوثان ونصل الأرحام. قلت: نعْمَ ما أرسلك به. فمَنْ تبعك على هذا؟ قال: حرٌّ وعبد... يعني: أبا بكر وبلالاً. قال: وكان عمرو يقول: لقد رأيتني ـ وأنا رابع الإسلام، قال: فأسلمت، قلت: فأتْبَعُك يا رسول الله؟ قال: لا، ولكن الحَقْ بقومك، فإذا أخْبِرتَ أني قد خرجت فاتْبعني».

هذا حديث رواه جماعة عن أبي أمامة وأخرجه مسلم من حديث شداد بن عمار[1].

ـ ١٣ ـ

إسلام خالد بن سعيد:

عن محمد بن عبد اللّه بن عمرو بن عثمان. قال: «كان إسلام خالد ـ يعني ابن سعيد بن العاص ـ قديماً، وكان أول إخوته أسلم. وكان بُدُوُّ إسلامه: أنه رأى في النوم: أنه وُقِفَ به على شفير النار، فذكر من سعتها ما الله تعالى أعلم به. ويرى في النوم كأن أباه يدفعه فيها. ويرى رسول الله ﷺ، أخذ بحقويه لا يقع، ففزع من نومه، وقال: أحلف بالله إن هذه لرؤيا حق، فلقي أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فذكر ذلك له. فقال أبو بكر: أرِيدَ بك خيرٌ: هذا رسول الله ﷺ، فاتّبِعْه، فإنك ستتّبِعه، وتدخل معه في الإسلام. إنه يأخذ بحجزك أن تدخل فيها، وأبوك فليقع فيها. فلقي رسول الله ﷺ ـ وهو بأجياد ـ فقال: يا محمد إلامَ تدعو؟ فقال: أدعو إلى الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده

---

(١) راجع ص ٤٢١، ٤٢٢، جـ ١ دلائل النبوّة.

ورسوله، وتخلعُ ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، ولا يضرّ ولا ينفع، ولا يدري مَن عَبَده مِمّن لم يعبده. قال خالد: فإني أشهد أن لا إله إلّا الله وأشهد أنك رسول الله، فسرَّ رسول الله ﷺ بإسلامه. وتغيَّب خالد، وعلم أبوه بإسلامه، فأرسل في طلبه، فأتى به، فأنَّبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه. وقال: والله، لأمنعنَّكَ القوتَ. فقال خالد: إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به. وانصرف إلى رسول الله ﷺ وكان يلزمه ويكون معه»[1].

- ١٤ -

حمزة بن عبد المطلب:

عن محمد بن إسحاق، قال: «حدّثني رجل من أسلم ـ وكان داعيةً ـ أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ عند الصفا، فأذاه، وشتمه، ونال منه ما يكره من العيب لدينه. فذكر ذلك لحمزة بن عبد المطلب، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه، رفع القوس، فضربه بها ضربة شجَّه منها شجةً منكرة؛ وقامت رجال من قريش من بني مخزوم إلى حمزة، لينصروا أبا جهل منه، فقالوا: ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت.

فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه؟ أنا أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله، لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين.

فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني والله، لقد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً. فلما أسلم حمزة، عرفت قريش أن رسول الله ﷺ، قد عزَّ وامتنع، فكَفُّوا عن بعض ما كانوا يتناولونه منه.. وقال حمزة في ذلك شعراً.

---

(١) ص ٤٢٣، ٤٢٤ دلائل النبوّة.

قال ابن إسحاق: ثم رجع حمزة إلى بيته، فأتاه الشيطان. فقال: أنت سيّد قريش، اتّبعت هذا الصابىء، وتركت دين آبائك؟ لَلْموت خير لك مما صنعت. فأقبل على حمزة بثّه، فقال: ما صنعت؟ اللّهمّ إن كان رشداً فاجعل تصديقه في قلبي، وإلا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً.

فبات بليلة لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغدا على رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي: إني قد وقعت في أمرٍ لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري، أرشدٌ هو أم غيٌّ شديد؟ فحدِّثني حديثاً فقد اشتهيت يا ابن أخي أن تحدّثني؟

فأقبل رسول الله ﷺ، فذكّره ووعظه، وخوَّفه وبشَّره، فألقى الله في نفسه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال: أشهد أنك لَصَادقٌ، شهادة الصدق، فأظهر يا ابن أخي دينك، فوالله، ما أحِبَّ أنَّ لي ما أظلّته السماء، وأني على ديني الأول.

فكان حمزة رضي الله عنه ممّن أعزّ الله به الدين»(١).

- ١٥ -

هـــــجرة صهيب:

عن صهيب قال: قال رسول الله ﷺ، رأيت دارَ هجرتكم سبخة بين ظهراني حرّة، فإما أن تكون هجر، وإما أن تكون يثرب. قال: وخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة، وخرج معه أبو بكر رضي الله عنه، وكنت قد هممت بالخروج معه فصدّني فتيانٌ من قريش فجعلت ليلتي تلك أقوم لا أقعد؟ فقالوا: قد شغله الله عنكم ببطنه، ولم أكن شاكياً،

(١) انظر ص ٤٥٩، ٤٦٠ من كتاب دلائل النبوّة للبيهقي.

فناموا فخرجت فلحقني منهم ناس بعدما سرت بريداً؛ ليردّوني. فقلت لهم:

هل لكم أن أعطيكم أواقيَ من ذهب وتخْلُوا سبيلي، وتوثّقوا لي الله ففعلوا، فسقتهم إلى مكة، فقلت: احفِرُوا تحت أسكفةِ الباب، فإن تحتها الأواقي، واذهبوا إلى فلانة فخذوا الحليين وخرجت حتى قدِمت على رسول الله ﷺ في قباء، قبل أن يتحوّل منها. فلما رآني قال: يا أبا يحيىٰ ربحَ البيع. ثلاثاً. فقلت: يا رسول الله! ما سبَقني إليك أحد، وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام»[1].

- ١٦ -

هجرة عمر وقصة عياش معه:

خرج عمر بن الخطاب، وعيّاش بن أبي ربيعة المخزومي، حتى قدِما المدينة فحدّثني نافع مَوْلى عبد اللّه بن عمر عن عبد اللّه بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتعدتُ، لما أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعيَّاش بن رَبيعة (واسمه: عمرو ويُلَقَّبُ: ذا الرمحين)، وهشام بن العاص بن وائل السهمي، التَّناضبَ من أضاة بني غِفَار، فوق سَرِف، وقلنا: أيُّنا لم يُصْبح عندها، فقد حُبس، فَلْيَمْض صاحباه؟.

قال: فأصبحت أنا وعيَّاش بن أبي ربيعة عند التَّناضب، وحُبِس عنّا هشام، وفتن فافتتن. فلما قدِمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوفِ بقُباء. وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عيَّاش بن أبي ربيعة، وكان ابنَ عمّهما وأخاهما لأمهما، حتى قَدِمَا علينا المدينة، ورسول الله ﷺ، بمكة فكلّماه، وقالا: إن أمَّك قد نذرت أن لا يمسّ

---

(١) دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٢٤٥، ٢٤٦.

رأسَها، مُشْطٌ حتى تراك، ولا تستظلّ من شمسٍ حتى تراك، فرقّ لها فقلت له: يا عَيَّاش، إنه والله إن يريدك القوم إلّا ليفتنوك عن دينك فاحذرْهم، فوالله لو آذى أمَّك القملُ لامتشطت، ولو قد اشتدَ عليها حرُّ مكةَ لاستظلّت. قال: فقال: أبَرُّ قَسَمَ أمّي، ولي هنالك مال فآخذُه. قال: فقلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهما.

قال: فأبى عليّ إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك، قال: قلت له: أما إذا قد فعلتَ ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنها ناقة نَجِيبة ذلول فالْزَمْ ظهرها، فإن رابك من القوم ريبٌ، فانج عليها: فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا ابن أخي، والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعْقبني على ناقتك هذه؟

قال: بلى. قال: فأناخ، وأناخا ليتحوّل عليها، فلما استوَوْا بالأرض عَدَوْا عليه، فأوثقاه ورَبَطَاه، ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدّثني به بعض آل عيّاش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة، دخلا به نهاراً، موثقاً، ثم قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا[1].

- ١٧ -

الوليد بن الوليد، وعياش، وهشام:

قال ابن هشام: حدّثني من أثق به: أن رسول الله ﷺ، قال وهو بالمدينة: مَنْ لي بعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص؟

---

(١) الروض الأنف جـ ٤، ص ١٧٠، ١٧١.

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أنا لك يا رسول الله بهما، فخرج إلى مكة فَقَدِمها مستخفياً، فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله! قالت: أريد هذين المحبوسين تُعينهما - فتبعها حتى عَرَفَ موضعهما وكانا محبوسين في بيت لا سَقْف له، فلما أمسى تسوّر عليهما، ثم أخذ مَرْوة. فوضعها تحت قيدَيهما، ثم ضربهما بسيفه فقطعهما. فكان يقال لسيفه: «ذو المَرْوة» لذلك، ثم حملهما على بعيره، وساق بهما فعثر فدميت أصبعه فقال:

هل أنت إلا أصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لَقِيتِ

ثم قدم بهما على رسول الله ﷺ[1]. ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ، في فترة من الفترات في صلاته، أن يقول: اللّهمّ أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين.

- ١٨ -

آل ياسر:

عن هشام بن أبي عبد اللّه، عن خالد: أن رسول الله ﷺ، مرَّ بعمّار وأهله وهم يعذبون، فقال: أبشروا آل عمّار أو آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

عن سفيان عن منصور عن مجاهد. قال: أولُ شهيدٍ في الإسلام استشهد: أُم عمّار، سُمية. طعَنَها أبو جهل بحرية في قلبها.

---

(١) الروض الأنف جـ ٤، ص ١٧٢.

- ١٩ -

الـــــزبيرة:

عن هشام بن عروة عن أبيه، أن أبا بكر، أعتق ممّن كان يعذب في الله سبعة، نذكر منهم، الزبيرة. قال: فذهب بصرُها. وكانت ممّن يعذَّبُ في الله على الإسلام، فتأبى إلا الإسلام. فقال المشركون: ما أصاب بصَرها إلا اللات والعُزَّى. فقالت: كلاَّ والله، ما هو كذلك. فردّ الله عليها بصرها.

- ٢٠ -

النـــــضر بن الحارث:

عن عِكرمة، عن ابن عباس، قال: «قام النضر بن الحارث بن كلدة بن علقمة بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصيّ، فقال: يا معشر قريش، إنه والله، لقد نزل بكم أمرٌ ما ابتُلِيتم بمثله.. لقد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً: أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيبَ وجاءكم بما جاءكم، قلتم: ساحر، لا والله، ما هو بساحر. قد رأينا السَحَرة ونفثهم وعَقْدَهم. وقلتم: كاهن... لا والله، ما هو بكاهن. قد رأينا الكهنة وحالهم وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر. لا والله، ما هو بشاعر. لقد رأينا الشعر وسمعنا أصنافه كلها: هزجه، وقريضه. وقلتم: مجنون، ولا والله، ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ولا وسوسته ولا تخليطه.

يا معشر قريش، انظروا في شأنكم، فإنه والله، لقد نزل بكم أمر عظيم.

وكان النضر من شياطين قريش. وكان ممّن يؤذي رسول الله ﷺ، وينبّ له العداوة»[1].

يسمعون القرآن مستخفين:

عن ابن إسحاق قال: حدّثني الزهري قال: حُدِّثتُ: «أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ، وهو يصلّي بالليل في بيته. وأخذ كل رجل منهم مجلساً ليستمع فيه. وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه. فباتوا يستمعون له، حتى إذا أصبحوا وطلع الفجر، تَفرَّقوا، فجمعتهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا. فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً. ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعتهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: مثل ما قالوا أول مرة. ثم انصرفوا.

فما كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا، فجمعتهم الطريق. فقالوا: لا نبرح حتى نتعاهد: لا نعد، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرّقوا، فلما أصبح الأخنس بن شريق، أخذ عصاه، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته، فقال: أخبرني يا أباة حنظلة، عن رأيك فيما سمعت من محمد؟ فقال: يا أبا ثعلبة، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها. فقال الأخنس: وأنا، والذي حلفت به.. ثم خرج من عنده حتى أبى أبا جهل، فدخل عليه؟ فقال: ماذا سمعت؟ قال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرفَ: أطعَمُوا فأطعمنا، وحَمَلوا فحملنا، وأعطَوْا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنّا كَفَرَسَيْ رِهان. قالوا: منّا نبيّ يأتيه الوحْيُ

---

(١) ص ٤٤٨، ٤٤٩، جـ ١ دلائل النبوّة.

من السماء، فمتى ندرك هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً، ولا نصدقه: فقام عنه الأخنس بن شريق»[1]اهـ.

سيتمّ الله أمر دينه:

عن بيان بن بشر وإسماعيل بن أبي خالد، قالا: سمعنا قيساً يقول: سمعت خباباً يقول: أتيتُ رسول الله ﷺ، وهو متوسِّد بردَه في ظل الكعبة، ولقد لقينا من المشركين شدةً شديدة، فقلت: يا رسول الله!! ألا تدعو الله لنا؟ فقعد، وهو محمر وجهه فقال: إن مَن كان قبلكم لَيُمَشَّطُ أحدهم بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضعُ المنشار على مفرِق رأسه، فَيُشَقُّ باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، ولَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هذا الأمر، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضْرموتَ، لا يخاف إلا الله عزّ وجل (زاد بيان): والذئبَ على غنمه.

هجرة مصعب بن عمير

يقول صاحب الروض الأنف:

ذكر هجرة مصعَب بن عمير: وهو المقرىء، وهو أول مَن سمّي بهذا ـ أعني المقرىء. يكنّى: أبا عبد اللَّه. كان قبل إسلامه من أنْعَمِ قريش عيشاً وأعطرهم. وكانت أمه شديدة الكلف به، وكان يبيت وقعب الحَيْسي[2] عند رأسه: يستيقظ فيأكل. فلما أسلم، أصابه من الشدة ما غيّر لونَه، وأذهبَ لحمه، ونهكتْ جسمه. حتى كان رسول الله ﷺ، ينظر

(١) ص ٤٥٢، ٤٥٣، جـ ١ دلائل النبوّة.

(٢) القعب: القدح الضخم الجافي، والحيس: تمر يخلط بسمن وأقط، فيعجن شديداً، ثم يندر منه نواه، وربما جعل فيه سويق.

إليه، وعليه فروة قد رفعها، فيبكي لما كان يعرف من نَعْته؛ وحلفت أمه حين أسلم وهاجر: ألا تأكلَ، ولا تشرب ولا تستظِلَّ بظل حتى يرجعَ إليها. فكانت تقف للشمس حتى تسقط مغشياً عليها. وكان بنوها يحشون فاها بشجارٍ[1]، وهو عود فيصبّون فيه الحساءَ، لئلا تموت.

وكان رسول الله ﷺ يذكره، فيقول: «ما رأيتُ بمكة أحسَن لِمَّةً ولا أرَقَّ حُلّةً، ولا أنْعم نِعمةً مِن مصعب بن عُمير». ذكره الواقدي. وذكر أيضاً بإسناد له قال:

كان مصعب بن عمير، فتى مكة: شباباً وجمالاً وسِنّاً. وكان أبواه يحبّانه. وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب. وكان أعْطرَ أهلِ مكة: يلبس الحَضرميَّ من النعال»[2].

وذكر أن منزَله كان على أسعد بن زُرارة «منزل بفتح الزاي، وكذلك كل ما وقع في هذا الباب، من منزل فلان على فلان، فهو بالفتح، لأنه أراد المصدر، ولم يرد المكان»[3].

فقد روى الدارقُطني، عن عثمان بن أحمد بن السماك، بسنده عن عُبيد اللّه بن عبد اللّه، عن ابن عباس، قال: أذن النبيّ ﷺ، بالجمعة قبل أن يهاجر، ولم يستطع رسول الله ﷺ، أن يجمع بمكة، ولا يبديَ لهم، فكتب إلى مصعب بن عُميْر.

«... فإذا مال النهار عن شطره عند الزَّوال من يوم الجمعة، فتقربوا إلى الله بركعتين قال: فأولُ مَن جمَّع: مصعب بن عمير. حتى

---

(١) أصله: عود يجعل في فم الجدي لئلا يرضع، وحديث بكاء الرسول ﷺ حين كان يرى مصعباً رواه الترمذي بسند ضعيف.

(٢) نسبة إلى حضرموت، وهي نعال غالية الثمن.

(٣) انظر: الروض الأنف جـ ٤، ص ٩٧، ٩٨.

قدِم رسول الله ﷺ المدينة، فجمع عند الزوال من الظهر، وأظهر ذلك»[1].

إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن حضير

قال ابن إسحاق: وحدّثني عبيد اللَّه بن المغيرة مُعَيقب، وعبد اللَّه بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم: أن أسعد بن زرارة، خرج بمصْعَب بن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر. وكان سعد بن مُعاذ بن النعمان بن امرىء القيس بن زيْد بن عبد الأشهل بن خالد أسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظفَر.

قال ابن هشام: واسم ظفَر: كعب الحارث بن الخزْرج بن عميرو بن مالك بن الأوس. قالا: على بئر يقال لها: بئر مَرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممّن أسلم. وسعد بن مُعاذ، وأُسيد بن خضير، يومئذ سيدَا قومهما من بني عبد الأشهل. وكلاهما مشرك على دين قومه. فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسَيْد بن خضير: لا أبا لك، انطلِق إلى هذين الرجلين قد أتيا دارَيْنا لِيسَفِّها ضُعفاءنا، فازْجرْهما وانهَيهمَا عن أن يأتيا دارينا، فإنه لولا أنّ سعد بن زرارة من حيث قد علمت، كفيتك ذلك: هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدّماً، قال: فأخذ أسيد بن خضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زُرارة. قال لمصعب بن عمير: هذا سيِّد قومه قد جاءك، فاصدُق الله فيه[2].

قال مصعب: إن يجلس أكلِّمْه، قال: فوقف عليهما متشتماً[3]، فقال: ما جاء بكما إلينا: تسَفهان ضعفاءنا؟ اعتزِلانا إن كانت لكما

(١) انظر: الروض الأنف جـ ٤، ص ١٠١، ١٠٢.
(٢) انظر الروض الأنف جـ ٠، ص ٧٥، ٧٦.
(٣) كاشر الوجه.

بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيتَ أمراً قبلته، وإن كرهته كفَّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، ثم ركَزَ حَرْبته وجلس إليهما، فكلّمه مصْعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما يذكر عنهما: والله لَعرفْنا في وجهه الإسلامَ قبل أن يتكلم: في إشراقه وتسَهله، ثم قال: ما أحسنَ هذا الكلام وأجمله: كيف تصْنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي. فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً، إن اتَّبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقبلاً، قال:

أحلف بالله لقد جاءكم أسَيْدٌ، بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً وقد نهيتُهما. فقالا: نفعل ما أحببت. وقد حُدِّثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك، قال:

فقام سعد مُغضَباً مبادراً، تخوّفاً للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً. ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أن أسيداً إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة:

يا أبا أمامة، لولا ما بيني وبينك من القرابة: ما رمت هذا منّي، أتغْشانا في دارينا بما نكره؟ـ وقد قال أسعد بن زُرارة لمصعب بن عمير:

أي مصعب، جاءك والله سيِّد مَنْ وراءه من قومه. . . إن يتبعْك لا يتخلفْ عنك منهم اثنان ـ قال:

فقال له مصعب: أو تقعدُ فتسمع، فإن رضيتَ أمراً ورغبت فيه قبلْتَه، وإن كرِهته عَزَلْنا عنك ما تكره؟

قال سعد(١): أنصفت، ثم ركَزَ الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قائلاً: فعرفنا والله في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهُّله، ثم قال لهما قال: كيف تصْنَعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟

قالا: تغتسل فتطهَّرُ وتُطَهرْ ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلّي ركعتين. قال: فقام فاغتسل وطهّر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثم ركع ركعتين، ثم أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه، ومعه أسيد بن حضير.

قال: فلما رآه قومه مُقبلاً، قالوا: نحلف بالله، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف عليه قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبةً.

قال: فإن كلامَ رجالكم ونسائِكم عليَّ حرام، حتى تؤمنوا بالله وبرسوله. قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرارة، فأقام عنده يدعو الناس إلى الإسلام(٢).

---

(١) انظر الروض الأنف جـ ٤، ص ٧٦، ٧٧.
(٢) انظر الروض الأنف جـ ٤، ص ٧٧، ٧٨.

إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: لما انصرفنا مع الأحزاب في الخندق، جمعتُ رجالاً من قريش، كانوا يرون مكاني، ويسمعون منّي، فقلت لهم: تعلمون والله إني لأرى أمر محمد يعلو الأمورَ عُلواً كبيراً، وإني قد رأيت رأياً فما ترون فيه؟ قالوا: وما رأيت؟

قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا، كنّا عند النجاشي، فإنّا أن نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدَيْ محمد. وإن ظهر قومنا فنحن مَن قد عرفوا. فلن يأتينا منهم إلا خَير، فقالوا: إن هذا: الرأيُ. قال: فقلت لهم: فاجمعوا لنا ما نهدى له، وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدماً كثيرة. ثم خرجنا حتى قدِمنا عليه؛ فوالله: إنّا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه. قال: فدخل عليه، ثم خرج من عنده، فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية، لو قد دخلت على النجاشي فسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديت من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم أيها الملك، أهديت لك أدماً كثيراً. قال: ثم قدمته إليه فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيّارنا؛ قال: فغضب ثم مدّ يديه فضرب بهما أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقّت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثم قلت: أيها الملك! والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك، فقال: أتسألني أن أعطيك رسول رجلٍ يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قلت: أيها الملك! أكذاك هو؟

قال: ويحك يا عمرو، أطِعْني واتَّبِعه، فإنه والله، لعلى الحق، وليظْهَرَنَّ على مَن خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قال: قلت: فتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده وبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي، ثم خرجت عامداً لرسول الله ﷺ، فلقيت خالد بن الوليد ـ وذلك قبيل الفتح ـ وهو مقبل من مكة، فقلت: إلى أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام الميسَم، وإن الرجل لنبيّ. . . اذهبُ والله أسْلِمُ. قلت: والله ما جئتُ إلا أسلم. . . فقدِمْنا على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثم دنوت فقلت: يا رسول الله: إني أبايعُك على أن يُغفَر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر.

فقال رسول الله ﷺ: «يا عمرو، بايعْ، فإن الإسلام يجُبُّ ما كان قبله. وإن الهجرة تجبّ ما كان قبلها. فبايعته ثم انصرفت، رواه الإمام أحمد[1].

ومن حكماء العرب
أكثم بن صيفي بن رَباح

وكان من حديثه ـ كما ذكر الألوسي ـ أنه لما ظهر النبيّ ﷺ مكة، ودعا إلى الإسلام، بعث أكثم ابنه حُبيشاً، فأتاه بخبره، فجمع بني تميم وقال: يا بني تميم، لا تحضروني سفيهاً: فإنه مَنْ يسمع يخَلْ[2]. إن السفيه يوهن مَن فوقه، ويُثبّطُ مَن دونه. لا خير فيمن لا عقل له: كبرَت

(١) جامع كرامات الأولياء الشيخ يوسف النبهاني جـ١، ص٩٨، ٩٩.
(٢) «مَن يسمع أخبار الناس ومعايبهم يقع في نفسه عليهم المكروه». عن جمع مجمع الأمثال للميدان.

سنّي، ودخلتني ذِلة، فإذا رأيتم مني حَسَناً فاقبلوه، وإن رأيتم منّي غير ذلك فَقوّموني أستقم.

إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة، وأتاني بخبره. وكتابه: يأمر فيه بالمعروف وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق، ويدعو إلى توحيد الله تعالى، وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران.. وقد حلف (عَرَفَ) ذوو الرأي منكم: أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأي ترك ما ينهى عنه.

إن أحقّ الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره، أنتم. فإن يكن الذي يدعو إليه حقّاً، فهو لكم دون الناس. وإن يكن باطلاً كنتم أحقّ الناس بالكفّ عنه والستر عليه. وقد كان أسقف نجران يحدّث بصفته. وكان سفيان بن مجاشع يحدّث به قبله. وسمّى ابنه محمداً... فكونوا في أمره أولاً، ولا تكونوا آخراً: ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين.

إن الذي يدعو إليه محمد: لو لم يكن ديناً، لكان في أخلاق الناس حسناً. أطيعوني واتبعوا أمري، أسأل لكم أشياء لا تنزع منكم أبداً، وأصبحتم أعزّ حيّ في العرب وأكثرهم عدداً، وأوسعَهم داراً؛ فإني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ، ولا يلزمه ذليل إلا عزّ. إن الأول لم يدع للآخر شيئاً. وهذا أمر له ما بعده ومَن سبق إليه غَمَرَ المعالي: واقتدى به التالي، والعزيمة حزم «والاختلاف عجز».

فقال مالك بن نويرة: قد خَرِف شيخكم.

فقال أكثم: ويل الشجيّ من الخليّ، ولهفي على أمر لم أشهده ولم يسبقني: «فذهب مثلاً»(١) ثم قال لمالك: ما آسى عليك على

---

(١) التفكير الفلسفي الدكتور الفلسفي عبد الحليم محمود جـ١، ص ٣٠، ٣١.

العامة. يامالك، إن الحق إذا قام رفع الباطل. فتبعه مائة نفس. وخرج إلى رسول الله ﷺ. فلما كان في بعض الطريق، عمد حُبيش إلى رواحلهم فنحرها، وشقَّ ما كان معهم من مزاده وهرب، فجهر أكثم العطشُ، فمات، وأوصى مَن معه باتّباع رسول الله ﷺ، وأشهَدَهم أنه أسلم. فأنزل فيه: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾(١) (٢).

أرسلت قريش عروة بن مسعود الثقفي ليقنع رسول الله ﷺ، بالعودة إلى المدينة حينما جاء مكة معتمراً، فلما عاد عروة خاطب قريشاً قائلاً: «يا معشر قريش: إني قد جئت كِسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه. وإني والله، ما رأيت مَلِكاً قطّ: يعظّمه قومه، كما يعظّم أصحاب محمد محمداً ولقد رأيت حوله قوماً لن يسلّموه لسوء أبداً. . فانظروا رأيكم»اهـ.

إنهم أصحاب محمد ﷺ، وانظر إن شئت في التاريخ؛ فستجد الكثير من أصحاب الأنبياء والرسل، كان موقفهم على النقيض من ذلك.

---

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) الوفا بأحوال المصطفى جـ ١، ص ٩٣.

﴿ لَٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الحادي عشر

مواقف لبعض الغربيين

كان من الممكن أن نذكر الكثير من آراء الغربيين في الرسالة الإسلامية ورسولها. ولكننا سبق أن كتبنا في ذلك، بشيء من الاستفاضة في كتابنا: «أوربا والإسلام» ونكتفي في ذلك بما يلي:

فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ

برنارد شو
يكـــــرم نبيّ الإســلام

يقول الأستاذ عزّ الدين فرج في كتابه (نبيّ الإسلام):

«لا نعدُّ برنارد شو كاتباً وفيلسوفاً إنجليزياً عظيماً فحسب، بل هو في طليعة المفكرين والفلاسفة في العالم أجمع.

ومن أخصّ خصائص هذا الفيلسوف الكبير: أنه جريء إلى أبعد حد، وصريح إلى أبعد حدود الصراحة. فإذا أبدى رأياً في يوم من الأيام، فهو رأي يؤمن به كل الإيمان، ويعتقد بصحته وصوابه إلى حدٍّ كبير..

وفي أثناء سياحته في بمباي بالهند، كتب رسالة أوضح فيها رأيه في صلاحية الدين المحمدي لجميع الأمم في كل زمان ومكان، وأشاد بفضل هذا الرسول وعظمته وعبقريته قائلاً:

«لقد وضعت دائماً دين محمد موضع الاعتبار السامي، بسبب حيويته العظيمة. فهو الدين الوحيد الذي يلوح لي أنه حائز أهلية العيش

لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذاباً لكل زمان ومكان».

ثم استطرد يقول: «لا مشاحة في أن العالم يعلّق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال. لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولاً لدى أوربا في الغد القريب. وقد بدأ يكون مقبولاً لديها اليوم. ولقد صوّر أكليروس القرون الوسطى، الإسلامَ بأحلكِ الألوان: إمّا بسبب الجهل، أو بسبب التعصّب الذميم..

ولقد كانوا ـ في الواقع ـ يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه. وكانوا يعتبرونه خصماً للمسيح..

ولقد درستُه ـ باعتباره رجلاً عظيماً ـ فرأيته بعيداً عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يُدعى: منقذ الإنسانية.

وإني لأعتقد أنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث، لنجح في حلّ مشكلاته، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو في أشد الحاجة إليهما.

ولقد أدرك في القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون، أمثال كارلايل وجوته وجيبون، القيمة الذاتية لدين محمد.

وهكذا وُجِدَ تحوّلٌ حَسَنٌ في موقف أوربا من الإسلام. ولكنَّ أوربا ـ في القرن الراهن ـ تقدّمت في هذا السبيل كثيراً فبدأت تعشق عقيدة محمد. وفي القرون القادمة، قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك، فتعترف بفائدة هذه العقيدة في حلّ مشاكلها. بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي.

وفي الوقت الحاضر، دخل كثير من أبناء قومي من أهل أوروبا في

دين محمد، حتى ليمكن أن يقال: إن تحوّلَ أوروبا إلى الإسلام، قد بدأ».

هكذا وصف أكبر كاتب إنجليزي الإسلامَ ونبيّه الكريم.

وهكذا شهد له أكبر فلاسفة أوروبا.

لقد سجّل برنارد شو كلماته هذه، بعد بحث وتفكير ورويّة، وبعد أن عَرَف أن دين هذا النبيّ، وَضعَ لكل مشكلة ـ اجتماعية واقتصادية ـ الحلّ المناسب لها الذي يصلح لكل زمان ومكان..

لقد سجّل هذا الكاتب كلماتِه، بعد دراسة عميقة لقواعد هذا الدين وما فيه من آيات بيّنات، ولولا أنه ما درس هذا الموضوع دراسة عميقة وافية، لما قال:

«لقد بدأتْ أوروبا الآن، تتعشق الإسلام، ولم يَمْضِ القرن الحادي والعشرون، حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين به في حلّ مشاكلها».

لقد نظر برنارد شو إلى العرب قبل الدعوة المحمدية، فوجدهم في فساد وفوضى، ووحشية وهمجية، وحرب وقتال دائم: يقتلون البنات، وينظرون إلى النساء نظرة احتقار وسخرية، ورآهم أشدَّ الأمم تباهياً بالأنساب وتسامياً بالآباء، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الفريدة في مفاخرها، وقد غلَوْا في هذا الاتجاه، حتى جعلوا لإبِلِهِمْ وخيولهم أنساباً يرفعونها بها على سائر الخيول والإبل، فما بالك بمَن بَعُدَ عنهم من القبائل والشعوب، واختلف معهم في اللغة والتقاليد؟ ثم نظر إليهم بعد دعوة هذا النبيّ الكريم فوجدهم خلقاً جديداً، لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ووجدهم في تقدم ورقيّ وحضارة: تمتد أطرافها في الشرق والغرب، ورأى كيف دانت لهم الممالك

والأمصار في سهولة ويسر، وكيف رضيت به الشعوب على اختلاف أجناسها، وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم، ورأى كيف أضحت المرأة إنساناً محترماً: له ما للرجال من احترام وحقوق. .

لقد درس برنارد شو أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، فوجدها قائمة على الأصول الأدبية والمبادىء الأخلاقية. لا على الأمور المعيشية والمطالب المادية، كما هو الحال في المدينة الأوروبية، فرأى بذلك أول أمة في تاريخ العالم، قامت على مبادىء عالية، وقواعد سامية، وأسس روحانية.

لقد رآها أمة ديمقراطية بأوسع معاني الكلمة. . . رآها ديمقراطية؛ لأنها لم تعترف بالفروق الطائفية والامتيازات الارستقراطية، رآها أُمة لا تفرّق بين ذكر وأُنثى، وبين سيد ومولى، إلا بالخير والعمل الصالح المنتج. . . رآها أمة تؤمن بتكافؤ الفرص، وتفتح الباب أمام العاملين من كل بيئة وجنس ولون؛ لكي ينال قصبَ السبقَ كلّ مَن سمت همّته وعلت كفايته.

لقد درس برنارد شو أمة هذا النبيّ، فوجدها دستورية؛ لأن الحكومة قُيّدت فيها بكتاب إلّهي: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهذه أعظم صفات الأمم الدستورية، وقد حقّق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية، فجعل الحكم شُورِياً، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية والجنسية، ومحا الفوارق في الحقوق والواجبات بين مختلف الطبقات، وأخضع الجميع لمبادىء واحدة: لا فرق بين حاكم ومحكوم، وأبيضَ وأسود، وذكر وأُنثى.

هذه هي الأمة التي قامت على الدعوة المحمدية.

ألا يحقّ لبرنارد شو أن يصفَ هذا النبيّ الكريم بأنه منقذ

الإنسانية؟ ألا يحقّ له بعد هذا كله أن يقول:

«إنني أعتقد أن رجلاً كمحمد، لو سلّم زمام الحكم في العالم؛ بأجمعه؛ لتمّ له النجاح في حكمه؛ ولقاده إلى الخير، وحلّ مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

* * *

درس برنارد شو الحياة الإسلامية، وأدرك أنها قائمة على التكافل والتضامن والتعاون بين الأفراد والشعوب، ورأى في ذلك سرّ النجاح.

فالمرأة والرجل متكافلان في الحياة الدنيا من نفس واحدة، بعضهما من بعض: يتمّم كلٌّ منهما الآخر. وأساس الصلة بينهما المودّة والرحمة. والرجال أنصاف تلتمس أنصافها الأخرى في كنف النساء. ومَن تزوج، فقد عصم نصف دينه. وفي كل هذه المعاني يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾(١):

وفي موضع آخر:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾(٢).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾(٣).

والغني والفقير، والعامل والمموّل: متكافلون في هذه الحياة الدنيا، يشدّ بعضهم أزر بعض، ويتعاونون على البرّ والتقوى. فللفقير

(١) الروم: ٢١. (٢) النساء: ١٢٤. (٣) النحل: ٩٧.

حق معلوم في مال الغنى. وفي ذلك دَعْم للمجتمع أولاً، والأسرة ثانياً، والدولة ثالثاً. وأكبر الكبائر في الإسلام: أن يبيت الرجل شبعانَ وجاره جائع: وأجر العامل حقٌّ مكفول. ومَن ظلمه إياه أو أخرّه عنه، فقد أثَمَ إثماً عظيماً، وتعرَّض لعقاب الدنيا وخِزيِ الآخرة، وعلى الفقير والعامل أن يصدقا وينصَحَا ويؤديا عملهما كاملاً؛ فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه.

والحاكم والمحكوم متكافلان: على الحاكم العدل والمساواة والرعاية. وعلى المحكوم الطاعة والنصيحة والمعاونة.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ﴾(١).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾(٢).

هكذا كان التكافل وحُسن التعامل قوام الحياة الاجتماعية: التي جاء بها الإسلام الحنيف. فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأرضية المادية التي طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها قيادة البشرية؟ بدّلت نعمة الله كفراً، وأحلّت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون، وفَشلت في تحقيق العدالة والإخاء والسلام على وجه الأرض.

ألا يحقّ بعد هذا كله: أن يسجّل (برنارد شو) كلمته الخالدة وقوله: «وإن لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث، لنجح في حلّ مشكلاته، بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة والطمأنينة التي هو في أشدّ الحاجة إليها.

---

(١) النساء: ٥٨. (٢) النساء: ٥٩.

وهذه الصيحة التي أطلقها برنـاردشو عن الإسلام ونبيّه، تتفق إلى حدٍّ كبير مع خطبة (المستر كان تلر) التي ألقاها في حفل كبير جامع، قال: «يمتد الدين الإسلامي الآن، من مراكش إلى أنقرة. ومن زنجبار إلى الصين، ويخطو ـ في داخل أفريقيا ـ خطوات كبيرة. وتعتنقه أُمم كثيرة، وقد خطا بنفسه وثبتت قدمه في الكونغو التي صارت بلداً إسلامياً (وبخاصة السودان وهي أشد بلاد الكونغو بأساً).

أما في الهند فإنَّ التمدّن الغربي ـ الذي كان يهدم أركان الوثنية ـ يمهّد الطريق للدين الإسلامي لا غير؛ فأهلُ الهند البالغ قدرهم ٢٥٥ مليون نسمة[١] منهم الآن (٥٠) مليون مسلم. وسكان أفريقيا بأجمعهم، أكثر من النصف منهم مسلمون وهذا يدلّ على أن الإسلام في تزايد وانتشار».

ثم استطرد يقول:

«لقد أفاد الإسلام التمدّن أكثر من النصرانية، ونشر راية المساواة والأخوّة. وهذه الأدلة نذكرها نقلاً عن تقارير الموظفين الإنجليز، وعمّا كتبه أغلب السيّاح من النتائج الحسنة التي نتجت من الدين الإسلامي، وظهرت آياتها منه، فإنه عندما تتدين به أمة من الأمم السودانية تختفي بينها ـ في الحال ـ عبادة الأوثان، واتّباع الشيطان، والإشراك بالعزيز الرحمن، وتحرّم أكل لحم الإنسان، وقتل الرجال ووأد الأطفال، وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحبّ الطهارة، واجتناب الخبائث والرجس والسعي نحو إحراز المعالي، وشرف النفس.

ويصبح عندهم قِرَى الضيف من الواجبات الدينية. وشربُ الخمر من الأمور البغيضة، ولعبُ الميسر والأزلام محرّماً. والرقص القبيح،

---

(١) حسب تعداد ذلك الوقت.

ومخالطة النساء ـ اختلاطاً دون تميّز ـ بغيضاً. ويحسبون عفّة المرأة من الفضائل، ويتمسكون بحُسن الشمائل.

أما الغلو في الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية ـ فلا تُجيزه الشريعة الإسلامية. والدين الإسلامي، هو الدين الذي يعمِّم النظامَ بين الورى، ويقمع النفسَ عن الهوى، ويحرّم إراقة الدماء، والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء، ويوصي بالإنسانية، ويحضّ على الخيرات والأخوة.

ويقول بالاعتدال في تعدّد الزوجات، وكبح جماح الشهوات.

ويذكر الأستاذ الندوي رأي جين ويعلّق عليه:

ويقول جين: «لم ينجح في الامتحان العسير، رسول من الرسل الأولين ـ من بداية أمره كما نجح محمد ﷺ، حين عرض نفسه ـ باديء ذي بدء ـ بصفته رسولاً يوحى إليه على الذين عرفوا ضعفه البشري، وعرفوه أكثر مما يعرفه غيرهم فعرض رسالته على زوجه وعبده العتيد، وابن عمّه، وصديقه القديم الذي لم يتحوّل عنه ولم يخذله. وهؤلاء هم الذين سبقوا الناس إلى الإيمان بنبوّته. إن نصيب الأنقياء انقلب في حق محمد، وتغير عمّا كان عليه، فيمن مضى من الرسل.. فلم يكن محمد غير محبوب إلا من الذين لم يعرفوه» فهذه الشهادات، على أن مَن كان أعرف الناس برسول الله ﷺ، وأقربهم إليه، كان أشدَّهم إيماناً برسالته. وأما الرسل الآخرون فكان الأجانب والغرباء الذين لم يعرفوهم إلا قليلاً، هم الذين سبقوا إلى الإيمان بهم. وتأخر عن الإيمان بهم وتلكأ: ذووهم وأهل بيوتهم، والذين كانوا أكثر معرفة بهم.

وهكذا كان المؤمنون برسالة محمد ﷺ، هم أعرفَ الناس بحقيقته، وأكثرَهم اطّلاعاً على أخلاقه وسُننه وهديه. وقد لقيَ كلٌّ منهم

ـ في سبيل هذا الإيمان ـ بلاءً عظيماً، وامتُحِن امتحاناً شديداً، حتى إن خديجة: زوجَ النبيّ ﷺ، قضت معه ثلاث سنوات محصورة في شعب أبي طالب: تقاسي معه الجوع والظمأ، والفاقة المهلكة.

وأبو بكر صحب النبيّ ﷺ، يوم ضاقت به أرض مكة، فخرج معه مرتدياً ظلام الليل: خائفاً يترقب. والعدو في أثرهما يتعقب مواطىء أقدامهما. فقام أبو بكر بحق الصحبة، وكان الوفيَّ بعهد الصداقة.

أما عليٌّ، فبات على فراش الرسول الذي كان المشركون قد بيتوا الفتك به. وعبده زيد حلّ من النبيّ الكريم محلّ الولد: بعطفه عليه ورأفته به، فلما جاء أبوه الذي وُلِدَ من صلبه يطلب ردَّ ابنه عليه، خيّره رسول الله ﷺ بين أن يصحب أباه أو أن يبقى تحت جناحين من عطف الرسول ورأفته، فاختار صحبة النبيّ ﷺ، على الرجوع مع أبيه إلى قبيلته.

تولستوي

ويقول الأستاذ عز الدين فرج:

لقد كان هذا الفيلسوف الروسي كاتباً منصفاً. فعندما رأى تحامُلَ أهل الأديان الأخرى على الدين الإسلامي، هزَّته الغَيرَةُ على الحق إلى وضع عجالة عن نَبيِّ الإسلام، وبعض تاريخ حياته فقال فيها:

«وُلِدَ نبيّ الإسلام في بلاد العرب من أبوين فقيرين. وكان ـ في حداثة سنّه ـ راعياً يميل إلى العُزْلة والانفراد في البراري والصحارَى، متأملاً في الله خالق الكون..

لقد عبد العرب المعاصرون له أرباباً كثيرة، وبالغوا في التقرّب إليها واسترضائها، وأقاموا لها العباداتِ، وقدّموا لها الضحايا المختلفة.

وكان ـ كلما تقدّم به العمر ـ ازداد اعتقاداً بفساد تلك الأرباب، وأن هناك إلٰهاً واحداً حقيقياً، لجميع الناس والشعوب.

وقد ازداد إيمانُ محمد بهذه الفكرة. فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته، معلناً: أن الله اصطفاه لهدايتهم، وعهد إليه إنارةَ بصائرهم، وهدم دياناتهم وعباداتهم الباطلة. وراح يعلن عن عقيدته وديانته.

وخلاصة هذه الديانة التي نادى بها هذا الرسول: هو أن الله واحد ـ لا إلٰه إلا هو ـ ولذلك لا يجوز عبادة غيره، وأن الله عادل ورحيم بعباده، وأن مصير الإنسان النهائي، متوقف عليه وحده، فمَن آمن به، فإن الله يؤجره في الآخرة أجراً حسناً. وإذا ما خالف شريعة الله، وسار على هواه، فإنه يعاقَبُ في الآخرة عقاباً أليماً، وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضاً. ومحبة الله تكون بالصلاة، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم في السرّاء والضرّاء. وإن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر، ينبغي عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية، والابتعاد عن الملذات الدنيوية، وإنه يتحتم عليهم ألاّ يخدموا الجسد ويعبدوه، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذّبوها. ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبيّ الله الوحيد. بل اعتقد أيضاً، بنبوّة موسى وعيسى. وقال: إن اليهود والنصارى لا يُكْرَهون على ترك دينهم.

وفي سنيّ دعوته الأولى، احتمل كثيراً من اضطهادات أصحابِ الديانات القديمة، شأن كل نبيّ قبله نادى أمته إلى الحق. ولكنَّ هذه الاضطهادات لم تُثنِ من عزمه، بل ثابر على دعوة أمته.

وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب: بتواضعهم وزهدهم في الدنيا، وحبّ العمل والقناعة، وبذلوا جهدهم في مساعدة إخوانهم في

الدين: عند حلول المصائب بهم.

ولم يمضِ على جماعة المؤمنين زمن طويل، حتى أصبح الناس المحيطون بهم: يحترمونهم احتراماً عظيماً، ويعظّمون قَدْرَهم، وراح عدد المؤمنين يتزايد يوماً بعد يوم!!

ومن فضائل الدين الإسلامي: أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم. فقد أمر بحُسن معاملتهم. وقد بلغ من حُسن معاملته لهم: أنه سَمَحَ لأتباعه بالتزوّج من أهل الديانات الأخرى. ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية، ما في هذا من التسامح العظيم» ثم ختم كلمته قائلاً:

«لا ريب أن هذا النبيَّ، من كبارِ الرجال المصلحين: الذين خَدَموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخراً: أنه هَدَى أمته برمّتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكفّ عن سفك الدماء، وتقديم الضحايا. ويكفيه فخراً: أنه فتح لها طريق الرقيِّ والتقدّم. وهذا عمل عظيم: لا يفوز به إلا شخص أُوتيَ قوةً وحكمةً وعلماً. ورجل مثله، جدير بالإجلال والاحترام».

محمد عبده وتولستوي:

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسي موضع تقدير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فكتب لهذا الفيلسوف يقول:

«أيها الحكيم الجليل مسيو تولستو»:

لم نحظَ بمعرفة شخصك، ولكننا لم نُحرَمْ التعارفَ مع روحك. سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقَتْ في آفاقنا شموس من آرائك. ألّفَتْ بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة التي فَطَرَ

الناس عليها، ووفّقك إلى الغاية التي هَدى البشر إليها، فأدركتَ أن الإنسان جاء هذا الوجود: ليَنبُتَ بالعلم، ويُثمِر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعباً ترتاح به نفسه، وسعياً يبقى ويربّي جنسه، وشعرت بالشقاء الذي نزل بالناس، لما انحرفوا عن سُنّة الفطرة، ولما استعملوا قِواهم التي لم يمنحوها إلا ليسعَدوا بها فيما كدَّر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم.

ونظرت نظرةً في الدين: مزّقت حجبَ التقاليد، ووصلتَ بها إلى حقيقة التوحيد، ورفعت صوتك تدعو الناس إلى ما هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه. فكما كنت بقولك هادياً للعقول، كنت بعملك حاثّاً للعزائم والهِمم. وكما كانت آراؤك ضياءً يهتدي بها الضالّون، كان مثالك في العمل إماماً يقتدي به المسترشدون. وكما كان وجودك توبيخاً من الله للأغنياء، كان مدداً من عنايته للضعفاء الفقراء..

وإن أرفعَ مجدٍ بلغتَه، وأكبرَ جزاءٍ نلته ـ على متاعبك في النصح والإرشاد ـ هو هذا الذي سمّاه الغافلون بالحرمان والإبعاد. فليس ما حصل لك من رؤساء الدين، سوى اعترافٍ منهم أعلنوه للناس: أنك لست من القوم الضالّين، فاحمدِ الله على أن فارقوك في أقوالهم، كما كنت فارقتهم في عقائدهم..

هذا، وإن نفوسنا لشيِّقةٌ إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تستقبل من أيام عمرك. وإنّا نسأل الله أن يمِدَّ في حياتك، ويحفظ عليك قواك، ويفتَحَ أبواب القلوب لفهم قولك، ويسوقَ النفوسَ إلى التأسِّي بك في عملك..

والســـــلام...

عن كتاب «نبيّ الإسلام في مرآة الفكر الغربي»

ويقول بعض سادتنا الأفاضل:

إخواني، أريد أن ألفت أنظاركم إلى أمر آخر: إن الرسول الله ﷺ لم يمضِ حياته كلها بين أحبابه وأصحابه، بل قضى أربعين سنة من عمره في مكة قبل أن يبعث. فكان بين أهلها من مشركي قريش. وكان يتعاطى فيهم التجارة، ويعاملهم في أمور الحياة ليل نهار. وهي الحياة اليومية وما تنطوي عليه من أخذ وعطاء. ومن شأنها أن تكشف عن أخلاق المرء، فيتبين للناس فسادها وصلاحها، وهي عيشة طويل طريقها، كثيرة منعطفاتها، وعرة مسالكها: تعترضها وهدات مما يصدر عن المرء من خيانة وإخفار عهد، وأكل مال بالباطل، وعقباتُ من الخديعة والخيانة، وتطفيف الكيل، وبخس الحقوق، وإخلاف الوعد.

وإن الرسول الله ﷺ، اجتاز هذه السبيل الشائكة الوعرة، وخلص منها سالماً نقيّاً: لم يصبه شيء مما يصيب عامة الناس، حتى لقد دعوه «الأمين».

وإن قريشاً ـ بعد بعثته وإعلانه النبوّة ـ كانوا يودعون عنده ودائعهم وأموالهم لعظيم ثقتهم به. وقد علمتم أنه ـ ﷺ ـ لما هاجر من مكة خلَفَ فيها عليّاً؛ ليردَّ ما كان لديه من الودائع إلى أهلها. فقريش خالفتهُ أشد الخلاف في دعوته، ولم يتركوا سبيلاً إلى ذلك إلا سلكوه، فقاطعوه، وعاندوه، وصدّوا عن سبيله، وألقوا عليه سلى أحشاء جذور وهو يصلّي، ورمَوْه بالحجارة، وأرادوا قتله، وكادوا له كيدهم، وسمّوه ساحراً، ودعوه شاعراً، وفَنَّدُوا آراءه، وسخفوا حلمه. لكن لم يجرؤ أحد منهم على أن يقول شيئاً في أخلاقه، ولا أن يرميه بالخيانة، أو ينسب إليه الكذب في القول أو إخلاف الوعد، أو إخفار الذمّة، أو نقض العهد.

وإن مَن ادّعى النبوّة وقال إن الله يوحى إليه، فكأنه ادّعى العصمة

والبراءة من جميع المفاسد، ومساوىء الأعمال.

ألم يكن يكفي قريشاً - ردّهم على الرسول - أن يذكروا أموراً عمل فيها الرسول بغير الحق، وأن يشهدوا عليه بأن أخلفهم وعداً، أو خانهم في أموالهم، أو كذبهم في شيء مما قاله لهم؟

إن قريشاً أنفقوا أموالهم وبذلوا نفوسهم في عداوة الرسول، وضحوْا بفلذات أكبادهم في قتاله. حتى قتِل منهم وجرح كثيرون، لكنهم لم يستطيعوا أن يدنّسوا ذيله الطاهر، ولا أن يصِموه بشيء في عظيم أخلاقه.

وكانت أحوال الرسول وشئونه وهديه: ظاهرة لجميع الناس معلومة لهم، استوى في ذلك أحبابه وأعداؤه، ولم يخفَ عليهم شيء من أمره.

كان عظماء قريش مجتمعين ذات يوم في ناديهم، فجرى ذكر الرسول ﷺ، وفيهم النضر بن الحارث. وكان رجلاً داهية محنكاً، وعالماً بالأخبار. فقال لهم: يا معشر قريش، لقد أعياكم أمر محمد، وعجزتم عن أن تدبروا فيه رأياً لما أصابكم به، إن محمداً قد نشأ فيكم حتى بلغ مبلغ الرجال، وكان أحبَّ الناس إليكم، وأصدقهم فيكم، واتخذتموه أميناً. فلما وخطه الشيب، وعرض عليكم هذا الأمر، قلتم: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون، تالله، لقد سمعتُ كلامه، فليس فيه شيء مما ذكرتم.

وأبو جهل كان أشدّ الناس عداوة للرسول، وقد قال له ذات يوم: يا محمد، إني لا أقول إنك كاذب، لكني أجحد الذي جئت به، وما تدعوا إليه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾(١).

---

(١) الأنعام: ٣٣ - تراجع ص ٧٦ في سبب نزول هذه الآية.

ويقول الأستاذ الكبير أبو الحسن الندوي:

«وقد أحسن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، تصوير البعثة المحمدية وفضلها وإنتاجها في كتابه: «الجواب الصحيح» يقول رحمه الله:

«وسيرة الرسول ﷺ: من آياته، وأخلاقه وأقواله وأفعاله وشريعته من آياته، وأمته من آياته، وعِلْمُ أمته ودينهم من آياته، وكرامات صالحي أمته من آياته».

ولم يزل قائماً بأمر الله على أكمل طريقة وأتمّها، من: الصدق والعدل والوفاء. لا يحفظ له كذبة واحدة، ولا ظلم لأحد، ولا غدر بأحد. بل كان أصدقَ الناس وأعدلهم، وأوفاهم بالعهد، مع اختلاف الأحوال عليه من حرب وسلم، وأمن وخوف، وغنى وفقر، وقلة وكثرة. وظهوره على العدو تارة، وظهور العدو عليه تارة، وهو ـ على ذلك كله ـ ملازم لأكمل الطرق وأتمّها، حتى ظهـرت الدعـوة في جميع أرض العرب: التي كانت مملوءة من عبادة الأوثان، ومن أخبار الكهّان، وطاعة المخلوق في الكفر بالخالق، وسفك الدماء المحرّمة، وقطيعة الأرحام، لا يعرفون آخرة ولا معاداً، فصاروا أعلم أهل الأرض وأدينَهُمْ وأعْدَلهم وأفضلهم: حتى إن النصارى لما رأوهم ـ من حين قدِموا الشام ـ قالوا: ما كان الذين صحبوا المسيح بأفضل من هؤلاء، وهذه آثار علمهم وعملهم في الأرض، وآثار غيرهم: يعرف العقلاء فرق ما بين الأمرين.

ولما تلقى الرسول ﷺ أمرَ ربه بأن يدعو ذوي قرباه إلى الإسلام وينذر عشيرته الأقربين صعدَ الجبل، ونادى: يا معشر قريش، فلما اجتمعوا قال: هل كنتم مُصَدِّقيَّ إن قلت: إن جيشاً قد بلغ سفح هذا الجبل؟ قالوا: ما جرَّبنا عليك كذباً قطّ.

«صحيح البخاري: سورة تبت»[1].

يقول صاحب «الرسالة المحمدية»:

كان الواعظ الذائع الصيت الأستاذ حسن علي رحمه الله يصدر في (بتنه) قبل خمسين عاماً مجلة (نور الإسلام)، وقد قال في جزء منها إن صديقاً له من البراهمة قال له: إني أرى رسول الإسلام، أعظم رجال العالم وأكملهم. فقال له الأستاذ حسن علي:

وبماذا كان رسول الإسلام عندك أكمل رجال العالم؟ فأجاب: لأني أجد في رسول الإسلام خلالاً مختلفة، وأخلاقاً جمّة، وخصالاً كثيرة: لم أرَها اجتمعت في تاريخ العالم لإنسان واحد في آن واحد: فقد كان: ملكاً دانت له أوطانه كلها: يصرِّف الأمر فيها كما يشاء. وهو - مع ذلك - متواضع في نفسه: يرى أنه لا يملك من الأمر شيئاً، وأن الأمر كله بيد ربه. وتراه في غنىً عظيم: تأتيه الإبل موقرة بالخزائن إلى عاصمته، ويبقى مع ذلك محتاجاً ولا توقد في بيته نار لطعام الأيامَ الطوال. وكثيراً ما يطوي على الجوع. ونراه قائداً عظيماً: يقود الجند القليل العدد، الضعيف العدد: فيقاتل بهم ألوفاً من الجند المدجّج بالأسلحة الكاملة. ثم يهزمهم شرّ هزيمة. ونجده محبّاً للسلام مؤثراً للصلح، ويوقّع شروط الهدنة على القرطاس بقلب مطمئن، وجأش هادىء؛ ومعه ألوف من أصحابه: من كل شجاع باسل، وصاحب حماسة وحمية تملأ جوانحه. ونشاهده بطلاً شجاعاً: يصمد وحده لآلاف من أعدائه، غير مكترث بكثرتهم.

وهو مع ذلك رقيق القلب، رحيم رءوف، متعفّف عن سفك قطرة

---

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ص ٧٢، ٧٣.

دم. وتراه مشغول الفكر بجزيرة العرب كلها، بينما هو لا يفوته أمر من أمور بيته وأزواجه وأولاده، ولا من أمور فقراء المسلمين ومساكينهم، ويهتم بأمر الناس الذين نسوا خالقهم وصدّوا عنه فيحرص على إصلاحهم. وبالجملة إنه إنسان يهمّه أمر العالم كله. وهو مع ذلك متبتّل إلى الله، منقطع عن الدنيا. فهو في الدنيا وليس فيها؛ لأن قلبه لا يتعلق إلا بالله وبما يرضي الله. لم ينتقم من أحد قطّ لذات نفسه. وكان يدعو لعدوّه بالخير، ويريد لهم الخير. لكنه لا يعفو عن أعداء الله، ولا يتركهم، ولا يزال ينذر الذين قد صدّوا عن سبيل الله ويوعدهم عذاب جهنم. تراه زاهداً في الدنيا عابداً يقوم الليل لذكر الله ومناجاته، كما تتصور من شمائله: أنه الجندي الباسل المقاتل بالسيف. وتراه رسولاً حصيفاً، ونبيّاً معصوماً، في الساعة التي تتصوره فيها: فاتحاً للبلاد ظافراً بالأمم.. وإنه ليضطجع على حصير له من خوص، ويتكىء على وسادة حشوها من ليف، حينما يخطر على بالنا أن ندعوه بسلطان العرب، ونناديي به ملكاً على بلاد العرب.

ويكون أهل بيته في فاقة وشدّة، عقب استقباله الأموال العظيمة: آتية إليه من أنحاء الجزيرة العربية. فتكون في فناء مسجده أكواماً، وتأتيه بنته وفلذة كبده فاطمة: تشكو إليه ما تكابده من حمل القربة والطحن بالرحى، حتى مجلت يدها وأثرت القربة في جسمها، والرسول ـ يومئذ ـ يقسم بين المسلمين، ما أفاء الله عليهم من عبيد الحرب وإمائها، فلا تنال بنته من ذلك، إلا دعاءه لها بكلمات يعلّمها كيف تدعو بها ربها.

وجاءه ذات يوم صاحبه عمر، فأجال بصره في الحجرة، فلم يجد إلا حصيراً من خوص قد اضطجع الرسول عليه وأثر في جنبه، وكل ما في البيت صاع من شعير في وعاء، وعلى مقربة منه شنٌّ معلق على وتد. هذا كل ما كان يملك رسول الله يوم دان له نصف العرب.

فلما رأى عمر ذلك لم يتمالك نفسه من دموع تذرفها عيناه، فسأله رسول الله ﷺ: « ما يبكيك يا عمر؟ فقال: ما لي لا أبكي، إن قيصر وكسرى يتمتعان بالدنيا وينعمان بنعيمها. وإن رسول الله ﷺ لا يملك إلا ما أرى. فقال له الرسول ـ سلام الله عليه ـ «أمَا ترضى يا عمر، أن يكون ذلك نصيبَ كسرى وقيصر من نعيم الدنيا، وتكونَ لنا الآخرةُ خالصةً من دون الناس»؟

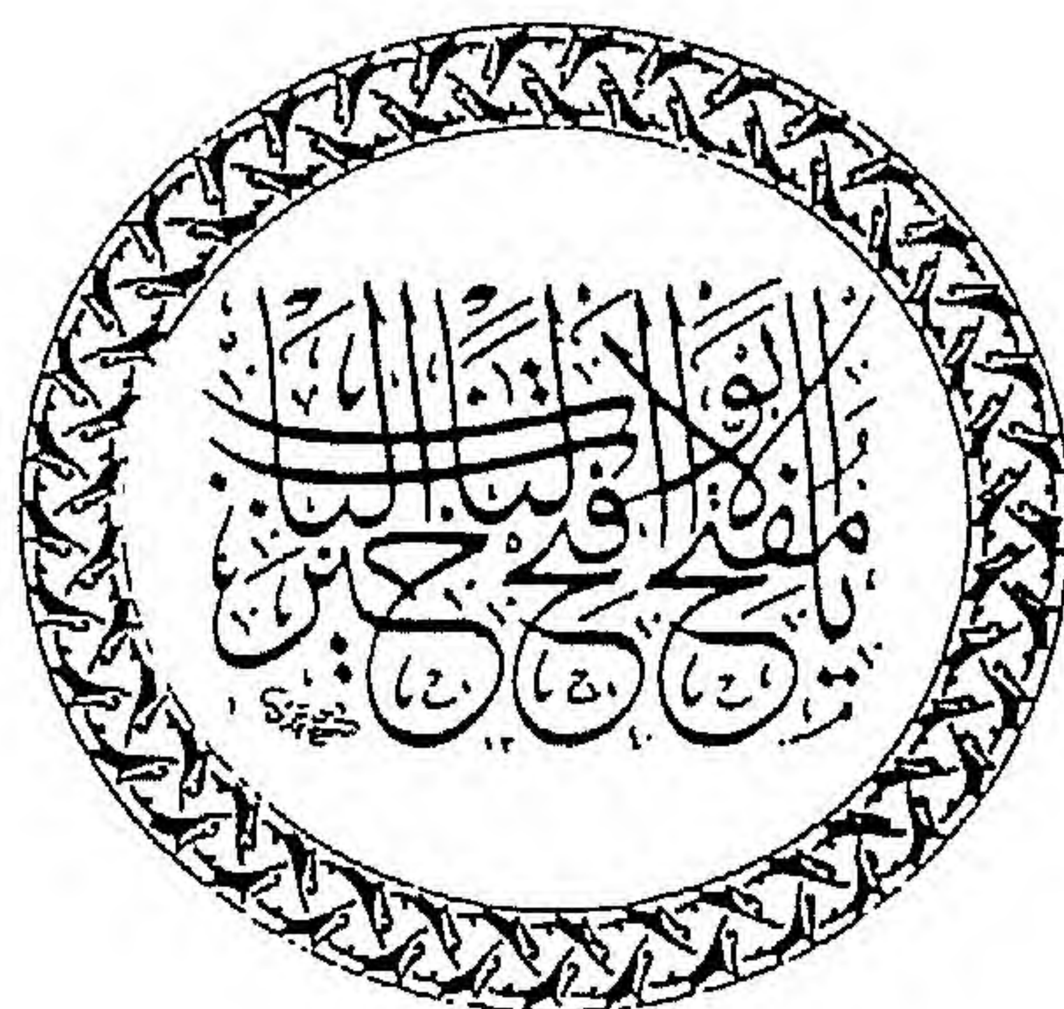
وعندما أحدق النبيّ ﷺ: بجيوشه ليفتح مكة، قام أبو سفيان إلى جانب العباس عمّ النبيّ ﷺ، ينظران إلى المجاهدين من المسلمين: تقدمهم الأعلام الكثيرة. وكان أبو سفيان لا يزال على ما كان عليه من المخالفة للإسلام، فراعه ما رأى من كثرة جموع المسلمين ومَن انضوى إليهم من القبائل المسلمة، وأنهم يزحفون على بطحاء مكة كالسيل الجارف: لا يَصُده صادٌّ، ولا يمنعه شيء. فقال لصاحبه: يا عباس، إن ابن أخيك أصبح مِلكاً عظيماً، فأجابه العباس ـ وهو يرى غير الذي يراه أبو سفيان ـ ليس هذا من المُلْكِ في شيء يا أبا سفيان... هذه نبوّة ورسالة..

وعديّ الطائي ـ وهو ابن حاتم الذائع الصيت الذي تضرب به الأمثال في الجود والسخاء ـ كان سيّد طيىء، وحضر مجلس الرسول ﷺ ذات يوم، وهو لا يزال على المسيحية، فشاهد إعظام الصحابة للرسول، وعليهم عدّة الجهاد من الأسلحة واللأمة للدفاع، فاشتبه عليه أمر النبوّة بأمر السلطان، وتساءل في نفسه: أهذا ملكٌ من ملوك، أم رسول من رسل الله؟ وفيما هو كذلك، جاءت إلى النبيّ ﷺ امرأةٌ فقيرة من إماء المدينة، وقالت له: أريد يا رسول الله، أن أسِرَّ إليك شيئاً فقال لها: «انظري في أيّ سكك المدينة شئت أخلو لك». ثم نهض معها وقضى لها حاجتها. فلما رأى ابن حاتم الطائي هذا التواضع العظيم من الرسول

العظيم ـ وهو بين أصحابه في مثل عظمة الملك ـ انجلى عنه ظلام الباطل، وتبيّن له الحقُّ واضحاً، وأيقن أن هذا الأمر من رسالات الله. فَعَمَد إلى صليبه فنزعه عنه، ودخل مع أصحاب رسول الله ﷺ، في نور الإسلام.

وفي الجملة: إن كل ما ذكرته آنفاً، ليس من الإغراق في الثناء، ولا من المبالغة في المدح. بل هو من حقائق الواقع: التي سجلها التاريخ بأصحّ ما استطاع أن يسجل به حقائقه[1].

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ص ٧٦ ـ ٨٩.

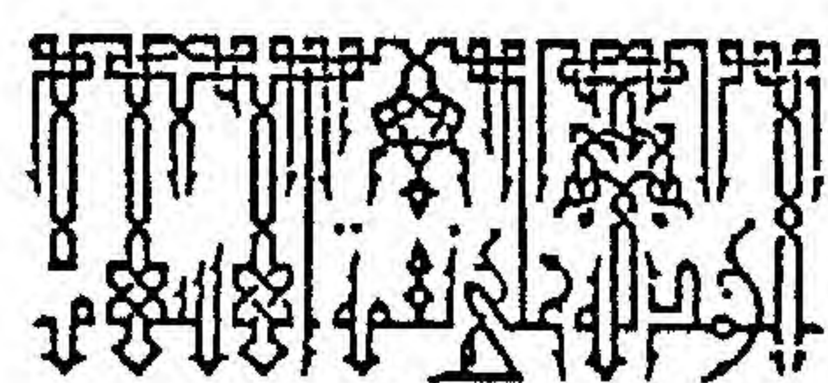


﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الثاني عشر

محمد ﷺ بشراً... رسولا



محمـــد الرسول البشر

وهذه مجموعة من النصوص والأبحاث، تنتهي بإعطاء صورة عن رسول الله ﷺ، في الجانب الجسماني والروحي.

روى الإمام أحمد بسنده ـ عن أبي أمامة ـ قال:

قلت: يا رسول الله،... ما كان أولُ بدء أمرك؟..

قال: «دعوة أبي إبراهيم. وبشرى عيسى بي، ورأت أمي أنه خرج منها نورٌ أضاءت به قصور الشام».

يفسّر ذلك قول الله سبحانه وتعالى ـ فيما ذكر عن إبراهيم عليه السلام ـ.

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١).

وقوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٢).

---

(١) البقرة: ١٢٩.
(٢) الصف: ٦.

وعن أبي موسى - فيما رواه البيهقي - قال: كان رسول الله ﷺ يسمّي لنا نفسه أسماء فقال: «أنا أحمد، ومحمد، والحاشر، والمقفى، ونسبي التوبة والملحمة».

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحْشَرُ الناسُ على قدمه، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد». رواه البخاري في الصحيح عن أبي اليمان. ورواه مسلم عن عبد بن حميد عن أبي اليمان، وأخرجه مسلم من حديث ابن عيينة وعقيل عن الزهري والبخاري من حديث مالك بن أنس عن الزهري.

من صفــــاته:

عن البراء رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ، أحسَنَ الناس وجهاً، وأحسنه خَلْقاً. ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير. أخرجاه في الصحيح.

يقول البراء بن عازب قال: «كان رسول الله ﷺ، مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، يبلغ شعره شحمة أُذنيه، عليه حلّة حمراء، ما رأيت شيئاً أحسنَ منه» رواه البخاري في الصحيح عن أبي عمر حفص بن عمر، وأخرجه مسلم من حديث غندر عن شعبة[1].

ويقول: «كان رسول الله ﷺ مربوعاً، بعيدَ ما بين المنكبين، أعظمَ الناسَ وأحسنَ الناس: جُمّته إلى أُذنيه، عليه حلّة حمراء، ما رأيتُ شيئاً قطّ أحسن منه» أخرجه في الصحيح من حديث شعبة[2].

---

(١) دلائل النبوّة ص ١٦٧.

(٢) دلائل النبوّة ص ١٧٨.

«أما كلامه فهو فصل لا فضول ولا تقصير. وكان ﷺ دمثاً: ليس بالجافي ولا المهيمن. يعظّم النعمة وإن دقّت لا يذمّ منها شيئاً».

وعن أبي هريرة، قال: «ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من النبيّ ﷺ: كأنَّ الشمس تجري في وجهه وما رأيت أحداً أسرع في مشيه منه، كأن الأرضَ تُطْوَى له. إنّا لنجتهد، وإنه غير مكترث»(١).

عُجِّلت لهم طيباتهم.

عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب في القصة(٢). قال: «فجلست فرفعت رأسي في البيت، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر، إلا أُهُبٌ ثلاثة فقلت: ادع الله يا رسول الله أن يوسع على أمتك، فقد وسّع على فارس والروم، وهم لا يعبدون الله. فاستوى فقال: أفي شك أنت يا ابن الخطاب أولئك قومٌ عجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: «استغفرُ الله يا رسول الله»(٣).

لم يكن فاحشاً:

عن عبد اللّه بن عمر يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وإنه كان يقول: «إن خيارَكم أحسنكم أخلاقاً» - رواه مسلم في الصحيح -(٤).

لا يـــــجابه:

عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام يقولون

(١) دلائل النبوّة ص ١٥٩.
(٢) قصة زيارته الرسول ﷺ وتألمه لقلة ما رآه عنده من متاع الدنيا.
(٣) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢٤٩.
(٤) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢٣٥.

كذا»[1]. فكان لا يسمّيهم بأسمائهم حتى لا يسبّب لهم حرجاً.

من وصف أبي هريرة له:

عن أبي هريرة قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قطّ، إن اشتهاه أكله، وإلا تركه»، (أخرجه البخاري في الصحيح من حديث سفيان الثوري وشعبة وأخرجه البخاري ومسلم من حديث الثوري).

يبتســـم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت رسول الله ﷺ قطّ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته، إنما كان يبتسم»[2].

رحيم بالأطفال:

عن أنس بن مالك قال: «ما رأيت أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ﷺ» وذكر الحديث.

عن أنس بن مالك قال: «كان رسول الله ﷺ من أفْكَهِ الناس مع صَبيّ»[3].

لم يكن فاحشـــاً:

روى الترمذي بسنده عن عائشة رضي الله عنها: إنها قالت عن خُلُق رسول الله ﷺ: (لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، ولا سخَّاباً[4] في

---

(١) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢٣٧.

(٢) رواه مسلم في الصحيح.

(٣) دلائل النبوّة جـ ١ ص ٢٤٦.

(٤) السخاب: الذي يرفع صوته لسوء خلقه.

الأسواق. ولا يجزي السيئة بالسيئة. ولكن يعفو ويصفح. أو قال يعفو ويغفر) ـ شك أبو داود ـ ورواه الترمذي من حديث شعبة وقال: حسن صحيح.

وعن مسروق عن عبد اللّٰه بن عمرو[1] قال: (لم يكن النبيّ ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً. وكان يقول: ﷺإن خيّاركم أحسنكم أخلاقاً) ورواه مسلم من حديث الأعمش به[2].

أنس ووصف الرسول ﷺ.

عن أنس قال: (كان الرسول ﷺ من أجمل الناس ومن أجود الناس ومن أشجع الناس). رواه البخاري في الصحيح عن سليمان بن حرب. ورواه مسلم عن سعيد بن منصور.

وقال: «لم يكن رسول الله ﷺ سبّاباً ولا فحّاشاً ولا لعّاناً كان يقول لأحدنا عند المعتبة: ما له تربت جبينه». رواه البخاري في الصحيح عن محمد بن سنان.

بعثت داعياً ورحمة:

عن عائشة رضي الله عنها. قالت: «ما خُيرَ رسولُ الله ﷺ، بين أمرين إلا اختار أيسرَهما، ما لم يكن إثماً. فإن كان إثماً، كان أبْعَدَ الناس منه. وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تُنْتَهَكَ حرمةُ الله تعالى، فينتقم بها».

---

(١) الحديث في صحيح البخاري ١٣٢/٣، جـ ١ الأميرية: حدّثنا عمر بن حفص، حدّثنا أبي حدّثنا الأعمش، قال: حدّثني شفيق عن مسروق. قال: كنّا جلوساً مع عبد اللّٰه بن عمرو يحدّثنا إذ قال... إلخ..

(٢) شمائل الرسول ﷺ لابن كثير ص ٢٠، ٢١، ط الحلبي.

ورويَ أن النبيّ ﷺ، لما كُسِرَت رباعيته وشُجَّ وجهُه يوم أُحُدٍ، شقّ ذلك على أصحابه شـديداً، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال: «إني لم أُبْعَثْ لعَّاناً ولكني بُعثتُ داعياً ورحمة.. اللّهمّ اهْدِ قومي، فإنهم لا يعلمون».

ورُويَ عن عمر رضي الله عنه: أنه قال في بعض كلامه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد دعا نوح على قومه، فقال: «ربِّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» ولو دعوت علينا مثلها لهلَكْنا من عند آخرنا وُطىء ظهرُكَ وأدْمَى وجهك، وكُسِرَت رباعيتُك، فأبيتَ أن تقول إلا خيراً. فقلت: «اللّهمّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قال القاضي أبو الفضل ـ وفّقه الله ـ انظر ما في هذا القول من جماع الفضل، ودرجات الإحسان، وحُسن الخلق، وكرم النفس، وغاية الصبر والحلم.. إذ لم يقتصر ﷺ على السكوت عنهم حتى عفا عنهم، ثم أشفق عليهم ورحمهم، ودعا وشفع لهم فقال: «اغفر» أو «اهدِ» ثم أظهَرَ سبب الشفقة والرحمة بقوله: «لقومي» ثم اعتذر عنهم بجهلهم فقال: «فإنهم لا يعلمون».

من وصف السيدة عائشة:

عن عائشة قلت: «ما رأيت رسول الله ﷺ، ضرب خادماً له قطّ، ولا ضرب امرأة له قطّ، ولا ضرب بيده شيئاً قطّ، إلا أن يجاهد في سبيل، ولا نيلَ منه شيء قطّ فينتقم من صاحبه، إلا أن يكون لله، فإذا كان لله انتقم له، ولا عُرِض عليه أمران إلا أخذ الذي هو أيسر إلا أن يكون إثماً، فإن كان إثماً، كان أبعد الناس منه». رواه في الصحيح عن أبي كريب عن أبي معاوية[1].

(١) دلائل النبوّة جـ١ ص٢٣٣.

ينتصر للحق:

لا تغضبه الدنيا وما كان لها. فإذا تُعُوطيَ الحق، لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصرَ له، لا يغضَب لنفسه ولا ينتصر لها»[1].

أبلغوني حاجة الضعفاء:

قال: وأبلغوني حاجة مَن لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه مَن أبلغ سلطاناً حاجة مَن لا يستطيع إبلاغها إياه ـ ثبَّت الله قدميه يوم القيامة.

عمـــلة ديمة:

عن علقمة قال: سألت عائشة رضي الله عنها: كيف كان عمل رسول الله ﷺ؟ هل كان يخصّ شيئاً من الأيام؟ قالت: «لا، كان عمله ديمة. وأيّكم يستطيع ما كان رسول الله ﷺ، يستطيع»؟ رواه مسلم في الصحيح.

ويقول صاحب دلائل النبوّة:

وجمع له ﷺ، الحلم والصبر فكان لا يغضبه شيء ولا يستنفره وجمع له الحذر في أربع:

أخذِه بالحسنى ـ قال سعيد والعلوي ـ: بالحسنى لِيُقْتدى بـه، وتركِه القبيح لِينتهي عنه، وفي رواية العلوي ليُتناهى عنه، واجتهاده، الرأي فيما أصلح أمته، والقيام فيما جمع لهم الدنيا والآخرة، وفي رواية العلوي: والقيام لهم فيما جمع لهم أمر الدنيا والآخرة ﷺ[2].

---

(١) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢١٤.
(٢) دلائل النبوّة جـ ١، ص ٢١٧.

قال ابن إسحاق، «كان يسمى: الأمين. بما جمع الله فيه من الأخلاق الصالحة»[1].

أدب القـــرآن:

عن عطية العوفي في قوله (تعالى): ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قال: (أدب القرآن)[2].

أجـــــود الناس:

عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ أجود الناسِ. وكان أجودَ ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل. وكان جبريل عليه السلام يلقاه في ليلة من رمضان فيدارسهُ القرآن. قال: فَلَرَسُول الله ﷺ، أجودُ بالخير من الريح المرسَلة». رواه البخاري في الصحيح[3].

حـــــليم:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجَذَبه جذبةً شديدة، حتى نظرتُ إلى صفحة عاتق النبيّ ﷺ قد أثَّرت به حاشية الرداء، من شدّة جذبته. ثم قال: «مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء» - في جـ ٧ ص ١١٥.

ورُوِي أن أعرابياً جاءه يطلب منه شيئاً، فأعطاه. ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي لا، ولا أجملت، فغضِب المسلمون وقاموا إليه،

---

(١) الشفاء ص ١٠٤.

(٢) دلائل النبوّة جـ ١ ص ٢٣٢.

(٣) دلائل النبوّة.

فأشار إليهم أن كُفُّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه ﷺ، وزاده شيئاً، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال: نعم فجزاك الله من أهلٍ وعشيرةٍ خيراً، فقال له النبيّ ﷺ: «إنك قلت ما قلت، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء فإن أصبتَ فقل ـ بين أيديهم ـ ما قلت بين يديّ، حتى يذهبَ ما في صدورهم عليك، إن هذا الأعرابي قال: نعم، فلما كان الغداة، أو العشيّ، جاء فقال ﷺ: «إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضي أكذلك، قال نعم جزاك الله من أهلٍ وعشيرة خيراً، فقال ﷺ: مثَلي ومَثَل هذا مثل رَجُلٍ له ناقة شردت عليه، فأتبعها الناسُ، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحبها: خلّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفَقُ بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض، فردّها، حتى جاءت واستناخت، وشدّ عليها رحلها، واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيثُ قال الرجل ما قال، فقتلتموه دخل النار[1].

شـــــجاع:

عن شعبة عن أبي إسحاق: قال رجل للبَرَاء بن عازب رضي الله عنهما: «أفررتم عن رسول الله ـ ﷺ ـ يوم حنين؟ قال: لكن رسول الله ﷺ. . لم يفرّ. . ، إن هوازن كانوا قوماً رماة وإنا لما لقيناهم، حملنا عليهم فانهزموا. فأقبل المسلمون على الغنائم واستقبلونا بالسهام. . ، فأمَّا رسول الله ﷺ، لم يفرّ، فلقد رأيته وإنه لعلى بغلته البيضاء، وإن أبا سفيان (ابن الحارث) آخذ بلجامها، والنبيّ يقول. . أنا النبيّ لا كذب أنا ابن عبد المطلب». (خ).

عن البراء رضي الله عنه قال له رجل: «يا أبا عمارة، ولَّيتم يوم

---

(١) الشفاء ص ٩٦، ٩٧.

حنين؟ قال لا والله، ما ولّى النبيّ ﷺ، لكن ولّى سرعان الناس. فلقيهم هوازن بالنبل، والنبيّ ﷺ على بغلته البيضاء، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبيّ ﷺ يقول: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

جوهر خلق رسول الله ﷺ:

ومع كل ما سبق، فإننا نحب ـ بتوفيق الله ـ أن نحدّد الصفة التي تحلّى بها رسول الله ﷺ، فكانت الأساس والمصدر لكل خلقٍ كريم:ـ

لقد سئلت السيدة عائشة رضوان الله عليها، عن خُلُق رسول الله ﷺ، فقالت: (كان خلُقه القرآنَ).

ومع أن هذا الوصف ـ من أُم المؤمنين ـ واضح وضوحاً لا لبس فيه، فإننا ـ مع ذلك ـ نحاول له تحديداً، نراه ضرورياً. وبياناً نراه حتماً:

ذلك أن الأخلاق القرآنية: تحدّد الخلق الكريم في حدّه الأدنى، وترسم الفضيلة، في درجاتها الأولى، ثم لا يقتصر القرآن على ذلك، وإنما يرسم القيم من مكارم الأخلاق، ويوجّه إلى السَّنَام منها، ويقود إلى المشارف العليا من درجات المقرّبين:ـ

إنه يتحدّث عن «المقتصد» وعن السابق بالخيرات»... إنه يتحدّث عن «أصحاب اليمين» ويتحدّث عن «المقربين»، ويبيِّن أن المقربين، أقلّ عدَداً من أصحاب اليمين، فهم ثُلَّةٌ من الأولين وقليل من الآخرين.

أما أصحاب اليمين، فإنهم ثُلَّةٌ من الأوّلين وثلّة من الآخرين، على حدّ التعبير ـ عن أصحاب اليمين وعن المقرّبين ـ في سورة الواقعة.

ولنضرب لذلك مثلاً:ـ

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل.

يقول الله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۚ ﴾.

ولكن القرآن ـ مع بيان عدالة هذا ـ يذكر درجة أعلى من الخلق الكريم تلك هي: درجة «كظم الغيظ».

وهذا الذي ـ مع مقدرته على مقابلة السيئة بالسيئة ـ يكظم غيظه، أسمى في ميزان الأخلاق الكريمة، من الذي يقابل السيئة بالسيئة.

ولا يقف القرآن عند هذا الحدّ، ذلك أنه يرسم درجة ثالثة من الخلق الكريم. وذلك أنه يتجاوز «مقابلة السيئة بالسيئة»، «وكظم الغيظ» إلى «العفو».

والعفو ـ مع المقدرة ـ أسمى من «مقابلة السيئة بالسيئة» وأسمى من «كظم الغيظ» ثم يتجاوز القرآن كل ذلك، إلى الدرجة العليا. . . درجة المقربين: وهي الإحسان. يقول تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾(1).

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(2). إنها درجات من الخلق الكريم، كلها كريمة، بيد أنها تتفاوت، فيما بينها، من كريم إلى أكرم، كتفاوت الناس في الشرف: من شريف إلى أشرف.

ويحقّ لنا الآن أن نتساءل:

أتريد السيدة عائشة رضي الله عنها، حينما تصفه، ﷺ بأن خلقه القرآن: تريد الخلق القرآني الكريم في حدّه الأدنى؟

---

(1) الشورى: ٤٠. (2) آل عمران: ١٣٤.

أم تريده في حدّه الأوسط؟ أم هل تريده في حدّه الأسمى؟

ويحلّ لنا القرآن في هذه المسألة، فيحدّد ـ بصورة عامة وبطريقة مجملة ـ الدرجة التي وصل إليها الرسول ﷺ، من الخلق القرآني: فيقول سبحانه لرسول الله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١)..

يقول صاحب الشفاء: «أثنى عليه بما منحه من هباته، وهداه إليه وأكد ذلك، تتميماً للتمجيد بِحَرْفَي التأكيد، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

قيل: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: الطبع الكريم. وقيل: ليس له همّة إلا الله اهـ.

قال الواسطي: «أثنى عليه بحُسن قبوله لِمَا أسداه إليه من نِعَمِه، وفضَّلَه بذلك على غيره؛ لأنه جبله على ذلك الخلقِ»اهـ.

وقد تحدّث الصحابة والتابعون عن هذه الآية الكريمة:

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: معناه: «لا دين أحبُّ إلى الله، ولا أرضى عنه منه، وهو دين الإسلام».

وقال قتادة: «هو ما كان يأتمر به من أوامر الله، وينتهي عنه، من نهي الله تعالى، والمعنى إنك على الخلق الذي أمَرَكَ الله بـه في القرآن»اهـ.

ومع ذلك، ومع كل ما قيل في هذه الآية الكريمة، من أنها تكريم وتمجيد، ومدح، وثناء، ومع إيماننا بأنها تتضمن كل المعاني الكريمة التي قيلت، والمعاني الشريفة التي ستقال ـ فإننا نرى أن الأمر ما زال بحاجة إلى بيان الدرجة بياناً تامّاً.

---

(١) القلم: ٤. (٢) القلم: ٤.

فقد يتساءل بعض الناس عن هذا الخلق العظيم. أكان يشارك رسولُ الله ﷺ، فيه نبيٌّ مكْرَم: أكان يشاركه فيه رسول مجتَبىً؟ أكان يشاركه فيه ملَك مُقرَّب؟

ألم يكن سيّدنا إبراهيم على خلق عظيم، وهو الحليم الأوَّاه المنيب؟

ألم يكن سيّدنا إسماعيل، على خلق عظيم، وكان عند ربه مرضياً؟

ألم يكن سيدنا عيسى، على خلق عظيم، وقد جعله الله مباركاً أينما كان؟

على نبيّنا وعليهم جميعاً أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

والملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. ومنهم جبريل وميكائيل وحملة العرش ـ أليسوا على خلق عظيم؟

أيشارك أحد من هؤلاء رسول الله ﷺ في درجته؟

أيما يكون رسول الله ﷺ في الخلق العظيم؟

ويسعفنا القرآن الكريم بهذا التحديد، إسعافاً يرضي التطلّعَ إلى المعرفة، ويشرح صدور المحبّين لرسول الله ﷺ.

إن القرآن يحسم الأمر حسماً، لا يدع فيه مجالاً للَبْس، ويسفر عنه إسفاراً لا يَدَعُ مجالاً لريب..

يقول الله تعالى لرسوله الكريم:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

هذه الآية القرآنية الكريمة، تحدّد درجة الأخلاق القرآنية التي

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

وصل إليها الرسول الله ﷺ: إنها ذروتها وسَنّامها.

ولقد بعِثَ ﷺ؛ ليتمّم مكارمَ الأخلاق.

إنه ﷺ، بعِث ليتمّم المكارم الأخلاقية:

ليتمّمها بذاته، بسلوكه. وليتمّمها، بقوله، برسالته.

إنه لم يُبعث لينشر الأخلاق الكريمة فحسب، وإنما بعث ليتمّم مكارمها ومكارم الأخلاق لم تكن ـ قبل الرسول، صلوات الله وسلامه عليه ـ قد تمّت، إن أولَ المسلمين لم يكن قد وجد بعد، وكانت بذلك مكارم الأخلاق ناقصةً. كان ينقصها أكمل صفة لمكارم الأخلاق، وهي إسلام الوجه لله: إسلاماً تامّاً.

إن الكائنات لم تكن قد وصلت ـ في نبيّ مرسل، ولا في مَلَك مقرّب ـ إلى الذروة من إسلام الوجه لله. والذورة من إسلام الوجه لله أو أول المسلمين ـ والتعبيران سواء ـ إنما هو الذروة من مكارم الأخلاق.

إن الكائن الرباني: إن أول المسلمين، أولهم بإطلاق، أولهم بالنسبة للملائكة، وأولهم بالنسبة لبني آدم ـ أولهم قديماً، وأولهم حديثاً، وأولهم إلى الأبد... إن أول المسلمين لم يكن قد وجد بعد.

وكانت الإنسانية بذلك ناقصة، وكانت الكائنات كلها بذلك ناقصة.

وكان الكون ناقصاً: مادةً ومعنىً. كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد، وأن يتعطر جوّه بأزكى الأرواح. وكان لا بدّ من وجود كائن بهذه المثابة: يكمل الله به الدين، ويتمّ به النعمة، ويرضى رسالته ديناً عامّاً خالداً للإنسانية جمعاء: هو إسلام الوجه لله. وينزل القرآن محدداً إسلام الوجه لله وسائل، ومحدداً إسلام الوجه لله غاياتٍ... محدّداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب، ومحدداً له بواعث وأهدافاً.

ومن أجل أن الإسلام هو إسلام الوجه لله، والتسليم له، والاستسلام لما يحبّه ويرضاه:

كان مَن يبتغي غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه.

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله؟

إن إسلام الوجه لله، هو جوهر التديّن.. إنه دين القيِّمَة.. إنه الدين الوحيد.

والنص الوحيد: النص الإلٓهي الفريد في العالم كله. الذي يبيّن كيفية إسلام الوجه لله ـ إنما هو القرآن.

وإذا ما وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله، كان بذلك في ذروة الإنسانية، وفي الذروة من مكارم الأخلاق.

ويتفاوت الناس في إسلام وجوههم لله. لا بدّ من أن يكون أحدهم الأول، فكان رسول الله ﷺ، أولهم بإطلاق مطلق.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

ولم يصف القرآن بأول المسلمين شخصاً آخر غير الرسول الله ﷺ، ولو لم يوجد أول المسلمين المتمّم لمكارم الأخلاق ـ ذلك الذي كانت صلاته ونسكه ومحياه ومماته لله ربّ العالمين ـ لو لم يوجد هذا الكائن الرباني ـ لظل العالم مستشرفاً إليه ليكملَ به. ولظل العالم ناقصاً مادةً وروحاً..

فلما وجد، ﷺ، انتهت حكمة الله بوجوده، وبرسالته إلى ما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

(١) الإنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

﴿ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]. . صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.

وما من شك في أن الأخلاق الكريمة: التي حثّ عليها القرآن الكريم، وتابعها الرسول ﷺ: متناسقاً مع الحثّ عليها ـ لا تكاد تحصى، منها ما يلي:

عن أنس عن النبيّ ﷺ، قال: «ثلاث مَن كنَّ فيه وَجَدَ بهنّ حلاوة الإيمان؛ مَن كان الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحِب المرء: لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعودَ إلى الكفر بعد أن أنقذه الله منه ـ كما يكره أن يقْذَفَ في النار».

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد، حتى أكون أحب إليه من أهله وما له والناس أجمعين».

عن عبد اللّه بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبيّ ﷺ ـ قال: «المسلم مَن سَلم المسلمون من لسانه ويَدِه، والمهاجر مَن هجر ما نهى الله عنه». (خ).

عن أنس، عن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه». (خ).

حدّث شعبة عن زبيد، قال: سألت أبا وائل، عن المرجئة، فقال: حدّثني عبد اللّه أن النبيّ ـ ﷺ ـ قال: «سِبَاب المسلم فُسوقٌ، وقتاله كفر». (خ).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ، قال: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس: تعدل بين الاثنين صدقة، وتُعين الرجل على دابته ليحمل عليها، أو ترفع له عليها صدقـه».

---

(١) المائدة: ٣.

(خ جـ ٧ ص ٤٣).

عن أبي مسعود عن النبيّ - ﷺ - قال: «إذا أنفق الرجل على أهله يحتسبها، فهو له صدقة». (خ).

حدّثنا الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: حدّثني عامر بن سعد عن سعد بن أبي وقاص: أنه أخبره أن رسول الله ﷺ، قال: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أُجِرت عليها حتى ما تجعل في (فم) امرأتك». (خ).

عن عبد اللّه بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعٌ مَن كنَّ فيه، كان منافقاً خالصاً، ومَن كانت فيه خلّة منهنّ، كانت فيه خلّة من نفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غَدَر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فَجَر».

عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان».

المسـئوليـة:

عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال: «سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «كلكم راعٍ ومسئول عن رعيته، والإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيّده راعٍ ومسئول عن رعيته - قال: وحسبت أن قد قال: والرجل راعٍ في مال أبيه». (خ).

وكان الصحابة لا يرفعون صوتهم فوق صوته ﷺ.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ، افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل يا رسول الله أنا أعلم لك عِلمه، فأتاه فوجده جالساً في

بيته منكّساً رأسه، فقال: ما شأنك؟ فقال شرٌّ!!! كان يرفع صوته فوق صوت النبيّ ﷺ، فقد حبط عمله وهو من أهل الأرض فأتى الرجل فأخبره أنه قال كذا وكذا، فقال موسى بن أنس فرجع المرة الآخرة ببشارة عظيمة، فقال: اذهب إليه فقل له: إنك لست من أهل النار ولكن من أهل الجنة(١).

موقف الصحابة من الرسول ﷺ

يقول صاحب الرسالة المحمدية:

تأثير عاطفة الحبّ وسرّ تفاني الصحابة في طاعة الرسول: لأن الطاعة الكاملة المخلصة، والتخلّق بأخلاق الرسول؛ والانصباغ بصبغته، وإيثار شريعته ورضاه على هوى النفس والعادات والأعراف، وبذل المهجة والنفس والنفيس في سبيل دعوته ـ لا يتأتى إلا بهذا الإجلال المنبعث من أعماق القلب، والحب العميق الذي يملك على الإنسان مشاعره، ويستولي على قلبه. ولذلك قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(٢).

ولذلك؛ كان الصحابة رضي الله عنهم؛ من أحرص الناس على طاعته، وأسرعهم إليها؛ وأنشطهم فيها، وأصبرهم عليها. ولهم في ذلك القِدح المُعَلّى والنصيب الأوفر، إلى يوم القيامة.

ومنهم أبو بكر الصدّيق، الذي كان رسول الله ﷺ أكرم عليه وأحبّ

---

(١) صحيح البخاري جـ٨، ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥، ط الشعب.

(٢) التوبة: ٢٤.

إليه من نفسه وحياته، وصحّته أعزّ عليه من حياته وصحته. وقد ضَرَبه عتيبة بن ربيعة بنعلين مخصوفتين وبِحَرْفهما لوجهه، ونزا على بطنه، حتى ما يعرف وجهه من أنفه؛ وحملت بنو تميم أبا بكر في ثوب لا يشكون في موته. ولما تكلم آخر النهار قال: ما فَعَل رسول الله ﷺ؟ ولما قيل له: إنه سالم صالح، قال: إن لله عليَّ ألا أذوقَ طعاماً ولا أشربَ شراباً أو آتى رسول الله ﷺ[1].

ومنهم المرأة الأنصارية التي كان الناس يخبرونها بشهادة (استشهاد) أعزّ أقاربها: أبيها وأخيها وزوجها يوم أُحُد، فقالت ما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا خيراً، وهو يحمد الله كما تحبين؛ فلما رأته قالت. كل مصيبة بعدك جلل[2].

خصائص هذه الحضارة وسماتها:

إن هذه الحضارة الإبراهيمية المحمدية: لا تعرف الوثنية والشرك، ولا تسمح به في لون من الألوان، في أيّ مكان وزمان: فكان دعاء إبراهيم وأكبر همّه:

﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾[3].

وكان أكبر وصيته ودعوته للأمم والأفراد جميعاً: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ﴾[4].

إنها لا تعرف التهالك على الشهوات، والتكالب على حطام

---

(١) البداية والنهاية: جـ٣، ص ٣٠.
(٢) ابن إسحاق والبيهقي.
(٣) إبراهيم: ٣٥.
(٤) الحج: ٣٠، ٣١.

الدنيا؛ والتناحر على جيف المادة، والتقاتل في سبيل الحكومات والمناصب.

إنها دعوة لم تزل عقيدتها: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١).

إنها حضارة لا تعرف الفصل بين الإنسان والإنسان، والتمييز بين الألوان والأوطان. فالناس كلهم لآدم، وآدم من تراب: لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي إلا بالتقوى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾(٢). وقد قال خاتم الرسل ﷺ: «ليس منّا مَن دَعا إلى عصبية؛ وليس منّا مَن قاتل على عصبية، وليس منّا مات مَن على عصبية»(٣)، وقال لمن هتف بالأنصار ومَن هتف بالمهاجرين: «دعوها فإنها فتنة»(٤).

إنها حضارة: تُعْرَفُ في العقيدة: بالتوحيد؛ وفي الاجتماع: باحترام الإنسانية والمساواة بين أفرادها، وفي دائرة الأخلاق والمنهج: بتقوى الله والحياء والتواضع، وفي ميدان الكفاح: بالسعي للآخرة والجهاد لله، وفي ساحة الحرب: بالرحمة والعاطفة الإنسانية، وفي أنواع الحكومات: بترجيح جانب الهداية على جانب الجباية، والخدمة على الاستخدام: وتعرف في التاريخ: بخدمة الإنسانية المخلصة وإنقاذها من براثن الجاهلية والدعوات الطاغية. وفي العالم: بآثارها الزاهرة الزاهية،

---

(١) القصص: ٨٣.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) رواه أبو داود.
(٤) رواه البخاري.

وخيراتها المنتشرة الباقية.

إنها حضارة عجنت مع اسم الله ومراقبته، وصبغت بصبغة الله؛ وقامت على أساس الإيمان. فلا يمكن تجريدها عن الطابع الديني واللون الرباني والروح الإيماني[1] [2].

أدب الغلمان

حتى الغلمان:

عن سلمة بن الأكوع، رضي الله عنه قال: مرَّ النبيّ ﷺ على نفر ممّن أسلم ينتضلون، فقال النبيّ ﷺ: «ارمُوا بني إسماعيل فإن أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع فلان. قال فأمسك أحد الفريقين بأيديهم، فقال الرسول ﷺ: ما لكم لا ترمون: قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ قال النبيّ ﷺ: ارموا فأنا معكم كلكم[3]».

ويقول صاحب كتاب الشفاء:

وكانت شعرات من شعره في قلنسوة خالد بن الوليد فلم يشهد بها قتالاً إلا رزق النصر.

وكانوا متبركين بحمل شيء من آثاره:

كانت في قلنسوة خالد بن الوليد، شعرات من شعر الرسول ﷺ؛ فسقطت قلنسوته في بعض حروبه، فشدّ عليها شدّة أنكر عليه أصحاب النبيّ ﷺ كثرة مَن قُتِل بها فقال: لم أفعلها بسبب القلنسوة، بل لما

---

(١) رسالة «ملّة إبراهيم وحضارة الإسلام» للمؤلف بتغيير يسير ص ١٣، ١٤، ١٥.
(٢) النبوّة والأنبياء في ضوء القرآن ص ٧٦ ـ ٧٨.
(٣) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٤٥ ـ ٤٦.

تضمنته من شعره ﷺ، لئلا أُسْلَبَ بركَتها، وتقع في أيدي المشركين.

ورؤي عمر واضعاً يده على مقعد النبيّ ﷺ من المنبر؛ ثم وضعها على وجهه ـ ولهذا كان مالـك رحمة الله، لا يركب بالمدينة دابة، وكان يقول أستحيي من الله أن أطأ فيها رسول الله ﷺ بحافر دابة[1].

وفي الصحيح عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: أنها أخرجت جبّة طيالة وقالت: كان رسول الله ﷺ يلبسها. فنحن نغسلها للمرضى: يستشفى بها. وأخبر القاضي أبـو علي عن شيخه أبي القاسم بن المأمون قال: كانت عندنا قصعة من قصاع النبيّ ﷺ، فكنّا نجعل فيها الماء للمرضى فيستشفون بها[2].

وعن ابن سيرين قال: قلت لعبيدة: عندنا شعر النبيّ ﷺ، أصبناه من قبل أنس أو من قبل أهل أنس.. فقال: لأن تكون عندي شعرة منه، أحبّ إليَّ من الدنيا وما فيها.. (خ).

وعن ابن سيرين عن أنس، أن رسول الله ﷺ، لما حلق رأسه كان أبو طلحة أول مَن أخذ من شعره.. (خ).

ازدادت المحبة في الآثار النبويّة

ووصل الأمر في حبّ التبرّك بالرسول ﷺ إلى هذه الصورة التالية:ـ

عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه قال:

«رأيت رسول الله ﷺ في قبّة حمراء من أَدَم، ورأيت بلالاً أخذ وضوء رسول الله ﷺ؛ ورأيت الناس يبتدرون ذاك الوضوء؛ فَمَن أصاب منه شيئاً تمسح به، ومَن لم يصب منه شيئاً أخذ من بلل يد صاحبه.

---

(١) الشفاء ص ٤٨، ق ٢.
(٢) الشفاء ص ٢٧٨.

ويأتون إليه بآنياتهم:

عن أنس بن مالك قال:

كان رسول الله ﷺ - إذا صلّى الغداة جاء خدم المدينة بآنياتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيه، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها.

رواه مسلم في الصحيح.

وبعد فقد روى الإمام البخاري بسنده:

عن أنس قال النبيّ ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين». (خ).

وهل أتاك حديث جلجل أُم سلمة؟

عن عثمان بن موهب قال:

كان عند أُمّ سلمة جلجل من فضة ضخم فيه من شعر الرسول ﷺ وكان (فكان) إذا أصاب إنساناً الحُمَّى. بعث إليها فخضضته فيه، ثم ينضحه الرجل على وجهه. قال: بعثني أهلي إليها فأخّرته فإذا هو هكذا وأشار إسرائيل - الراوي - بثلاثة أصابع وكان فيه شعرات حمر. رواه البخاري في الصحيح عن مالك بن إسماعيل عن إسرائيل[1].

وفيما روى البخاري عن الوضوء:

عن أبي جحيفة قال:

---

(١) دلائل النبوّة ص ١٧٦.

«خرج علينا رسول الله ﷺ بالهاجرة، فأُتِيَ بوضوء: فتوضأ فجعل الناس يأخذون من فَضْلِ وضوئه فيتَّسمون به». (خ).

وقال عروة: عن المسور وبغيره يصدق كل واحد منهما صاحبه. وإذا توضأ النبيّ ﷺ، كادوا يقتتلون على وضوئه. (خ).

روى البخاري بسنده:

عن عقبة بن عامر أن النبيّ ﷺ خرج يوماً فصلّى على أهل أُحُد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر فقال:

«إني فَرَطُكُم[1] وأنا شهيد عليكم، إني والله لأنظر إلى حوضي الآن وإني قد أعطيت خزائن مفاتيح الأرض، وإني والله، ما أخاف بعدي أن تشركوا؛ ولكن أخاف أن تنافسوا عليها».

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ ـ قال:

«لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت ـ بعد نفقة نسائي ومؤونة عاملي ـ فهو صدقة». (خ).

عن عمرو بن الحارث ختن رسول الله ﷺ ـ أخي جويرية بنت الحارث فقال:

«ما ترك رسول الله ـ ﷺ ـ عند موته درهماً ولا ديناراً، ولا عبداً ولا أمة، ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة». (خ).

عن أبي بردة قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبداً، وقالت: في هذا نزع روح النبيّ ﷺ، وزاد سليمان عن حميد عن أبي

(١) أي متقدمكم لأهيىء لكم.

بردة قال: أخرجت إلينا عائشة إزاراً غليظاً مما يصنع باليمن، وكساءً من هذه التي يدعونها[1] الملبدة[2].

قال رسول الله ﷺ:

«أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشّرهم إذا أَيِسُوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربّي ولا فخر»[3].

عن أنس بن مالك قال: «كان النبيّ ﷺ أحسن الناس (وجهاً) وأجود الناس؛ وأشجع الناس. ولقد فزع أهل المدينة ليلة فركب فرساً لأبي طلحة عريان فخرج الناس فإذا هم برسول الله ﷺ قد سبقهم إلى الصوت، قد استبرأ الخبر، وهو يقول: لن تراعوا؛ وقال النبيّ ﷺ: لقد وجدناه بحراً (أو) إنه لبحر» قال حماد: وحدّثني ثابت ـ أو بلغني عنه ـ قال «فما سُبِقَ ذلك الفرس بعد ذلك. قال: وكان فرساً (يبطأ) رواه البخاري في الصحيح»[4].

وقال عليّ رضي الله عنه: إنّا كنّا إذا حمى البأس. ويروى ـ اشتد البأس ـ واحمرّت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أقربَ إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبيّ ﷺ ـ وهو أقربنا إلى العدو ـ وكان من أشد الناس يومئذ بأساً، وقيل كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ؛ إذا دنا العدو، لقربه منه[5].

---

(١) تدعونها.
(٢) صحيح البخاري جـ٧، ص ١٠١.
(٣) الشفاء ص ١٦٨.
(٤) دلائل النبوّة ص ٢٤٢.
(٥) الشفاء ص ٨٩.

ويقول الإمام ابن كثير:

وذكرت في التفسير عن بعض السلف: أنه استنبط من قوله تعالى:

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾(1) أن رسول الله ﷺ كان مأموراً: ألا يفرّ من المشركين إذا واجهوه. ولو كان وحده من قوله: «لا تُكَلَّفُ إلا نفسك».

وقد كان ﷺ من أشجع الناس، وأصبر الناس، وأجلدهم، ما فَرَّ قطّ من مُصَافٍ ولو تولى عنه أصحابه..

قال بعض أصحابه: كنّا إذا اشتد الحرب، وحمي الناس، نتّقي برسول الله ﷺ.

ففي يوم بدر، رمى ألفَ مشرك بقبضة من حصى فنالتهم أجمعين حين قال: «شاهت الوجوه». وكذلك يوم حنين كما تقدم، وفرّ أكثر أصحابه يوم أُحُد، وهو ثابت في مقامٍ لم يبرح منه ولم يبقِ معه إلا اثنا عشر، قتل منهم سبعة وبقي الخمسة؛ وفي هذا الوقت قتل أُبيّ بن خلف لعنه الله فعجّله إلى النار.

ويوم حنين ولي الناس كلهم، وكانوا يومئذٍ اثني عشر ألفاً وثبت هو في نحو مائة من الصحابة وهو راكب يومئذٍ بغلته وهو يركض بها إلى نحو العدو، وهو ينوّه باسمه ويعلن بذلك قائلاً: «أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب» حتى جعل العباس وعليّ وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، يتعلقون في تلك البغلة، ليبطئوا سيرها خوفاً عليه من أن يصل أحد من الأعداء إليه.

وما زال كذلك حتى نصره الله وأيّده في مقامه ذلك.

وما تراجع الناس إلا والأشلاء مجندلة بين يديه ﷺ.

---

(1) النساء: ٨٤.

النصـــوص لا تعدّل

وعند النوم:

عن البَرَاء بن عازب قال: قال النبيّ: «إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقّك الأيمن، ثم قل:

«اللّهمّ أسلمت وجهي إليك، وفوّضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبةً ورهبةً إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك..، اللّهمّ آمنت بكتابك الذي أنزلت؛ ونبيّك الذي أرسلت» فإن مُتّ من ليلتك، فأنت على الفطرة، واجعلهنّ آخر ما تتكلم به. قال: فرددتها على النبيّ ﷺ، فلما بلغت: اللّهمّ آمنت بكتابك الذي أنزلت.. قلت ورسولك.. قال لا.. ونبيّك الذي أرسلت».

وكان من دعائه:

اللّهمّ إني أسألك رحمة تهدي بها قلبي، وتجمع بها أمري وتلمّ بها شعثي، وتصلح بها غايتي وترفع بها شاهدي، وتزكّي بها عملي، وتلهمني بها رشدي وتردّ بها الفتي، وتعصمني بها من كل سوء. اللّهمّ إني أسألك الفوز في القضاء، ونُزُلَ الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء(١).

النبيّ العـــابد

ألـف النسـك والعبـادة ولـخلـ وة طفـلاً وهـكـذا الـنـجـبـاء
وإذا حـلَّت الـهـدايـة قـلبـاً نَـشِـطَت في العبـادة الأعـضـاء

إن أول آية: نزلت من القرآن الكريم إنما هي:

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾(٢). ولقد كانت هذه الآية الكريمة

---

(١) الشفاء ص ٦١.

(٢) العلق: ١.

بوضعها، ومفهومها وجوها ـ شعاراً عامّاً وتوجيهاً شاملاً، فما كانت تعني بروحها، القراءة فحسب، وإنما كانت تعني: أنه ـ منذ هذه اللحظة ـ يجب أن يكون كل أمر باسم الله: فعلاً كان هذا الأمر أو تركا.

ولقد تأكد هذا الاتجاه وأصبح سافراً فيما بعد، بل لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم، يقول الله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١).

على أن المسألة: أشمل من ذلك وأعمّ، إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا.

إن الله سبحانه قد أخبر في قرآنه الكريم: أنه ما خلق الجنّ والإنس إلا للعبادة، يقول سبحانه:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾(٢).

فغاية الخلق العبادة، وسبب الخلق العبادة؛ والثمرة التي يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هي العبادة، ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة:

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾(٣).

---

(١) الأنعام: ١٦٢، ١٦٣.

(٢) الذاريات: ٥٦.

(٣) الإسراء: ٧٨، ٧٩، ٨٠.

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾[1].

﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[2].

﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾[3].

وما من شك في أن الله سبحانه لا تضرّه معصية، ولا تنفعه طاعة؛ إنه سبحانه الغنيّ المطلق، والمعطي المطلق، إنه سبحانه الوهّاب، الرزّاق، المُغني، إنه القائم بنفسه وغيره هو المحتاج.

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان، فمَن فضل الله على عباده، أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة؛ ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه، فضلاً من الله ورحمة، إنها راجعة إليه في الدنيا، وراجعة إليه في الآخرة، ويشمل الوجهين قوله تعالى:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4].

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية، وبرسوله الكريم: أن أول كلمات الوحي من الوحي: كانت توجيهاً للرسول وللمسلمين، بأن تكون أعمالهم كلها عبادة، لأن ما كان باسم الله كان عبادة. ولو كان أكلاً أو شرباً مثلاً.

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه لهذا التوجيه السامي،

---

(١) العلق: ١٩.
(٢) الحجر: ٩٩.
(٣) الطور: ٤٨، ٤٩.
(٤) النحل: ٩٧.

الذي توالى منذ الأيام الأولى للرسالة؛ واستمر طيلة الوحي.

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه حينما فاجأه الوحي، فعاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر وقال: «زمّلوني زمّلوني» ونزل عليه قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾(١).

وكذلك الشأن في كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾(٢).

وهنا علّق سبحانه الرضى، وطمأنينة النفس، وسكينة الفؤاد، على التسبيح، والذكر والعبادة، ويشير الله إلى ذلك أيضاً فيقول:

﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾(٣).

واستجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة كاملة، للتوجيه الإلهي: فجعل من كل أعمال الحياة عبادة، إذ أنه كان يعملها بسم الله. لقد جعل صلاته؛ ونسكه؛ وجعل حياته بأكملها؛ بل ومماته أيضاً لله رب العالمين؛ لقد جعل كلامه؛ وصمته؛ وجعل حركته وسكونه، وجعل نومه ويقظته؛ بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه فكان

---

(١) المزمّل: ١، ٢، ٣، ٤.
(٢) طه: ١٣٠.
(٣) ق: ٣٩، ٤٠.

ذلك توجهاً به إلى الله فكان عبادة له. وهذه الاستجابة الكاملة هي التي جعلت من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أول المسلمين.

أولهم منذ خلق الله العالم إلى أن يطوي الله الأرض وما عليها باعتبار أن الدين عند الله ـ منذ الأزل إلى الأبد إنما هو: الإسلام.

لقد صيّر الرسول صلوات الله وسلامه عليه الحياة كلها عبادة لا تفتر.

وإذا ما استحالت إلى عبادة، فقد استحالت إلى قوة؛ أرأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة، ومن العمل عبادة ومن العلم عبادة ومن الكفاح عبادة، ومن السعي على المعاش عبادة، ومن؛ ومن. . . هل يضعف المجتمع أم يقوى؟، وهل يأمن أهله أم يخافون؟ وهل يسعدون أم يشقون؟.

ومهما يكن من شيء، فقد استجاب الرسول صلوات الله وسلامه عليه استجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى، ولقد تحدّث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها، فقال سبحانه:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ ﴾(١).

ونذكر الآن بعض الأحاديث التي تصوّر هذا الجانب من حياة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته صلوات الله وسلامه عليه عليه أهداف:

١ ـ تأسّي المسلمين به قدر الاستطاعة.

٢ ـ رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة، من الناحية النفسية، فليس هناك علاج للشك والحيرة والتردّد يعادل في نفاسته العبادة. والنصيحة

---

(١) المزمل: ٢٠.

المجربة التي تسدي للشاك إنما هي «صلِّ».

فالصلاة خير علاج للاضطراب الديني، بل للاضطراب النفسي أيّاً كان.

ومتى وجدت النفس المطمئنة ـ والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة ـ فإن الكثير من الأمراض الجسمية نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم، ثم إنه ـ بإقرار أطباء الأجسام أيضاً ـ لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرّض له غير المطمئن من أمراض جسمية.

٣ ـ وهذه الأسوة بالرسول صلوات الله وسلامه عليه التي نرجوها: ستكون سبباً في تفريج الضيق المادي.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وهذه الأحاديث التي نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف، ومع أن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل الأعمال؛ فإنّا قد تحرّينا تحرياً كاملاً ألاّ نذكر فيما يلي ـ إلى آخر الكتاب ـ حديثاً ضعيفاً.

الصــــلاة

عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن النبيّ ﷺ، كان يقوم من

(١) الأعراف: ٩٦.

(٢) النحل: ٩٧.

الليل حتى تتفطر قدماه.

فقلت له: لماذا تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟!.

قال: أفلا أحبّ أن أكون عبداً شكوراً»!.

أما عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه فقد قال:

صلّيت مع النبيّ ﷺ فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء.

قيل: وما هممت به؟

قال: أجلس «وأدعه».

ولعلّ لابن مسعود عذره، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه، يقرأ الركعة الأولى مثلاً: سورة البقرة، وفي الثانية آل عمران، وفي الثالثة سورة النساء، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع؛ ويطيل السجود. كان يطيل كل ذلك؛ حينما كان يفعله منفرداً في جوف الليل. أما إذا كان مع الناس فإنه يخفّف.

وقد ورد في السنّة الصحيحة إطالة الرسول صلوات الله وسلامه عليه القراءة في الركعات التي يصلّيها في الليل، وبسبب هذه الإطالة: كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة.

«عن عائشة رضي الله عنها: أن النبيّ ﷺ يصلّي من الليل إحدى عشرة ركعة، فإذا طلع الفجر صلّى ركعتين خفيفتين، ثم اضطجع على شقّه الأيمن حتى يجيء المؤذّن فيؤذنه»؟

وكان الرسول ﷺ: يستغرق في صلاته الليلية ويبكي.

ويقصّ مطرف بن عبد اللّه عن أبيه قال:

«أتيت النبيّ ﷺ: وهو يصلّي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل يعني يبكي».

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول صلوات الله وسلامه عليه بقوله:

«إن بين الرجل وبين الشرك والكفر: ترك الصلاة».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يتوضأ لكل صلاة.

عن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ، يتوضأ لكل صلاة؛ قيل له: كيف كنتم تصنعون؟ قال: يجزي أحدنا الوضوء ما لم يحدث».

والأحاديث التالية: تبيّن بعض أحوال الرسول صلوات الله وسلامه عليه في الصلاة: كان عند الإقامة يقول: «أقامها الله وأدامها». «وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه».

قالت عائشة رضي الله عنها: (لم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشدّ تعاهداً منه على ركعتي الفجر).

عن سماك بن حرب قال: (قلت لجابر بن سمرة: أكنت تجالس رسول الله ﷺ؟ قال: نعم كثيراً، كان لا يقوم من مصلّاه الذي يصلّي منه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام).

(وكان ﷺ يدخل في الصلاة، فيريد إطالتها فيسمع بكاء الصبيّ فيتجوّز صلاته مخافة أن يشقّ على أمه).

(وكان ﷺ يقرأ بسورة «الجمعة» في الركعة الأولى، وبـ «إذا جاء المنافقون» في الثانية).

عن جبير بن مطعم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب

بسورة «الطور».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في المغرب بسورة «والمرسلات عرفاً» وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ.

وعن أُم هشام بنت حارث بن النعمان قالت: (ما أخذت «ق والقرآن المجيد» إلا عن لسان رسول الله ﷺ، يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس).

كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ في صبح الجمعة: ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ...﴾[1] السجدة، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾[2] رواه الشيخان.

من حديث أبي هريرة، وإنما كان يقرؤهما كاملتين، وقراءة بعضهما خلاف السنّة.

كان ﷺ يقرأ في العيدين وفي الجمعة: بسورة ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾[3] وسورة ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾[4].

وكان يكثر أن يقول، في ركوعه وسجوده: ﴿سبحانك اللّهمّ ربنا وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي﴾.

«وكان صلوات الله وسلامه عليه، يقول بين التشهد والتسليم: اللّهمّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت؛ وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدّم وأنت المؤخّر، لا إلّه إلا أنت».

«وفي السجود يقول صلوات الله وسلامه عليه. اللّهمّ إني أعوذ برضاك من سخطك؛ وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، ولا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك».

---

(١) السجدة: ١ ـ ٢.
(٢) الإنسان: ١.
(٣) الغاشية: ١.
(٤) الأعلى: ١.

«وعن حذيفة، كان يقول ﷺ في ركوعه: سبحان ربّي العظيم، وفي سجوده، سبحان ربّي الأعلى».

«وعن عائشة رضي الله عنها: كان ﷺ يكثر أن يقول، في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللّهمّ وبحمدك، اللّهمّ اغفر لي» يتأوّل القرآن» رواه مسلم، ومعنى يتأوّل القرآن: يعمل بما أمر به، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾(١). فكان ﷺ؛ يقول هذا الكلام البديع في الجزالة المستوفى ما أمر به في الآية.

الصـــــيام

أما إذا جئنا إلى رمضان، وإلى الصيام، على وجه العموم.. فالأحاديث التالية. توضّح بعض الأمر: كما أن أحاديث الصلاة التي رويناها، إنما بيّنت إشارات ولمحات فقط. فكذلك الأمر في أحاديث الصيام.

فرض صوم رمضان في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي سيّدنا رسول الله ﷺ وقد صام تسعة رمضانات.

عن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ: إذا دخل العشر الأواخر من رمضان، أحيا الليل؛ وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المئزر».

وعنها قالت: «كان ﷺ يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، وفي العشر الأخير ما لا يجتهد في غيرها».

«كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفّاه الله تعالى».

«كان النبيّ ﷺ، يعتكف في كل رمضان عشرة أيام فلما كان العام

---

(١) النصر: ٣.

الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً».

«إذا دخل العشر الأخير طوى فراشه؛ واعتزل النساء، واغتسل بين الأذانين، وجعل العشاء سحوراً».

«روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه صلوات الله وسلامه عليه واصل، فواصل الناس، فشقّ ذلك عليهم، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا، قالوا: إنك تواصل، قال: لست كهيئتكم إني أظل أطعم وأسقي».

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبيّ ﷺ لا يفطر الأيام البيض في حضر ولا سفر، وهي ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة».

وعن حفصة رضي الله عنها: «أربع لم يكن النبيّ ﷺ يدعهنّ: صيام عاشوراء، والعشر ـ أي تسع ذي الحجة ـ والأيام البيض من كل شهر، وركعتا الفجر».

«كان صلوات الله وسلامه عليه، يتحرّى صيام يوم الاثنين والخميس».

«كان النبيّ صلوات الله وسلامه عليه، يصوم ثلاثة أيام من غرّة كل شهر».

ومن العبـــادة الذكر

روى مسلم وأحمد عن النبيّ ﷺ: «لا يقعد قوم، يذكرون الله، إلا حفّتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان صلوات الله وسلامه عليه، يذكر الله على كل أحيانه».

«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكره: مثل الحيّ والميت». وأفضل الذكر قراءة القرآن.

«ومَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول: «ألم» حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف».

«إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن: كالبيت الخرب».

«اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه».

وبينما جبريل عليه السلام، قاعد عند النبيّ ﷺ، سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قطّ إلا اليوم، فنزل منه ملك فقال: هذا ملك نزَل إلى الأرض ولم ينزل قطّ إلا اليوم، فسلّم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبيّ قبلك: «فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته».

ولأنّ لا إله إلاّ الله: أساس التوحيد، وتعبير عن التوحيد، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها في القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه:

«أفضل الذكر لا إله إلاّ الله».

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله ﷺ: ألا أدلّك على كنز من كنوز الجنة؟».

فقلت: بلى يا رسول الله.

قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

«قال رسول الله ﷺ. لقيت إبراهيم ﷺ، ليلة أُسري بي، فقال: يا محمد أقرىء أمتك منّي السلام، وأخبرهم أن الجنة، طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غرسها، سبحان الله، والحمد لله، ولا إلّه إلّا الله، والله أكبر».

«وكان ﷺ يقول بأعلى صوته: لا إلّه إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلّا بالله، لا إلّه إلّا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن الجميل، لا إلّه إلّا الله مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون».

وقال: «مَن قال: لا إلّه إلّا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأتِ أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه».

وقال: «مَن قال سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطّت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

وقال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله تعالى، عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لأصحابه لا مبيت لكم ولا عشاء، فإذا دخل فلم يذكر الله تعالى عند دخوله. قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله تعالى عند طعامه. قال: أدركتم المبيت والعشاء».

وقال: «الطهور. شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله، تملآن أو تملأ ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو؛ فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

وقال: «إن أحبّ الكلام إلى الله، سبحان الله وبحمده».

وقال: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر أحبّ إليّ مما طلّت عليه الشمس».

وقال: «كلمتان خفيفتان على اللسان؛ ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم».

* * *

الـــــدعاء

وقال صلوات الله عليه وسلامه: «الدعاء هو العبادة».

أما أحسن أوقات الدعاء فإن الأحاديث التالية تذكر بعضها:

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء، فقمن أن يستجاب لكم».

قيل لرسول الله ﷺ: أي الدعاء أسمع؟ قال: جوف الليل الآخر، ودُبُر الصلوات المكتوبة».

«دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب: مستجابة، وعند رأسه مَلَك موكل كلما دعا لأخيه بخير قال المَلَك الموكل به: آمين، ولك بمثل».

«لا يزال يستجاب للعبد» ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول. قد دعوت الدعاء فلم أره يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويترك الدعاء».

«ما على الأرض مسلم يدعو الله تعالى، بدعوة إلا أتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، فقال رجل من القوم: إذن نكثر، قال: الله أكثر».

«كان ﷺ، يحبّ الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك». ومن جوامع دعائه ما يلي:

أتاه رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول، حين أسأل ربي؟

قال: «قل اللّهمّ اغفر لي وارحمني، وعافني، وارزقني، فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك».

ومن جوامعه ﷺ:

«اللّهمّ إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل إثم، والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار».

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: دعا رسول الله ﷺ، بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً.

قلت: يا رسول الله دعوت بدعاء كثير لم نحفظ منه شيئاً:

فقال: «ألا أدلكم على ما يجمع ذلك كله؟. تقول: اللّهمّ إنّا نسألك من خير ما سألك منه نبيّك محمد، ونعوذ بك من شر ما استعاذك منه نبيّك محمد ﷺ، وأنت المستعان، وعليك البلاغ، ولا حول ولا قوة إلا بك» اهـ.

«اللّهمّ إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق، والأعمال، والأهواء».

«اللّهمّ ألهمني رشدي، وأعذني من شرّ نفسي».

عن شهر بن حوشب قال: قلت لأُم سلمة رضي الله عنها. يا أُم المؤمنين. ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذ كان عندك؟

قالت: كان أكثر دعائه: «يا مقلّب القلوب ثبّت قلبي على دينك» اهـ.

«اللّهمّ أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر».

«اللّهمّ يا مصرّف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك».

«اللّهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي بصري نوراً، وفي سمعي نوراً، وعن يميني نوراً، وعن يساري نوراً، وتحتي نوراً، وأمامي نوراً، وخلفي نوراً، واجعل لي نوراً».

«ربّنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقِنا عذاب النار».

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه عليه في الصلاة:

عن أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه، أنه قال لرسول الله ﷺ: علّمني دعاء أدعو به في صلاتي.

قال: «قل اللّهمّ إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وآرحمني، إنك أنت الغفور الرحيم».

وكان صلوات الله وسلامه عليه يقول بين السجدتين: «اللّهمّ اغفر لي، وارحمني ، واهدني، وعافني، وارزقني».

«عن معاذ رضي الله عنه، أن الرسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: يا معاذ، والله، إني لأحبك، ثم أوصيك: يا معاذ لا تدعنّ في دبر كل صلاة، أن تقول: اللّهمّ أعنّي على ذكرك، وشكرك، وحُسن عبادتك».

وعند الإفطار في الصوم:

«الحمد لله الذي أعانني فصمت، ورزقني فأفطرت».

«اللّهمّ لك صمت، وعلى رزقك أفطرت، فتقبّل منّي، إنك أنت السميع العليم».

عند الكـــرب:

«يا حيّ يا قيوم برحمتك أستغيث».

وعند الكرب أيضاً:

«لا إله إلاّ الله العظيم الحليم، لا إله إلاّ الله ربّ السموات وربّ الأرض ربّ العرش الكريم».

أما إذا كان الكرب شديداً فيحسن أن يكرّر الإنسان دعاء الرسول ﷺ عند عودته من الطائف وهو من روائع بيانه ودقيق مناجاته: «اللّهمّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربّ المستضعفين، وأنت ربّي إلى مَن تكِلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي؛ ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحلّ عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك».

وإذا خاف قوماً قال: «اللّهمّ إنّا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم».

لســــداد الدين:

«ألا أعلّمك كلمات علّمنيهنّ رسول الله ﷺ؟ لو كان عليك مثل

جبل ديناً أدّاه الله عنك، قل: اللّهمّ اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عمّن سواك».

وعند الخروج من البيت:

«عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ مَن قال ـ إذا خرج من بيته ـ بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله: يقال له هديت وكفيت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان».

عند النوم واليقظة:

«إذا أخذ أحدكم مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ثم يقول: اللّهمّ باسمك أموت وأحيا. وإذا استيقظ قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور».

عند الأكـــل:

«الحمد لله الذي أطعمني هذا، ورزقنيه من غير حول منّي ولا قوة».

عند اللباس الجديد:

«اللّهمّ لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له. وأعوذ بك من شرّه وشرّ ما صنع له».

وإذا رأى الهلال:

«اللهمّ أهلّه علينا بالأمن والإيمان، والسلام والإسلام، ربّي وربك الله، هلال رشد وخير».

وعندما ينتهي المجلس ويتفرّق الحاضرون يقول:

«سبحانك اللّهمّ وبحمدك، أشهد أن لا إلّه إلا أنت. أستغفرك وأتوب إليك».

وعندما يودع شخصاً:

«كان رسول الله ﷺ يودعنا فيقول: استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك».

ويقول السيد سليمان الندوي:

ومن أفضل سيرته وأعلاها: أنه ـ بعد ما أوحى إليه ـ لم يأمر أتباعه وأصحابه بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به. فدعا الناس إلى ذكر الله ومحبته، ولو راقبت حياته نفسها لرأيتها ملائمة لهذه الدعوة، لأنه لم تكن تمضي عليه ساعة من نهار أو ليل إلا ويذكر الله بقلبه ويحمده بلسانه. فكان لسانه رطباً بذكر الله: لا يفتر عنه طرفة عين، فإذا أكل أو شرب، ذكر اسم الله، وإذا فرغ من ذلك، حمد الله، وإذا أخذ مضجعه أو استيقظ من نومه، ذكر الله، وإذا نهض أو جلس، سبح الله أو حمده، وإذا لبس جديداً، شكر الله، حتى إن أذكاره ودعواته التي حفظها الناس عنه ـ في مختلف الأحوال ـ شغلت فراغاً واسعاً من كتب الحديث، وجمعت في كتاب (الحصن الحصين) الذي يبلغ مائتي صفحة، ومَن قرأ هذه الأدعية يقضي العجب ويوقن بأنه ﷺ كان يحبّ الله ويخشاه ويهاب جلاله، فكان كما وصف الله في القرآن عباده الصالحين ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ وكما شهدت عائشة بأنه ﷺ، كان يذكر الله ولا يغفل عن ذكره أبداً.

وأمر اناس بالصلاة وحضّهم على إقامتها والمحافظة عليها أشدّ المحافظة.

فماذا تحسبون الرسول كان يعمل في نفسه بما كان يأمر به غيره؟

إنه ﷺ، كان يقيم الصلاة ويحافظ عليها. أكثر من غيره. كان المسلمون يقيمون الصلوات المفروضة خمساً. وكان ﷺ يتطوع بالزيادة على ذلك في صلاة الضحى، وصلاة الإشراق، وصلاة التهجد. وكان عامّة المسلمين يصلّون سبع عشرة ركعة المكتوبة عليهم، وكان هو ﷺ، يصلّي في اليوم والليلة خمسين إلى ستّين ركعة من المكتوبة والنوافل. لقد سقطت عن عامة المسلمين فريضة التهجد بعد ما فرضت عليهم الصلوات الخمس، لكن الرسول كان يقوم الليل ويصلّي صلوات لا تقلّ عن حسنهنّ وطولهنّ، حتى كانت قدماه تتورمان من طول القيام، فقالت له عائشة يوماً ـ وقد رأت ما يعاني ﷺ في قيام الليل ـ: إن الله قد غفر لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر. فما بالك يا رسول الله تلقى العناء وتتعب هذا التعب الشديد؟ فأجابها ﷺ «أفلا أكون عبداً شكوراً»؟ وكان في هذه الصلوات معنى محبة الله أغلب عليه ﷺ من معنى الخوف، فكان يطيل الركوع حتى يخيل إلى مَن يراقبه أنه ربما قد نسي السجود. وكان يقيم صلاته من بدء الوحي في فناء بيت الله أمام المشركين الذين كانوا يعادونه ويؤذونه إيذاءً شديداً. وقد هجم عليه بعض المشركين ـ وهو في الصلاة ـ فلم يترك صلاته خوفاً منهم.

وكان جنباه يتجافيان عن المضجع، وكان قليلاً من الليل ما يهجع، ويبيت ساجداً أو قائماً والناس نيام. وأشد ما يكون إقامَ الصلاة حين يلتقي الجمعان في ساحة الحرب والسيوف مصلتة والرماح مشرعة والقلوب واجفة، ومع ذلك فإنه إذا حان وقت الصلاة والحرب كما وصفنا، اصطفّ المسلمون للصلاة ونبيّهم إمامهم، فيتناوب بعضهم الصلاة وبعضهم الحرب وإمامهم ثابت ـ في الحالين ـ إلى أن يؤدّوا

فريضة الله: لا يمنعهم عنها مانع[1].

وأمر المسلمين بالصوم، وليس على المسلمين إلا صوم رمضان. ولكن ما ظنكم بالرسول ﷺ وصومه؟

إنه قلّما كان يمرّ به شهر، أو أسبوع من شهر، إلا كان يصوم فيه تقول عائشة:

كان ﷺ يصوم حتى يظن أنه لن يفطر، ونهى المسلمين عن صوم الوصال، لكنه يواصل الصوم يومين، بل ثلاثة أيام متوالية لا يأكل فيهنّ ولا يشرب، وذاك الذي يقال له صوم الوصال. وكان بعض الصحابة يجب أن يقتدي به ذلك، فيقول ﷺ، «لست كأحدكم، أيّكم مثلي؟ إن ربي يطعمني ويسقيني».

وربما كان يصوم شهرين متواليين: شعبان ورمضان. وكثيراً ما يصوم الأيام البيض (الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر) من كل شهر، وكان يصوم ستة من شوّال ويوم عاشوراء من المحرّم، وكثيراً ما كان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس من كل أسبوع، كذلك كان دأبه وهديه في الصوم.

وأمر المسلمين بإيتاء الزكاة وإنفاق المال في الخير، لكنه بدأ ذلك بنفسه، وقد علمت شهادة أُم المؤمنين خديجة له في ذلك، يوم قالت له: إنك تحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، وتكسب المعدم. إنه لم يأمر الناس أن يتبعوه في ترك الدنيا، ولم يقل لهم ضحّوا بكل ما في أيديكم من أموال، ولم يخبرهم بأن ملكوت السموات موصدة أبوابه في وجوه الأغنياء؛ وإنما الذي أوصاهم به أن يتصدقوا ببعض أموالهم كما

---

(١) الرسالة المحمدية للسيد سليمان الندوي ص ١٠٧ ـ ١٠٩.

قال عزّ وجل: ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1].

هذا بينما رسول الله نفسه لم يكن يدّخر من المال شيئاً في بيته، كان ينفق في سبيل الله جميع ما كان يملكه، ولم يكن قليلاً ما كان يأتيه من خُمْس الغنائم من ذهب وفضة ومتاع وغيره من عرض الدنيا، فكان يخرج عنه كله لغيره من الفقراء والمساكين.

ولم يكن يتمتع هو ولا أهل بيته بمتع الحياة الدّنيا، فكان حظه وحظ أهل بيته من الدنيا: الفقر والتعفّف.

وكان سننه بعد أن فتحت أرض خيبر ـ أن يوزّع على أزواجه من الطعام والحبوب ما يكفيهم عاماً، لكنه قبل أن ينقضي العام، كان ينفد ما وزّعه على أزواجه فيمسّهم الجوع والسغب، لأنه كان ينفق على المحتاجين وعلى الضيوف مما يجده في بيوت أزواجه.

يقول عبد اللّه بن عباس: إن رسول الله ﷺ، كان أسخانا وأجودنا، وهو أسخى ما يكون في شهر رمضان، ولم يقل لسائلٍ «لا» قطّ طول حياته. ولم يأكل شيئاً وحده مهما كان قليلاً، بل يشرك فيه أصحابه. وقد آذن الناس أن «مَن مات وعليه دَين فدَينه عليّ أقضيه عنه، وما ترك من ميراث فميراثه لورثته».

جاءه يوماً أعرابي. فقال: يا محمد؛ إن هذا المال ليس لك ولا لأبيك فأوقر منه جملي. فحمله رسول الله ﷺ من الشعير والتمر، ولم يسخط عليه ما أغلظه من القول. ثم قال: إنما أنا قاسم وخازن والله هو المعطي.

يقول أبو ذر: كنت يوماً أمشي مع رسول الله ﷺ في حرّة المدينة، فاستقبلنا جبل أُحُد، فقال: أبا ذر؟ قلت: لبّيك يا رسول الله. قال: ما

---

(١) الحج: ٣٥.

يسرّني أن عندي مثل أحد ذهباً تمضي عليّ ثلاث ليالٍ وعندي منه دينار، إلا شيء أرصده لدين[1].

النبيّ المجـــاهد

إن رسول الله ﷺ الذي كان يقوم الليل حتى تنفطر قدماه، والذي كان في كثير من الأحيان يواصل في الصيام، هو الذي يقول: «والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل».

وهو القائل: «مَن مات ولم يغزُ، ولم يحدّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».

إن النبيّ العابد. هو: النبيّ المكافح، وإن نبيّ الرحمة، هو نبيّ الجهاد؛ وما كان الجهاد قطّ في الإسلام، إلا في سبيل الله، فإذا ما خرج عن سبيل الله لم يكن إسلامياً، وكل ما في سبيل الله إنما هو رحمة.

وليس من شأننا، أن نتحدّث عن الغزوات سرداً وترتيباً وتفصيلاً، وإنما نذكر منها عِبراً، حتى تنتهي إلى فتح مكة:

وأول ملاحظة: هي أن الرسول العابد: لم يتراجع في غزوة قطّ، وكان الأبطال يتراجعون، والصناديد من المهاجرين والأنصار يفرّون أحياناً، ولكنه صلوات الله وسلامه عليه يثبت ثبات الجبال الراسيات، لا يتزحزح عن موقفه، ولا يزول عن مكانه، وقد ثبت في مكانه في غزوة أُحُد التي غلب فيها المسلمون، وكان المشركون فيها يودّون بكل ما استطاعوا أن يقضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) الرسالة المحمدية ١٠٩ ـ ١١١.

ووقف ثابتاً في غزوة حنين، وقد فرّ المسلمون، على كثرتهم إذ ذاك، وكيف يمكن لأكمل رجل في الوجود أن يفرّ وأن يتراجع وهو أوثق الناس بالله وبرسالته؟

ولقد كان واضحاً فيه صلوات الله وسلامه عليه ما يقوله سيّدنا عليّ وهو مَن هو ـ بطولة وفروسية ـ: «كنّا إذا حمي الوطيس ـ أي الحرب: اتقينا برسول الله ﷺ: أي احتمينا به وفيه، فيكون أقربنا إلى العدو».

وكان صلوات الله وسلامه عليه مع التجائه إلى الله تعالى. يدعوه ويستغيث به، ويستنجزه وعده بالنصر: يحكم الأمر إحكاماً، بحيث لا يدع فيه ثغرة، هكذا كان أمره في جميع أموره، لقد نظم الجيش في غزوة بدر تنظيماً محكماً، ثم اتجه إلى الله يدعوه، وكان دائماً متفائلاً، كان متفائلاً حتى ولو كان العدو عشرة أمثال المسلمين.

لقد كان المشركون في غزوة بدر: ثلاثة أمثال المسلمين، فهزمهم المسلمون بإذن الله.

وكان انهزام المسلمين في غزوة أُحُد: شذوذاً في القاعدة، وما كان ذلك إلا لأنهم خالفوا ـ متأوّلين ـ أوامر الرسول ﷺ، غير أن تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه: لم يفارقه لحظة؛ إذ أنه بعد أن انهزم المسلمون في غزوة أُحُد مباشرة، أمرهم صلوات الله وسلامه عليه، بلَمِّ شعثهم وتضميد جراحهم، والاستعداد فوراً، لخوض المعركة من جديد.

ومن مظاهر تفاؤله صلوات الله وسلامه عليه، أنه في غزوة الأحزاب، وقد تجمع الشرك من جميع أرجاء الجزيرة؛ يسانده اليهود والغادرون ليقضوا على الإسلام في المدينة، ليقضوا عليه ديناً، وليقضوا عليه دولة، ليقضوا عليه عقيدة، وليقضوا عليه رجالاً، وقد كان المسلمون: يعملون في حفر الخندق حماية لهم، ومنعاً من وصول العدوّ إليهم في اللحظة الحرجة: يروي البراء بن عازب رضي الله عنه ـ القصة

التالية ـ حسبما رواه الإمام أحمد ـ: «أمرنا رسول الله ﷺ بحفر الخندق، فعرضت لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، فشكونا إلى رسول الله ﷺ فجاء ثم هبط إلى الصخرة. فأخذ المعول وقال: بسم الله، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام؛ والله إني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله، وضرب أخرى، فكسر ثلث الحجر. فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر المدائن؛ وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا ثم قال: بسم الله، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر. فقال، الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا».

وأشاع هذا التفاؤل الثقة والاطمئنان في المسلمين وإن كان قد دعا إلى السخرية في وسط المشركين والوثنيين الذين قالوا: إن محمداً يعدهم ويمنّيهم وهم لا يأمنون على أنفسهم الآن.

هذا التفاؤل وهذه الثقة في الله لم تفارق الرسول قطّ في كفاحه الطويل الدائب الذي استمر إلى نهاية حياته الشريفة.

ومن أمثلته البيّنة: ما قاله صلوات الله وسلامه عليه لأبي بكر وهما في الغار عند هجرتهما إلى المدينة: لقد كان سيّدنا أبو بكر حزيناً؛ خوفاً على الرسول صلوات الله وسلامه عليه، فجاء النداء الإلّهي على لسان الرسول صلوات الله وسلامه عليه، يملؤه ثقة وتفاؤلاً: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾[1]. ولما سمع سيّدنا أبو بكر خفق نعال المشركين أمام الغار وأصواتهم الصاخبة التي تعلن عن سخطهم وغيظهم المكبوت قال: لو نظر أحدهم إلى موقع قدميه لأبصرنا. ويبسم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويقول: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما»؟.

---

(١) التوبة: ٤٠.

الجــــهاد

ويقول صاحب كتاب (الروض الأنف):

نزول الأمر لرسول الله ﷺ في القتال:

بسم الله الرحمن الرحيم. قال: حدّثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام، قال: حدّثنا زياد بن عبد اللّه البكّائي، عن محمد بن إسحاق المُطّبى: وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يُؤذن له في الحرب ولم تُحلّل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل.

وكانت قريش قد اضطهدت مَن اتّبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونَفوْهم من بلادهم، فهم من بين مفْتون في دينه، ومن بين مُعذّب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم: منهم مَنْ بأرض الحبشة، ومنهم مَنْ بالمدينة، وفي كل وجه؛ فلما عَتَبتْ قريش على الله عزّ وجل، وردّوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذّبوا نَبِيّه ﷺ، وعذّبوا ونَفوْا من عبَده ووحّده، وصدّق نبيّه، واعتصم بدينه ـ أذن الله عزّ وجل لرسوله ﷺ في القتال، والانتصار للمسلمين ممّن ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب، وإحلاله له الدماء. والقتال، لمَن بغى عليهم، فيما بلغني عن عُروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟

عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾(١)، أي أني إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظُلِموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتَوْا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعني النبيّ - ﷺ - وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين.

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾(٢): أي: حتى لا يفتن مؤمن عن دينه: ﴿ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(٣)، أي حتى يُعبد الله: لا يعبدون غيره(٤).

وبعد، فقد كان رسول الله ﷺ وهو من كبار المجاهدين لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر.

ومن أحاديثه في الجهاد:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ والذي نفسي بيده، لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنّي، ولا أجد ما أحملهم عليه ـ ما تخلفتُ عن سرية تغزو في سبيل الله، والذي نفسي بيده، لوددت أنني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل ﴾(٥).

عن سهل بن سعد السَّاعديّ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رِباط يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها. وموضع سوطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوْحة يروحها العبد في سبيل أو الغُدوة خير من الدنيا وما عليها»(٦).

---

(١) الحج: ٣٩ ـ ٤٠. (٢) الأنفال: ٣٩. (٣) الأنفال: ٣٩.

(٤) الروض الأنف جـ ٤، ص ١٤٦، ١٤٧.

(٥) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٢١، ط الشعب.

(٦) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٤٣، ط الشعب.

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «انتدب الله لمَن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا إيمان بي وتصديق برسلي، أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنة. . .، ولولا أن أشقّ على أمتي ما قعدت خلف سرية أبداً، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل. . .). (خ).

عن سالم أبي النضر مولى عمر بن عبيد اللّه ـ وكان كاتباً له ـ؛ قال: «كتب إليه عبد اللّه بن أبي أوفى رضي الله عنهما فقرأته: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس خطيباً قال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسَلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف». ثم قال:

«اللّهمّ منزّل الكتابِ، ومُجْرِيَ السحاب؛ وهازمَ الأحزاب، اهْزِمْهُم وانصرنا عليهم»[1].

مواقف في غزوة بدر

١ ـ رؤيا عاتكة:

كانت عاتكة بنت عبد المطلب ساكنة بمكة، وهي عمّة رسول الله ﷺ، وكانت مع أخيها العباس بن عبد المطلب، فرأت رؤيا قبل بدر، وقبل قدوم ضمضم عليهم، ففزعت منها، فأرسلت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب من ليلتها، فجاءها العباس، فقالت: رأيت الليلة رؤيا قد أشفقت منها، وخشيت على قومك الهَلَكة قال: وماذا رأيت[2]؟

(١) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٦٢.

(٢) رواه البخاري في الصحيح عن الحميدي وأخرجاه من أوجه آخر، انظر دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٥٦، ٥٧.

قالت: لن أحدّثك حتى تعاهدني أنك لا تذكُرُها، فإنهم إن سمِعهوها آذَوْنا وأسمَعُونَا ما لا نحب. فعاهدها العباس، فقالت:

رأيتُ راكباً أقبل من أعلى مكة على راحلته، يصيح بأعلى صوته: يا آل غُدَرْ، اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فأقبَلَ يصيحُ حتى دخل المسجدَ على راحلته، فصاح ثلاثَ صيحاتٍ، ومال عليه الرجال والنساء والصبيان، وفَزِع له الناس أشد الفزع، قالت: ثم أراه مَثَلَ على ظهر الكعبة على راحلته، فصاح ثلاث صيحات، فقال: يا آل غُدَرْ ويا آل فُجَر، اخرُجوا في ليلتين أو ثلاثِ، ثم أراه مَثَلَ على ظهر أبي قبيس كذلك يقول: يا آل غَدَرْ، ويا آل فجرْ، حتى أسْمَعَ مَنْ بين الأخْشَبين من أهل مكة، ثم عمِدَ إلى صخرة عظيمةٍ فنزعها من أصلها، ثم أرسلها على أهل مكة، فأقبلتِ الصخرة لها حِس شديد، حتى إذا كانت عند أصل الجبل، ارفضت فلا أعلم بمكة داراً، ولا بيتاً، إلا قد دخلتها فلْقةٌ من تلك الصخرة، فقد خشيت على قومك... ففزع العباس من رؤياها، ثم خرج من عندها، فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة من آخر تلك الليلة، وكان الوليد خليلاً للعباس، فقصّ عليه رؤيا عاتكة، وأمره ألاّ يذكرها لأحد. فذكرها الوليد لأبيه عتبة، وذكرها عتبة لأخيه شيبة، فارتفع الحديث حتى بلغ أبا جهل بن هشام، واستفاض في أهل مكة.

فلما أصبحوا، غدا العباس يطوف بالبيت، فوجد في المسجد أبا جهل، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأميّة؛ وأُبيّ بن خلف، وزمعة بن الأسود، وأبا البحتري في نفر من قريش يتحدثون، فلما نظروا إلى العباس ناداه أبو جهل، يا أبا الفضل، إذا قضيت طوافك فهلمّ إلينا.

فلما قضى طوافه جاء فجلس إليهم، فقال أبو جهل: ما رؤيا رأتها عاتكة؟ فقال: ما رأت من شيء.

فقال أبو جهل: أما رضيتم يا بني هاشم بكذب الرجال، حتى جئتموها بكذب النساء؟ إنّا كنّا وإياكم كفرسَيْ رِهان، فاستبقْنا المجد، فلما تحاكت الركب، قلتم: منّا نبيّ فما بقي إلا أن تقولوا: منّا نبيّة، فما أعلم في قريش أهلَ بيت أكذبَ امرأةً ولا رجلاً منكم.. وآذاه أشد الأذى..

وقال أبو جهل: زعمَتْ عاتكة؛ أن الراكب قال: اخرجوا في ليلتين أو ثلاث، فلو قد مضت هذه الثلاث تبيّنت قريش كذبكُم، وكتبنا سجِلاًّ: إنكم أكذبُ أهلِ بيت في العرب: رجلاً وامرأة!!

أما رضيتم يا بني قصيّ، أنْ ذهبتم بالحجابة والندوة؛ والسقاية واللواء والرِّفادة؛ حتى جئتمونا بنبيّ منكم؟!

فقال العباس: هل أنت منتهٍ؟ فإن الكذب فيك، وفي أهل بيتك.

فقال مَن حضرهما: ما كنت يا أبا الفضل جهولاً ولا خَرِقاً.

ولقي العباس من عاتكة فيما أفشى عليها رؤياها أذىً شديداً[1].

فلما كان مساء الليلة الثالثة من الليلة التي رأت عاتكة فيها الرؤيا، جاءهم الراكب الذي بعث به أبو سفيان، وهو ضمضم بن عمرو الغفاري فصاح فقال: يا آل غالب بن فهر، انفِرُوا فقد خرج محمد وأهل يثرب يعترضون لأبي سفيان فاحرزوا عِيركم، ففزعت قريش أشـدّ الفزع، وأشفقوا من رؤيا عاتكة.

٢ ـ امضِ يا رسول الله لِما أردت:

أتى رسول الله ﷺ، الخبرُ عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عِيرهم،

(١) دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

فاستشار رسول الله ﷺ الناس، فقال أبو بكر فأحسن. ثم قام عمر فقال فأحسن.

ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله: امضِ لما أمرت به، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا هاهنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا معكما مقاتلون. فوالذي بعثك بالحق، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك مَنْ دونه حتى تبلغه.

فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له به، ثم قال: أشيروا عليّ أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس؛ وكانوا حين بايعوه بالعقبة، قالوا يا رسول الله!! إنّا برآء من ذمامك حتى تصل إلى دارنا، فإذا وصلت إلينا، فأنت في ذمامنا: نمنعك مما نمنع منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا؛ فكان رسول الله ﷺ يتخوّف أن لا تكون الأنصار ترى أن عليها نصرتَهُ إلا بالمدينة وأنه ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بغير بلادهم. فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، قال سعد بن معاذ: والله لكأنكَ يا رسول تريدنا. قال: أجل.

قال سعد بن معاذ: لقد آمنّا بك وصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا: على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت. . . فنحن معك. فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك. . ما تخلّف منّا واحد. . وما نكره أن نلقى عدوّنا غداً. . . إنّا لصُبُر عند الحرب، صُدُق عند اللقا. ولعلّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك. . فسر بنا على بركة الله. . فسرَّ بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله عزّ وجل، قد وعدني إحدى الطائفتين. والله، لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم.

٣ ـ أشـــــرت بالرأي:

نزل الرسول بدراً؛ فسبق قريشاً إليه، فلما جاء أدنى ماء من بدر، نزل عليه فقال له الحباب بن المنذر: يا رسول الله، أهذا منزل أنزَلَكَهُ الله؛ ليس لنا أن نتعدّاه، ولا نقصر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟

فقال رسول الله ﷺ: «بل هو الرأي، والحرب، والمكيدة».

فقال الحباب: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، ولكن انهض حتى تجعل القُلبَ (الآبار) كلها من وراء ظهرك، ثم غوِّر كل قليب بها إلا قليباً واحداً، ثم احفر عليه حوضاً فنقاتل القوم فنشرب ولا يشربون. حتى يحكم الله بيننا وبينهم؛ فقال: قد أشرت بالرأي. ففَعلَ ذلك فغورت القلب؛ وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه فملىء ماء، ثم قذفوا فيه الآنية؛ وأقبلت قريش حين أصبحت؛ يقدّمها عتبة بن ربيعة على جمل له أحمر.

فلما رآهم رسول الله ﷺ ينحطّون من الكثب قال: اللّهمّ هذه قريش، قد أقبلت بخيلائها وفخرها: تحادُّك وتكذب رسولك. اللّهمّ فأحِنْهم[1] الغداة.

٤ ـ من عواطف الشباب:

عن عبد الرحمن بن عوف قال: «إني لواقف يوم بدر في الصفّ، فنظرت عن يميني وشمالي؛ فإذا أنا بين غلامين من الأنصار: حديثة أسنانهما؛ فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما؛ فغمزني أحدهما فقال: يا عم، أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم. وما حاجتك إليه؟ قال: أخبِرْت..

(١) أي أصبهم بالإحن، وهي المصائب والهزائم. انظر دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٣١٩ ـ ٣٢١.

إنه يسبّ رسول الله ﷺ؛ والذي نفسي بيده. إن رأيته لا يفارق سوادي سوادَه حتى يموت الأعجَل منّا فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال لي مثلها؛ فلم أنشِبْ أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس؛ فقلت: ألا تريان!!! هذا صاحبكما الذي تسألان عنه. فابتدراه بسيفهما، فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى النبيّ ﷺ؛ فأخبراه فقال: أيّكما قتله؟ قال كل واحد منهما: أنا قتلته. قال مسحتما سيفيكما؟ قالا: لا. قال: فنظر في السيفين فقال: كلاكما قتله؛ وقضى بسلبه لمعاذ بن عمر والآخر معاذ بن عفراء»[1].

٥ ـ ســــــواد:

أخذ رسول الله ﷺ؛ يعدل جيشه كتفاً بكتف، في صفوف متلاصقة كالبنيان المرصوص، وأخذ يكبح شكيمة هؤلاء المتهورين، الذين يريدون أن يتقدموا الجمع إلى القتال، فيلاقوا، بلا شك؛ مصرعهم دون فائدة تعود على المسلمين من ذلك.

من هؤلاء سواد بن غزية، فقد برز من صفّه، فضربه رسول الله ﷺ بقدح[2] كان بيده، وقال: اسْتَوِ يا سواد.

فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأقدني[3]، فقال رسول الله: اقتصّ منّي. فقال سواد: كيف وقد ضربتنى على بطني العريان؟ فكشف له رسول الله ﷺ، عن بطنه، وقال: استَقِدْ يا سواد، فاعتنقه سواد فقبل بطنه. فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟

---

(١) رواه البخاري في الصحيح، رواه مسلم عن يحيىٰ بن يحيىٰ. انظر دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٣٥٨، ٣٥٩.

(٢) القدح: السهم.

(٣) اقتصّ من نفسك.

فقال يا رسول الله؛ حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسّ جلدي جلدك. فدعا له رسول الله ﷺ، بخير[1].

٦ - إلى جـــــنة:

وجاء المشركون لملاقاة المسلمين يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ، لا يقدمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكونَ أنا دونه، فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنةٍ عرضها السموات والأرض» قال: يقول عمر بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله: جنة عرضها السموات والأرض: قال: نعم.

قال: بخٍ، بخٍ.

فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك: بخ، بخٍ»؟

قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها.

قال: «فإنك من أهلها؛ فأخرج ثمرات من قرنه[2]، فجعل يأكل منهنّ، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل ثمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة قال: فرمى بما كان معه من التمر. ثم قاتلهم حتى قتل»[3].

مـــــــواقف

ابن عمر وغزوة بدر:

عرِضت على رسول الله ﷺ؛ يوم بدر؛ فاستصغرني فلم يقبلني، فما أتت عليَّ ليلة قطّ مثلها من السهر والحزن والبكاء، إذ لم يقبلني

(١) محمد رسول الله ﷺ. للمؤلف.

(٢) أي جعبة النشاب.

(٣) رواه مسلم في الصحيح، انظر دلائل النبوّة جـ ٢، ص ٣٠٧.

رسول الله ﷺ. فلما كان في العام المقبل عرِضْت عليه؛ فقبلني، فحَمِدت الله على ذلك.

لو كان غير الجنة:

عن سليمان بن بلال؛ رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، لما خرج إلى بدر، أراد سعد بن خيثمة وأبوه ـ جميعاً ـ الخروج معه. فذكِرَ ذلك للنبيّ ﷺ: فأمر أن يخرج أحدهما، فاستهمّا، فقال خيثمة بن الحارث لابنه سعد رضي الله عنهما: إنه لا بدّ لأحدنا من أن يقيم، فأقم مع نسائك.

فقال سعد: لو كان غيرَ الجنّة لآثرتكَ به، وإني أرجو الشهادة في وجهي هذا فاستهما، فخرج مع رسول الله ﷺ، إلى بدر فاستشهد.

من آثار غزوة بدر:

جلس عمير بن وهب الجمحي، مع صفوان بن أمية، بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحِجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممّن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلْقَوْن منه عناءً وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أسارى بدر.

قال ابن هشام: أسره رفاعة بن رافع أحد بني زريق.

قال ابن إسحاق: حدّثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: فذكر أصحاب القليب ومصابهم، فقال صفوان: والله، ما في العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن عليّ، ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ـ لركبت إلى محمد حتى أقْتُلَه، فإنّ لي قِبَلَهم عِلّةً: ابني أسيرٌ في أيديهم. قال:

فاغتَنَمَهَا صفوان. وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم.

فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوّهم، إذ نظر عمر إلى عمر بن وهب ـ حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف ـ فقال: هذا الكلب عدوّ الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا بشرّ، وهو الذي حرَّش بيننا وحزرنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيّ الله، هذا عدوُّ الله عمير بن وهب: قد جاء متوشحاً سيفه! قال: فأدخِلْه عليّ قال: فأقبلَ عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلببَّه بها؛ وقال لرجال ممّن كانوا معه من الأنصار؛ ادخلوا على رسول الله ﷺ، فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غيرُ مأمون. ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه قال: أرْسِلْهُ يا عمر، أدْنُ يا عمير، فدنا ثم قال: أنعِموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ.

قد أكرمَنَا الله بتحيةٍ خيرٍ من تحيتك يا عمير، السلام: تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديث عهد. قال: فما جاء بك يا عمير؟

قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديك فأحسِنوا فيه.
قال: فما بال السيف في عنقك؟
قال: قبَّحها الله من سيوف وهل أغْنَتْ عنّا شيئاً؟
قال: أصدُقْني، ما الذي جئت له؟
قال: ما جئت إلا لذلك؟

قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ عليّ، وعيالُ عندي، لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمَّلَ لك صفوان بدَيْنكَ وعيالك، على أن تقتلني له.. واللَّهُ حائل بينك وبين ذلك.

قال عمير: أشهد أنك رسول الله ﷺ، قد كنّا يا رسول الله نكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحْي. وهذا أمرٌ لم يحضُره إلا أنا وصفوان. فوالله، إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ، فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلِقوا له أسيره؛ ففعلوا. ثم قال: يا رسول الله، إني كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمَن كان على دين الله عزّ وجل، وأنا أحب أن تأذَن لي، فأقْدَمَ مكة، فأدعُوَهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعلّ الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابَكَ في دينهم؟

قال: فأذِن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن، في أيام تنسيكم وقعة بدر.

وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدِم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألّا يكلّمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

قال ابن إسحاق: فلما قدِم عمير مكة أقام بها يدعو إلى الإسلام؛ ويؤذي مَن خالفه أذىً شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير.

الشـــباب في المعركة:

تـدافـع الشبـاب في سنّ الخمسَ عشـرةَ سنـةً فـأكثـر، على رسول الله ﷺ، يريد كلٌّ منهم أن يظفَرَ بالإذن له في المساهمة في شرف العمل في سبيل الله.

لقد جاء إليه ﷺ سمرة بن جندب، وجاء إليه رافع بن خديج، وهما ابنا خمسَ عشرةَ سنة، فردّهما. فقيل: يا رسول الله إن رافعا رام، فأجازه. فلما أجاز رافعاً قيل له: يا رسول الله إن سمرة يصرع رافعاً؛ فأجازه ولكنه ﷺ ردّ: أسامة بن زيد، وعبد اللّه بن عمر، وزيد بن ثابت، أحد بني مالك بن النجار؛ وردّ البـراء بن عازب أحـد بني حارثـة، وعمرو بن حزم؛ وأسيد بن ظهير. ردّ جميع هؤلاء لصغر سنّهم، على الرغم من أنهم كانوا في شوق شديد لخوض المعركة... معركة الشرف في سبيل الله.

ولقد بلغت فرحتهم أقصاها حينما أجازهم ﷺ شرف المساهمة في غزوة الخندق.

أما مَن كان أكثر من خمسَ عشرةَ سنةً، وكان في حالة تمكّنه من الحرب، فقد أجازه رسول الله ﷺ.

الشـــيوخ في المعركة:

(أ) لما خرج رسول الله ﷺ إلى أُحُد، رفع حسيل بن جابر وهو اليمان: أبو حذيفة بن اليمان، وثابت بن وَقْش ذي الآطام مع النساء والصبيان. فقال أحدهما لصاحبه وهما شيخان كبيران: لا أبا لك، ما تنتظر فوالله ما بقي لواحد منّا من عمر إلا ظِمْءُ[1] حمار... وإنما نحن

(١) الظم: مقدار ما يكون بين الشربتين، وأقصر الأظماء ظمء الحمار لأنه لا يصبر عن الماء فضُرِب لقُرب الأجل.

هامة[1] اليوم أو غد. . أفلا نأخذ أسيافنا ثم نلحق برسول الله ﷺ؟ لعلّ الله يرزقنا شهادة مع رسول الله ﷺ!! فأخذ أسيافهما ثم خرجا حتى دخلا في الناس. ولم يَعلَم بهما.

فأما ثابت بن وقش فقتله المشركون، وأما حسيل بن جابر، فاختلفت عليه أسياف المسلمين، فقتلوه ولا يعرفونه، فقال حذيفة: أبي، فقالوا: والله إن عرفناه[2] وصدقوا. قال حذيفة: يغفرُ الله لكم وهو أرحمُ الراحمين. فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه، فتصدّق حذيفة بديّته على المسلمين، فزاده ذلك عند رسول الله ﷺ خيراً.

(ب) كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسْدِ: يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد. فلما كان يوم أُحُد، أرادوا حبسه وقالوا له: إن الله عزّ وجل، قد عذرك.

فَأتَى رسول الله ﷺ، فقال: إن بَنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فوالله، إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة.

فقال رسول الله ﷺ: «أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك».

وقال لبنيه: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلّ الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقتل يوم أُحُد.

فدائيون في المعركة:

كان كل همّ المشركين أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فلما انكشف المسلمون في المعركة ـ معركة أُحُد ـ حاول المشركون أن ينتهزوها فرصة

---

(١) الهامة: طائر يخرج من رأس القتيل ـ فيما تزعم أساطير العرب ـ إذا قتل فلا يزال يصيح اسقوني اسقوني: حتى يؤخذ بثأره فضربته العرب مثلاً للموت.

(٢) أي ما عرفناه.

فتدافعوا نحو الرسول ﷺ في كثرة كثيرة تريد قتله.

فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله ﷺ، رجلاً ثم رجلاً: يُقْتَلُون دونه، حتى كان آخِرَهم زياد، فقاتل حتى أثبتته الجراح. وترسَّى دون رسول الله ﷺ أبو دُجانة بنفسه: يقع النبل في ظهره وهو مُنْحنٍ عليه حتى كثر فيه النَّبْل.

وقاتلتْ دون رسول الله ﷺ، أُم عمارة وهي نسيبة بنت كعب. تقول أُم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلتْ عليّ أُم عمارة فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك؟.

فقالت: خرجت أول النهار أنظر ما يصنعه الناس، ومعي سِقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه والدولة والريح[1] للمسلمين.

فلما انهزمَ المسلمون، انحَزتُ إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خَلَصَت الجراح إليّ.

قالت أُم سعد، فرأيت على عاتقها جرْحاً أجوفَ له غَوْرٌ فقلت: مَن أصابك بهذا؟

قالت: ابن قمئة، أقمأه الله.

ثم تابعت حديثها قائلة: لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ، أقبل ابن قمئة يقول: دلّوني على محمد، فلا نجوت إن نجا... فاعترضت له أنا ومُصعب بن عمير وأناس ممّن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة ولكن لقد ضربته على ذلك ضربات، لكنَّ عدوَّ الله كانت عليه درعان.

---

(١) أي أن النصر لهم.

ثم جاء المسلمون فأجلَوا المشركين عن رسول الله ﷺ. ولقد قال رسول الله ﷺ عنها: ما التفت يميناً ولا شمالاً، إلا وأراها تقاتل دوني.

يوم كله لطلحة:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان أبو بكر رضي الله عنه إذا ذكر يوم أُحُد قال: ذلك يومٌ كله لطلحة رضي الله عنه، ثم أنشأ يحدّث فذكر الحديث، وفيه: فانتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كُسِرَت رباعيَّتُه، وشُجَّ في وجهه، وقد دخل في وجنته حَلْقَتَان من حَلَقِ المِغْفَرِ، قال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما».

يريد طلحة رضي الله عنه، وقد نزف، فذكر الحديث وفيه: ثم أتينا طلحة رضي الله عنه، في بعض تلك الجِفار، فإذا بضع وسبعون: بين طعنة ورمية وضربة. وإذا قد قطعن أصبعه فأصلحنا شأنه.

ريـــح الجنة:

عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ، يوم أُحُد؛ لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه. وقال: إن رأيته فأقره منّي السلام وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ، كيف تجدك؟

قال: فجعلت أطوف بين القتلى فوجدته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمح وضربة بسيف ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد: إن رسول الله ﷺ، يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟

قال: على رسول الله السلام، وعليك السلام: قل له. يا رسول الله، أجدني أجد ريح الجنة. وقل لقومي الأنصار: لا عذرَ لكم عند الله، أن يخلص إلى رسول الله ﷺ شيء يكرهه وفيكم عين تَطْرِف.

غسلته الملائكة:

دخل حنظلة بن أبي عامر على زوجته أو ما دخل بها، فنودي بالجهاد في غزوة أُحُد، من ليلته.

فخرج مسرعاً إلى المعركة وأظهر ضروباً من البسالة والشجاعة، حتى أتاه سهم مفاجىء، فاستشهد، وبعد المعركة قال الرسول ﷺ: «لقد رأيت حنظلة بن أبي عامر: تُغَسِّلُه الملائكة بماء المزن في صحائف الفضة بين السماء والأرض».

فذهب الصحابة إليه وهو في القتلى فوجدوا شعره يقطر ماءً.. فقالوا لرسول الله ﷺ، فقال: «اذهبوا إلى زوجته فاسألوها». فذهبوا إليها فقالت: إنه أعرس بي أول ليلة فقط، ولما سمع الداعي إلى الجهاد، خرج مسرعاً وهو جُنُب، فرجعوا إلى النبيّ ﷺ فأخبره فقال: «من أجل ذلك غَسَّلته الملائكة».

كل مصيبة بعدك هيّنة:

عن سعد بن أبي وقاص قال: مَرّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأبوها وأخوها مع رسول الله ﷺ بأُحُد. فلما نُعُوا لها قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أُم فلان، وهو يحمد الله كما تحبّين؛ قالت: أرونيه حتى أنظرَ إليه؟ قال فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد صغيرة.

غزوة أُحُد والثقة في نصر الله:

شاءت حكمة الله سبحانه وتعالى، أن يُغْلَبَ المسلمون في أُحُد. حكمةٌ لله في كل ما يحدث، وهو سبحانه ـ يبتلي بالسّراء كما يبتلي بالضرّاء. وكل شيء عنده بمقدار. وما إن انتهت المعركة وأصـاب

المشركون من المسلمين ما أصابوا، حتى عاد أعداء الله راجعين، وظن المسلمون أنهم إنما رجعوا قاصدين المدينة ليدمروها، ويُنَكِّلوا بمَن فيها من الرجال ويأمروا النساء والأولاد. فشقّ على المسلمين ذلك، فلم توهن الهزيمة من عزيمتهم ولم تفتّ في عضدهم، وكان إيمانهم الذي لا يتزعزع، وثقتهم في نصر الله، وتوكلهم عليه سبحانه وتعالى، ـ كان ذلك ـ دافعاً لهم أن يوطّنوا أنفسهم على أن يسبقوهم إلى المدينة، لينازلوهم فيها. فقال رسول الله ﷺ لعليّ رضي الله عنه:

أخرج في آثار القوم، فانظرا ماذا يصنعون؟ وما يريدون؟ فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة. فوالذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنّ إليهم، ثم لأناجزنّهم فيها. قال عليّ: فخرجت في آثارهم، أنظر ماذا يصنعون، فجنّبوا الخيل وامتطَوُا الإبل، وواجهوا مكة.

ولكن المشركين بعد أن ساروا في طريق مكة، تلاوموا فيما بينهم، فقال بعضهم: لم تصنعوا شيئاً! «أصبتم شوكتهم وحدهم، ثم تركتموهم وقد بقي منهم رءوس يجمعون لكم، فارجعوا حتى تستأصلَ شأفتهم».

وقال البعض الآخر: لا محمداً قتلتم، ولا الكواعبَ أردفْتم... بئسما صنعتم... ارجعوا؛ وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فندب المسلمين إلى الذهاب لملاقاتهم، والسير وراءهم؛ ليرعبهم ويريهم أن بالمسلمين قوة وجلداً. وبلغت ثقة رسولُ الله ﷺ في نصر الله: أنْ لم يأذن بالذهاب لملاقاة العدو، إلا لمَن حضر الموقعة فقط، اللّهمّ إلا جابر بن عبد اللَّه الذي قال لرسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إني أحب ألّا تشهد مشهداً إلا كنتُ معك».

وأجاب المسلمون دعوة رسول الله ﷺ، ولبَّوْا نداءه، وساروا في

طريق القوم، حتى بلغوا حمراء الأسد.

ولما علم المشركون بذلك، قالوا: نرجع من قابِل، وساروا في طريقهم إلى مكة.

وأنزل الله سبحانه: ﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(١).

* * *

مَرَّ بأبي سفيان ـ وكان حينئذ قائد المشركين ـ رَكْبٌ من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة، قال: ولِمَ؟ قالوا: نريد الميرة قال: فهل أنتم مُبَلِّغون عنّي محمداً رسالة أرْسِلكم بها إليه وأحمل لكل ـ في مقابل ذلك ـ زبيباً بعكاظ إذا وافيتمونا؟ قالوا: نعم. قال: إذا وافيتم محمداً فأخبروه أنّا قد جمعنا المسير إليه، وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

ومرّ الركب برسول الله ﷺ ـ وهو بحمراء الأسد ـ فأخبروه بالذي قال أبو سفيان وأصحابه. فكان ردّ الفعل عند رسول الله ﷺ، وأصحابه ما صوّره الله تعالى بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾(٢).

بعض مَن أصابهم القرح:

عن أبي السائب رضي الله عنه أن رجلاً من بني عبد الأشهل قال:

---

(١) آل عمران: ١٧١، ١٧٢.

(٢) آل عمران: ١٧٣، ١٧٤.

شهدت أُحُداً وأخ لي، فرجعنا جَريحين. فلما أذَّن مؤذّن رسول الله ﷺ، بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي أو قال لي: أتفوتُنَا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله، ما لنا من دابة نركبها، وما منّا إلا جريح ثقيل. فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسرَ جُرْحاً منه. فكان إذا طُلِب: حملته مرة ومشى مرة حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

أجد ريح الجنة:

عن أنس رضي الله عنه قال: غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلْتَ المشركين.. لئن اللَّهُ أشهَدَني قتال المشركين، ليرينّ اللَّهُ ما أَصنع.

فلما كان يوم أُحُد وانكشف المسلمون قال: اللّهمّ إني أعتذر إليك عمّا صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدّم فاستقبله سعد بن مُعاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنةَ وربّ النضر: إني أجد ريحها من دون أحد.

قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما تصنع. قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رميةً بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مَثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أختُه ببنانِه. قال أنس: كنّا نَرى، أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ... ﴾(١) إلى آخر الآية(٢).

لله العزة ولرسوله:

سمع عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن أبي: أن والده قال: «لئن رجعنا إلى

---

(١) الأحزاب: ٢٣.

(٢) صحيح البخاري جـ ٧، ص ٢٣، ط الشعب.

المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ؛ فلما قدِموا المدينة، قام عبد اللّه على بابها بالسيف لأبيه، ثم قال: أنت القائل: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل؟ أما والله لتعرفنّ العزّة لك أو لرسول الله ﷺ؟. والله لا يأوِيكَ ظلها، ولا تئويه أبداً، إلا بإذنٍ من الله ورسوله. ولم يسمح له بالدخول، حتى أرسل إليه رسول الله ﷺ، يأمره بأن يخْلي سبيله»[1].

يقول صاحب كتاب: «النبوّة والأنبياء» معلّقاً على ذلك، باعتباره شعوراً عاما عند الذين أخلصوا وجوههم لله من الصحابة: أنصاراً ومهاجرين: «ولذلك كله، استطاعوا أن يضَعُوا رءوسَهم ومُهَجَهم على أكفِّهم وراحاتهم، وهانت عليهم الحياة، وطابت لهم هجرة الأوطان، وهجْرُ الإخوان، والشهادة في سبيل الله. ولذلك استطاعوا أن يقولوا، عند وقعة بدر: إن أمرَنَا تَبَع لأمرك، فوالله، لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان، لنسيرنّ معك، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر، لخضناه معك»[2].

بيـــن الأبوّة والنبوّة

ولم يجد أبو سفيان ـ رغم دهائه ولباقته ـ عوناً من أحد، حتى ولا من ابنته أم حبيبة، زوجة رسول الله التي بلغ بها النفور من الشرك، أن طوت فراش رسول الله ﷺ، حتى لا يجلسنّ عليه أبوها، فلما سألها ـ مستفسراً: أرغبتْ بهِ عن الفراش، أم رغبت بالفراش عنه. قالت: هو فراش رسول الله، وأنتَ مشرِك نجس، فانصرف مغضباً قائلاً: «والله لقد أصابك من بعدي شَر». وأخطأ أبو سفيان، فما أصابها شر، ولكنها

---

(١) تفسير الطبري.

(٢) قاله سعد بن معاذ، (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين). انظر النبوّة والأنبياء في ضوء القرآن ص ٨٠ ـ ٨٢.

كراهية الشرك، ولكنها المحبة القوية العميقة لرسول الله، صلوات الله عليه وسلامه.

عـــزّ الدين وعزّ الملك

وعسكر الجيش في مرّ الظهران، ولما مرّ الجيش بأبي سفيان بعد أمنه العباس، رضي الله عنه. قال، بعقليته الجاهلية، للعباس:

يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

فقال العباس بعقليته الإسلامية: ويحك، إنه ليس بملك، ولكنها نبوّة.

قال أبو سفيان: نعم.

عـــــفو القادر

وحينما اجتمعت قريش إليه نظر إليهم وقال: «يا معشر قريش ما ترون إني فاعل بكم؟

فقالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم!

فقال ـ وهو يبكي ـ «اذهبوا فأنتم الطلقاء». أقول لكم ما قاله، أخي يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين».

التبرّع بالمال بعد النفس

وحضّ رسول الله ﷺ أهل الغني على النفقة في سبيل الله وأعلن رسول الله ﷺ، أن مَنْ جهَّز جيش العسرة، فله الجنة، فتسابق المسلمون

رجالاً ونساءً في التبرّع: النساء بِحلِيِّهنّ وبمالهنّ، والرجال بما يستطيعون.

ها هو ذا أبو بكر الصدّيق يأتي بكل ماله، وكان أربعة آلاف درهم، ويسأله رسول الله ﷺ: «هل أبقيت لأهلك شيئاً»، فيقول رضي الله عنه: أبقيت لهم الله ورسوله.

ويجيء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية من الذهب الخالص.

ويجيء سيّدنا عثمان بثلاثمائة بعير، وبألف دينار، ويضع الدنانير في حجر رسول الله ﷺ، فَيُسَرُّ الرسول بها، ويدخل يده فيها يقلبها ويقول: «اللّهمّ ارضَ عن عثمان، فإني عنه راضٍ، ويقول: ما على عثمانَ ما عمل بعد اليوم».

قال ابن إسحاق: فبلغني أن ابن ياسين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى وعبد اللّٰه بن مغفل وهما يبكيان فقال: ما يبكيكما؟

قالا: جئنا رسول الله ﷺ، ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنَا عليه وليس عندنا ما نتقوّى به على الخروج معه. فأعطاهما ناضحاً له فارتحلاه، وزوّدهما شيئاً من تمر، فخرجا مع النبيّ ﷺ. زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال:

وأما عليّة بن زيد فخرجَ من الليل، فصلّى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى. وقال: اللّهمّ إنّك أمرتَ بالجهاد ورغبت فيه؛ ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدّق على كل مسلم بكل مظلمةٍ أصابني فيها مال أو جسد أو عرض..

ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «وأين المتصدّق هذه الليلة»؟ فلم يقمْ أحد، ثم قال: «أين المتصدّق؟ فليقم».. فقام إليه

فأخبره فقال رسول الله ﷺ: «أبشِرْ، فوالذي نفسي بيده، لقد كتبت في الزكاة المتقبلة».

وإن كـــان عَمراً:

عن كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه، قال: لما كان يومُ الخندق، خرج عمرو بن عبدُود معلماً ليرى مشهده، وهو مقّنع بالحديد فنادى: مَن يبارز؟

فقام عليٌّ بن أبي طالب، رضي الله عنه فقال: أنا لَهَا، يا نبيّ الله ﷺ.

فقال: إنه عمرو... اجلِسْ.

ثم نادى عمرو: ألا رجل يبارز؟ فجعل يؤنّبهم، ويقول أين جنّتكم التي تزعمون أن مَن قتِلَ منكم دَخَلَهَا؟ أفلا تبرزون إليَّ رجلاً؟.

فقام عليّ رضي الله عنه قال: أنا يا رسول الله.

فقال: إنه عمرو... اجلِسْ.

ثم نادى الثالثة..

فقام عليّ رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنا.

فقال: إنه عمرو.

فقال: وإن كان عمراً فأذن له رسول الله ﷺ. فمشى إليه وهو يقول: إني لأرجو أن أقيم عليك نائحة الجنائز. من ضربة نجلاء يبقى ذكرها عند الهزاهز.

فقال له عمرو: مَن أنت؟

قال: أنا عليّ.

قال: ابن عبد مناف.

قال: أنا عليّ بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي، مِن أعمامك مَن هو أسنُّ منك، فإني أكره أن أهريق دمك.

قال عليّ رضي الله عنه: ولكني والله، لا أكره أن أهريق دمك. فغضب، فنزل وسلّ سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ رضي الله عنه مغضَباً، واستقبله عليٌّ بحِربته، فضربه عمرو في بيضته فقدَّها، وأثبت فيها السيفَ، وأصاب رأسه فشجّه. وضربه عليّ رضي الله عنه على حَبْل عاتقه فسقط، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، ثم أقبل عليٌّ رضي عنه، نحو رسول الله ﷺ ووجهه يتهلّل: فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلاّ استلبت درعه؟ فإنه ليس للعرب درع خير منها.

قال: ضربته فأتقاني بسوءته، فاستحييت أن أسلبه.

* * *

إنها عمّة الرسول ﷺ:

عن عبَّاد قال: كانت صفيّة بنت عبد المطلب في حصن، قالت: فمرّ رجل من اليهود، فجعل يطوف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة المسلمين، وقطعت ما بينها وبين الرسول ﷺ من عهود، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنّا، ورسول الله ﷺ وأصحابه في نحور عدوّهم: لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا، إن أتانا آتٍ..

فلما رأت اليهودي يطوف بالحصن، قالت: إني والله، ما آمَنُهُ أن يدلّ على عورتنا مَن وراءنا من يهود، وقد شُغِلَ عنّا رسول الله ﷺ وأصحابه.

قالت: فأخذت عموداً ثم نزلت من الحصن إليه، فضربته بالعمود حتى قتلته، فلما فرغتْ منه، عادت إلى الحصن، ولم تأخذ من سَلَبه شيئاً، وقالت: لم يمنعني من سلَبه، إلا أنه رجل.

اللّهمّ أخــــبر عنّا نبيّك

يقول الإمام البخاري:

باب: هل يستأسِر الرجل؟ ومَن لم يستأسِر، ومَن ركَعَ ركعتين عند القتل: حدّثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري، قال أخبرني عمرو بن أبي سفيان بن أسيد بن جارية الثقفي، وهْو حليف لبني زُهرة، وكان من أصحاب أبي هريرة: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ عشرةَ رهط سَرِية عيناً[1]، وأمرّ عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصاري جدّ عاصم بن عمر، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهدأة ـ وهو بين عسفان ومكة ـ ذُكِرُوا لحيٍّ من هُذَيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريباً من مائتيْ رجل، كلهم رامٍ فاقتصّوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدْفَدٍ وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم: انـزلوا وأعْطُونا بأيديكم ولكم العهد والميثاق ولا نقتل منكم أحداً، قال عاصم بن ثابت أمير السرية: أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمّة كافر، اللّهمّ أخبر عنّا نبيّك فرموهم بالنبل فقتلوا عاصماً في سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق منهم خبيب الأنصاري، وابن دثنة، ورجل آخر، فلما استمكنوا منهم أطلقوا أوتار قِسيّهم فأوثقوهم فقال الرجل الثالث هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم، إن هؤلاء لأسوة يريد القتلى فجرّوه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه، فانطلقوا بخُبَيْبٍ وابن دثنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف. وكان

---

(١) يستطلعون أخبار العدو.

خبيب هو الذي قَتَلَ الحارث بن عامر يوم بدر، فلبث خبيب عندهم أسيراً. فأخبرني عبيد اللّه بن عياض أن بنت الحارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا استعار منها موسى يستحدّ بها فأعارته، فأخذ ابناً لي وأنا غافلة حين أتاه، قالت: فوجدته يجلِسُهُ على فخذه والموسى بيده، ففزِعْتُ فزعة عرفها خبيب في وجهي فقال: تخْشَين أن أقتله..؟ ما كنت لأفعل ذلك.. والله ما رأيت أسيراً قطّ خيراً من خُبَيب... والله لقد وجدتهُ يوماً يأكل من قِطف عنب في يده، وإنه لموثَق في الحديد، وما بمكة من ثمر، وكانت تقول: إنه لرزق من الله رزقه خُبيباً. فلما خرجوا من الحرم ليقتلوه في الحلّ، قال خبيب: ذَروني أركَعْ ركعتين فتركوه فركع ركعتين، ثم قال: لولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطوّلتها... اللّهمّ أحصهِمْ عدداً:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أيّ شقٍ كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإلٓه وإن يشأ يبارك على أوصال شاوٍ ممزّع

فقتله ابن الحارث، فكان خبيب هو الذي سَنَّ الركعتين لكل امرىء مسلم قتل صبراً، فاستجاب الله لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبرَ النبيّ ﷺ أصحابه خبرهم وما أصيبوا.

وبعث ناس من كفّار قريش إلى عاصمٍ ـ حين حدّثوا أنه قتل؛ ليؤتوا بشيء منه يعرف به، وكان قد قتل رجلاً من عظمائهم يوم بدر، فبعث على عاصم مثل الظلة من الدُبُر ـ النحل ـ فحمته من رسولهم، فلم يقدر على أن يقطَعَ من لحمه شيئاً.

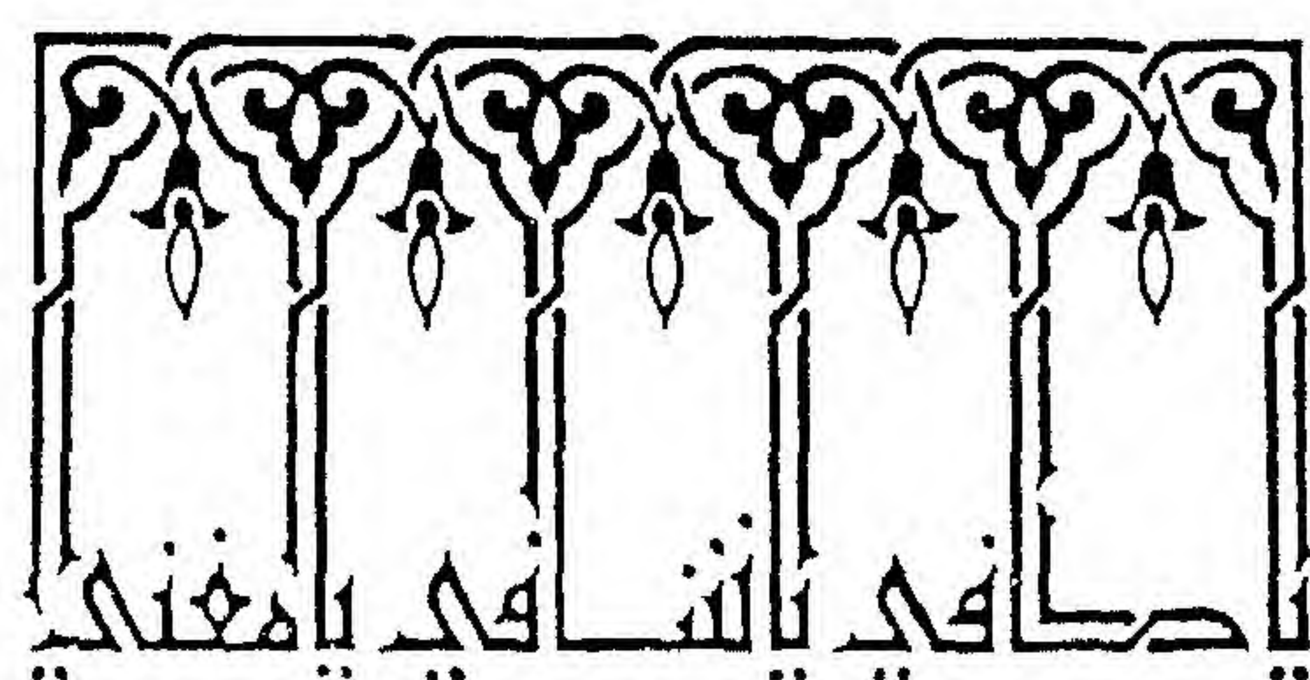
(خ جـ ٧ ص ٨٢، ٨٣)

﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ .

صدق الله العظيم

الفصل الثالث عشر

الخاتمـة


يا كافي يا شافي يا مغني

- ١ -

من توجيهات القرآن

(أ) يقول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(١).

وآيات القرآن كثيرة في هذا المعنى، تؤكد كلها: أن بعثة الرسول ﷺ، كانت نعمة عظمى من الله - سبحانه - على جميع المؤمنين، وأن هذا الفضل من الله سبحانه وتعالى، إنما هو منّة كريمة من لَدن رب كريم.

ذلك أن هذا الرسول ﷺ إنما هو لسان صدق، في تبليغ آيات الله، فهو يتلوها على المؤمنين.

إنه يتلوها عليهم بعد أن تلاها على نفسه ووعاها وتشربتها روحه، فانطبع بها وعاشها.

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

ومن أجل ذلك، كان هذا الرسول ﷺ مصدر تزكية لهم. إنه قد أصبح طابعه آيات الله، أصبح ـ من أجل ذلك ـ مصدر تزكية بالمثال والقدوة والتأسّي للمؤمنين.

لقد تزكّى بآيات الله، ولقد زكّته آيات الله، وإنه يتلوها ويحياها، فهو يبشّر بها: بقوله، أو بتلاوتها. ويبشّر بها بمسلكه، فهو بقوله يتلوها. وهو بمسلكه يرسمها.

ويعلّمهم الكتاب: إنه لا يتلو فحسب، وإنما يعلم أيضاً، إنه يشرح ويفسّر، ويطبّق ويقوم بتطبيق الآخرين إذا انحرفوا. وإنه يعلم القرآن.

وهو يعلّم القرآن بعد أن انطبع به، وبعد أن أصبح هو قرآناً.

لقد أصبح فكره قرآناً، وأصبحت عواطفه قرآناً، وأصبحت إرادته قرآناً. ولقد عبّرت عن ذلك السيدة عائشة، رضوان الله عليها، خير تعبير وأخصره، حينما سُئلت عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت رضوان الله عليها: «كان خُلُقه القرآن».

وما كان يتأتّى أن يكون غير ذلك. وكلمة السيدة عائشة رضوان الله عليها، إنما هي كلمة بدهية عهد كل متبصّر: فالقرآن، كان يظل مبادىء: يعتقد الناس أنها مجرد مبادىء نظرية، يستحيل تحقيقها في الخارج ـ لو لم تطبّق فعلاً، ولو لم تتحقّق واقعياً، وكان لا بدّ من أن تتحقّق بالفعل، وكان لا بدّ من صورة حيّة تتمثّل فيها هذه المبادىء: تتمثّل فيها ذاتياً، وتتمثّل فيها جهة تطبيقها على الغير، وقيادة الغير إلى الأخذ بها في صورة تقترب منها بقدر الاستطاعة.

ولو لم يكن الأمر كذلك: لظل الناس يؤمنون بأنها مجرد مبادىء.

(ب) بيد أن هذه الصورة الخالدة للأخلاق ـ كما يحبّ الله سبحانه

لبني الإنسان ـ قد تحقّقت بالفعل: حقّقها رسوله الكريم ﷺ، وحقّقها في ذاته، وحقّقها في مجتمعه: حقّقها سلوكاً، وحقّقها واقعياً ـ هو في نفسه ـ على أكمل ما يكون التحقيق، تطبيقاً في مجتمعه، على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع.

ونقول: على الصورة التي استطاعها هذا المجتمع؛ لأن لكل نظام من النظم، حدّاً أدنى؛ لا يتأتى أن يكون النظام بدونه، وحدّاً أسمى: يتسامى نحوه المخلصون.

ولقد تحقّقت الصورة الإسلامية ـ في حدّها الأسمى ـ في الرسول ﷺ وكان بذلك ـ بنص القرآن ـ أولَ المسلمين.

وترسم الآيات القرآنية:

كيف؛ ولِمَ كان الرسول ﷺ أولَ المسلمين؟ يقول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

لقد كانت أعماله وحياته كلها ـ بل ومماته ـ لقد كان كيانه كله ـ حركة وسكوناً، حياة وموتاً ـ لله رب العالمين، فكان بذلك أول المسلمين.

ولقد تحقّقت الصورة على تفاوت لا ينزل عن حدّها الأدنى، في آلاف من الصحابة رضوان الله عليهم.

لقد وُجِدَ المجتمع الإسلامي بالفعل:

ولقد انْتَفَت بذلك فكرة هؤلاء الذين رأوا في الماضي ـ أو يرون

---

(١) الأنعام: ١٦٣، ١٦٤.

في الحاضر ـ أن الإسلام مبادىء لا تطبق؛ مبادىء نظرية، مبادىء خيالية، يستحيل تطبيقها.

لقد تحقّق الإسلام بالفعل، فأصبح مجتمعاً أسلم نفسَه لله، وإن مجتمعاً يسلم نفسه لله؛ لا يتأتى أن تتمخض الإنسانية عن خير منه.

هذا المجتمع الذي وجد، إنما كان ثمرةً من ثمار جهاد الرسول ﷺ وكفاحه، في أن يخرج بالفعل، الصورة التي أوحاها الله إليه لقد كان أثراً لتلاوة الرسول ﷺ آيات الله، ولتزكية الرسول ﷺ لمَن حوله بمثله القرآني، ولتعليمه صلوات الله وسلامه عليه القرآن لمَن حوله.

وتشربت روح رسول الله ﷺ القرآن وامتلأت به، وصَفَت بصفائه، وتزكّت بزكاته، واستنارت بنوره، ففاضت بالحكمة أثراً من آثار الهداية التامة، ونتيجة للنور يغمر القلب، وللسناء يتلألأ في الفؤاد فكان الرسول ﷺ يعلّم الكتاب، ويعلّم الحكمة، وما الحكمة إلا أحاديث الرسول ﷺ: ينير بها قلوباً، ويرشد بها عقولاً، ويقرّب بها عباد الله إلى الله، وكما أن الكتاب من عند الله، فإن الحكمة أيضاً من عند الله، يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴾(١).

وما كان رسول الله ﷺ ينطق عن الهوى. إن هو إلّا وحي يوحَى. فآيات الله يتلوها، وكتاب الله يعلّمه، والحكمة التي أنزلها على قلبه، يعظ بها.

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

---

(١) النساء: ١١٣.

فذكر الله الكتاب وهو القرآن وذكر الحكمة. فسمعتُ من أرضى من أهلِ العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنّة رسول الله ﷺ وهذا يشبه ما قال. والله أعلم.

لأن القرآن ذكر أتبعته الحكمة. وذكر الله منّته على خلقه: بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز ـ والله أعلم ـ أن يقال الحكمة ها هنا إلا سنّة رسول الله.

وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتّم على الناس اتّباع أمره. فلا يجوز أن يقال لقول: فرض إلا لكتاب الله، ثم سنّة رسوله؛ لما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله مقروناً بالإيمان به.

وسنّة رسول الله، مبيّنة عن الله معنى ما أراد، دليلاً على خاصة وعامة، ثم قرن الحكمة بها بكتابه فأتبعها إياه ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله.

(جـ) هذه الصورة التي ترسمها الآية الكريمة التي صدرنا بها هذا المقال ـ هي الصورة التي تمنّاها سيّدنا إبراهيم ودعا الله سبحانه بها حينما كان يرفع القواعد من البيت وإسماعيل فقال عليه السلام:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(1).

ولقد صادفت دعوة سيّدنا إبراهيم ما قدّره الله أزلاً، لقد وافقت التقدير الإلّهي الأزلي الذي أراد سبحانه به أن يكمل الدين ويتمّ النعمة على المؤمنين، وأن يكون خاتم الأديان، هو الدين، الأزلي الخالد الذي

---

(1) البقرة: ١٢٩.

لا دين سواه، والذي يرضاه الله ولا يرضى غيره وهو الإسلام.

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾(١).

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(٢).

ولا يتأتى في عُرف المنطق وفي منطق الحق وفي بداهة العقول أن يكون الدين الخالد شيئاً آخر غير إسلام الوجه لله.

وما دام الرسول ﷺ أول المسلمين، وما دام الدين عند الله هو الإسلام، فالرسول إذن أول المتدينين على الإطلاق: إنه وصل إلى الدرجة التي سبق بها جميع مَن مضى، وسبق بها جميع أبناء عصره، وسبق بها مَن سيأتي بعده، إنه أول المسلمين في الماضي البعيد والماضي الذي يبتدىء منذ بدء الإنسانية.

وما من شك في أن آدم عليه السلام كان مسلماً ولكنه لم يكن أول المسلمين، ولقد كان نوح مسلماً ولكنه لم يكن أول المسلمين وهكذا. كان الأنبياء جميعاً صلوات الله وسلامه عليه، من المسلمين. ولكن لم يكن أحد منهم أول المسلمين وما كان يتأتى أن يكون أحدهم أول المسلمين، لأن الذين جاءوا به صلوات الله عليهم وسلامه ـ وإن كان إسلاماً ـ فإن الصورة الكاملة التامّة للإسلام إنما هي: القرآن.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾(٣).

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) جزء من آل عمران: ١٩.

(٣) المائدة: ٤٨.

يقول سبحانه: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾[1].

وهو أول المسلمين في الحاضر، وهو أولهم في المستقبل، إلى أن تتبدل الأرض والسموات، وإلى ما بعد ذلك من آيات الله السرمدية، صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله.

- ٢ -

يقول الله تعالى عن طابع الرسالة الإسلامية وعن طابع الرسول ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[2].

لقد كان إرسال الرسول ﷺ، رحمة، إذا نظرنا إلى الرسالة الإسلامية، وكان إرساله رحمة إذا نظرنا إلى شخصيته. يقول، صلوات الله وسلامه عليه: «إنما أنا رحمة مهداة».

لقد كان رحمة مهداة من حيث الرسالة، وكان رحمة مهداة من حيث الذات.

لقد كان ينتسب صلوات الله وسلامه عليه إلى الرحمن رسالة، وينتسب إلى الرحمن صفات، وكان ينتسب إلى الرحيم رسالة، وينتسب إلى الرحيم صفات، إنه رسالة وصفات، يسير في حياته باسم الله الرحمن الرحيم، مبشّراً «باسم الله الرحمن الرحيم»، إنه نبيّ الرحمة، وإنها رسالة الرحمة، والله سبحانه وتعالى قد ربَّى رسوله على عينه، واصطنعه لنفسه، فنشأه على الرحمة، فهو صلوات الله عليه وسلامه رحمة منذ ميلاده.

---

(١) الزمر: ٥٥.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

وإننا إذا أردنا تعبيراً مجملاً جامعاً لمعاني الرحمة التي اتّصف بها نبيّ الرحمة، فإننا نجده في وصف السيدة خديجة رضوان الله عليها للرسول ﷺ، حينما فاجأه الوحي وحدّثها به، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي».

فقالت رضي الله عنها، فوراً: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

إن هذا الوصف الصادق للرسول ﷺ إنما يعبّر في كل جملة من جمله عن الرحمة «وهو وصف اتّسم به الرسول ﷺ طيلة حياته» والآية القرآنية: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]. لا تخصيص فيها، لا من ناحية نوع الرحمة، ولا من ناحية موضوع الرحمة. ويشرح هذه الآية في شمولها وعمومها، يشرحها في دقّة وفي عمق موقف كريم من مواقف التوجيه النبوي: لقد كان الرسول ﷺ يتحدّث عن الرحمة ويدعو إليها ويعرف بمنزلتها من الدين. فقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: «إنّا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا».

فلم يرضِ هذا القول رسول الله ﷺ لأنه فهم قاصر محدود لما ينبغي أن يكون عامّاً شاملاً، إنه تقييد المطلق، ولذلك ردّ عليه الرسول ﷺ بقوله: «ما هذا أُريد، إنما أُريد الرحمة العامة». وما من شك في أن من الرحمة: رحمة الأزواج والأولاد والأهل، وقد حثّ على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

بيد أن ما أراده الرسول ﷺ إنما هو أن تتغلغل الرحمة في الكيان الإنساني كله، حتى تصبح وكأنها من فطرته وطبيعته وجبلته، فيكون

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

الإنسان وكأنه قبس من الرحمة الإلّهية ينثرها إذا سار، وينثرها إذا جلس، وينثرها أينما كان، وينثرها حيثما حلّ.

وإذا كان كذلك فإنه يكون قد حقّق الطابع العام للرسالة الإسلامية: رحمة للعالمين.

ولقد حقّق الرسول ﷺ، هذا الطابع بقوله؛ وحقّقه بفعله، ولقد كانت الرحمة ـ وهي طابع للرسالة الإسلامية ـ هي الطابع لتصرفاته وانظر إلى الحادثة التالية، الحادثة التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ﴾(١).

وهي: لما هزم الله المشركين يوم بدر وقتل منهم سبعون، وأسر سبعون، استشار النبيّ ﷺ أبا بكر وعمر وعليّاً، فقال أبو بكر: يا نبيّ الله هؤلاء بنو العمّ والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفّار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: «ما ترى يا ابن الخطاب»؟ قال: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكّنني من فلان (قريب لعمر) فأضرب عنقه، وتمكّن عليّاً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان أخيه (يعني العباس) فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنه ليس في قلوبنا هوادة «أي ميل» للمشركين.

أما رأي الرسول ﷺ فقد كان معروفاً يعرفه كل مَن عرف رسول الله وعرف طابعه وعرف له هذا بطابع الرسالة الإسلامية، أنه أخذ الفدية، ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه أمثل الناس في الاقتداء برسول الله ﷺ، فكان اتجاهه من اتجاه رسول الله ﷺ.

---

(١) الأنفال: ٦٧.

وهذا الاتجاه لرفيق الغار أيده الله سبحانه بل زاده عليه حيثما خيّر رسوله فيما بعد بأنه إذا وضعت الحرب أوزارها فله أن يمنّ وله أن يأخذ الفداء: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1].

وقبل بدر أخذ الرسول ﷺ الفداء، فقد فادى في سرية عبد اللّه بن جحش قبل بدر بنحو عام.

فلما كانت بدر سار رسول الله ﷺ على سنّته، وتصرّف مستلهماً طابع الرسالة التي أرسله الله بها، ولكن بعض الصحابة رضوان الله عليهم نظر إلى موضوع الفداء نظرة مادية وأخذ في تقديره وزناً وكيلاً وقيمةً ومقداراً وكمّاً وكيفاً. وأخذ في تكييف الفدية بحسب الغنى والفقر، إن بعض الصحابة نظر إلى المسألة نظرة مادية، فنزل قول الله سبحانه وتعالى، مصحّحاً الوضع لهؤلاء الذين لم يضعوا الأمور في وضعها الصحيح ولم يزنوها بميزان التوجيه الإلّهي.

يقول الخطيب القسطلاني في كتابه «المواهب اللدنية» في ذلك: «فيه بيان ما خصّ به وفضل من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فكأنه قال: ما كان لنبيّ غيرك»اهـ.

ويقول القاضي بكر بن العلاء: «أخبر الله تعالى نبيّه في هذه الآية أن تأويله وافق ما كتب له من إحلال الغنائم والفداء»اهـ.

والتوجيه الألّهي في خاتمة رسالات السماء أنها رسالة، ولرسالة الرحمة ميزان وخصوصيات تفيض عن الرحمة نفسها، وما كان لنبيّ من قبل نبيّ الرحمة أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض. فلما كانت رسالة الرحمة ولما كان نبيّ الرحمة أباح الله له التصرّف بحسب الرحمة

---

(١) محمد: ٤.

وهو الفداء، ثم زاده تكريماً على تكريم حيث زاده رحمة على رحمة، فجعل له الخيار بين المنّ والفداء.

وإن كل نظرة تفيض عن هذه النظرة وتصدر عنها لا ترى ولا تحسّ ولا نشعر بالجانب المادي؛ ولكنكم يا هؤلاء الذين نظرتم النظرة المادية تريدون عرَضَ الدنيا وتتخذونه مقياساً، إنه ليس بمقياس، إن المادة ليست في موازين الله مقياساً، فإن الله يريد الآخرة، ويريد للذين آمنوا به وبرسوله أن تكون مقاييسهم مستمدة من كتاب الله ومن توجيهات رسوله ﷺ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[1] وإنه لَمن أفضال الله على رسوله أنه سبحانه لم يقل: ﴿أسوة﴾ وحسب وإنما قال: ﴿أسوة حسنة﴾، وقال سبحانه: ﴿ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾[2].

ثم إن الله سبحانه لم يأمر المسلمين بردّ الفدية، وما كان أيسر ذلك ولم ينقض الله سبحانه ما أبرمه رسوله المبرأ عن أن يسير إلا على بصيرة، والمنزّه عن أن يهدي إلا إلى الصراط المستقيم صراط الله.

هذه الفطرة الرحيمة حملت الرسول ﷺ على أن يكافح طيلة حياته في غير فتور ولا هوادة لهداية الإنسانية وإسعادها. لقد كان ﷺ يشقّ على نفسه في سبيل ذلك ويحمّلها من الأمور ما لا تطيق، حتى لقد قال الله له: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾[3].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[4].

---

(١) الأحزاب: ٢١.
(٢) الأحزاب: ٢١.
(٣) فاطر: ٨.
(٤) الكهف: ٦.

ولقد رسم الرسول صلوات الله وسلامه عليه موقفه من الناس ومثله بموقف رجل يحاول ما استطاع أن يمنع الناس عن التردّي في نار يتهافتون على الاحتراق فيها، ولعلّ الحادثة التالية تصوّر بعض جوانب التربية الرحيمة التي يستعملها الرسول ﷺ في سلوكه مع الناس وهي إن كانت خاصة برجل معين فإنها ليست بمقصورة عليه بل لها صفة العموم.

جاءه أعرابي يوماً يطلب منه شيئاً فأعطاه ﷺ، ثم قال له مستفسراً متودّداً: «أحسنت إليك». فقال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب المسلمون وقاموا إليه، فأشار إليهم الرسول ﷺ أن كفّوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إلى الأعرابي وزاده، ثم قال: «أحسنت إليك».

فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً، فقال النبيّ ﷺ: «إنك قلت ما قلت وفي نفس أصحابي شيء من ذلك. فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك».

وتحدّث الأعرابي إليهم وطابت أنفس أصحاب رسول الله ﷺ بقول الأعرابي، فقال صلوات الله وسلامه عليه هذا التعقيب الرائع:

«وإن مثلي ومثل هذا الأعرابي: كمثل رجل كانت له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فناداهم صاحب الناقة: أن خلّوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها وأعلم، فتوجّه إليها صاحب الناقة بين يديها فأخذ لها من قمام الأرض فردّها هوناً هوناً حتى جاءت واستناخت وشدّ عليها رحلها واستوى عليها.

وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار»اهـ.

لقد كانت نفس رسول الله ﷺ، رحيمة حتى مع الأعداء.

لقد قيل له يوم أُحُد وهو في أشد المواقف حرجاً لو لعنتهم يا رسول فقال، صلوات الله وسلامه عليه: «إنما بُعثت رحمة ولم أُبعث لعّاناً».

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له بالهداية والصلاح، وكان يريد باستمرار أن يشعر المسلمون بل الناس على وجه العموم بالتعاطف فيما بينهم. سُئِل مرة: أيّ الناس أحبّ إليك؟ فقال: «أنفع الناس للناس». وسُئل: أيّ الأعمال أفضل؟ فقال: «إدخال السرور على المؤمن»، وقال: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله».

وكانت رحمته، صلوات الله وسلامه عليه عامة شاملة، حتى لقد تناولت الحيوان الأعجم، لقد قال ـ يحثّ على الشفقة بالحيوان ـ «بينما رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئراً فشرب منها. ثم خرج منها فإذا هو بكلب يلهث الثرى (يأكل الثرى من شدة العطش) فقال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي فملأ خفّه، ثم أمسكه بفيه ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له» قالوا يا رسول الله: وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «نعم لكم في كل ذات كبد رطبة أجر».

وقال ﷺ: «دخلت النار امرأة في هرّة حبستها فلا هي أطعمتها وسقتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض».

لقد كان ﷺ رحمة، وكان رحمة للعالمين.

- ٣ -

يقول تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾.

إن الإنسان الذي خصّه الله بالوحي، واجتباه لرسالته، واصطفاه ليكون ـ باسمه سبحانه ـ بشيراً ونذيراً، إن هذا الإنسان الذي فضّله الله على العالمين: يجب أن نعرف له مكانته وننزله في الشرف الذي أنزله الله فيه.

إن هذا السراج المنير، إن هذا الرءوف الرحيم: ينبغي ألاّ يُدعى كما يدعى زيد وعمر: بمعنى؛ لا تنادوه باسمه: فتقولوا: يا محمد، ولا بكنيته فتقولوا: يا أبا القاسم، بل نادوه وخاطبوه بالتعظيم والتكريم والتوقير، بأن تقولوا: يا رسول الله، يا نبيّ الله، يا إمام المرسلين، يا رسول رب العالمين، يا خاتم النبيّين، وغير ذلك.

واستفيد من هذه الآية ـ كما يقول الشيخ الصاوي في حاشيته على تفسير الجلالين ـ من أنه لا يجوز نداء النبيّ بغير ما يفيد التعظيم، لا في حياته، ولا بعد وفاته.

فبهذا يعلم أن مَن استخفّ بجنابه ـ ﷺ ـ «فهو كافر ملعون في الدنيا والآخرة»اهـ.

ويقول الله سبحانه في أوائل سورة الحجرات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾(١) أي لا تتقدموا بأمر من الأمور، قولاً كان أو فعلاً، إلا إذا أذن الله ورسوله، وكل أمر ـ قولاً كان أو فعلاً ـ أتاه الإنسان بدون إذن الله ورسوله فإنه لا يقع على السنن المستقيم.

يقول الضحاك: هو عام من القتال وشرائع الدين، أي لا تقطعوا أمراً دون الله ورسوله. واتقوا الله إن الله سميع عليم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾(٢)، فإنكم إذا فعلتم ذلك يخْشَى عليكم أن

(١) الحجرات: ١. (٢) الحجرات: ٢.

تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾[1].

أما هؤلاء الذين أساءوا الأدب فأخذوا ينادونك من وراء الحجرات مناداة الأغراب الأجلاف في غلظة وفي جفاء فإنهم ناقصو العقول. ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2].

على أن مجرد الرغبة في الحديث إلى رسول الله ﷺ، يحتاج تنفيذها إلى تقديم صدقة.

يقول تعالى في سورة المجادلة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

وتدلّ الآية الكريمة على أن ترك تقديم الصدقة إثم، لأن مَن لم يجد الصدقة، فإن موقف الله سبحانه منه ـ لعدم قدرته ـ المغفرة والرحمة ولا تكون المغفرة والرحمة إلا على إثم أتاه الإنسان، وكان عدم توفّر الاستطاعة سبباً في مغفرة الله سبحانه: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾[4] وحملكم خوف الفقر على ألّا تفعلوا ثم ندمتم واستغفرتم فتداركوه حتى يتوب الله عليكم، وأثبتوا حُسن نيّتكم، وصفاء سريرتكم: بأن تقيموا الصلاة على الوجه الأكمل، وتؤتوا الزكاة طيبة بها نفوسكم، وتطيعوا الله ورسوله في الصغير والكبير. وما من ريب في أن الله سبحانه، خبير بكل ما تعملون. يقول تعالى: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ

---

(١) الحجرات: ٣.
(٢) الحجرات: ٤ ـ ٥.
(٣) المجادلة: ١٢.
(٤) المجادلة: ٣.

فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(١).

ويقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾(٢).

- ٤ -

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣).

ليست هذه الآيات الكريمة إلا أُنموذجاً لآيات كثيرة، ذكرت في القرآن الكريم لتبيِّن قدر رسول الله ﷺ.

وإذا أردنا أن نتحدث في لمحات خاطفة، عن قطرات من بحر فضائل رسول الله ﷺ، فإننا نقول في إجمال مجمل وفي شمول شامل: إنّ جماع الفضائل فيه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنه كان ربّانياً: لقد أسلم وجهه لله تعالى إسلاماً كليّاً يتمثل في الآية الكريمة التي يأمر الله

---

(١) المجادلة: ١٣.
(٢) الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧.
(٣) الحجرات: ١ ـ ٥.

رسوله فيها قائلاً: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١). لقد خلصت حياة رسول الله ﷺ، لله فكان كل ما يأتيه إنما هو لله، وكل ما يدعه إنما هو لله: لقد كان إلّهياً بمعنى أنه فني في الله فناءً كاملاً. فكانت إرادته من إرادته سبحانه وكان حبّه من حبّه سبحانه، وكان بغضه من بغضه سبحانه، فما أراد إلّا الله، وما أحبّ إلّا الله، وما أبغض إلا الله ـ كما ذكرنا فيما سبق.

وكان مظهر الإسلام الكلّي لله سبحانه، أن كانت حياته كلها جهاداً في سبيله.

والفناء في الله ليس سلبيةً، لا ولا قلامة ظفر: إن الفناء في الله جهاد كله. وقد جاهد رسول الله ﷺ في سبيل الله بكل خلية في جسمه وبكل فكرة في نفسه.

لقد جاهد أخلاقياً مبتدئاً بنفسه، ووصل في ذلك إلى أن لم يكن للشيطان إليه من سبيل. وإلى أن كان صفاءً صافياً. عبّر الله عنه في أكثر من آية من آيات القرآن الكريم بالنور.

لقد وصل رسول الله ﷺ، في الصفاء إلى درجة استأهل أن سمّاه الله نوراً، وسمّاه سراجاً منيراً.

لقد وصل من شفافية النفس وصفاء السريرة وطهارة الروح إلى درجة من القرب عبّر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله: ﴿ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾(٢).

لقد تخطى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ درجة سدرة المنتهى.

لقد تجاوز سدرة المنتهى، أي الحدود الأخيرة التي بين عالم

(١) الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣.

(٢) النجم: ٩.

الكون والملأ الأعلى: بين عالم الدنيا وعالم الآخرة.

لقد تجاوز عالم الدنيا قبل انتهائه من عالم الدنيا. وارتفع عن عالم البشر الذي تحدّه سدرة المنتهى، إلى عالم النور الذي يعبّر عنه بقاب قوسين أو أدنى.

لقد انغمس في عالم النور الذي لم ينغمس فيه مَلَك مقرّب ولا نبيّ مرسل:

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماءً ما طاولتها سماء!

ولقد جاهد اجتماعياً: آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. فأوجد مجتمعاً باع نفسه في سبيل الله، مجتمعاً متآخياً، مجتمعاً سادت فيه الفضيلة وكانت فيه كلمة الله هي العليا.

ولقد جاهد حربياً، كما يقول البطل الكبير الإمام عليّ: كنّا إذا حميَ الوطيس، نتّقي برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب للأعداء منه..

لقد ثبت في موقعة أُحُد: لم يتزحزح عن موضعه. وفي موقعة حُنين: أخذ يتقدم حين تراجع الأبطال... وهو القائل: والذي نفس محمد بيده لوددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل!!

صلوات الله وسلامه عليك يا سيدي يا رسول الله كلما أشرق النور.

وصلوات الله وسلامه عليك وعلى أتباعك الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر اهـ..

وصلوات الله وسلامه عليك وعلى أتباعك الذين استشهدوا في سبيل الله.

- ٥ -

يقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

وفي معنى الآية الكريمة: يروي الإمام البخاري رضي الله عنه، عن عبد اللَّه بن هشام قال: كنّا مع رسول الله ﷺ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال: والله يا رسول الله لأنت أحبّ إليّ من كل شيء إلا من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه». فقال عمر: فأنت الآن والله أحبّ إليَّ من نفسي. فقال رسول الله ﷺ: «الآن يا عمر».

وقول رسول الله ﷺ «الآن يا عمر» أي: الآن ـ وقد صار الرسول ﷺ، أحبّ إليك من نفسك ـ فقد استقامت أمورُ الإيمان عندك، وصرتَ إلى ما أحبَّ الله ورسوله.

ومحبة رسول الله ﷺ، تتضمن ـ كشرط أساسي جوهري ـ اتخاذَه ﷺ، قُدْوَةً في السلوك والعمل.

والدرجة الجوهرية في القدوة به ﷺ، إنما هي متابعته في إسلام وجهه لله سبحانه. لقد باع رسول الله ﷺ، نفسه وماله لله سبحانه. وكان أول البائعين، وكان أمثل البائعين، وحقق بذلك ـ وحقّق أصحابه ومَن اتّبع هديه متأسّين به ـ قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(١) التوبة: ٢٤.

أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾[1].

لقد اشترى الله في عقد الإيمان والنفس والمال، بثمن هو الجنة، فإذا بخل المؤمن بنفسه في سبيل الله فقد أخلّ بعقد الإيمان، وإذا بخل بماله في سبيل الله فقد أخلّ بعقد الإيمان.

وحبّ رسول الله ﷺ إذن إنما هو إيثار ما يحب واتّباع هديه والعمل بسنّته في الإيجاب والسلب وإيثار كل ذلك على الآباء والأبناء وغيرهم مما يحبّه الإنسان من أشخاص أو من أشياء، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ، فيما رواه البخاري رضي الله عنه:

«والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليّ من والده وولده والناس أجمعين».

فحبّ رسول الله ﷺ، مرجعه إلى صفات كريمة سامية عليا، تمثّلت فيه ﷺ، طيلة حياته، والآية الكريمة والأحاديث الشريفة التي رويناها تدلّ كلها دلالة صريحة على أنه إذا تعارضت أمور الدين مع المصلحة الشخصية، أو مع أمور الدنيا، فإنه على المؤمن أن يؤثر أمور الدين على غيرها، يقول الإمام الرازي: إذا وقع التعارض بين مصلحة واحدة من مصالح الدين، وبين جميع مهمات الدنيا وجب على المسلم ترجيح الدين على الدنيا.

أما بعد: فيقول صاحب الكشاف عن الآية التي صدرنا بها هذا

---

(١) التوبة: ١١١.

الحديث ما معناه: وهذه آية شديدة لا ترى أشدّ منها، كأنها تنعي على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين فلينصف أورع الناس وأتقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلّب في ذات الله، والثبات على دين الله ما يجعله يؤثر دينه على الآباء والأبناء والأخوات والعشائر والمال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرّد منها لأجله؟ أم أن الشيطان يغويه عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع علي أنفه ذُباب فطيَّره. ثم أما بعد: فإن الحب الصادق له ﷺ، يتمثل، في حقيقته، في التزام صفاته، ﷺ، والعمل على سيادتها في المجتمع.

- ٦ -

يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾(١).

هذا هو البيان الإلّهي في ما يتعلق بصلة المؤمنين برسول الله ﷺ: أنه أحقّ بهم من أنفسهم: سواء وُجدوا في زمنه أم وُجدوا بعد زمنه.

فمن واجبهم المفروض عليهم: أن يُفدوه - في شخصه، وفي تعاليمه سواء أكانت أقوالاً أم أحوالاً أثرت عنه، أم أفعالاً بيّن بها الدين - بأنفسهم، وبكل ما يملكون. وطاعته مقدمةٌ على طاعة أنفسهم، في كل أمر من أمور الدين والدنيا.

هذا هو الإعلان الإلّهي، والبيان الرباني: يتبعُه مَن أضاء الله قلبه بنور الإيمان، وينحرف عنه مَن ليس له في الهداية نصيب.

ولقد بيّن الله هذا المعنى في القرآن، في غير موضع، فلقد جعل

(١) الأحزاب: ٦.

سبحانه طاعة الرسول من طاعته: فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾(١).

ولقد نفى سبحانه، الإيمانَ عمّن لا يُسلم إلى الرسول تسليماً لا حرج فيه ولا تردّد، في كل ما يهجس بنفسه من أمر، وفي كل ما يثور بينه وبين غيره من خلاف.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾(٢).

والتحكيم إذا كان للرسول ﷺ في حال حياته، فإنه لسنّته وتعاليمه، بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى..

ولقد حفِظت هذه السنّة وهذه التعاليم، بصورة لا ريب فيها، حتى إنه ليمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ، لم يمت، وإنما هو بين أظهرنا: يعطر أريجه الزكيّ الأرجاء.

إنه ﷺ، حيّ في أقواله وأفعاله وأحواله: يقود مَن اتّبع هديه والتزم سنّته، إلى فراديس الخلود.

والله سبحانه وتعالى، يذهب في هذه الأولوية إلى أبعد الحدود، فيعلن أنه ﷺ، أحقّ بهم من أنفسهم، ومن كل ما يمتّ إليهم بصلة حتى في الحب.

والذي يعلن ذلك ويسجله، هو الله سبحانه وتعالى: الذي قرنه بنفسه في هذه الأولوية فقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ

---

(١) النساء: ٨٠.

(٢) النساء: ٦٥.

تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ ﴾(1).

- ٧ -

ورسول الله ﷺ، هو القدوة الحسنة، إنه الأسوة الحسنة في أقواله؛ وأفعاله؛ وأحواله:

يقول الله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾(2).

ويقول الشيخ الصاوي في شرحه على تفسير الجلالين: الاقتداء برسول الله ﷺ واجب في الأقوال والأفعال والأحوال؛ لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوىً، بل جميع أفعاله، وأقواله، وأحواله عن ربه، ولذا قال العارف:

وخصّك بالهدى في كل أمر فلست تشاء إلا ما يشاء اهـ

والله سبحانه وتعالى يقول في سورة النجم، مؤكداً ما يقول، بل ومقسماً عليه: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾(3).

وإذا كان الاقتداء برسول الله ﷺ، واجباً، فإن له شروطاً لا يتأتى الاقتداء الصحيح إلا بتحقيقها. وقد ذكرت الآية الكريمة هذه الشروط.

والشروط الأولى منها: أن يرجو الإنسان الله سبحانه وتعالى،

---

(1) التوبة: ٢٤.
(2) الأحزاب: ٢١.
(3) النجم: ١ - ٤.

ورجاء الله تعالى قد حدّده الله سبحانه في القرآن الكريم بقوله: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[1].

إن العمل الصالح: وعدم الشرك في العبادة، أمران لازمان لِمَن كان يرجو لقاء الله بصدق...

ويقول الإمام ابن كثير في ذلك: وهذان ركنا العمل المتقبل: لا بدّ أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله ﷺ.

وعن طاوس قال: قال رجل: يا رسول الله، إني أقف المواقف أُريد وجه الله، وأحبّ أن يرى موطني، فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾[2] ورجاء اليوم الآخر، هو الشرط الثاني ـ للتأسّي برسول الله ﷺ ـ إنما يتمثل في العمل لهذا اليوم، حتى يلقى الله فيه وهو عنه راضٍ.

ويصف الله سبحانه، الذين لا يرجون لقاءه، ولا يرجون اليوم الآخر، فيقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾[3].

وبعد، فإن الشرط الأخير في الوصول إلى التأسّي برسول الله ﷺ إنما هو: الذكر الكثير.. ولقد سأل رسول الله ﷺ قائلاً: إن شرائع الإسلام كثرت عليَّ، فأخبرني بشيء أتشبث به: فقال (ﷺ): «لا يزَلْ فوك رطباً من ذكر الله.

---

(١) (٢) الكهف: ١١٠.

(٣) يونس: ٧ ـ ٨.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[1].

- ٨ -

في مقام الرسول (ﷺ) في الآخرة: ثبت في الصحيح: أن رسول (ﷺ) قال: «أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر».

وعن رسول الله (ﷺ) فيما رواه البخاري ومسلم رضي الله عنهما - قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة. هل تدرون مِمَ ذاك؟! يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي، وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الغمّ والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلامَ بلغكم؟! ألا تنظرون مَن يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول بعض الناس لبعض: أبوكم آدم، فيأتونه فيقولون يا آدم: أنت أبو البشر: خلقك الله بيده؛ ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟! ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربي غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيت، نفسي. نفسي. نفسي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى نوح. فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض. وقد سمّاك الله عبداً شكوراً. ألا ترى ما نحن فيه؟! ألا ترى ما بلغنا؟!.

ألا تشفع لنا إلى ربك؟ فيقول: إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوت بها على قومي. نفسي. نفسي. نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبيّ الله وخليله من أهل

---

(١) الجمعة: ١٠.

الأرض، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني كذبت ثلاث كذبات نفسي. نفسي. نفسي، اذهبوا إلى غيري. اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضّلك الله برسالاته وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفساً لم أُؤمر بقتلها؛ نفسي. نفسي. نفسي؛ اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وكلّمت الناس في المهد، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربّي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر ذنباً؛ نفسي. نفسي. نفسي؛ اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ﷺ. وفي رواية: (فيأتوني، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك. ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلق فآتي تحت العرش؟ فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبل. ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك سَلْ تُعْطَ واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب، أمتي يا رب، فيقال: يا محمد أدخِلْ من أمتك مَن لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة: كما بين مكة وهجر. أو كما بين مكة وبصرى».

وبعد فإنّا نختتم هذا الكتاب بالآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا
يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ
ٱلْعَظِيمِ ﴾[1].

*** (تـمّ بحمد الله تعالى) ***

(١) الجمعة: ٢، ٣، ٤.

فهرس

The Complete Works of Dr.
ABD AL HALĪM MAHMOUD

DALAĪL AL NŪBOWĀT

Volume 13

DAR AL KITAB AL MASRI
CAIRO
DAR AL KITAB AL LUBNANI
BEIRUT